أهل النار

صِفَةُ النَّار، أحوالُ أهل النَّار
كبائرُ الذّنوب، المبشّرونَ بالنَّار

خادم السُّنَّة
يوسف الحاج أحمد

مكتبة ابن حجر

سلسلة الدعوة والإرشاد

هل فكرت في أن تهدي كتاباً
فاعلم أن العلم مما يلحق العبد بعد موته
ولئن يهدي الله بك أحداً خير لك من الدنيا وما فيها

٩

أهل النار

مكتبة ابن حجر
طباعة . نشر .
دمشق ـ الحلبوني ـ هاتف :
(٢٢٣٣٦٩١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الطَّبعةُ الأُولىٰ

١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م

رقم الموافقة : /٤/٧٩٧٥٤/ ٢٠٠٥م.

الموضوع : في المسائل الاجتماعية.

العنوان : أهل النَّار.

التأليف : خادم السنَّة المطهرة يوسف الحاج أحمد.

الصف التصويري : ابن حجر للطبـاعة والنشـر والتوزيع

هاتف وفاكس : ٢٢٣٣٦٩١.

عدد الصفحات : ٣٠٠ صفحة

قياس الصفحة : ١٧× ٢٥.

عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة.

توزيع: مكتبة ابن حجر بدمشق.

الحلبوني، بجانب المؤسسة العسكرية.

هاتف، وفاكس: ٢٢٣٣٦٩١

أهل النار

طباعة نشر توزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةٌ

إنَّ الحمد لله تعالىٰ نحمدُهُ، ونستعينُهُ ونستغفِرُهُ، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنَا ومن سيِّئات أعمَالِنَا، من يهدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ ومن يُضلل فلا هَادي لَهُ، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبده ورسوله، أرسلَهُ بالهُدَى ودين الحق ليظهرَه علىٰ الدِّين كلِّه ولو كرهَ الكافرونَ، وبعدُ:

اعلم ـ وفَّقني اللهُ تعالىٰ وإيَّاك لما يحبُّ ويرضىٰ ـ أنَّ النارَ لا طاقةَ لمخلوق فيها، وهي عذابُ اللهِ تعالىٰ يعذِّبُ فيها من يشاءُ من عبادِهِ، وينجي اللهُ تعالىٰ من شاءَ منها ـ جعلني اللهُ وإيَّاك والمؤمنين والمؤمنات من النَّاجينَ منها بفضلِهِ تعالىٰ ـ.

وفي الحديث الصحيح، عن النبيِّ ﷺ قال: «تَحَاجَّتِ الجَنَّة وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الجَنَّةُ: فَمَا لِي لا يَدْخُلُنِي إلاَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَعجزهُمْ؟! قَالَ اللهُ لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، فَأَما النَّارُ فَلا تَمْتَلِئُ حَتَّىٰ يَضَعَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ رِجْلَهُ، تَقُولُ: قَطْ قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ، وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلىٰ بَعْضٍ، وَلا يَظْلِمُ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَداً، وَأَمَا الجَنَّة فَإِنَّ اللهَ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقاً». [رواه مسلم وهذا لفظه وروى نحوه البخاري وأحمد والبيهقي].

واعلم أنَّ الجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبداً ولا تبيدان، وإن الله تعالىٰ خلق الجنة والنَّار قبل الخلقِ، وخلقَ لهما أهلاً، فمن شاءَ منهم إلىٰ الجنة فضلاً منه، ومن شاء منهم إلىٰ النار عدلاً منه، وكلٌّ يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلىٰ ما خلق له.

عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «لَمَّا خَلَقَ الله الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ إِلَىٰ الْجَنَّةِ، فَقَالَ: انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَىٰ مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيها. قَالَ: فَجَاءَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَىٰ مَا أَعَدَّ اللّه لأَهْلِهَا

فِيهَا. قَالَ: فَرَجَعَ إِلَيْهِ فقَالَ: وَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا، فَأُمِرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَىٰ مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَرَجَعَ إِلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خِفْتُ أَنْ لاَ يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، وَقَالَ: اذْهَبْ إِلَىٰ النَّارِ فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَىٰ مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا، فَأُمِرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لاَ يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا». [رواه أبو داود والنسائي والترمذي واللفظ له وقال: حديث حسن صحيح].

هذا وقد أكرمني اللهُ تعالىٰ فجمعتُ كتاباً قبل هذا أسميته «أهل الجنة» ذكرتُ فيه المبشرين بالجنة، فأشارَ عليَّ بعضُ الإخوة ـ جزاهم اللهُ تعالىٰ خيراً ـ أن أجمعَ كتاباً نقيضاً لهُ ـ أي من بشَّره القرآنُ والنبيُّ ﷺ بالنَّار ـ لأنَّ فيه من العظةِ الشيءَ الكثير، والمسلم يبقىٰ دائماً بين الترغيب والترهيب، كما يبقىٰ بين الخوف والرجاء.. فٱستخرتُ اللهَ تعالىٰ وعقدتُ العزم، وها أنا ذا أسألهُ تعالىٰ أن يرزقني الإخلاص، في هذا العملِ وفي غيره، وأن يكونَ مقبولاً لديه، ويُثيبني عليه يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنون إلاَّ من أتىٰ اللهَ بقلب سليم، وأن ينجِّني ووالديَّ وأهلي وذرِّيتي برحمتهِ الواسعةِ مِنَ النَّار..

وممَّا ينبغي أن نعلمهُ جميعاً أنَّه لا يجوز لأحدٍ أن يقطعَ لأحدٍ بدخولِ النارِ إلاَّ من ثبتَ ذلكَ في حقِّهِ من نصٍّ صحيحٍ صريح، في كتاب اللهِ وسنَّةِ نبيِّه ﷺ.

ثمَّ إنّني لم أنسَ أن أقدِّمَ بين يدي الكتاب مقدمات هامَّة، لا يستغني عنها موضوع هذا الكتاب، كوصف للنارِ، ووصف لأهلها الذين يدخلونها ـ أعاذنا اللهُ برحمته وإيَّاكَ منها ـ والأعمال التي يدخلُ أكثرُ الناس بسببها النار، إلىٰ غير ما هنالك من مواضيع، فتح اللهُ بها علينا، وله الحمدُ والمنَّة.. وصلَّىٰ اللهُ وسلَّم علىٰ الرَّحمةِ المهداة محمد بن عبد الله ﷺ. وآخر دعوانا أن الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

دمشق الشام/ الأحد ٢٠ شوال/ ١٤٢٦ هـ

خادم السُّنَّة
يوسف الحاج أحمد

الفصل الأول

ذكر النار في القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ [النساء: ١٤٥].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۝ قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٧ ـ ١٠٨].

وقال تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾ [الأحزاب: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ [الزمر: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر: ٤١].

وقال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ ۝ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَٱدْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلال﴾ [غافر: ٤٩ ـ ٥٠].

وقال تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ٢٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِن نَاصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَىٰ النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَىٰ النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤].

وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨].

وقال تعالىٰ: ﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٥].

وقال تعالىٰ: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المجادلة: ١٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ١٠].

مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتي

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمّتي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَاراً، فَجَعَلَتِ الدَّوَابُّ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ، فَأَنا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ وَأَنْتُمْ تَقَحّمُونَ فِيه».

وفي رواية: «مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَاراً، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَقَحّمْنَ فِيهَا، قَالَ: فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي تَقَحَّمُونَ فِيهَا» [رواهما مسلم].

قال العلماءُ: الحجزة للسراويل، والمعقد للإزار، فإذا أراد الرجلُ إمساكَ مَن يخافُ سقوطه أخذَ بذلكَ الموضع منه.. وهذا مثلٌ لاجتهادِ نَبيِّنا عليهِ الصَّلاة والسَّلام في نجاتِنَا، وحرصه علىٰ تخلّصنا من الهلكاتِ الّتي بين أيدينا، فهُو أولىٰ بنا مِن أنفُسِنا، ولجهلنَا بقدر ذلكَ وغلبةِ شهواتنا علينَا وظَفر عَدُوّنا اللعين بِنَا صِرْنَا أحقَر مِنَ الفراشِ وأذلّ من الخِراف، ولا حولَ ولا قوّةَ إلاّ باللهِ العلي العظيم!

وقال النوويُّ ـ رحمه اللهُ تعالىٰ ـ: شَبَّه رسولُ اللهِ ﷺ تَساقُطَ الجاهلينَ والمخالفينَ بمعاصيهم وشهواتهم في نارِ الآخرة وحرصهم علىٰ الوقوع في ذلك مَع منعه إيَّاهم، وقبضه علىٰ مواضع المنع منهم، بتساقط الفراش في نارِ الدُّنيا لهواه وضَعف تمييزه، وكلاهما حريصٌ علىٰ هلاكِ نفسِهِ ساع في ذلك لجهله. أعاذنا اللهُ تعالىٰ من ذلكَ.

الفصل الثاني

صفة النار

(أعاذنا اللهُ منها)

◉ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُؤْتَىٰ بِالنَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا». [رواه مسلم].

النَّارُ تبصرُ وتتكلَّم

قال تعالىٰ: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ [الفرقان: ١٢].

◉ وعَن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَخْرُجُ عُنُقٌ مِن النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا، وَأُذُنَانِ يَسْمَعُ بِهِمَا، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ، فَيَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَن ادَّعَىٰ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وَالْمُصَوِّرِينَ».

[صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والبيهقي].

دركاتُ النَّار وطبقاتُها

اعلم أنَّ النَّارَ دركاتٌ سبعةٌ، أي طبقاتٌ ومنازل، إلاَّ أنَّ استعمالَ العربِ لكلِّ ما تَسَافل أدراك. يُقالُ: للبئر أدراك، ولِمَا تَعَالىٰ دَرجٌ، فللجنَّةِ درجٌ، وللنَّارِ أدراكٌ.

وأعلىٰ الدركات (جهنم) ثم (لظىٰ) ثم (الحطمة) ثم (السعير) ثم (سقر) ثم (الجحيم) ثم (الهاوية) وقد يُسَمَّىٰ جميعُها باسم الطبقة الأولىٰ، أعاذنا الله من عذابها بمنه وكرمه. [تفسير القرطبي].

شِدَّةُ حَرِّها

◉ عَن أبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «نَارُكُمْ هذِهِ مَا يُوقِـدُ بَنُو آدَمَ جُزْءٌ وَاحِدٌ مِن سَبْعِينَ جُزْءاً مِن نَارِ جَهَنَّمَ» قَالُوا: وَاللهِ إنْ كَانَتْ لَكَافِيَـةً! قَـالَ: «إنَّـهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءاً كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا». [رواه مالك والبخاري ومسلم].

◉ ورواه أحمد، وابن حبان في صحيحـه، والبيـهقي فـزادوا فيـه: «وَضُرِبَـتْ بِالْبَحْرِ مَرَّتَيْنِ، وَلَوْلا ذلِكَ مَا جعلَ اللهُ فِيهَا مَنْفَعَةً لأَحَدٍ». [صحيح].

◉ وَفِي رواية للبيهقي: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «تَحْسَبُونَ أن نَـارَ جَـهَنَّمَ مِثْلُ نَارِكُمْ هذِهِ؟ هِيَ أَشَدُّ سَوَاداً مِنَ الْقَارِ، هِيَ جُزْءٌ مِـن بِضْعَـةٍ وَسِـتِّينَ جُزْءاً مِنْـهَا أو نَيِّفٍ وَأَرْبَعِينَ». شك أبو سهيل. [صحيح].

◉ وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْ كَانَ فِي هذَا المَسْجِدِ مِئَةُ أَلْفٍ أو يَزِيدُونَ وَفِيهِمْ رَجُلٌ مِن أَهْلِ النَّارِ فَتَنَفَّسَ فَأَصَابَهُمْ نَفَسُهُ لاحْتَرَقَ المَسْجِدُ وَمَنْ فِيهِ». [رواه أبو يعلىٰ وإسناده حسن، وقيل: في متنه نكارة. وصحّحه الألباني].

◉ ورواه البزار ولفظه قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ كَـان فِي المَسْجِدِ مِئَـةُ أَلْـفٍ أو يَزِيدُونَ ثُمَّ تَنَفَّسَ رَجُلٌ مِن أهْلِ النَّارِ لأَحْرَقَهُمْ». [صحيح لغيره].

◉ وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِـي قَوْلِـهِ تَعَـالَىٰ: ﴿إِذَا رَأَتْـهُمْ مِن مَكَـانٍ بَعِيـدٍ﴾ [الفرقان: ١٢] مِن مَسِيرَةِ مِئَةِ عَامٍ، وَذلِكَ إذا أُتِيَ بِجَهَنَّمَ تُقَادُ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ يَشُدُّ بِكُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَـكٍ، لَـوْ تُرِكَـتْ لأَتَـتْ عَلَىٰ كُـلِّ بَـرٍّ وَفَـاجِرٍ ﴿سَـمِعُوا لَـهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ [الفرقان: ١٢]. تَزْفِرُ زَفْرَةً وَلا تَبْقَىٰ قَطْرَةٌ مِن دَمْعٍ إلاَّ نَدَرَتْ، ثُمَّ تَزْفِرُ الثَّانِيَةَ فَتَقْطَعُ الْقُلُوبَ مِن أَمَاكِنِهَا، تَقْطَعُ اللَّهَوَاتِ وَالْحَنَاجِرَ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]. رواه آدم ابن أبي إياس في تفسيره موقوفاً. [ضعيف موقوف].

ظُلمتُها وسَوادُها وشَرَرُها

◉ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «أُوقِدَ عَلَىٰ النَّارِ أَلْفُ سَنَةٍ حتَّىٰ احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوْقِدَ عَلَيْها أَلْفُ سَنَةٍ حَتَّىٰ ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أُوْقِدَ عَلَيْها أَلْفُ سَنَةٍ حَتَّىٰ اسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوْداءُ كاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ». [رواه الترمذي، وقال: حديث أبي هريرة هذا موقوف وأصح، ولا أعلم أحداً رفعه غير يحيىٰ بن أبي بكير عن شريك]. [فيه ضعف، لأجل شريك].

ورواه مالكٌ والبَيْهَقِيُّ في الشُّعَبِ مُخْتَصَراً مَرْفُوعَاً قَالَ: «أَتَرَوْنَها حَمْراءَ كَنارِكُمْ هذِهِ لَهِيَ أَشَدُّ سَواداً مِنَ الْقارِ». [صحيح]. «القار»: الزفت.

زاد رزين: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ أَصَابُوا نارَكُمْ هذِهِ لَنامُوا فِيها».

أودِيَتُها وَجِبالُها

◉ عَن أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «وَيْلٌ وَادٍ في جَهَنَّمَ يَهْوِي فِيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفاً قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ». رواه أحمد والترمذي إلا أنه قال:

«وَادٍ بَيْنَ جَبَلَيْنِ يَهْوِي فِيهِ الْكَافِرُ سَبْعِينَ خَرِيفاً قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ».

ورواه ابن حبان، والبيهقيُّ مِن طَرِيق الحَاكِم إلاَّ أَنَّهُ قَالَ: «يَهْوِي فِيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفاً قَبْلَ أَنْ يُفْرَغَ مِن حِسَابِ النَّاسِ».

قال الحافظ: رووه كلهم من طريق عمرو بن الحارث عن درّاج، عن أبي الهيثم، إلا الترمذي فإنه رواه من طريق ابن لهيعة عن درّاج، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن دراج. [فيه ضعف].

◉ عن أَبِي سَعِيد رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَال في قَوْلِهِ: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾ [المدثر: ١٧] قالَ «جَبلٌ مِن نَارٍ يُكَلَّفُ أَنْ يَصْعَدَهُ، فَإِذَا وَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ ذَابَتْ، فَإِذَا رَفَعَهَا عَادَتْ، وَإِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ عَلَيْهِ ذَابَتْ، فَإِذَا رَفَعَهَا عَادَتْ، يَصْعَدُ سَبْعِينَ خَرِيفاً ثُمَّ يَهْوِي كَذلِكَ». [رواه أحمد بنحوه، والحاكم من طريق درّاج أيضاً، وفيه ضعف].

بُعْدُ قَعْرِها

◉ عَن خَالِدِ بْنِ عُمَيْرٍ: قَالَ: خَطَبَ عُتْبَةُ بنُ غَزْوَانَ ﷺ فَقَالَ: إِنَّهُ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَىٰ مِن شَفِيرِ جَهَنَّم فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَاماً مَا يُدْرِكُ لَهَا قَعْراً وَاللهِ لَتُمْلأَنَّهُ، أَفَعَجِبْتُمْ؟. [رواه مسلم هكذا].

◉ ورواه الترمذي عن الحسن قَالَ: قَالَ عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ عَلَىٰ مِنْبَرِنَا هذَا - يَعْنِي مِنْبَرَ الْبَصْرَةِ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ الصَّخْرَةَ الْعَظِيمَةَ لَتُلْقَىٰ مِن شَفِيرِ جَهَنَّمَ فَتَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَاماً، وَمَا تُفْضِي إِلىٰ قَرَارِهَا » وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: أَكْثِرُوا ذِكْرَ النَّارِ فَإِنَّ حَرَّهَا شَدِيدٌ، وَإِنَّ قَعْرَهَا بَعِيدٌ، وَإِنَّ مَقَامِعَهَا حَدِيدٌ.

قَالَ الترمذي: لا نعرف للحسن سماعاً من عتبة بن غزوان، وإنما قدم عتبة بن غزوان البصرة في زمن عمر، وولد الحسن لسنتين بقيتا من خلافة عمر. [صحيح لغيره].

◉ وعنْ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « لَوْ أَنَّ حَجَراً قُذِفَ بِهِ فِي جَهَنَّمَ لَهَوَىٰ سَبْعِينَ خَرِيفاً قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهَا ». رواه البزار وأبو يعلىٰ وابن حبان في صحيحه والبيهقي كلهم من طريق عطاء بن السائب. [صحيح لغيره].

◉ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعْنَا وَجْبَةً فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « أَتَدْرُونَ مَا هذَا؟ » قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: « هذَا حَجَرٌ أَرْسَلَهُ اللهُ فِي جَهَنَّمَ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفاً، فَالآنَ حِينَ انْتَهَىٰ إِلىٰ قَعْرِهَا ». رواه مسلم. [صحيح].

◉ وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يُخْبِرُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ بُعْدَ مَا بَيْنَ شَفِيرِ النَّارِ إِلَىٰ أَنْ يُبْلَغَ قَعْرُهَا لَصَخْرَةٌ زِنَةُ سَبْعِ خَلِفَاتٍ بِشُحُومِهِنَّ وَلُحُومِهِنَّ وَأَوْلادِهِنَّ يَهْوِي فِيمَا بَيْنَ شَفِيرِ النَّارِ إِلَىٰ أَنْ يُبْلَغَ قَعْرُهَا سَبْعِينَ خَرِيفاً ».

رواه الطبراني ورواته رواة الصحيح، إلاّ أن الراوي عن معاذ لم يُسَمَّ. [صحيح لغيره].

سَلاسِلُ النَّار

● عَن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ قَالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ أنَّ رَصَاصَةً مِثْلَ هذِهِ» وَأَشَارَ مِثْلَ الْجُمْجُمَةِ «أُرسِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الأَرْضِ وَهِيَ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ لَبَلَغَتِ الأَرْضَ قَبْلَ اللَّيْلِ، وَلَوْ أَنَّهَا أُرْسِلَتْ مِن رَأْسِ السِّلْسِلَةِ لَسَارَتْ أَرْبَعِينَ خَرِيفاً اللَّيْلَ وَالنَّهارَ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ أَصْلَهَا أو قَعْرَهَا».

[رواه أحمد والترمذي والبيهقي كلهم من طريق درّاج عن عيسىٰ بن هلال الصدفي عنه، وَقَالَ الترمذي: إسناده حسن].

● وَعَنْ يَعْلَىٰ بنِ مُنْيَةَ ﷺ ـ رَفَعَ الْحَدِيثَ إِلَىٰ النَّبيِّ ﷺ قَالَ ـ: «يُنْشِئُ اللهُ سَحَابَةً سَوْدَاءَ مُظْلِمَةً فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ أيُّ شَيْءٍ تَطْلُبُونَ؟ فَيَذْكُرُونَ بِهَا سَحَابَةَ الدُّنْيَا، فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا الشَّرَابَ فَتُمْطِرُهُمْ أغْلالاً تَزِيدُ فِي أغْلالِهِمْ، وَسَلاسِلُ تَزِيدُ فِي سَلاسِلِهِمْ، وَجَمْراً تَلْتَهِبُ عَلَيْهِمْ». رواه الطبراني، وقد روي موقوفاً عليه وهو أصح. [ضعيف، في سنده انقطاع وضعف، كما بيّن الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد].

«ويعلىٰ بن منية»: صحابي مشهور، ومنية أمه، ويقال: جدته. وهي بنت غزوان أخت عتبة بن غزوان، وكثيراً ما ينسب إلىٰ أبيه أمية.

● وعنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْ أنَّ مَقْمَعاً مِن حَدِيدِ جَهَنَّمَ وُضِعَ فِي الأَرْضِ فَاجْتَمَعَ لَهُ الثَّقَلانِ مَا أَقَلُّوهُ مِنَ الأَرْضِ».

رواه أحمد، وأبو يعلىٰ والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

وَفِي رواية لأحمد وأبي يَعْلَىٰ قَالا: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ ضُرِبَ الْجَبَلُ بِمَقْمَعٍ مِن حَدِيدِ جهَنَّمَ لَتفتَّتَ ثُمَّ عَادَ».

وروى هذه الحاكم أيضاً إلاَّ أنه قال: «لَتَفتَّتَ فَصَارَ رَمَاداً». وقال: صحيح الإسناد. [ضعيف، وهو من رواية دراج عن أبي السمح]. «المَقْمَعُ»: المطرق، وقيل: السوط.

◉ وعنْ مُحمَّدِ بْنِ هَاشِمٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هذِهِ الآيَةُ: ﴿نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤، والتحريم: ٦] قَرأَهَا النَّبيُّ ﷺ فَسَمِعَهَا شَابٌّ إِلَىٰ جَنْبِهِ فَصَعِقَ فَجعلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رأسَهُ فِي حِجْرِهِ رَحْمَةً لَهُ، فَمَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ أنْ يَمْكُثَ ثُمَّ فَتحَ عَيْنَيْهِ فقَالَ: بِأَبِي أنْتَ وَأُمِّي مِثْلُ أيِّ شَيْءٍ الْحَجَرُ؟ قَالَ: «أَمَا يَكْفِيكَ مَا أَصَابَكَ عَلَىٰ أنَّ الْحَجَرَ الْوَاحِدَ مِنْهَا لَوْ وُضِعَ عَلَىٰ جِبَالِ الدُّنْيَا كُلِّهَا لَذَابَتْ مِنْهُ، وَإِنَّ مَعَ كُلِّ إِنسَانٍ مِنْهُمْ حَجَراً وَشَيْطَاناً». رواه ابن أبي الدنيا عن عبد اللّه بن الوضاح حدثنا عباءة بن كليب عن محمد بن هاشم، وعباءة قال أبو حاتم: صدوق في حديثه إنكار أخرجه البخاري في الضعفاء يحوَّل من هناك. [ضعيف].

◉ وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ قَالَ: هِيَ حِجَارَةٌ مِن كِبْرِيتٍ خَلَقَهَا اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا يُعِدُّهَا لِلْكَافِرِينَ. رواه الحاكم موقوفاً وقال صحيح علىٰ شرط الشيخين. [صحيح].

حَيَّاتُ النَّارِ وعَقارِبُها

◉ عَن عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جزْءٍ الزُّبَيْدِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ فِي النَّارِ حَيَّاتٍ كَأَمْثَالِ أعْنَاقِ الْبُخْتِ تَلْسَعُ إِحْدَاهُنَّ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ حَرَّهَا سَبْعِينَ خَرِيفاً، وَإِنَّ فِي النَّارِ عَقَارِبَ كَأَمْثَالِ الْبِغَالِ الْمُوكَفَةِ تَلْسَعُ إِحْدَاهُنَّ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ حَمْوَتَهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً». رواه أحمد والطبراني، وقال الحاكم: صحيح الإسناد. [حسن].

◉ وعنْ يَزِيدَ بْنِ شَجَرَةَ قَالَ: «إِنَّ لِجهَنَّمَ لَجِبَاباً فِي كُلِّ جُبٍّ سَاحِلٌ كَسَاحِلِ الْبَحْرِ فِيهِ هَوَامٌّ وَحَيَّاتٌ كَالْبَخَاتِيِّ وعَقَارِبُ كَالْبِغَالِ الدُّلِّ، فَإِذَا سَأَلَ أَهْلُ النَّارِ التَّخْفِيفَ، قِيلَ: اخْرُجُوا إِلَىٰ السَّاحِلِ فَتَأْخُذُهُمْ تِلْكَ الْهَوَامُّ بِشِفَاهِهِمْ وَجُنُوبِهِمْ وَمَا شَاءَ اللهُ مِن ذلِكَ فَتَكْشِطُهَا، فَيَرْجِعُونَ فَيُبَادِرُونَ إِلَىٰ مُعْظَمِ النِّيرَانِ، وَيُسَلَّطُ

عَلَيْهِمُ الْجَرَبُ حَتَّىٰ إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَحُكُّ جِلْدَهُ حَتَّىٰ يَبْدُوَ الْعَظْمُ فَيُقَالُ: يَا فُلانُ! هَلْ يُؤْذِيكَ هذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لَهُ: ذلِكَ بِمَا كُنْتَ تُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ». رواه ابن أبي الدنيا. [صحيح موقوف].

قال الحافظ: ويزيد بن شجرة الرهاوي مختلف في صحبته، والله أعلم.

◉ وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨] قَالَ: زِيدُوا عَقَارِبَ، أَنْيَابُهَا كَالنَّخْلِ الطِّوَالِ. رواه أبو يعلىٰ والحاكم موقوفاً، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين. [صحيح].

شرابُ أهلِ النَّار

◉ عَن أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ [الدخان: ٤٥] قَالَ: «كَعَكَرِ الزَّيْتِ، فَإِذَا قُرِّبَ إِلَىٰ وَجْهِهِ سَقَطَتْ فَرْوَةُ وَجْهِهِ فِيهِ». رواه أحمد والترمذي من طريق رشدين بن سعد عن عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم وقال الترمذي: لا نعرفه إلا من حديث رشدين. [فيه ضعف].

◉ وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْحَمِيمَ لَيُصَبُّ عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ فَيَنْفُذُ الْحَمِيمُ، حَتَّىٰ يَخْلُصَ إِلَىٰ جَوْفِهِ، فَيَسْلُتَ مَا فِي جَوْفِهِ حَتَّىٰ يَمْرُقَ مِن قَدَمَيْهِ، وَهُوَ الصَّهْرُ ثُمَّ يُعَادُ كَمَا كَانَ». رواه الترمذي والبيهقي، إِلاَّ أَنَّه قَالَ: «فَيَخْلُصُ فَيَنْفُذُ الْجُمْجُمَةَ حَتَّىٰ يَخْلُصَ إِلىٰ جَوْفِهِ».

روياه من طريق أبي السمح، وهو دراج عن ابن حجيرة، وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح. [حسن].

«الحميم»: هو المذكور في القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ﴾ [محمد: ١٥]

● وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ دَلْواً مِـن غَسَّاقٍ يُـهْرَاقُ فِي الدُّنْيَا لأَنْتَنَ أَهْلَ الدُّنْيَا». رواه الترمذي من حديث رشدين، عن عمرو بن الحارث، عـن دراج عن أبي الهيثم، وقال الترمذي: إنَّما نعرفه من حديث رشدين. [ضعيف].

قال الحافظ: رواه الحاكم وغيره، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

«الغسَّاق»: هو المذكور في القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَذُوقُـوهُ حَمِيـمٌ وَغَسَّـاقٌ﴾ [ص: ٥٧] وَقَولهُ: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرداً وَلا شَرَاباً إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً﴾ [النبأ: ٢٤ ـ ٢٥].

وَقد اختلف في معناه فقيل: هو مـا يسيل مـن بـين جِلْدِ الكـافرِ ولحمِـهِ، قالـه ابـن عباس، وقيل: هو صديدُ أهـلِ النَّـار، قالـه إبراهيـمُ وقتَـادة وعطيـة وعكرمـة، وقـال كعب: هو عينٌ في جهنَّم تسيل إليـها حمـة كـل ذات حمـة مـن حية أو عقـرب أو غـير ذلك فيستنقع فيؤتىٰ بالآدمي فيغمـس فيها غمسـة واحـدة، فيخرج وقـد سـقط جلـده ولحمه عن العظام، ويتعلق جلده ولحمه في عقبيه وكعبيه فيجرّ لحمـه كمـا يجر الرجـل ثوبه، وقال عبد الله بـن عمرو: الغسـاق: القيـح الغليـظ، لـو أن قطرة منه تُـهْرَاق في المغرب لأنتنت أهل المشرق، ولـو تُـهْرَاقُ في المشرق لأنتنـت أهـل المغـرب، وقيـل غـير ذلك. واللهُ تعالىٰ أعلمُ وأحكم.

● وعن عبدِ الله بنِ عمرٍو قَالَ: قَالَ رسولُ الله: «مَـن شَـرِبَ الخَمْـرَ، فَسَـكِرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةُ أربعينَ صباحاً، فإنْ مَاتَ دَخَلَ النارَ، فإنْ تَابَ تَـابَ الله عليه، فإنْ عادَ فَشَرِبَ فَسَكِرَ، لم تُقْبَلْ لَهُ صَلاةُ أَرْبَعِينَ صباحاً، فإنْ مـاتَ دَخَـلَ النَّـارَ، فـإنْ تَـابَ تَـابَ اللهُ عليهِ، فـإنْ عـادَ، فَشَـرِبَ فَسَـكِرَ، لم تُقْبَـلْ لـهُ صَـلاةُ أَرْبَعِيْـنَ صباحاً، فإنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فإنْ تَـابَ تَـابَ اللهُ عليه، فـإنْ عَـادَ الرَّابِعَـة، كَـانَ حَقّاً علىٰ الله أن يَسْقِيَهُ مِن طِينَةِ الخَبَالِ يَوْمِ القِيَامَةِ» قالُوا: يا رسُولَ اللهِ وما طِينَـةُ الخَبَالِ؟ قالَ: «عُصَارَةُ أَهلِ النارِ». [رواه ابن حبان وهو صحيح].

طعامُ أهلِ النَّارِ

◉ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَرأَ هذِهِ الآيَةَ: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قَطَرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لأَفْسَدَتْ عَلَىٰ أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ؟». رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه إلا أنه قال:

«فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ غَيْرُهُ». والحاكم إلا أنه قال فِيهِ:

فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قَطَرَتْ فِي بِحَارِ الأَرْضِ لأَفْسَدَتْ». أو قَالَ: «لأَمَرَّتْ عَلَىٰ أَهْلِ الأَرْضِ مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ». وقال: صحيح علىٰ شرطهما، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وروي موقوفاً علىٰ ابن عباس. [ضعَّفه الألباني، وذكر أنَّ المرفوع فيه تدليس، والموقوف وهو الأصح، لكن فيه ضعيف، والله تعالىٰ أعلم].

◉ وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُلْقَىٰ عَلَىٰ أَهْلِ النَّارِ الْجُوعُ فَيَعْدِلُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ، فَيَسْتَغِيثُونَ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ مِن ضَرِيعٍ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ، فَيَسْتَغِيثُونَ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ ذي غُصَّةٍ فَيَذْكُرُونَ أَنَّهُمْ كانوا يُجِيزُونَ الْغَصَصَ فِي الدُّنْيَا بِالشَّرَابِ، فَيَسْتَغِيثُونَ بِالشَّرَابِ فَيُدْفَعُ إِلَيْهِمْ بِكَلالِيبِ الْحَدِيدِ فَإِذَا دَنَتْ مِن وُجُوهِهِمْ شَوَتْ وُجُوهَهُمْ، فَإِذَا دَخَلَتْ بُطُونَهُمْ قَطَعَتْ مَا فِي بُطُونِهِمْ فَيَقُولُونَ: ادْعُوا خَزَنَةَ جَهَنَّمَ، فَيَقُولُونَ: ﴿أَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ [غافر: ٥٠] قَالَ: فَيَقُولُونَ: ادْعُوا مالِكاً فَيَقُولُونَ: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] قَالَ: فَيُجِيبُهُمْ: ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]»

قَالَ الأَعْمَشُ: نُبِّئْتُ أنَّ بيْنَ دُعَائِهِمْ وَبَيْنَ إِجَابَةِ مَالِكٍ إِيَّاهُمْ أَلْفَ عَامٍ. قَالَ: «فَيَقُولُونَ: ادْعُوا رَبَّكُمْ فَلا أحَدَ خَيْرٌ مِن رَبِّكُمْ، فَيَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ رَبَّنَا أخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٧] قَالَ: فَيُجِيبُهُمْ: ﴿اخْسَؤُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] قَالَ: فَعِنْدَ ذلِكَ يَئِسُوا مِن كُلِّ خَيْرٍ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَأْخُذُونَ فِي الزَّفِيرِ وَالْحَسْرَةِ وَالْوَيْلِ».

رواه الترمذي والبيهقي [فيه ضعف، الأعمش مدلِّس، وشهر فيه كلام].

◉ وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿طَعَاماً ذَا غُصَّةٍ﴾ [المزمل: ١٣] قَالَ: شَوْكٌ يَأْخُذُ بِالْحَلْقِ لا يَدْخُلُ وَلا يَخْرُجُ. رواه الحاكم موقوفاً عن شبيب بن شيبة عن عكرمة عنه [ضعيف موقوف، في إسناده: شبيب بن شيبة، قال الذهبي: ضعفوه].

عِظَمُ أهلِ النَّار وقُبحُهم فيها

◉ عَن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: لَوْ أَنَّ رَجُلاً مِن أَهْلِ النارِ أُخْرِجَ إِلَىٰ الدُّنْيَا لَمَاتَ أَهْلُ الدُّنْيَا مِن وَحْشَةِ مَنْظَرِهِ، وَنَتْنِ رِيحِهِ. قَالَ: ثُمَّ بَكَىٰ عَبْدُ اللهِ بُكَاءً شَدِيداً. رواه ابن أبي الدنيا موقوفاً، وفي إسناده ابن لهيعة. [ضعيف موقوف].

◉ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا بَيْنَ مَنْكِبَيِ الْكَافِرِ فِي النار مَسِيرَةُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ». رواه البخاري ـ واللفظ له ـ ومسلم وغيرهما.

«المنكب»: مجتمع رأس الكتف والعضد.

◉ وَعَنْهُ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ضِرْسُ الْكَافِرِ مِثْلُ أُحُدٍ، وَفَخِذُهُ مِثْلُ الْبَيْضَاءِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ كَمَا بَيْنَ قُدَيْدٍ وَمَكَّةَ، وَكَثَافَةُ جَسَدِهِ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ ذِرَاعاً بِذِرَاعِ الْجَبَّارِ». رواه أحمد ـ واللفظ له ـ. [صحيح لغيره].

● ومسلم ولفظه قالَ: « ضِرْسُ الْكَافِرِ ـ أو نابُ الكافِرِ ـ مِثْلُ أُحُدٍ، وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلاثٍ». [صحيح].

● والترمذي ولفظه: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « ضِرْسُ الْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِثْلُ أُحُدٍ، وَفَخِذُهُ مِثْلُ الْبَيْضَاءِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ مَسِيرَةُ ثَلاثٍ مِثْلُ الرَّبَذَةِ». وقالَ: حديث حسن غريب. [حسن].

« قوله: مثل الربذة »: يعني كما بين المدينة والربذة، والبيضاء: جبل. انتهىٰ.

● وَفي رواية للترمذي قال: « إِنَّ غِلَظَ جِلْدِ الْكَافِرِ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ ذِرَاعاً، وَإِنَّ ضِرْسَهُ مِثْلُ أُحُدٍ، وَإِنَّ مَجْلِسَهُ مِن جَهَنَّمَ مَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ». وقال في هذه: حديث حسن غريب صحيح. [صحيح].

● ورَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ، ولَفْظُهُ قَالَ: « غِلَظُ جِلْدِ الْكَافِرِ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ ذِرَاعاً بِذِرَاعِ الْجَبَّارِ، وَضِرْسُهُ مِثْلُ أُحُدٍ». [صحيح].

● ورواه الحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ وَلَفْظُهُ: ـ وهو رواية لأحمد بإسناد جيد ـ قال: « ضِرْسُ الْكَافِرِ يوْمَ الْقِيَامَةِ مِثْلُ أُحُدٍ، وَعَرْضُ جِلْدِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعاً، وَعَضُدُهُ مِثْلُ الْبَيْضَاءِ، وَفَخِذُهُ مِثْلُ وَرْقَانَ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الرَّبَذَةِ».

قَالَ أبو هريرة: وكان يقال: بَطْنُهُ مِثْلُ بَطْنِ إِضَمٍ. [حسن صحيح].

« الجبار »: ملك باليمن له ذراع معروف المقدار، كذا قال ابن حبان وغيره، وقيل: ملك بالعجم.

● وعنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « إِنَّ الْكَافِرَ لَيُسْحَبُ لِسَانُهُ الْفَرْسَخَ وَالْفَرْسَخَيْنِ، يَتَوَطَّؤُهُ النَّاسُ». [رواه الترمذي عن الفضل بن يزيد عن أبي المخارق عنه، وقال: هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه، والفضل بن يزيد كوفيّ قد روى عنه غير واحد من الأئمة، وأبو المخارق ليس بمعروف انتهىٰ. قال الحافظ: رواه الفضل بن يزيد. واللهُ تعالىٰ أعلمُ].

● وعَنْ أبِي الْعَجْلانِ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ الْكَافِرَ لَيَجُرُّ لِسَانَهُ فَرْسَخَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَوَطَّؤُهُ النَّاسُ».

قال المنذري: أخرجه البيهقي وغيره، وهو الصواب، وقول الترمذي: أبو المخارق ليس بمعروف وَهْمٌ، إنَّما هو أبو العجلان المحاربي ذكره البخاري في الكنىٰ، وقال أبو بكر مربع الحافظ: ليس له عن رسول الله ﷺ بهذا الإسناد إلا هذا الحديث انتهىٰ.

● وَعَنْهُ أيْضاً رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «يَعْظُمُ أهْلُ النَّارِ في النَّارِ حَتَّىٰ إنَّ بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِ أحَدِهِمْ إلَىٰ عَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبْعِمِئَةِ عَامٍ، وَإنَّ غِلَظَ جِلْدِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعاً، وَإنَّ ضِرْسَهُ مِثْلُ أُحُدٍ». رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط وإسناده قريب من الحسن. [فيه ضعف].

● وعَنْ أبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «مَقْعَدُ الْكَافِرِ فِي النَّارِ مَسِيرَةُ ثَلاثَةِ أيَّامٍ، وَكُلُّ ضِرْسٍ مِثْلُ أُحُدٍ، وَفَخِذُهُ مِثْلُ وَرْقَانَ، وَجِلْدُهُ سِوَى لَحْمِهِ وَعِظَامِهِ أرْبَعُونَ ذِرَاعاً». رواه أحمد وأبو يعلىٰ والحاكم كلهم من رواية ابن لهيعة. [حسن لغيره].

● وَعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أتَدْرِي مَا سَعَةُ جَهَنَّمَ؟ قُلْتُ: لا، قَالَ: أجَلْ وَاللهِ مَا تَدْرِي، إنَّ بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِ أحَدِهِمْ وَبَيْنَ عَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبْعِينَ خَرِيفاً، تَجْرِي فِيهِ أوْدِيَةُ الْقَيْحِ وَالدَّمِ، قُلْتُ: أنْهَارٌ؟ قَالَ: لا بَلْ أوْدِيَةٌ.
رواه أحمد بإسناد صحيح، والحاكم وقال: صحيح الإسناد. [صحيح موقوف].

● وعَن أبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤] قَالَ: «تَشْوِيهِ النَّارُ فَتَقَلَّصُ شَفَتُهُ الْعُلْيَا حَتَّىٰ تَبْلُغَ وَسَطَ رَأسِهِ، وَتَسْتَرْخِي شَفَتُهُ السُّفْلَىٰ حَتَّىٰ تَضْرِبَ سُرَّتَهُ».

[رواه أحمد، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب والحاكم وقال: صحيح الإسناد]. [فيه ضعف، لأنه هو من رواية دراج عن أبي الهيثم].

بكاءُ أهل النَّار وشَهيقُهُم

◉ عَن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: إنَّ أهْلَ النَّارِ يَدْعُونَ مَالِكاً فَلا يُجِيبُهُمْ أرْبَعِينَ عَاماً، ثُمَّ يَقُولُ: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] ثُمَّ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ فَيَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] فَلا يُجِيبُهُمْ مِثْلَ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَقُولُ: ﴿اخْسَؤُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] ثُمَّ يَيْأسُ الْقَوْمُ فَمَا هُوَ إلاَّ الزَّفِيرُ وَالشَّهِيقُ تُشْبِهُ أصْوَاتُهُمْ أصْوَاتَ الْحَمِيرِ أوَّلُهَا شَهِيقٌ وَآخِرُهَا زَفِيرٌ. رواه الطبراني موقوفاً ورواته محتج بهم في الصحيح، والحاكم وصحَّحهُ. [صحيح].

«الشهيق»: في الصدر. وَ«الزفير»: في الحلق، وقال ابن فارس: الشهيق ضد الزفير لأن الشهيق ردُّ النفس، والزفير إخراج النفس.

◉ وَعَنْ أنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُرْسَلُ الْبُكَاءُ عَلَىٰ أهْلِ النَّارِ فَيَبْكُونَ حَتَّىٰ تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ، ثُمَّ يَبْكُونَ الدَّمَ حَتَّىٰ يَصِيرَ فِي وُجُوهِهِمْ كَهَيْئَةِ الأُخْدُودِ، لَوْ أُرْسِلَتْ فِيهَا السُّفُنُ لَجَرَتْ». رواه ابن ماجه وأبو يعلىٰ، ولفظه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يَا أيُّهَا النَّاسُ ابْكُوا فَإِن لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكُوا، فَإِنَّ أهْلَ النَّارِ يَبْكُونَ فِي النَّارِ حَتَّىٰ تَسِيلَ دُمُوعُهُمْ في خُدُودِهِمْ كَأَنَّهَا جَدَاوِلُ حَتَّىٰ تَنْقَطِعَ الدُّمُوْعُ، فَيَسِيلُ - يَعْنِي الدَّم - فَيُقْرِحُ الْعُيُونَ».

وفي إسنادهما يزيد الرقاشي وبقية رواة ابن ماجه ثقات احتج بهم البخاري ومسلم. [ضعيف، الرقاشي، ضعيف].

◉ ورواه الحاكم وصحَّحهُ مختصراً عن عبد الله بن قيس عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ أهْلَ النَّارِ لَيَبْكُونَ حَتَّىٰ لَوْ أُجْرِيَتِ السُّفُنُ فِي دُمُوعِهِمْ لَجَرَتْ، وَإنَّهُمْ لَيَبْكُونَ الدَّمَ مَكَانَ الدَّمْعِ». [ضعيف مرفوعاً، في إسناده: أبو النعمان محمد بن الفضل، تغير، وقال بعضهم اختلط، وصحَّ موقوفاً]. «الأُخدود»: بالضم: هو الشق العظيم في الأرض.

ملائكةُ النَّار

قالَ اللهُ تعالىٰ في وَصْفِ مَلائكةِ النَّار: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر].

قال القرطبي: أي علىٰ سقر تسعةَ عشر من الملائكةِ يُلْقُونَ فيهَا أهْلَهَا.

ثمَّ قيل: علىٰ جملةِ النَّارِ تسعةَ عَشَر من الملائكـةِ هُم خزنَتُها، مَالِك وثمانية عشر ملكاً. ويحتمل أنْ تكونَ التِّسعة عشر نقيباً، ويحتمل أنْ يكونَ تِسعَةَ عَشَرَ ملكاً بأعيانهم. وعلىٰ هذا أكثر المفسرين.

ثمَّ قال: والصَّحيحُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ أنَّ هؤلاء التِّسعة عشر، هُم الرُّؤساءُ والنُّقباءُ، وأمَّا جملَتُهُم فالعبارةُ تعجَزُ عنهَا، كمَا قالَ اللهُ تَعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر: من الآية ٣١] وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُؤْتَىٰ بِالنَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا». [رواه مسلم].

قالَ ابنُ عبَّاس: ما بين منكبي الواحدِ منهم مسيرة سنةٍ، وقـوَّةُ الواحدِ منهم أنْ يَضْرِبَ بالمقمع فيدفَع بتلكَ الضَّربةِ سبعينَ ألفَ إنسانٍ في قعرِ جهنَّم.

وذكَرَ القُرطبي أيضاً عن ابن وهب قَالَ: حدَّثنا عبدُ الرحمن بنُ زيد قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في خَزَنَةِ جَهَنَّم: «ما بين مِنكبيّ أحَدِهِم كمَا بينَ المشرقِ والمغرِبِ». [قال الحافظ العراقي: هو حديثٌ معضل].

الفصل الثالث

أحوال أهل النار

بَعْثُ النَّار

◉ عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: يَا آدمُ، فيَقُولُ: لبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ: يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِن كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، قَالَ: فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ الله شَدِيدٌ».

قَالَ أبو سعيد رضي الله عنه: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُل؟ فقَالَ ﷺ: «أَبْشِرُوا، فإِنَّ مِن يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفاً، وَمِنْكُمْ رَجُلٌ» قَالَ: ثُمَّ قَالَ ﷺ: «وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّة». قَالَ أبو سعيد رضي الله عنه: فَحَمِدْنَا الله وكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ ﷺ: «وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّة».

قَالَ أبو سعيد: فَحَمِدْنَا الله وكَبَّرْنَا ثُمَّ قَالَ ﷺ: «وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّة، إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثورِ الأَسْوَدِ، أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ». [رواه مسلم].

◉ شرح الحديث:

قَالَ النووي: قوله: (أخرج بعث النار) البعث هنا بمعنى المبعوث الموجه إليها

ومعناه: مَيِّز أهلَ النَّار من غيرهم. وقوله ﷺ: (فذاكَ حينَ يَشيبُ الصغيرُ وتَضَعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وترى النَّاسَ سُكارَى ومَا هُم بِسكَارَى ولكنَّ عذابَ اللهِ شَديدٌ) معناه موافقة الآية في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢]. وقوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً﴾ [المزمل: ١٧]. وقد اختلف العلماء في وقت وضع كلِّ ذات حَمْل حَمْلَها وغيره من المذكور، فقيل: عند زلزلة الساعة قبل خروجهم من الدُّنيا، وقيل: هو في القيامة، فعلىٰ الأوَّل هو علىٰ ظاهره، وعلىٰ الثاني يكون مجازاً، لأن القيامة ليس فيها حمل ولا ولادة، وتقديره ينتهي به الأهوال والشدائد إلىٰ أنه لو تصوّرْتَ الحوامل هناك لوضعن أحمالهن، كما تقول العرب: أصابنا أمرٌ يشيب منه الوليد، يريدون شدته، واللهُ أعلم.

وقَالَ الإمَامُ النووي: وأصل يأجوج ومأجوج من أجيج النار، وهو صوتها وشررها، شُبِّهُوا به لكثرتهم وشدتهم واضطرابهم بعضهم في بعض، قَالَ وهب بن منبه ومقاتل ابن سليمان: هم من ولد يافث بن نوح، وقَالَ الضحاك: هم جيلٌ من الترك، وقَالَ كعب: هم بادرة من ولد آدم من غير حواء، قال: وذلك أن آدم ﷺ احتلم فامتزجت نطفته بالتراب فخلق الله تعالىٰ يأجوج ومأجوج والله أعلم.

وقوله ﷺ: (كالرقمة في ذراع الحمار) الرقمتان في الحمَارِ هما الأثران في باطن عضديه، وقيل: هي الدائرة في ذراعيه، وقيل: هي الهنة الناتئة في ذراع الدابة من داخل، والله أعلم.

أهونُ أهل النَّار عذاباً

◉ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «إنَّ أهْوَنَ أهْلِ النارِ عَذَاباً رَجُلٌ فِي أخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ بِالقُمْقُمِ».

رواه البخاري ومسلم ولفظه:

«إنَّ أهْونَ أهْلِ النَّارِ عَذَاباً مَن لَهُ نَعْلانِ وَشِرَاكَانِ مِن نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ، مَا يُرَى أنَّ أحَداً أشَدُّ مِنْهُ عَذَاباً، وَإنَّهُ لأهْوَنُهُمْ عَذَاباً».

◉ وعنْ أبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «إنَّ أهْوَنَ أهْلِ النَّارِ عَذَاباً رَجُلٌ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ مِن نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ مَعَ إجْزَاءِ الْعَذَابِ، وَمِنْهُمْ مَن فِي النَّارِ إلَىٰ كَعْبَيْهِ مَعَ إجْزَاءِ الْعَذَابِ، وَمِنْهُمْ مَن فِي النارِ إلَىٰ رُكْبَتَيْهِ مَعَ إجْزَاءِ الْعَذَابِ، وَمِنْهُمْ مَن في النارِ إلىٰ أرنَبَته مع إجزاءِ العَذابِ، ومنهمْ مَن في النَّارِ إلىٰ صدْرهِ مع إجزاءِ العَذابِ قَدِ اغْتَمَرَ».

رواه أحمد والبزار ورواته رواة الصحيح.

وهو في مسلم مختصراً: «إنَّ أدْنَىٰ أهْلِ النَّارِ عذَاباً مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ مِن نَارٍ يَغْلِي دِمَاغُهُ مِن حَرِّ نَعْلَيْه».

◉ وعنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «إنَّ أهْوَنَ أهْلِ النَّارِ عَذَاباً أبُو طَالِبٍ وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ». [رواه مسلم].

(شراكان) الشِّراكُ أحد سيور النَّعل، وهو الَّذي يكونُ علىٰ وجهها وعلىٰ ظهر القدم. (يغلي) الغليان هو شِدَّةُ اضطراب الماء ونحوه علىٰ النَّار لشِدَّة اتِّقادها، يقال: غَلَتِ القِدْرُ تغلي غلياً وغلياناً. وأغليتُها أنا. (المرْجَل) قِدْرٌ معروفٌ. سواءٌ كانَ من حديدٍ أو نحاسٍ أو حجارةٍ أو خزفٍ. واللهُ تعالىٰ أعلم.

أوَّل من تسعَّر بهم النار

◉ عن أبي هريرة ﷺ قال: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: «إنَّ الله تَباركَ وَتَعالَىٰ إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَىٰ العِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ، فَأوَّل مَن يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جمَعَ القُرْآنَ، ورَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ الله، ورَجُلٌ كَثِيرُ المَالِ، فَيَقُولُ الله لِلقَارِئ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَىٰ رَسُولِي؟

قالَ: بَلَىٰ يَا رَبِّ.

قالَ: فمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟

قالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ الليلِ وآنَاءَ النَّهَارِ.

فَيَقُولُ الله لَهُ: كَذَبْتَ، وتَقُولُ له المَلائِكَةُ: كَذَبْتَ، ويَقُولُ الله لَهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: إن فلاناً قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ.

ويُؤْتَىٰ بِصَاحِبِ المَالِ، فيَقُولُ الله: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّىٰ لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَىٰ أَحَدٍ؟

قالَ: بَلَىٰ يَا رَبِّ.

قالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟

قالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِم وأَتصَدَّقُ.

فَيَقُولُ الله لَهُ: كَذَبْتَ، وتَقُولُ المَلائِكَةُ لَهُ: كَذَبْتَ، ويَقُولُ الله تَعَالَىٰ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلانٌ جَوَادٌ، وَقَد قِيلَ ذَاكَ.

ويُؤْتَىٰ بِالذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ الله فَيَقُولُ الله لَهُ: فِيمَاذَا قُتِلْتَ؟

فَيَقُولُ: أَمَرْتَ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فقاتَلْتُ حَتَّىٰ قُتِلْتُ.

فَيَقُولُ الله تعالىٰ لَهُ: كَذَبْتَ، وتَقُولُ لَهُ المَلائِكَةُ: كَذَبْتَ، ويَقُولُ الله تعالىٰ:

بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ»

ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَىٰ رُكْبَتِي - أي أبي هريرة - فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أولئكَ الثَّلاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ الله تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ». [صحيح رواه الترمذي، وصحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي].

قوله: (رجل جمع القرآن) أي: حفظه.

وقوله: (كنت أقوم به) أي: بالقرآن (آناء الليل وآناء النهار) أي: ساعاتهما.

وقوله: (تُسَعَّر) من التَّسعير أي: توقد.

قَالَ الإِمَامُ النووي في شرح صحيح مسلم:

قوله ﷺ في الغازي والعالم والجواد، وعقابهم علىٰ فعلهم ذلك لغير الله، وإدخالهم النار، دليلٌ علىٰ تغليظ تحريم الرياء وشدة عقوبته، وعلىٰ الحث علىٰ وجوب الإخلاص في الأعمال، كما قَالَ الله تعالىٰ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعبُدُوا اللهَ مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وفيه: أن العمومات الواردة في فضل الجهاد إنما هي لمن أراد الله تعالىٰ بذلك مخلصاً، وكذلك الثناء علىٰ العلماء وعلىٰ المنفقين في وجوه الخيرات، كله محمولٌ علىٰ مَن فعل ذلك لله تعالىٰ مخلصاً.

وقَالَ الإِمَامُ الشوكاني في نيل الأوطار:

هذا الحديث فيه: دليلٌ علىٰ أن فعل الطاعات العظيمة مع سوء النية من أعظم الوبال علىٰ فاعله، فإنَّ الذي أوجب سَحبه في النَّار علىٰ وجهه هو فعل تلك الطاعة المصحوبة بتلك النية الفاسدة، وكفىٰ بهذا رادعاً لمن كان له قلبٌ أو ألقىٰ السَّمع وهو شهيد.

اللَّهمَّ إنِّي أسألكَ الإخلاصَ في القَوْلِ والعَمَلِ سراً وجَهْراً. آمينَ.

اختصامُ الجنَّة والنَّار

● قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الجَنَّةُ: فَمَا لِي لا يَدْخُلُنِي إلاَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَغِرَّتُهُمْ؟! قَالَ اللهُ لِلْجَنَّةِ: إنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَن أَشَاءُ مِن عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَن أَشَاءُ مِن عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، فَأَما النَّارُ فَلا تَمْتَلِئُ حَتَّىٰ يَضَعَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ رِجْلَهُ، تَقُولُ: قَطْ قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ، وَيُزْوَى بَعْضُهَا إلَىٰ بَعْضٍ، وَلا يَظْلِمُ اللهُ مِن خَلْقِهِ أَحَداً، وَأَمَا الجَنَّة فإنَّ اللهَ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقاً». [رواه مسلم وهذا لفظه وروى نحوه البخاري وأحمد والبيهقي].

● شرح الحديث:

قَالَ الإمَامُ البخاري في صحيحه: (تحاجت) تخاصمت، والله تعالىٰ أعلم بذلك التخاصم. (أوثرت) اختصصت (بالمتكبرين والمتجبرين) قيل هما بمعنىٰ واحد، وقيل: المتكبر المتعاظم بما ليس فيه والمتجبر الممنوع الذي لا يوصل إليه، وقيل الذي لا يكترث بأمر (ضعفاء الناس وسقطهم) بفتحتين أي المحتقرون بينهم الساقطون من أعين الناس، هذا بالنسبة إلىٰ ما عند الأكثر من الناس، وبالنسبة إلىٰ مَا عند الله هم عظماء رفعاء الدرجات، لكنهم بالنسبة إلىٰ مَا عند أنفسهم لعظمة الله عندهم وخضوعهم له في غاية التواضع لله والذِّلة في عباده.

وقَالَ الإمَامُ النووي في شرح صحيح مسلم: قوله ﷺ: «تحاجت النَّار والجنة» إلىٰ آخره هذا الحديث علىٰ ظاهره، وأن الله تعالىٰ جعل في النَّار والجَنَّة تميزاً تدركان به، فتحاجتا، ولا يلزم من هذا أن يكون ذلك التمييز فيهما دائماً.

وقَالَ الإمَامُ النووي : عن قوله (لا يدخلني إلا ضِعَافُ الناس وغِرَّتُهم) فرُوِيَ علىٰ ثلاثة أوجه : إحداها (غَرَّثهم) بغين معجمة مفتوحة وثاء مثلثة قَالَ القاضي هذه رواية الأكثرين من شيوخنا ، ومعناها أهل الحاجة والفاقة والجوع ، والغرث الجوع. والثاني (عجزتهم) بعين مهملة مفتوحة وجيم وزاي وتاء جمع عاجز. والثالث (غِرَّتهم) بغين معجمة مكسورة وراء مشددة وتاء مثناة فوق ، أي البُله الغافلون الَّذين ليس بهم حذقٌ في أمور الدنيا.

وقَالَ الإمَامُ النووي : قوله ﷺ : (فتقول قط قط فهنالك تمتلىء ويُزوَى بعضها إلىٰ بعض) معنىٰ يزوى يُضَمُّ بعضها إلىٰ بعض ، فتجتمع وتلتقي علىٰ مَن فيها ، ومعنىٰ (قط) حسبي ، أي : يكفيني هذا.

وقَالَ الإمَامُ النووي : هذا الحديث من مشاهير أحاديث الصِّفات ، وقد سبقَ مرَّات بيان اختلافِ العلماء فيها علىٰ مذهبين : أحدهما : وهو قول جمهور السلف وطائفة من المتكلمين ، أنه لا يُتكَلَّم في تأويلها ، بل نؤمن أنها حقٌّ علىٰ مَا أراد الله ولها معنىٰ يليق بها. والثاني : وهو قول جمهور المتكلمين ، أنها تُتَأوَّل بحسب مَا يليق بها.

وقَالَ العلامة أبو العز الحنفي في شرح الطحاوية : الواجب أن يُنظَر في باب الصفات ، فما أثبته الله ورسوله أثبتناه ، وما نفاه الله ورسوله نفيناه ، والألفاظ التي ورد بها النص يُعتَصَم بها في الإثبات والنفي ، فنُثبِت مَا أثبته الله ورسوله من الألفاظ والمعاني ، ونَنفي مَا نفته نصوصهما من الألفاظ والمعاني ، وأما الألفاظ التي لم يَرِدْ نفيها ولا إثباتها فلا تُطلَق حتىٰ يُنظَر في مقصود قائلها ، فإنْ كان معنًىٰ صحيحاً قُبِلَ.

ولقد قَالَ الإمَامُ أبو حنيفة : له يدٌ ووجه ونفس ، كما ذكر تعالىٰ في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس ، فهو له صفة بلا كيف ، ولا يُقَالُ : إنَّ يدَهُ قدرتُهُ ونعمته لأن فيه إبطالَ الصِّفة.

وقَالَ الإمَامُ ابن تيمية في العقيدة الواسطية : من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به

نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريفٍ ولا تعطيل، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل، بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فلا يُنفُون عنه ما وصف به نفسه، ولا يُحَرِّفون الكلم عن مواضعه، ولا يُلحِدون في أسماء الله وآياته، ولا يُكيِّفُون ولا يُمَثِّلون صفاته بصفات خلقه، لأنه سبحانه لا سميَّ له، ولا كُفُوَ له، ولا نِدَّ له، ولا يُقَاس بخلقه سبحانه وتعالىٰ، فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه، ثم رسله صادقون مصدقون، بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون، ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلامٌ عَلَىٰ المُرسَلينَ وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢] فسبَّح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل، وسلَّم علىٰ المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب، وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمَّىٰ به نفسه بين النفي والإثبات، فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون، فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وقَالَ العلامة أبو العزِّ الحنفي: قال الله عزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ وليس المراد نفي الصفات كما يقول أهل البدع، فمن كلام أبي حنيفة رحمه الله في الفقه الأكبر: لا يشبه شيئاً من خلقه، ثم قال بعد ذلك: وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، ويتكلم لا ككلامنا.

وقَالَ الإمَامُ النووي في شرح مسلم: قوله ﷺ: (ولا يظلم الله من خلقه أحداً) فالظلم مستحيل في حق الله تعالىٰ، فمَن عَذَّبه بذنب أو بلا ذنب فذلك عَدْلٌ منه سبحانه وتعالىٰ.

وقوله ﷺ: (وأما الجَنَّة فإنَّ الله ينشئ لها خلقاً) هذا دليلٌ لأهل السنة أن الثواب ليس متوقفاً علىٰ الأعمال، فإنَّ هؤلاء يُخلَقُون حينئذٍ ويُعطَون في الجَنَّة مَا يُعطَون بغير عمل، ومثله أمرُ الأطفال والمجانين الذين لم يعملوا طاعة قطّ، فكلُّهم في الجَنَّة برحمة الله تعالىٰ وفضله، وفي هذا الحديث دليلٌ علىٰ عِظَمِ سِعَةِ الجنة.

خطابُ اللهِ لأهونِ أهلِ النَّار

● عن أنسٍ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُوْلُ لأهونِ أهْلِ النَّارِ عَذَاباً: لوْ أنَّ لَكَ مَا فِي الأرْضِ منْ شيءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِن هَذَا وأنتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أنْ لا تُشْرِكَ بِي شَيْئاً فأَبَيْتَ إلاَّ الشِّرْكَ».. [رواه البخاري ومسلم].

● شرح الحديث:

(إن الله تعالىٰ يقول) يوم القيامة **(لأهون)** أي أسهل **(أهل النار)** تقدَّم في خبر أنه أبو طالب **(عذاباً لو أن لك ما في الأرض من شيء)** أي لو ثبت لأن لو تقتضي الفعل الماضي وإذا وقعت أن المفتوحة بعد لو وجب حذف الفعل لأن ما في أن من معنىٰ التحقق والثبات منزل منزلة الفعل المحذوف **(كنت تفتدي به)** من النار وهو بالفاء من الافتداء وهو خلاص نفسه مما وقع فيه بدفع ما يملكه وهذا إلماح لقوله: ﴿لو أنَّ لهم مَا في الأرضِ جميعاً ومثلَهُ مَعَهُ لافتدَوا به﴾ قال: عَبَّر بالماضي لتحقق الوقوع **(نعم)** أفعل ذلك قال الله تعالىٰ **(فقد سألتك ما هو أهون من هذا)** أي: أمرتك بما هو أهون عليك منه وإلا يكون الشيء واقعاً علىٰ خلاف إرادته وهو محال، وبما تَقرَّر مِن أنَّ الإرادة بمعنىٰ الأمر يسقط احتجاج المعتزلة به زاعمين أن المعنىٰ أردت منك التوحيد فخالفت مرادي، قال الطيبي: والإرادة هنا أخذ الميثاق في قوله سبحانه: ﴿وإذْ أخَذَ ربُّكَ مِن بني آدَمَ مِن ظُهُورِهِم ذُرّيتهم﴾ بقرينة قوله **(وأنت في صلب آدم)** أبيك عليه السلام حين أخذت الميثاق **(أن)** أي بأن **(لا تشرك بي شيئاً فأبيت)** إذ أخرجتك إلىٰ الدنيا **(إلا الشرك)** أي: فامتنعت إلا أن تشرك بي من لا يستطيع لك ولا لنفسه نفعاً ولا ضراً إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ ﴿أو تَقُولُوا إنَّما أشرَكَ آباؤنَا مِن قَبْلُ﴾ ويحمل الآباء هنا علىٰ نقض العهد وهذا استثناء مُفَرَّغ وحذف المستثنىٰ منه مع أنه كلام موجب لأن في الإباء معنىٰ الامتناع فيكون نفياً معنًى أي: ما اخترت إلاَّ الشِّرك. واللهُ تعالىٰ أعلمُ. كذا قال المناوي في «الفيض».

مناشدة أصحاب النَّار لأصحابِ الجنَّة

قالَ تَعالىٰ: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَو مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

عبَّرَ اللهُ تعالىٰ عَن المستَقْبَل بِلفظ الماضِي لأَنَّهُ لِتَحْقيقِ أمرِهِ وَظُهُورِ بُرهَانِهِ كأَنَّهُ قَد وَقَعَ. وقَولُهُ تَعالىٰ: ﴿ونادَى﴾ قيل: إذا صارَ أهلُ الأعرافِ إلىٰ الجنَّةِ طَمِعَ أهلُ النَّار فقَالوا: يا ربَّنَا إنَّ لنا قَراباتٍ في الجنَّةِ فَأذَن لنَا حتَّىٰ نَراهُم ونكلِّمهم. وأهل الجنَّةِ لا يَعرفُونَهُم لسَوادِ وُجُوهِهِم، فيقولونَ: ﴿أنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أو مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ فبَيَّنَ أنَّ ابنَ آدمَ لا يَسْتَغْنِي عَن الطَّعام والشَّراب وإنْ كانَ في العذابِ. فيردُّ أهلُ الجنَّةِ عليهم قائلين: ﴿إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الكَافِرِينَ﴾ يَعني: طعام الجنَّةِ وشَرابها. ومعنىٰ الإفاضة أي التَّوسِعَةُ، يُقَالُ: أفَاضَ عليهِ نِعَمَهُ.

وأخرجَ ابنُ أبي شَيبةَ، وعبدُ بنُ حُميد، وابنُ جرير، عَن ابنِ عَباس رضي الله عنهما في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الآية. قالَ: يُنَادِي الرَّجُلُ أخَاهُ فَيَقُولُ: يَا أخِي أغِثْنِي فإنِّي قَد احتَرَقْتُ فَأفِض عَلَيَّ مِنَ الماءَ. فيُقَال لأخيهِ: أجِبْهُ. فيَقُولُ: ﴿إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الكَافِرِينَ﴾.

وأخرجَ عَبدُ اللهِ بنُ أحمد في زوائِدِ الزُّهدِ، والبَيهَقيُّ في شُعَب الإيمان، عَن عقيلِ بنِ شَهْر الرّياحِيّ قَالَ: شَرِبَ عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ مَاءً بارداً فَبكىٰ فاشتَدَّ بكاؤهُ، فقيل له: ما يبكيكَ؟! قالَ: ذكرتُ آيةً في كتابِ اللهِ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: من الآية٥٤] فعرفتُ أنَّ أهلَ النَّار لا يَشتَهُونَ إلاَّ الماءَ البارِدَ. وقَد قالَ اللهُ عزَّ وَجلَّ ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أو مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾.

مُناداة أصحاب الجَنَّةِ لأصحَابِ النَّار

قال تَعَالىٰ: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

عبَّرَ اللهُ تَعَالىٰ عَن المستَقْبَل بِلفظ الماضِي لأنَّهُ لِتَحْقيقِ أمرِهِ وَظُهُورِ بُرهَانِه كَأنَّهُ قَد وَقَعَ. فالمنتَظَر مِن وَعْدِ اللهِ وَوَعيدِهِ مُلقىٰ في الحقيقَة، وما هُو كائنٌ فكأَنْ قَد.

يَقُولُ تَعَالىٰ ذِكْرُهُ: ونادَى أهلُ الجَنَّةِ أهلَ النَّار بَعْدَ دُخُولهم: يا أهلَ النَّارِ قَد وَجَدْنا ما وَعَدَنَا رَبُّنا حقّاً في الدُّنيا علىٰ ألسُنِ رُسُلِه مِنَ الثَّوابِ علىٰ الإيمانِ بهِ وبِهِم وعلىٰ طاعَتِهِ، فَهَل وَجَدتُم ما وَعَدكُم ربُّكم علىٰ ألسِنَتِهِم علىٰ الكُفْرِ بهِ وعَلىٰ مَعَاصيهِ مِن العقابِ؟ فأجابَهُم أهلُ النَّار بأن نَعَم، قَد وَجَدنا ما وَعَدَ رَبُّنا حقّاً، مِنَ الخزي والهوانِ والعذابِ. عندها يؤذّن المؤذِّنُ بينهما: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ﴾. ويعرفُ هذا اليوم بيوم الأذان.

روى القرطبيُّ في «جامعه»: أنَّ طاوساً دَخلَ عَلىٰ هِشَام بن عبدِ الملكِ فَقَالَ لَهُ: اتَّقِ اللهَ واحذَر يومَ الأذانِ. فقالَ هِشَامُ بن عبدِ الملكِ: وما يومُ الأذانِ؟

قالَ طاوس: قَوله تَعَالىٰ: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ﴾.

فَصعقَ هِشَام. فقَالَ طاوس: هذا ذُلّ الصِّفةِ فكيفَ ذُلّ المعايَنَة. انتهىٰ.

اللَّهم إنِّي أعلمُ أنَّهُ لا يُنجي أحداً يومَ القيامةِ عملهُ، وإنَّما هي رحمتك، اللَّهم إنِّي أسألكَ إيَّاها في الدُّنيا والآخرة لي ولذُرِّيَّتي ولوالِدَيَّ وللمؤمنِينَ، وأستودعكَ هذا الدُّعاء ليوم حاجَتي إليهِ يَا أرحمَ الرَّاحمين.

خطابٌ هامٌّ بين رَجُلٍ من أهلِ الجَنَّة ورجُلٍ من أهلِ النَّار

قال تعالىٰ في سورة الصَّافَّات: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلاّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

قال القرطبي: وَاختُلِفَ في اسم هَذين الرَّجُلَين وتَعيينِهِمَا، فقالَ الكَلبيُّ: نزلَت في أخوينِ مِن أهلِ مكَّةَ مخزوميين، أَحَدُهُما مؤمنٌ وهو (أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد) زوج أمِّ سَلَمَةَ قَبْلَ النبيِّ ﷺ. والآخَر كافِر وهو (الأسود بن عبد الأسد) وقد وَرِثَ كلٌّ واحدٍ منهما أربعَة آلاف دينار، فأنفَقَ أحدُهُما مالَهُ في سبيلِ اللهِ وَطَلَبَ مِن أخيهِ شيئاً، فقالَ مَا قَالَ. ذكرَهُ الثَّعلبي والقُشيري.

وقيل: نَزَلَت في النبيِّ ﷺ وأهلِ مكَّةَ. وقيل: هُو مثلٌ لجميع مَن آمنَ بِاللهِ وجَميع مَن كَفَر.

أمَّا معنىٰ قوله تَعالىٰ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ﴾ أي: يَتَفَاوضُونَ فيما بَينَهُم أحاديثهم في الدُّنيا، وهُو مِن تمام الأُنْس في الجَنَّةِ.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ أي مِن أهلِ الجنَّة ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أي صَديق مُلازم ﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ أي بالمبعَثِ والجزاءِ. وقَالَ سَعيد بن جُبير: قرينُهُ شريكُهُ. وقيلَ: أرادَ بالقَرين قرينه مِنَ الشَّيطان كانَ يُوسوسُ إليهِ بإنكار البَعْثِ.

﴿أئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي مجزيُّونَ مُحاسَبُونَ بعدَ الموتِ فـ ﴿قَالَ﴾ اللهُ تعَالىٰ لأهلِ الجنَّةِ: ﴿هَل أنتُم مُطَّلعونَ﴾. وقيلَ: هو مِن قولِ المؤمنِ لإخوانِهِ في الجنَّةِ هَل أنتُم مُطَّلعُونَ إلىٰ النَّارِ لِنَنْظُرَ كَيفَ حَالُ ذلكَ القَرينِ. وقيلَ: هو من قولِ الملائكَةِ. وليسَ ﴿هَل أنتُم مُطَّلعونَ﴾ باستفهام، إنما هُوَ بمعنىٰ الأَمْرِ، أي اطَّلِعُوا، قالَهُ ابنُ الأعرابي وغيرُهُ.

وقالَ ابنُ عبَّاس في قولِهِ تعَالىٰ: ﴿هَل أنتُم مُطَّلعونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ قالَ: إنَّ في الجنَّةِ كِوى [أي نوافذ] يَنْظُرُ أهلُها منها إلىٰ النَّارِ وأهلِها. وكذلكَ قال كعبٌ فيما ذكَرَ ابنُ المبارَكِ، قالَ: إنَّ بينَ الجنَّةِ والنَّار كُوى، فإذا أرادَ المؤمنُ أنْ ينظُرَ إلىٰ عدُوٍّ كانَ لَهُ في الدُّنيا اطَّلَع مِن بَعْضِ الكوَى، قَالَ اللهُ تَعالىٰ: ﴿فَاطَّلَعَ فَرآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي: في وسطَ النَّارِ والحسَكُ حَواليه، قالَهُ ابنُ مَسعُود. وعَن قتادةَ قَالَ: قالَ بعضُ العلماءِ: لولا أنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلا عرَّفَهُ إيَّاهُ لما عرَفَهُ، لَقد تَغيَّر حَبرهُ وسبرهُ. فعندَ ذَلِكَ يَقُولُ: ﴿قَالَ تَاللهِ إنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾ قال الكسائيُّ: ﴿لَتُردين﴾ أي: لتهْلكني، والرَّدَى: الهلاكُ. وقالَ المبردُ: لتوقِعَني في النَّار ﴿وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ أي: عِصمتُهُ وتَوفيقُه بالاستِمسَاكِ بِعروَةِ الإسلام والبَراءةِ مِن القَرينِ السُّوء. ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ قال الفراءُ: أي: لكنتُ مَعَكَ في النَّار مُحضراً. و(أحضر) لا يُسْتَعْمَل مطلقاً إلاَّ في الشَّرِّ، قالَهُ الماورديُّ.

قوله: ﴿أفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ (أفما) الهمزةُ فيها للاستِفْهَام دَخلَت علىٰ فاءِ العَطْفِ، والمعطوف مَحذُوف معناهُ «أنَحْنُ مُخلَّدُونَ مُنَعّمونَ فما نحن بميتينَ وَلا مُعذَّبين». ﴿إلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ يكون استثناءً ليس مِنَ الأوَّلِ ويكونُ مصدراً، لأنَّهُ منعوتٌ. وهُوَ مِن قولِ أهلِ الجنَّةِ للملائكَةِ حينَ يُذْبَحُ

الموتُ، ويُقَالُ: يَا أهل الجنةِ خلُودٌ ولا مَوت، ويا أهلَ النَّارِ خُلُودٌ ولا مَوت.

وقِيل: هُوَ مِن قولِ المؤمنِ علىٰ جِهَةِ الحديثِ بِنِعْمَةِ اللهِ في أنَّهم لا يَمُوتُونَ ولا يُعَذَّبونَ، أي: هَذِهِ حَالُنا وصِفَتُنَا.

وقيل: هُو مِن قولِ المؤمنِ تَوبيخاً للكافِرِ لما كانَ يُنكِرُهُ مِنَ البَعْثِ، وأنَّهُ ليس إلاَّ الموت في الدُّنيا. ثمَّ قالَ المؤمنُ مشيراً إلىٰ ما هُو فيهِ من السرور والنَّعيم ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يحتَمَل: أنْ يكونَ هَذا مِن كلام المؤمِنِ لَمَّا رَأى مَا أعَدَّ اللهُ لَهُ في الجنَّةِ وما أعطاهُ قَالَ: ﴿لمثلِ هَذَا﴾ العطاءِ والفَضْلِ ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ ويُحْتَمَل أنْ يكونَ مِن قولِ الملائكَةِ.

وقيل: هُو مِن قولِ اللهِ عزَّ وَجَلَّ لأهلِ الدُّنيا، أي: قَد سَمِعتُم مَا في الجنَّةِ مِن الخيراتِ والجزاءِ، و﴿لمثلِ هَذَا﴾ الجزاء ﴿فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ﴾. وقالَ النَّحاسُ: وتَقْديرُ الكلام ـ واللهُ أعلَمُ ـ فَليَعْمَل العامِلُونَ لِمِثْلِ هَذَا. واللهُ تعالىٰ أعلمُ وأحكم.

❖ ❖ ❖

المنافقون في الدَّرك الأسفل

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ [النساء: ١٤٥].

قال الزمخشري: المنافقون أخبثُ الكفرةِ وأبغضهم إلىٰ اللهِ تعالىٰ وأمقتهم عنده، لأنهم خلطوا بالكفر تمويهاً وتدليساً وبالشكرِ استهزاء وخداعاً ولذلك أنزل فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ﴾ انتهىٰ.

وقال القرطبي: المنافق في الدَّرك الأسفل وهي الهاوية، لغلظ كفره وكثرة غوائله وتمكنه من أذى المؤمنين.

أخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدينا، وابن جرير، وابن أبي حاتم في «صفة النار» عن ابن مسعود: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ﴾ قال: في تَوابيت من حديدٍ مقفلة عليهم، وفي لفظ: مبهمة عليهم، أي مقفلة لا يهتدون لمكان فتحِهَا.

وأخرج عبدُ بنُ حميد عَن أبي هريرةَ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ﴾ قال: الدَّرك الأسفل: بيوت من حديد لها أبوابٌ تطبقُ عليها، فيوقد من تحتهم ومن فوقهم.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي هريرة: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ﴾ قال: في توابيت ترتج عليهم.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ..﴾ يعني في أسفل النار.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عبد الله بن كثير قالَ: سمعت أن جهنم أدراك منازل، بعضها فوق بعض.

وأخرج ابن أبي الدينا في «صفة النار» عن أبي الأحوص قالَ: قالَ ابن مسعود: أيُّ أهل النار أشد عذاباً؟ فقالَ رجلٌ: المنافقون. قالَ: صَدَقْتَ، فهل تدري كيفَ يُعَذَّبون؟ قال: لا. قَالَ: يُجْعَلُونَ في توابيتَ مِن حديدٍ تصمد عليهم، ثم يجعلونَ في الدَّركِ الأسفل، في تَنانير أضيق من زجّ، يقال له: جبّ الحزَنِ، يطبق علىٰ أقوام بأعمالهم آخِرَ الأبدِ. عافانا اللهُ الكريم من ذلكَ.

صِفَةُ النِّفاق والمنافِق

اعلم أنَّ المنافقَ مَوْصُوفٌ بِالنَّقَائِصِ، كَاذِبٌ مُدَلِّسٌ خَائِنٌ، لا تُوافِقُ سَرِيرَتُهُ عَلانِيَتَهُ. وَفِي الْعَقِيدَةِ: يُبْطِنُ الْكُفْرَ وَيُظْهِرُ الإِسْلامَ.

والنِّفَاقُ هُوَ أنْ يُظْهِرَ الإِيمَانَ ويَسْتُرَ الْكُفْرَ، وَقَدْ يُطْلَقُ النِّفَاقُ عَلَىٰ الرِّيَاءِ، قَالَ صَاحِبُ اللِّسَانِ: لأَنَّ كِلَيْهِمَا إظْهَارُ غَيْرِ مَا فِي الْبَاطِنِ.

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: أَسَاسُ النِّفَاقِ الَّذِي بُنِيَ عَلَيْهِ هُوَ الْكَذِبُ، وَأَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ.

وَالصِّلَةُ بَيْنَ التَّقِيَّةِ وَبَيْنَ النِّفَاقِ، أَنَّ الْمُنَافِقَ كَافِرٌ فِي قَلْبِهِ لَكِنَّهُ يُظْهِرُ بِلِسَانِهِ وَظَاهِرُ حَالِهِ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ وَيَعْمَلُ أَعْمَالَ الْمُؤْمِنِينَ لِيَأْمَنَ عَلَىٰ نَفْسِهِ فِي الْمُجْتَمَعِ الإِسْلامِيِّ وَلِيُحَصِّلَ الْمِيزَاتِ الَّتِي يُحَصِّلُهَا الْمُؤْمِنُ. فَهُوَ مُغَايِرٌ لِلتَّقِيَّةِ، لأَنَّهَا إِظْهَارُ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ الْخَوْفِ عَلَىٰ نَفْسِهِ مَا يَأْمَنُ بِهِ مِن أَمَارَاتِ الْكُفْرِ أو الْمَعْصِيَةِ مَعَ كَرَاهَتِهِ لِذَلِكَ فِي قَلْبِهِ، وَاطْمِئْنَانِهِ بِالإِيمَانِ.

ومن أهمِّ صفات المنافقين التي جاءت في القرآن الكريم:

(١) الإفساد في الأرض وعدم الإصلاح:

قال تعالىٰ في وصف المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١ - ١٢].

(٢) اتهام المؤمنين بالسَّفه:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

(٣) خداع الذين آمنوا بإظهار الإيمان إذا قابلوهم، ثم إظهار الكفر مع أوليائهم:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۝ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤ - ١٥].

(٤) الإعراض عن التَّحاكم إلىٰ شرع الله وصدّ النّاس عن الحكم بما أنزل الله:

قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ۝ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠ - ٦١].

(٥) اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين:

قال الله تعالىٰ: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨ - ١٣٩].

(٦) الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف:

قال الله تعالىٰ: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: عن الإنفاق في الطاعة. ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ تركوا طاعته ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ تركهم من لطفِهِ.

أنواع النِّفاق

النفاق نوعان:

(١) **نفاق اعتقادي:** وهو أن يُظْهِرَ الإنسانُ الإيمانَ ويُبطِنُ خلافَ ذلكَ. وهو النِّفاقُ الأكبرُ الَّذي يُظهر صاحبُهُ الإسلامَ، ويُبطن الكفرَ، وهذا النَّوعُ مُخْرِجٌ مِن الدِّينِ بالكليةِ، وصاحبُهُ في الدَّرك الأسفلِ مِنَ النَّار.

وهو ستة أنواع:

١ ـ تكذيبُ الرسولِ ﷺ.

٢ ـ تكذيبُ بعضِ مَا جاءَ بهِ الرَّسُولُ ﷺ.

٣ ـ بُغضُ الرسولِ ﷺ.

٤ ـ بغضُ بعض ما جاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ.

٥ ـ المسرَّة بانخفاضِ دِينِ الرَّسولِ ﷺ.

٦ ـ الكراهيةُ لانتصَارِ دِينِ الرَّسُولِ ﷺ.

(٢) **ونفاق عملي:** وهو أن يكون الإنسان مؤمناً ظاهراً وباطناً إلاَّ أنه يخالف في بعض أعمالِهِ الظَّاهرة العملَ الصَّالح كـ(خيانةِ الأمانةِ، والتَّحدُّثِ بالكذبِ، وخُلْفِ الوعْدِ..)..

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ». [متفق عليه].

وفي رواية لهما: «أَرْبَعٌ مَن كُنَّ فِيهِ كانَ مُنافِقاً خالِصاً، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِن نِفاقٍ حتَّىٰ يَدَعَها: إِذَا ائتُمِن خانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خاصَمَ فَجَرَ». وفي رواية مسلم: «إذا وعدَ أخلفَ» بدل «وإذا ائتُمِن خان».

حكم النِّفاق

● حكم النِّفاق الاعتقادي: هو كَحكم الكَافرين، وهو الخلودُ في النَّار.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

● حكمُ النِّفاق العَمَلِيّ: حكمهُ حكم الفسقِ، وهو معصيةٌ وكبيرةٌ يجبُ الرجوع عنها.

وقال بعضُهم: هو عملُ شيءٍ من أعمالِ المنافقين، مع بقاءِ الإيمان في القلبِ، وهذا لا يُخرج من الملَّةِ، لكنَّه وسيلةٌ إلىٰ ذلكَ، وصاحبُهُ يكونُ فيه إيمانٌ ونفاقٌ، وإذا كَثُرَ صارَ بسببهِ منافقًا خالصًا. واللهُ تعالىٰ أعلمُ وأحكم.

أمَّا الرِّدةُ:

فهي لغةً: الرُّجُوعُ.

والرِّدَّةُ في الاصطلاحِ الشَّرعي: هي الكفرُ بَعْدَ الإسلامِ.

أمَّا أنواعُ الرِّدةِ:

فالرِّدةُ ـ والعياذُ باللهِ ـ تحصلُ بارتكابِ ناقضٍ من نواقضِ الإسلام، ونواقض الإسلام كثيرةٌ ترجع إلىٰ أربعةِ أقسام، هي:

(١) الرِّدَّة بالقول:

كسبِّ اللهِ تعالىٰ، أو رسوله ﷺ، أو ملائكته، أو أحدٍ من رسلِهِ، أو دينه، أو ادِّعاء علم الغيبِ، أو ادِّعاء النُّبوة، أو تَصديق من يَدَّعيها، أو دعاء غير الله، أو الاستعانةِ به فيما لا يقدرُ عليه إلاَّ الله، والاستعاذة به في ذلك أيضاً.. إلخ..

③ الرِّدَّةُ بالفعل:

كالسجودِ للصَّنم، والشيطان، والفرج، والشَّجر، والحجرِ، والقبورِ، والذَّبح لها، وإلقاءِ المصحفِ في المواطنِ القَذِرَةِ أو شيئاً منه ولو آية، وعَمل السِّحر، والحكم بغيرِ ما أنزلَ اللهِ معتقدًا حِلَّهُ.. إلخ..

④ الرِّدة بالاعتقاد:

كاعتقادِ الشَّريك لله، أو أنَّ الزِّنا والخمر والرِّبا حلالٌ، أو أنَّ الخبزَ حرامٌ، وأنَّ الصلاةَ غير واجبة، ونحو ذلكَ مما أُجمع علىٰ حِلِّه، أو حرمتِهِ أو وجوبِهِ، إجماعًا قطعيّاً، ومثلُهُ لا يَجْهَلُهُ.. إلخ..

⑤ الرِّدّةُ بالشَّك:

كأن يشكَّ في شيءٍ مما سبقَ، كمن شَكَّ في تحريم الشِّركِ، أو تحريم الزِّنا والخمرِ، أو في حِلِّ الخبزِ، أو شكَّ في رسالةِ النبيِّ ﷺ أو رسالة غيره من الأنبياءِ، أو في صِدْقِهِ، أو شكَّ في دينِ الإسلام، أو في صلاحيتِهِ لهذا الزَّمان، أو شكَّ في القرآن ولو بآيةٍ منهُ، أو شكَّ أنَّ هذا القرآنَ ناقص، فيه بعضُ الآيات الناقصةِ، والدليلُ علىٰ كفرهِ تكذيبُهُ مِن حيثُ لا يَشْعُر قولَهُ تَعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. فحين يأتي لكع ابنُ لكع ويقول القرآن ناقص، فمعنىٰ هذا أَنَّهُ نسبَ العجزَ أولاً للهِ تعالىٰ بأنَّه غيرُ قادر علىٰ حفظِهِ، ثمَّ كذَّبَ هذه الآيةِ الكريمة، وماذا بعد الحقِّ إلاَّ الضَّلالُ المبين.. ولو ادَّعىٰ أَنَّهُ مسلم، بل هو كافرٌ..

⑥ الرِّدَّة بالتَّرك:

كمن تَرَكَ الصَّلاة جاحداً وقال بعضهم: متعمدًا، لقول النبيِّ ﷺ: «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة» [رَوَاهُ مُسلِمٌ]. وغيره من الأدلة علىٰ كفره..

أمَّا الفِسق

الفسق لغةً: هو الخروجُ.

والفسقُ شرعًا: الخروجُ عَن طاعةِ اللهِ تعالىٰ، وهو يشمل الخروج الكليِّ، فيقالُ للكافرِ فَاسِق، والخروج الجزئيِّ، فيقال للمؤمنِ المرتكبِ لكبيرةٍ مِنَ كبائرِ الذُّنوب فاسق.

ومِنَ التَّعريف يَتَّضح أنَّ الفسق فِسقَان فِسْقٌ يَنْقُل عَن المِلَّةِ، وهو الكفرُ، فيسمىٰ الكافرُ فاسقًا، فقد ذكرَ اللهُ تعالىٰ إبليسَ فَقَالَ: ﴿فَفَسَقَ عَن أَمْرِ رَبِّه﴾ [الكهف: من الآية٥٠].

ويُسَمَّىٰ مُرتكبُ الكبيرةِ مِن المسلمينَ فَاسقًا، ولم يُخْرِجهُ فسقُهُ مِنَ الإسلام، قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

أمَّا الضّلال

الضَّلال: هُوَ العُدُول عَن الطريقِ المستقيم، وهُو ضِدّ الهدايةِ، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: من الآية ١٥].

أمَّا الطواغيت

(١) إبليس.

(٢) الكافر.

(٣) من عُبِدَ وهو رَاض (٤) من دَعَا النَّاس إلىٰ عبادةِ نَفْسِهِ (٥) مَن ادَّعىٰ شيئاً من عِلْم الغيبِ (٦) من حكمَ بغيرِ ما أنزلَ اللهُ مُستحلاًّ ذلكَ.

خِطابٌ إلى منافقٍ

أيُّها المنافقُ..

◉ يا من يخدعُ اللهَ سبحانَهُ وهو خادِعُهُ..

◉ يا من في قلبِهِ مرضٌ فزادَهُ اللهُ مرضًا..

◉ يا من يُظهر مَا لا يُبطن، ويُبدي ما لا يُخفي..

◉ يا مَن جعَلتَ اللهَ جَلَّ جلالُهُ أهونَ النَّاظرين إليكَ حينَ تَستَخْفِي منَ النَّاس وتخلو بمحارم اللهِ لتُبارزَ العزيزَ الجبَّار بالذَّنب، وتُحاربهُ بالمعصيةِ، تَذكَّر قولَهُ سبحانَهُ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٨]. فاحذَر مِن غضب الجبَّار سبحانَهُ وتعالىٰ وانجُ بنفسِكَ مِنَ النَّار، ولا تَنسَ قول الشَّاعر:

وإذا خلوتَ بريبةٍ في ظلمةٍ ... والنَّفسُ داعيةٌ إلىٰ العِصيان
فاستَحي مِن نَظَرِ الإلهِ وَقُل لهَا ... إنَّ الَّذي خَلَقَ الظلامَ يَرانِي

◉ يا مَن يقوم إلىٰ الصَّلاة وغيرها مِنَ العباداتِ ببرودةٍ وخمولٍ وكسلٍ، فَلا يَتَدبَّرها ولا يَعيها ولا يبتَغِي بهَا وجهَ اللهِ سُبحانَهُ، اعلَم أنَّك تقومُ إليها مراءاةً وسُمْعَةً ونفاقاً، لا طاعةً وامتثالاً. قالَ تَعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَىٰ الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاؤُونَ النَّاسَ﴾ [سورة النساء: من الآية ١٤٢]. فإياك والكسلَ أو التراخي عن أداءِ العباداتِ والتَّباطؤ في عملِ الطَّاعات، لأنَّ ذلك كُلّه من علاماتِ النِّفاق ودلائِلِه، لاسيما متىٰ كان وقتُ تلك العبادات وقتاً للرَّاحة ولذة النَّوم. فَعن أبي هريرةَ ﷺ قالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ صَلاةٌ أَثْقَلَ عَلَىٰ الْمُنَافِقِينَ مِن الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ الْمُؤَذِّنَ

فَيُقِيمَ ثُمَّ آمُرَ رَجُلاً يَؤُمُّ النَّاسَ ثُمَّ آخُذَ شُعَلاً مِن نَارٍ فَأُحَرِّقَ عَلَىٰ مَن لا يَخْرُجُ إِلَىٰ الصَّلاةِ بَعْدُ». [متفق عليه]. فَاْحذر من هـذه الصفة الذميمة والسلوك السيئ، وعليكَ بالمسارعةِ إلىٰ الطَّاعات والحرص علىٰ إتيانها بهمةٍ عاليةٍ، ونشاطٍ مستمرٍ، وحيويةٍ دائمةٍ دون كسلٍ أو مللٍ أو تباطؤ.

◉ يا من إذا قيلَ لَهُ لا تُفسد في الأرضِ قَال: إنما أنا من المصلحينَ، لا تكذب في الحديثِ فإنَّهُ مِن أعظم عَلامات النِّفاقِ العَمَلِيّ، ومركز دائرتهِ التي لا يقومُ إلاَّ عليهَا، ولذلكَ قَالَ اللهُ تعَالىٰ: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [سورة المنافقون: من الآية ١]. وثبت في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ حذَّر منه بقوله: «آيةُ المنافق ثلاثٌ: إذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أخلَفَ، وإذا ائتُمِنَ خانَ» [رواه مسلم]. فالكذب علامةٌ واضحةٌ تشهدُ علىٰ صاحبِها بالنِّفاق لما فيهِ من قَلْبٍ للحقائقِ، ومخالفةٍ للواقع، ولأنَّه يُنْبِئُ عن تَغَلْغُل الفَسَادِ في نفسِ صاحبِهِ.

فالحذَر الحذَر من الكذبِ جداً كانَ أو هزلاً، والحذَر من التَّساهل في شأنه فهو طريقٌ إلىٰ الهلاك، وسبيلٌ إلىٰ الوقوع في حبائلِ الشَّيطان، والبعد عن الإيمان.

◉ يا مَن طَبَعَ اللهُ عَلىٰ قلبهِ فهو لا يَفْقَهُ ولا يَعِي، إيَّاك ولمز الملتزمينَ مِنَ المؤمنين الصَّالحين، واحذَر مِنَ الخوضِ في أعراضِهم والتَّعرضِ لهم بلسانكَ الَّذي لا همَّ له إلاَّ النيلَ منهم في المجالس، وتَشويه صُورهم والاستهزاء بهم، فإنَّ من علاماتِ النِّفاق النيلَ مِنَ الصَّالحين، وتتبُّعهم بالسُّخرية في كلِّ مكان. قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٤].

والحذرَ الحذرَ من ممارسةِ هذا الفعل الشَّنيع بحجَّةِ المزاح والتَّسلية، فَقَد وردَ

التَّحذيرُ من ذلك في قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [سورة التوبة: ٦٥].

◉ يا مَن يحبُّ أنْ تَشيعَ الفاحشةُ في الَّذين آمنوا، أمَا تخاف عقوبةَ اللهِ سبحانه وتخشَىٰ عذابَهُ؟! قالَ تعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

◉ يا مَن يَرى المنكرات فَلا يُنكرها، بل يأمرُ بالمنكرِ وَيَنْهَىٰ عَن المعروفِ، فلا يُتمعَّرُ وَجهُهُ غضباً لحرماتِ اللهِ سبحانَهُ تَذكَّر قولَهُ تعالىٰ: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [سورة التوبة: ٦٧].

◉ يا مَن لا يُريدُ بعملِهِ وجهَ اللهِ سُبحانه ولا الدارَ الآخرة، إيَّاك والتَّخلف عن صلاةِ الجماعةِ والتَّأخر عَن أدائها في المساجدِ فَقَد وردَ في الحديث عَن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قوله: «وَلَقَد رأيتُنَا وما يتخلَّفُ عنها [أي صَلاةِ الجماعةِ] إلا مُنافِقٌ، مَعلومُ النِّفاق، وَلَقَد كانَ الرَّجُل يُؤتىٰ بهِ يُهادى بينَ الرَّجُلَين حتَّىٰ يُقَام في الصَّفِّ». [رواه مسلم]. ولأنَّ التخلف عن صلاة الجماعة في المسجد مع جماعة المسلمينَ مِن غيرِ عُذر شرعيّ ذنبٌ عظيمٌ يدلُّ علىٰ مرضٍ في القلبِ، ومُؤشر علىٰ مخالفةِ الجماعةِ وعدَمِ الامتثالِ لأوامر الشَّرع العظيم وهَدْيِ النُّبوةِ الكَريم.

◉ يا من يخونُ الأمانَةَ، إيَّاك والخيانَةَ فهي من علاماتِ النِّفاق العملي التي وصفَ النبيُّ ﷺ صاحبِهَا بالنفاقِ بقولِهِ: «وإذا ائتمن خانَ». واعلم أنَّ خيانة الأمانةِ غير محصورة في الودائع الماليةِ ونحوها فقط، ولكنها شاملةٌ لكل خيانةٍ قوليةٍ أو فعليةٍ، أو إفشاءٌ للأسرارِ ونحو ذلك مما يؤتمنُ عليهِ الإنسانُ في تعامُلِهِ مَع من حوله. ولقد حذَّر منها الإسلامُ ونهىٰ عنها لقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ

أمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾ [سورة البقرة: من الآية ٢٨٣]. واعلم أنَّ خيانة الأمانة قد تكون فيما بينَ العبدِ وربِّهِ جلَّ وعَلا في العباداتِ والطَّاعات، وقد تكون فيمَا بين العبدِ وغيره من بني البشرِ في شتَّىٰ صُور المعاملات، وليس هذا فحسبُ، بل إنَّ الخيانة دليلٌ علىٰ عدم اكتمالِ إيمان الفردِ لما ورَدَ عَن أنسٍ ﷺ أنَّهُ قَالَ: «مَا خَطَبَنَا رسولُ اللهِ ﷺ إلاَّ قَالَ: «لا إيمانَ لمن لا أمانَةَ لَهُ..» [الحديث صحيح، رواه أحمد].

◉ يا من يُخلفُ الوعدَ ولا يفي بالعهدِ، تذكّر أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ جعلَ تلك الصِّفَةَ الذَّميمة خصلةً من خصالِ النِّفاق لما يترتبُ عليها من المفاسدِ الفرديةِ والمضارّ الاجتماعية، حيث قالَ ﷺ في وصفِ المنافق: «وإذا وَعَدَ أخلَفَ». وما ذلك إلاَّ لأنَّ هذه الصِّفة تَتَنَافَىٰ مع سِمَاتِ المؤمنين الصَّادقين، فاحذَر أن تَعِدَ أحداً من النَّاس موعداً ثم تُخلفُ وعدَكَ لَهُ أو أن تتأخَّر عَن الوفاءِ بما التزمتَ به وأنت قادرٌ علىٰ ذلكَ، فإن ذلكَ دليلٌ علىٰ عَدَم احترام الآخرينَ، واللامُبالاة بمشاعرهم وأحاسيسهم، إضافةً إلىٰ ما يترتب عليها من انعدام الثِّقة بين أبناء المجتمع. وتذكّر قول الشاعر:

يا واعداً أخلَف في وعده ... ما الخُلف من سيرة أهل الوفا

◉ يا من إذا خاصمَ فَجَرَ، وحَادَ عن الحقِّ إلىٰ الباطل، تذكَّر قولَ النَّبِيِّ ﷺ: حيث قالَ في وصفِ المنافق: «وإذا خاصمَ فجرَ» وقولُهُ ﷺ: «وإنَّ الفُجُورَ يَهدِي إلىٰ النَّارِ» [كلاهما متفق عليه].. واعلم أن الفجور في الخصومة صفةٌ خبيثةٌ من صفاتِ النِّفاق وخصلةٌ قبيحةٌ لما يَترَتَّب عليها من مخالفةٍ للحقيقةِ وخُروج عن الحقِّ فينتشر بذلكَ الباطلُ ويكثُر التَّعدي ويستمرُ الفسادُ.

فإيَّاك والفجورَ وعليكَ بالصِّدق والتزام الحقِّ في رضاك وحين سخطكَ ولا

تجعل للنِّفاق سبيلاً إلىٰ نفسِكَ عَن طريق إبطالِ الحقِّ وإنكارهِ - والعياذُ بالله -.

◉ يا من إذا عاهدَ غَدَرَ ونقضَ، كيفَ تَغْفَل عَن قوله تَعَالىٰ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة النحل: ٩١]. ثم كيف تنسىٰ ما يرويه أنس ﷺ عن النبيِّ ﷺ أنهُ قَالَ: «لكل غادرٍ لواءٌ يومَ القيامة يُعرَفُ به» [رواه مسلم]. وليس هذا فحسب فقد نَهَت تعاليمُ الإسلام عَن الغدرِ ولو مَع غيرِ المسلمينَ لما يَتَرَتَّب عليه من ضياع للثِّقةِ وفقدانها، ولما يُسَبِّبُه ذلك السُّلوك الشَّائن - والعياذ باللهِ - من ضياعٍ للحقوق واضطرابٍ للحياةِ في المجتمع. وتذكّر - هدانا اللهُ وإيَّاك - أنَّ الغدرَ صفةٌ خبيثةٌ، وخصلةٌ ذميمةٌ من خصالِ النِّفاق التي تُنبئ عن خُبث النِّية وفسادِ السَّريرة والطويَّة - قالَ الناظم:

والغَـدْرُ بِالعَـهْدِ قَبيـحٌ جـداً … شَرُّ الوَرَى مَن ليسَ يَرْعَىٰ عَهْدًا

◉ وأخيراً وليسَ آخراً لا تنس يا من اشترى الضَّلالة بالهدى أنَّ للنِّفاق صوراً متعددة وأشكالاً مختلفة، تعتمدُ جميعُـهَا علىٰ إظهارِ الخيرِ وإبطانِ خِلافِهِ سواءً كان ذلك في القولِ أو العملِ أو النِّيةِ.

واعلم - هدانا اللهُ وإياك - أنَّ النفاقَ هلاكٌ للفردِ، ودمارٌ للمجتمع، وسَبيلٌ إلىٰ ضياع الحقوقِ وعَدَم استقامَةِ الأمورِ، ومؤشرٌ لفقدانِ الثِّقةِ بينَ الناس. فكُن كما قَالَ الشَّاعِرُ:

خَـلِّ النِّفَـاقَ لأهلِـهِ … وعليـكَ فـالتَمِسِ الطَّرِيقَـا

وارْغَـب بِنَفْسِـكَ أنْ تُـرَ … ى، إلاَّ عَـدُوّاً أو صَدِيْقَـاً

[الدكتور صالح بن علي أبو عرَّاد، بتصرف]

أنعمُ النَّاس في الدُّنيا

(وهو من أهل النار)

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَم أَهْلِ الدُّنْيَا مِن أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّار صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْراً قطّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطّ؟ فيَقُولُ: لا وَاللهِ يَا رَبّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْساً فِي الدُّنْيَا مِن أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤساً قطّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطّ؟ فيَقُولُ: لا، وَاللهِ يا رَبّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قطّ، وَلا رَأَيْتُ شِدَّةً قطّ».

[رواه مسلم وأحمد والنسائي وابن ماجه].

وقوله: (فيُصْبَغُ في النَّار صبغة) أي يغمس غمسة (والبؤس) هو الشدة والله أعلم.

◉ وروى أحمد في مسنده، بسند فيه ضعف عن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، عَن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ مُوسَىٰ قَالَ: أيْ رَبِّ، عَبْدُكَ المُؤْمِنُ مُقتَّرٌ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا!

قَالَ: فَيُفْتَحُ لَهُ بَابُ الجَنَّةِ فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا، قَالَ: يَا مُوسَىٰ، هَذَا مَا أَعْدَدْتُ لَهُ.

فَقَالَ مُوسَىٰ: أيْ رَبِّ، وَعِزَّتِكَ وَجَلالِكَ، لَوْ كَانَ أَقْطَعَ اليَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ يُسْحَبُ عَلَىٰ وَجْهِهِ مُنْذُ يَوْمَ خَلَقْتَهُ إِلَىٰ يوْمِ القِيَامَةِ، وكَانَ هَذَا مَصِيرَهُ لَمْ يرَ بُؤسًا قطُّ.

قَالَ: ثُمَّ قَالَ مُوسَىٰ: أيْ رَبِّ، عَبْدُكَ الكَافِرُ تُوَسِّعُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا! قَالَ: فَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِن النَّارِ. فَيُقَالُ: يَا مُوسَىٰ هَذَا مَا أَعْدَدْتُ لَهُ.

فَقَالَ مُوسَىٰ: أيْ رَبِّ، وَعِزَّتِكَ وَجَلالِكَ، لَوْ كَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا مُنْذُ يَوْمَ خَلَقْتَهُ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ وكَانَ هَذَا مَصِيرَهُ كَأَنْ لَمْ يَرَ خَيْرًا قطُّ».

◉ فتفكَّر بعاقبَتِكَ يَا مَن رَآهُ استَغْنَىٰ، وخُذ من غنَاكَ لِفقْرِكَ، ومِنْ صِحّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ قَبلَ مَوْتِكَ، فَإِنَّكَ لا تَدْرِي يَا عَبْدَ اللهِ مَا اسْمُكَ غداً.

الصِّراطُ فوق جَهَنَّم

إنَّهُ الصراطُ الذي يضربُهُ اللهُ تَعَالىٰ فوقَ النَّار، فيمرُّ عليهِ الناسُ تباعاً، وهو دَحْضٌ مَزَلَّةٌ، والأنبياءُ عليه يقولونَ: رَبِّ سَلِّم سَلِّم!

قَالَ شيخُ الإسلام ابنُ تيميةَ في العقيدةِ الواسطيةِ: الصِّراطُ منصوبٌ علىٰ متنِ جهنَّم، وهو الجسرُ الذي بين الجَنَّةِ والنَّار، يمرُ النَّاسُ علىٰ قدرِ أعمالهم، فَمِنْهُم من يمرُّ كلمحِ البصرِ، ومنهم من يمرُّ كالبرقِ، ومنهم من يمرُّ كالرِّيح، ومنهم مَن يمرُّ كالفرسِ الجوادِ، ومنهم من يمرُّ كركابِ الإبلِ، ومنهم من يَعْدو عدْواً، ومنهم مَن يمشي مشياً، ومنهم من يَزْحَفُ زحفاً، ومنهُم من يُخْطَفُ خطفاً ويُلقَىٰ في جهنَّم، فإنَّ الجسرَ عليه كلاليبُ تخطفُ الناسَ بأعمالهم، فمَن مَرَّ علىٰ الصِّراطِ دخلَ الجنةَ، فإذا عبرُوا عليهِ وقَفُوا علىٰ قنطرةٍ بين الجَنَّة والنَّار، فيُقتَصُّ لبعضهم من بَعْض، فإذا هُذِّبُوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخول الجنةِ. ا. هـ

وقَالَ السفاريني: الصِّراط في اللغة الطريق الواضح.

وفي الشَّرع: جسرٌ ممدودٌ علىٰ مَتْنِ جَهَنَّم، يَرِدُهُ الأوَّلُون والآخرونَ، فَهُو قَنْطَرَةٌ بينَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ.

وقد بَيَّنَ شارحُ الطَّحاوية معتقده في الصِّراط المذكور في الأحاديث فقال:

«ونؤمن بالصِّراط وهو جِسْرٌ علىٰ جهنم إذا انتهىٰ الناسُ بعد مفارَقَتِهم الموقِفَ إلىٰ الظُّلمة التي دُون الصِّراط، كما قالت عائشةُ رضي الله عنها: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِل: أينَ النَّاسُ يَومَ تُبَدَّل الأرضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَات؟ فَقَالَ: «هُم في الظُّلمَةِ دُونَ الجِسْرِ». [رواه مسلم].

وقد بَيَّنَ السَّفاريني رحمه الله تعالىٰ موقف الفِرَقِ مِن الصِّراط وهَل هُو

صراط مجازي أم حَقِيْقِي ؟ فقال: «اتَّفقت الكلمةُ بالجملةِ علىٰ إثباتِ الصِّراط في الجملة، لكنَّ أهلَ الحقِّ يثبتونه علىٰ ظاهره مِن كونه جسراً ممدوداً علىٰ مَتْنِ جَهَنَّم، أحَدُّ مِنَ السَّيف وأدقُّ من الشَّعر، وأنكر هذا الظاهر القاضي عبد الجبار المعتزلي، وكثير من أتباعه زعماً منهم أنَّه لا يمكن عبوره وإن أمكَنَ ففيه تَعْذيب، ولا عَذَابَ علىٰ المؤمنينَ والصُّلحاء يومَ القيامة، وإنَّما طريق الجنَّة المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٥].

وطريق النَّار المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣].

ومنهم من حمله علىٰ الأدلةِ الواضحةِ والمباحاتِ والأعمالِ الرَّديئة التي يسأل عنها ويؤاخذُ بها، وكلُّ هذا باطلٌ وخرافاتٌ لوجوب حَمْل النُّصُوص علىٰ حقائقها، وليس العبور علىٰ الصِّراط بأعجب من المشي علىٰ الماء أو الطيران في الهواء، أو الوقوف فيه، وقد أجاب عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام عن سؤالِ حَشْر الكافرِ علىٰ وجههِ بأنَّ القدرةَ صالحةٌ لذلك، وأنكرَ العلامةُ القَرافي كون الصِّراط أدَقّ من الشَّعر وأحدَّ مِن السَّيف، وسبقه إلىٰ ذلك شيخُه العزُّ بنُ عبدِ السلام، والحقُّ أنَّ الصِّراط وردت بهِ الأخبارُ الصحيحةُ وهو محمولٌ علىٰ ظاهره بغير تأويلٍ كما ثبتَ في الصَّحيحين والمسانيد والسُّنَن والصِّحَاح ممَّا لا يُحصىٰ إلاَّ بكلفة من أنَّه جسر مضروبٌ علىٰ متنِ جهنَّم يمرُّ عليهِ جميعُ الخلائقِ، وهم في جوازه متفاوتون.

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يُوضَعُ الميزانُ يومَ القيامةِ، فلو وُزِنَ فيه السَّماواتُ والأرضُ لوسِعتْ، فتقولُ المَلائكةُ: يا رَبّ! لِمَن تَزِن بهذا؟ فيقولُ اللهُ تَعَالىٰ: لِمَن شِئْتُ من خَلقِي، فتقولُ الملائكةُ: سُبحانَكَ! مَا عبدْنَاك حَقَّ عبادَتِك،

ويُوضَعُ الصِّراطُ مِثْل حَدِّ الموسَىٰ، فتقولُ المَلائِكةُ: من تُجيزُ علَىٰ هَذَا؟ فيَقُولُ: مَن شِئْتُ من خَلقِي، فيقولونَ: سُبحانَكَ! مَا عَبَدناكَ حَقَّ عبادَتِكَ». [صحيح لغيره، صحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي].

وفي صحيح مسلم: قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: «بَلَغَنِي أَنَّ الْجِسْرَ أَدَقُّ مِنَ الشَّعَرَةِ وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ». والله تعالىٰ أعلم.

مُرُورُ المؤمنينَ علَى الصِّرَاطِ وَخَلاصُ المؤمنينَ مِنَ المنَافِقِين

عندما يُذْهَبُ بالكفرةِ والمشركينَ إلىٰ دارِ البَوَار، جهنم يصلونها وبئس القرار، يبقىٰ في عَرَصَاتِ القيامة أتباعُ الرُّسُلِ الموحِّدُونَ وفيهم أهل الذُّنُوب والمعاصي، وفيهم أهل النِّفَاق، وتُلْقَىٰ عليهم الظلمة قبل الجِسْرِ كما في الحديث الذي روته عائشة ﷺ قالت: سُئِلَ الرَّسولُ ﷺ: أين يكونُ النَّاسُ يَومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غَيْرَ الأرْضِ والسَّمَاوَات؟ فَقَالَ: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الجِسْرِ». [رواه مسلم].

يقول شارح الطحاوية: «وفي هذا الموضع يفترقُ المنافقونَ عن المؤمنين، ويتخلفونَ عنهم، ويسبقُهُم المؤمنونَ، ويُحَالُ بينهم بِسُورٍ يمنَعُهُم من الوصولِ إليهم.

روى البيهقي بسندهِ عن مَسرُوق، عن عبدِ الله قَالَ: «يجمعُ اللهُ النَّاسَ يَومَ القِيَامَةِ» إلىٰ أن قَالَ: «فَمِنْهُمْ مَن يُعْطَىٰ نُورَهُ مِثْلَ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَمِنْهُمْ مَن يُعْطَىٰ نُورَهُ أَصْغَرَ مِن ذلِكَ، وَمِنْهُمْ مَن يُعْطَىٰ مِثْلَ النَّخْلَةِ بِيَدِهِ، وَمِنْهُمْ مَن يُعْطَىٰ أَصْغَرَ مِن ذلِكَ حَتَّىٰ يَكُونَ آخِرُهُمْ رَجُلاً يُعْطَىٰ نُورَهُ عَلَىٰ إِبْهَامِ قَدَمِهِ يُضِيءُ مَرَّةً وَيُطْفأُ مَرَّةً، فَإِذَا أَضَاءَ قَدَمُهُ قَدمَ، وَإِذَا أُطْفِئَ قَامَ. قَالَ: وَالرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَمَامَهُمْ حَتَّىٰ يَمُرَّ بِهِمْ إِلَىٰ النَّارِ فَيَبْقَىٰ أَثَرُهُ كَحَدِّ السَّيْفِ.

قَالَ: فَيَقُولُ: مُرُّوا فَيَمُرُّونَ عَلَىٰ قَدْرِ نُورِهِم، مِنْهُمْ مَن يَمُرُّ كَطَرَفَةِ الْعَيْنِ، وَمِنْهُمْ من يَمُرُّ كَالْبَرْقِ وَمِنْهُمْ مَن يَمُرُّ كَالسَّحَاب، وَمِنْهُمْ مَن يَمُرُّ كَانقضَاضِ الْكَوَاكِبِ، وَمِنْهُمْ مَن يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَن يَمُرُّ كَشَدِّ الْفَرَسِ، وَمِنْهُمْ مَن يَمُرُّ كَشَدِّ الرِّجْلِ حَتَّىٰ يَمُرَّ الَّذِي يُعْطَىٰ نُورَهُ عَلَىٰ ظَهْرِ قَدَمَيْه يَحْبُو عَلَىٰ وَجْهِهِ وَيَدَيهِ وَرِجْلَيْهِ، تُجَرُّ يَدٌ، وَتُعَلَّقُ يَدٌ، وَتُجَرُّ رِجْلٌ، وَتُعَلَّقُ رِجْلٌ، وَتُصِيبَ جَوَانِبَهُ النَّارُ، فَلا يَزَالُ كَذلِكَ حَتَّىٰ يَخْلُصَ، فَإِذَا خَلَصَ وَقَفَ عَلَيْهَا فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَعْطَانِي مَا لَمْ يُعْطِ أَحَداً إِذْ أَنْجَانِي مِنْهَا بَعْدَ إِذْ رَأَيْتُهَا». [رواه ابن أبي الدنيا والطبراني وهو حسن].

قَالَ تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۝ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ ۝ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٢ ـ ١٥].

فالمؤمنونَ يُعطونَ في يوم القيامةِ نوراً يكشفُ لهمُ الطريقَ الموصلَةَ إلىٰ جنَّاتِ النَّعيم ويجنِّبُهم العثراتِ والمزالِقَ في طريقٍ دحضٍ مزلَّة، ويُحرَمُ المنافقونَ الَّذينَ كانوا يَزعمونَ في الدُّنيا أنَّهم مَع المؤمنين، وأنَّهم منهُم، لكنَّهم في الحقيقةِ مفارقونَ لَهُم لا يهتدونَ بِهُداهم ولا يسلكُونَ سبيلَهُم مِنَ النُّور، كما حَرَمُوا أنفُسَهُم في الدُّنيا من نُورِ القرآنِ العَظيم، فيطلُبُ المنافقونَ مِن أهلِ الإيمانِ أنْ

ينتظرُوهُم ليستَضيئوا بنورهِم وهناكَ يُخْدَعُون كما كانُوا يَخدَعُونَ المؤمنينَ في الدُّنيا، ويقالُ لهم: ارجِعُوا وراءكُم فالتَمِسُوا نوراً، وبذلكَ يَعُودُ المنافقونَ إلىٰ الوراءِ ويَتَقَدَّمُ المؤمنونَ إلىٰ الأمام فإذا تَمايَزَ الفريقانِ ضَرَبَ اللهُ بينَهُم بسورٍ له بابٌ باطنُهُ فيهِ الرَّحمةُ وظاهرُهُ مِن قِبَلِهِ العذابُ، ويكونُ مصيرُ المؤمنينَ والمؤمنات الجنَّة، ومصير المنافقينَ والمنافقاتِ النَّار.

وقد أخبرَ الحقُّ أن دعاءَ المؤمنين عندما يسعىٰ نورهم بين أيديهم وبأيمانهم هو ﴿رَبَّنا أتْمِم لَنا نُورَنَا﴾ قالَ تعالَىٰ: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: من الآية ٨]. قَالَ مجاهد والضحاك والحسن البصري وغيرهم: هذا يقوله المؤمنون حين يرونَ يومَ القيامَةِ نورَ المنافقين قد طفئ.

هَل المرورُ عَلى الصِّراطِ للمؤمنينَ دُونَ المشركينَ؟

لقد دَلَّت الأحاديثُ علىٰ أنَّ الأممَ الكافرةَ تَتبع ما كانَت تعبدُ من آلهةٍ باطلةٍ، فتسيرُ تلكَ الآلهةُ بالعابدينَ حتىٰ تَهوي بهم في النَّار، ثمَّ يَبْقَىٰ بعدَ ذلكَ المؤمنونَ وفيهم المنافقُونَ، وعصاةُ المؤمنينَ، وهؤلاء هُم الَّذين يُنْصَبُ لهم الصِّراطُ.

ولم يتطَرَّق إلىٰ هذه المسألةِ مِن أنَّ الصراطَ إنَّما يكونُ للمؤمنين دونَ غيرهم من الكفرةِ المشركين والملحدينَ غير ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالىٰ فإنَّه قَالَ في كتابه التخويف من النار: «واعلَم أنَّ النَّاسَ منقسمونَ إلىٰ مؤمنٍ يعبدُ اللهَ وحدَهُ لا يشرك به شيئاً، ومشرك يعبدُ معَ الله غيره، فأمَّا المشركونَ فإنَّهم لا يمرونَ علىٰ الصِّراطِ، وإنَّما يقعونَ في النَّار قبلَ وَضْع الصِّراطِ». وقد ساقَ بعضَ الأحاديثِ ومنها حديث أبي سعيد الخدري ﷺ في الصَّحيحين، ثم قَالَ: «فهذا الحديثُ

صريحٌ في أنَّ كلَّ مَن أظهر عبادَةَ شيءٍ سِوى اللهِ كالمسيح، والعُزَير، من أهلِ الكتابِ فإنَّه يلحق بالمشركين في الوقوع بالنَّار قبل نصبِ الصِّراط، إلاَّ أنَّ عُبَّادَ الأصنام والشَّمس والقَمَرِ وغير ذلكَ مِنَ المشركينَ تَتْبَعُ كلُّ فرقةٍ منهم ما كانَت تعبدُ في الدُّنيا، فَتَرِد النَّارَ مَع معبودِهَا أوَّلاً، وقد دلَّ القرآنُ علىٰ هذا المعنىٰ في قوله تعالىٰ في شأن فرعونَ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨]. وأمَّا مَن عَبَدَ المسيحَ والعزيرَ من أهل الكتابِ فإنَّهم يتخلَّفُون مع أهل المِلَلِ المنتسبينَ إلىٰ الأنبياءِ ثمَّ يردونَ النَّار بعدَ ذَلِكَ.

وقد ورد في حَدِيثٍ: «أنَّ مَن كانَ يعبدُ المسيحَ يمثل لهُ شيطان المسيح فيتبعونَهُ، وكذلكَ من كان يعبدُ العُزَيرَ..».

وفي حديثِ (الصُّور): «أنَّه يمثّل له مَلَك علىٰ صورة المسيح ومَلَك علىٰ صورة العُزير، ولا يبقىٰ بعدَ ذلكَ إلاَّ من كانَ يعبدُ الله وحدَهُ في الظاهر، سواء أصادقاً كان أم منافقاً من هذه الأمَّة وغيرها ثمَّ يَتَمَيَّز المنافقونَ عن المؤمنين بامتناعهم عن السُّجود، وكذلك يمتازونَ عنهم بالنُّور الَّذي يُقسم للمؤمنين» وهذا نظر سديدٌ من قائلِهِ رحمهُ اللهُ، واللهُ تَعَالىٰ أعلم.

مَعْنَى وُرُود النَّار

ذهب بعضُ العُلَماءِ إلىٰ أنَّ المرادَ بورودِ النَّار المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً﴾ [مريم: ٧١]. هو دخول النَّار، وهذا قول ابن عباس، وكان يستدلُّ علىٰ ذلك بقولِ اللهِ تَعَالىٰ في فِرعَونَ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

وبقوله تعالىٰ: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ [مريم: ٨٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٩].

وروى مسلم الأعور عن مجاهد: ﴿وإنْ مِنكُم إلاَّ وَارِدُهَا﴾ قَالَ: داخلها.

وقال بعضُ أهل العلم: إنَّ المراد بالورود هنا المرور علىٰ الصِّراط، يقول شارح الطحاوية: «واختلف المفسرون في المراد بالورود في قوله تعالىٰ ﴿وإنْ مِنكُم إلاَّ وَارِدُهَا﴾. ما هو؟ والأظهر والأقوى أنّه المرور علىٰ الصِّراط قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢].

وفي صحيح مسلم، عنْ أُمِّ مُبَشِّرٍ الأَنْصارِيَّةِ رَضِيَ الله عَنْهَا أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: «لا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ الله مِن أَهْلِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا». قالَتْ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ فَانْتَهَرَهَا. فَقَالَتْ حَفْصَةُ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدها﴾ [مريم: ٧١] فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢]».

أشار ﷺ إلىٰ أن ورود النَّار لا يستلزم دخولها، وأنَّ النَّجاةَ مِنَ الشَّرِّ لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال: نجاه اللهُ منهم، ولهذا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [هود: ٦٦]. ولم يكن العذاب أصابهم، ولكن أصابَ غيرهم، ولولا ما خَصَّهم اللهُ به من أسباب النَّجاة لأصابهم ما أصابَ أولئك، وكذلك حال الوارد علىٰ النَّار، يمرُّون فوقها علىٰ الصراط، ثم يُنَجِّي اللهُ الذين اتَّقوا ويذر الظالمين فيها جِثِياً، فقد بَيَّنَ ﷺ في حديث جابرٍ المذكورِ أنَّ الورود علىٰ النار وردان: ورودُ الكفارِ أهل

النار، فهذا ورود دخولٍ لا شكَّ في ذلك كما قَالَ تعالىٰ في شأن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨]. أي بئس المدخل المدخول.

والورود الثاني: ورود الموحِّدينَ، أي: مرورهم علىٰ الصِّراط علىٰ النحو المذكور في الأحاديث السابقة، والله تعالىٰ وحده أعلم وأحكم.

عِظَةُ المرور علىٰ الصِّرَاطِ

يقولُ الإمام القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «تفكَّر الآنَ فيما يَحِلُّ بكَ مِن الفَزَع بفؤادك إذا رأيتَ الصِّرَاط ودقّتهُ، ثم وقعَ بصرُكَ علىٰ سوادِ جهَنَّم من تحته، ثمَّ قَرَعَ سمعك شهيقُ النَّار وتغيظها، وقد كُلِّفْتَ أن تمشي علىٰ الصِّراط، مع ضَعْفِ حَالك واضطراب قلبك وتزلزل قَدمكَ، وثقَل ظهركَ بالأوزارِ المانعةِ لك من المشي علىٰ بساطِ الأرضِ فضلاً عَن حِدَّةِ الصِّراط، فكيفَ بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك، فأحسست بحدَّته، واضطررت إلىٰ أن ترفع قدمك الثانية، والخلائق بين يديك يزلُّونَ، ويعثرون، وتتناولهم زبانية النَّار بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف ينكَّسون إلىٰ جهةِ النار رؤوسهم وتعلو أرجلهم، فيا له من مَنْظَرٍ مَا أفظعَهُ، وَمُرتَقَىٰ ما أصعبَهُ، ومجاز ما أضيقَهُ». قَالَ الشاعر:

إذا مُدَّ الصِّراطُ علىٰ جَحِيم ... تَصُولُ علىٰ العُصَاةِ وتَسْتَطِيلُ
فقومٌ في الجحيم لهم ثبورٌ ... وقومٌ في الجِنَانِ لهُم مَقِيلُ
وبانَ الحقُّ وانكشَفَ المُغطَّىٰ ... وطالَ الويلُ واتَّصلَ العَويلُ

تَخَاصُمُ أهْلِ النَّار

عندما يُعَاينُ الكفرةُ أعداءَ اللهِ مَا أعدَّ لهم من العذابِ يمقتونَ أنفُسَهُم كما يمقتونَ أحبابَهُم وخِلاَّنَهُم في الحياةِ الدُّنيا، قَالَ تعَالَىٰ: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وعند ذلك يخاصمُ أهلُ النَّارِ بَعْضَهُم بعضاً، ويحاجُّ بعضُهُم بعضاً، العابدونَ المعبودينَ، والأتباعُ السَّادَةُ المتبوعينَ، والضُّعفاءُ المتكبِّرينَ، والإنسانُ قرينَهُ، بَل يخاصِمُ الكافِرُ أعضَاءه.

(١) مُخَاصَمَةُ العَابِدِيْنَ المعبودينَ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ اللهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۝ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝ تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ ۝ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾. [الشعراء: ٩١ - ١٠٣].

أما الصَّالحون الَّذين عُبدوا وهم لا يَعلمونَ، أو عُبدوا بغير رضَاهم كالملائكةِ وصَالحي البشرِ، فإنهم يبرؤونَ من عابديهم، كما بَيَّنَ ذلكَ اللهُ تعالىٰ في قولـه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤١].

وكذلكَ عيسىٰ ابنُ مريم يتبرأ في يوم الدِّين من الَّذينَ اتَّخذوه إلهاً وعبدُوه من دونِ اللهِ تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧].

٢ تَخَاصُمُ الأتباع مَع قَادَةِ الضَّلال:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۝ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤولُونَ ۝ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ۝ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ۝ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ ۝ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ۝ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ۝ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ١٩ ـ ٣٥].

٣ مخاصمةُ الضُّعفَاء للسَّادَةِ مِنَ الملوكِ والأمراء:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

وبعد انقضاءِ الأمرِ يظهرُ رأسُ الكفرِ والغوايةِ إبليس لعنَهُ اللهُ خطيباً علىٰ أتباعِهِ كما جاءَ في قوله تعَالىٰ مخبراً عن هذا الموقفِ: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وفي موضع آخر جاءَ وصفُ مخاصمةِ الضعفاءِ للمستكبرينَ: قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُّجْرِمِينَ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَّكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣].

④ التَّخاصُم بينَ الكافرِ وقرينه الشَّيطان:

قال تعَالىٰ: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۝ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۝ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ۝ قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ۝ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٣ ـ ٢٩].

⑤ مخاصمةُ المرءِ أعضَاءهُ:

قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩ ـ ٢١].

⑥ مُخَاصَمَةُ البَدَنِ للرّوح:

روى ابن منده في كتاب «الروح» عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قَالَ: «يَخْتَصِمُ النَّاسُ يومَ القيامةِ حتىٰ تختصم الرُّوحُ مَعَ الجسَدِ، فتقولُ الرُّوحُ للجَسَدِ: أنت فعلتَ. ويقولُ الجسدُ للروح: أنتِ أمرتِ وأنتِ سَوَّلتِ.

فيبعثُ اللهُ مَلَكاً يفصلُ بينهمَا، فيقول لهما: إنَّ مَثَلَكُما كمثلِ رَجُلٍ مُقْعَدٍ بَصِيْر، والآخر ضَرير دَخَلا بستاناً، فقالَ المقعدُ للضَّرير: إنِّي أرَى ها هنا ثماراً، ولكن لا أصِلُ إليها، فقالَ لَهُ الضَّريرُ: اركَبْني فتَنَاولها، فَركِبَهُ فتَنَاولَها، فأيهمَا المُعْتَدِي؟ فَيَقُولان: كِلاهُما. فيقولُ المَلَك لهما: فإنكُمَا قَد حكَمْتُمَا علىٰ أنْفُسِكُمَا، يَعنِي أنَّ الجسدَ للرُّوح كالمَطِيَّةِ، وَهُوَ رَاكِبُهُ».

⑦ مقتُ الكفارِ أنْفُسَهُم وأسيادَهم:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [سورة غافر: ١٠].

كما يمقتونَ كلَّ الَّذين كانُوا لهم أنصاراً وخِلاَّناً في الدُّنيا، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾ [سورة فصلت: ٢٩].

حَشْرُ الكفَّار إلى النَّار

جاءت النُّصوصُ كثيرة تُصوّرُ كيف يكونُ حَشْرُ الكفَّار إلىٰ النَّار هُم وآلهتهم الَّتي كانُوا يعبدُونَها:

◉ **الصُّورة الأولىٰ:** أنهم يحشرون كقطعان الماشية جماعات، ينهرون نهراً غليظاً، ويُصاح بهم من هنا وهناك، كما يَفْعَلُ الرَّاعي ببقرِهِ أو غَنَمِهِ: قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً﴾ [الزمر: من الآية ٧١]. وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]. وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَىٰ النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩]. ومعنىٰ يوزعون أي يجمعون، تجمعهم الزَّبانية أوّلهم علىٰ آخِرِهم، كما يَفْعَلُ البشرُ بالبهائِم.

◉ **الصورة الثانية:** أنهم يحشرون إلىٰ النَّار علىٰ وُجُوهِهم، لا كَما كَانوا يمشونَ في الدُّنيا علىٰ أرجُلِهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٣٤]. وعنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنهُ أنَّ رَجُلاً قالَ: يَا رَسُولَ اللهِ قالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: ٣٤]. أيُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَىٰ وَجْهِهِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَىٰ الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قادِرٌ عَلىٰ أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ؟». [متفق عليه].

ومع حشرهم علىٰ هذه الصُّورة المنكرة علىٰ وجوههم فإنَّهم يحشرون عمياً لا يَرَوْنَ، وبُكْماً لا يَتكَلَّمُونَ، وصماً لا يَسْمَعُونَ، قال تعالىٰ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ [الإسراء: ٩٧].

◉ **الصورة الثالثة:** أنهم يحشرون مع آلهتهم الباطلة وأعوانهم وأتباعهم، قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٢٣].

◉ **الصورة الرابعة:** أنهم في حشرهم هذا مغلوبون مقهورون أذلاء صاغرون. قالَ تَعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران].

◉ **الصورة الخامسة:** تَصُكُّ مَسَامِعَهُم أصواتُها التي تملأ قلوبهم رعباً وهلعاً، قال تعالىٰ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ [الفرقان: ١٢].

◉ **الصورة السادسة:** عندما يبلغون النَّار ويُعاينونَ أهوالَها يَنْدَمُون ويَتمَنَّونَ العودةَ إلىٰ الدُّنيا كي يُؤمِنُوا، قالَ تَعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]. ولكنهم لا يجدون من النَّار مفرّاً، قالَ تَعالىٰ: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً﴾ [الكهف: ٥٣].

◉ **الصورة السابعة:** بعد ما تقدم يُؤمَرُونَ بالدخولِ في النَّار وغَضَبِ الجبَّار أذلاءَ خاسرينَ، قالَ تَعالىٰ: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩]. ولا ينجو من النار من الجن والإنس إلا الأتقياء الذين آمنوا بالله وصَدَّقُوا المرسلينَ، واتَّبَعُوا ما أُنْزِلَ إليهم من ربِّهم، قالَ تَعالىٰ:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً ۝ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً ۝ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيّاً ۝ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾ [مريم: ٦٨ ـ ٧٢].

ألوانُ العذابِ في النَّار

اعلم أنَّ العذابَ متفاوتٌ بين أهلِ النَّار، وأقلُّهم عذاباً من تُوضَعُ تحتَ قدميهِ جمرةٌ يَغلي منها دِمَاغُهُ، ويظنُّ أنَّهُ هو أشدَّ أهلها عذاباً ـ أجارنا الكريمُ من ذلك ـ.

وإليك أهمَّ ما جاء في أنواع العذابِ لأهل النَّار، نقلتُها من كتاب (التَّخويف من النَّار) لابن رَجَب بتصرُّفٍ واختِصَار.

① الصَّهر:

قال تعالىٰ: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِن نَارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۝ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩ـ ٢٠].

قال مُجاهد: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ يُذاب بهِ إذابةً.

وقالَ عَطاء الخراسَاني: يُذاب بهِ مَا في بطونِهم كما يُذَابُ الشَّحم.

وفي الحديث: عَن أبي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ الْحَمِيمَ لَيُصَبُّ علىٰ رُؤوسِهِمْ، فَيَنْفُذُ الْحَمِيمُ حَتَّىٰ يَخْلُصَ إلَىٰ جوْفِهِ، فَيَسْلِتُ مَا في جَوْفِهِ حَتَّىٰ يَمْرُقَ مِن قَدَمَيْهِ وَهُوَ الصَّهْرُ، ثُمَّ يُعَادُ كَمَا كَانَ». [أبو السمح، قال أحمد: حديثه منكر، ووثقه غيره]. قَالَ أَبو عِيسَىٰ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ.

وقال اللهُ عزَّ وَجَلَّ: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۝ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٧ ـ ٤٩].

قَالَ كثيرٌ مِنَ السَّلف: نَزلت هذه الآيةُ في أبي جَهْل.

قَالَ الأوزاعيُّ: يُؤخذُ أبو جَهل يومَ القيامَةِ فَيُخْرَقُ في رأسهِ خَرْقٌ ثمَّ يُؤتىٰ بسجلٍ مِنَ الحميم فَيُصَبُّ في ذلكِ الخرقِ، ثمَّ يُقال له: ذُقْ إنَّك أنتَ العزيزُ الكريمُ.

وقَالَ مُجاهد في قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِن نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنْتَصِرَانِ﴾ [الرحمن ٣٥] قال: النُّحَاسُ الصّفر يُذاب فَيُصَبُّ علىٰ رؤوسِهم يُعَذَّبونَ به.

وقالَ عَطاءُ الخراسانيُّ في قولهِ تَعَالىٰ: ﴿ونُحَاسٌ﴾ قَالَ: الصّفر يُذابُ فَيُصَبُّ علىٰ رؤوسِهم فيعذَّبونَ بهِ.

(٢) في تفسير قوله تعالىٰ ﴿التي تطَّلِعُ علىٰ الأفئدة﴾:

قال اللهُ تَعَالىٰ: ﴿كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَىٰ الأَفْئِدَةِ (٧)﴾ [الهمزة].

قَالَ محمَّد بنُ كعب القُرظي في قوله: ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَىٰ الأَفْئِدَةِ﴾ قالَ: تأكلُهُ النَّارُ إلىٰ فؤادِهِ فإذا بَلَغَت فؤادَهُ أنشئ خَلقُهُ.

وعن ثابتِ البنَاني أَنَّهُ قَرأ هذهِ الآيةَ ثمَّ قَالَ: تَحرقُهُم إلىٰ الأفئدةِ، وهم أحياءٌ لَقَد بلَغَ منهُمُ العذابَ.. ثمَّ يبكِي..

وقالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩)﴾ [المدثر].

قالَ صَالح بنُ حيان عَن ابنِ بُريدة في قوله: ﴿لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ﴾ قَالَ: تأكلُ العَظْمَ واللَّحمَ والمخَّ ولا تَذَره علىٰ ذلكَ.

وقال السّدي: لا تُبقِي مِن جُلُودِهم شيئاً، ولا تَذرهُم مِنَ العذابِ.

وقال أبو سِنَان: لا تَذرهُم إذا بُدِّلوا خَلْقاً جديداً.

وقَالَ أبو رزين في قولهِ: ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ قَالَ: تَلْفَحُ وَجْهَهُ لَفْحَةً تَدعُهُ أشدّ سواداً مِنَ اللَّيل.

قالَ قَتَادَةُ: ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ حَرَّاقةٌ للجلدِ.

وقال الله تعالىٰ: ﴿كَلاَّ إِنَّها لَظَىٰ ۝ نَزَّاعَةً للشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٥، ١٦] قال: تَحْرِقُ كُلَّ شيء منه ويَبْقَىٰ فؤادُهُ يَصيحُ.

وعَن ابن زيدٍ قَالَ: تَقْطَعُ عِظَامَهُم، ثمَّ يُجَدَّدُ خَلْقُهُم وَتُبدَّلُ جُلُودُهُم.

وروى ابنُ مهاجر، عَن مجاهدٍ في قولهِ: ﴿نَزَّاعَةً للشَّوَىٰ﴾ تنزعُ الجلدَ.

وعنه قالَ: تنزعُ اللَّحم مَا دونَ العَظْم.

(٣) السَّحب علىٰ الوجوه:

ومن أنـواعِ عذابهم سحبُهُم في النَّار علىٰ وجوهِهِم، قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨)﴾ [القمر].

وقـالَ تَعَالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢)﴾ [غافر].

قال قتادة: يسحبونَ في النَّارِ مرَّةً وفي الحميم مرَّةً.

وقالَ تَعَالىٰ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾ [الأحزاب: ٦٦].

وقال كعب: يقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ للإمام الجائرِ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠ـ٣١] فيسحب علىٰ وجهه في النَّار فينتثر لحمه وعظامه ومخه.

وقالَ ثابت أبـو زيـد القيسي، عَن عـاصم الأحـول، عـن أبـي منصـور مولىٰ سليم أنَّ ابنَ عبَّاسٍ قَالَ: ﴿إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢)﴾ [غافر] قال أبـو زيـد: أراه قـالَ: ينسلخُ كلّ شيءٍ عليهِ مِن جلدٍ ولحم وعُرُوق وأعصابٍ حتىٰ يصيرَ في عقبيهِ جسدٌ من لحمِهِ مثل طولِه، وطولُهُ ستُّون ذراعاً، ثم يكسَىٰ جلداً آخرَ، ثمَّ يُسجر في الحميم.

٤ العذابُ بالصُّعود إلىٰ أعلىٰ النَّار ثمَّ يهوي فيها:

ومنهم أيضاً من يُعَذَّب بالصّعودِ إلىٰ أعلىٰ النَّار ثمَّ يهوي فيهَا كذلك أبداً، ومنهُم من يُكَلَّف صعودَ جبل في النَّار، والتَّردي منه.

قال تعالىٰ: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾ [المدثر: ١٧].

قالَ قتادة: قالَ ابنُ عبَّاس: ﴿صعُوداً﴾ صخرةٌ في جهنَّم يُسحَبُ عليهَا الكافرُ علىٰ وجههِ.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَن قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا أَبداً، وَمَنْ شَرِبَ سَمّاً فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبداً، وَمَنْ تَرَدَّى مِن جَبَلٍ فقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبداً». [متفق عليه].

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا إلاَّ الأَمَانَةَ». ثُمَّ قَالَ: «يُؤْتَىٰ بِالعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقَالُ أَدِّ أَمَانَتَكَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا. قَالَ: فَيُقَالُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَىٰ الْهَاوِيَةِ فَيُنْطَلَقُ بِهِ إِلَىٰ الْهَاوِيَةِ، وَتُمَثَّلُ لَهُ أَمَانَتُهُ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ دُفِعَتْ إِلَيْهِ فَيَرَاهَا فَيَعْرِفُهَا فَيَهْوِي فِي أَثَرِهَا حَتَّىٰ يُدْرِكَهَا فَيَحْمِلُهَا عَلَىٰ مَنْكِبَيْهِ، حَتَّىٰ إِذَا نَظَرَ ظَنَّ أَنَّهُ خَارِجٌ زَلَّتْ عَن مَنْكِبَيْهِ فَهُوَ يَهْوِي فِي أَثَرِهَا أَبَدَ الآبِدِينَ»، ثُمَّ قَالَ: «الصَّلاةُ أَمَانَةٌ، وَالْوُضُوءُ أَمَانَةٌ، وَالْوَزْنُ أَمَانَةٌ، وَالْكَيْلُ أَمَانَةٌ»، وَأَشْيَاءَ عَدَّهَا، «وَأَشَدُّ ذلِكَ الْوَدَائِعُ». قَالَ ـ يَعْنِي: زَاذَانَ ـ فَأَتَيْتُ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ فَقُلْتُ: أَلا تَرَى إِلَىٰ مَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ، قَالَ: كَذَا قَالَ كَذَا. قَالَ: صَدَقَ، أَمَا سَمِعْتَ اللهَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]. رواه البيهقي موقوفاً، ورواه بمعناه هو وغيره مرفوعاً، والموقوف أشبه. [حسن، أما المرفوع فضعيف].

⑤ العذابُ بالدَّوران في النَّار، وجرّ أمعاءه معهُ:

ومنهُم مَن يَدُورُ في النَّار ويَجُرُّ أمعاءهُ مَعَهُ وقَد رأى النبيُّ ﷺ عمـرَو بنَ لحي يجرُ قُصبَهُ في النَّار. وفي الصَّحيح عن أسَامَةَ بن زيـدِ بـنِ حَارِثَـةَ رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَىٰ بالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيامَـةِ فَيُلْقَـىٰ فِي النَّـار، فَتَنْدَلِقُ أقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ في الرَّحَا، فَيَجْتَمِعُ إلَيْهِ أهْلُ النَّار فَيَقُولُونَ: يَا فُلانُ مَا لَكَ؟ ألمْ تَـكُ تَـأمُرُ بـالمَعْروفِ وَتَنْـهَىٰ عَـنِ المُنْكَـر؟ فَيَقُـولُ: بَلَىٰ، كُنْتُ آمُرُ بالمَعْرُوفِ وَلا آتِيه، وَأنْهَىٰ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ». [مُتَّفقٌ عَلَيْهِ].

وقالَ أبو المثنَّىٰ الأملوكي: إنَّ في النَّار أقواماً يُرْبَطُونَ بنواعير يكـونُ مِـن نَـارٍ، فَتَدُورُ بهـم النَّواعيرُ وما لهم فيهَا راحةٌ ولا فَترةٌ.

⑥ من يُلقَىٰ في مكانٍ ضَيِّق:

ومن أهلِ النَّار من يُلْقَىٰ في مكانٍ ضَيِّق لا يَتمكَّن فيهِ مِنَ الحركةِ، قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾ [الفرقان: ١٣].

قالَ كَعْب: إنَّ في جَهنَّمَ تَنَانير ضِيْقُهَا كَضيقِ زجّ رمحِ أحَدِكُم ثمَّ يطبـقُ علَـىٰ أناسٍ بأعمَالِهِم.

وعَن ابنِ مَسعود رضي الله عنه قالَ: إذا بَقِيَ في النَّار مَن يخلُدُ فيهَا، جُعِلُـوا في تَوابيـتَ من نارٍ، فيها مَسَامير مِن نارٍ، ثمَّ جُعِلَـت تلكَ التَّوابيتُ في توابيت مِـن نـارٍ، ثـمَّ قُذِفُوا في نَارِ الجحيم فيرونَ أنَّـهُ لا يُعَـذَّبُ في النَّـار غَيرُهُم، ثـمَّ تـلا ابـنُ مَسـعود: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٠].

وعَن سُـويد بـن غفلـةَ قَـالَ: إذا أرادَ اللهُ أن يَنْسَـىٰ أهـلَ النَّـار جَعَـل للرَّجُـلِ صندُوقاً علىٰ قَدَرِهِ مِنَ النَّار، ولا يَنْبِضُ عِرقٌ إلاَّ فيهِ مسمَارٌ مِـن نـارٍ، ثـمَّ تُضرمُ

بينَهُما نارٌ، ثم بِقِفْلٍ مِن نارٍ ثمَّ يجعَل ذلكَ الصندوقَ في صندوقٍ مِن نارٍ ثمَّ تُضْرَمُ بينَهُما نارٌ، ثمَّ يُقفلُ، ثمَّ يُطرحُ أو يُلقَىٰ في النَّار فذلكَ قولُهُ تعالىٰ: ﴿لَهُمْ مِن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر ١٦]. [أخرجه البيهقي وأبو نعيم].

⑦ العذابُ بالدَّاء:

اعلم أنَّ في جهَنَّم سبعينَ داءً، فَرُبَّما يُبتلىٰ أهلُ النَّار بأنواع مِنَ الأمراضِ الحادِثَةِ عليهم، فَعَن شفيّ بن ماتع قالَ: إنَّ في جهَنَّم سبعينَ داءً، كلُّ داءٍ مِثل جزءٍ مِن أجزاءِ جَهَنَّم.

وقالَ الأعمشُ عَن مجاهِد: يُلْقَىٰ الجربُ علىٰ أهلِ النَّار فَيحتكونَ حتَّىٰ تَبْدُو العظامُ فيقولونَ بما أصابَنَا هذا؟ فيقالُ: بأذاكم المؤمنينَ.

⑧ العذابُ بنتنِ الرَّائحة:

ومِن أهلِ النَّار مَن يَتَأذَّى أهلُ النَّار بعذابهِ إمَّا مِن نَتنِ ريحِهِ أو غيرِهِ.

عَن غزوان بنِ جرير عَن أبيهِ قَالَ: تذاكَرُوا الفواحِشَ عندَ عَليٍّ رضي الله عنه: فقَالَ: أتدرونَ أيُّ الزِّنا عندَ اللهِ أعظَم؟ فقَالُوا: يا أميرَ المؤمنينَ الزِّنا كُلُّهُ عَظيمٌ. قَالَ: قد علمتُ أنَّ الزِّنا كُلّهُ عظيمٌ، ولكن سَأخبِرُكُم بأعظَم الزِّنا عندَ اللهِ، أنْ يَزْني الرَّجُلُ بزوجَةِ الرَّجُل المسلِم فيكون زَانياً، وقد أفسَدَ علىٰ رجلٍ مسلم زَوجَتَهُ، ثمَّ قالَ عند ذلكَ: بَلَغَنا أنَّهُ يُرسَلُ علىٰ النَّاس ريحٌ تبلغ مِنَ النَّاس كلَّ مَبلغ، وكادت أن تمسكَ بأنفاسِ النَّاس، فإذا منادٍ يسمعُ الصوتَ كُلّهم، أتدرونَ مَا هذه الريحُ التي قَد آذتكُم؟ فيَقُولُونَ: لا نَدري واللهِ إلاَّ أنها قَد بَلَغَت منَّا كُلَّ مَبلغ، فيقالُ: ألا إنَّها ريحُ فُروج الزُّناة الذينَ لَقُوا اللهَ بِزناهُم ولم يَتُوبوا مِنْهُ. [كنز العمال]

(٩) العذابُ بالموت، ولا موتَ:

قَالَ تَعَالىٰ: ﴿يَتَجرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]. أي يأتيهِ الموتُ مِن كلِّ مكَانٍ حتَّىٰ مِن تحتِ كلِّ شَعرةٍ في جسَدِه. وقالَ الضَّحاكُ: حتَّىٰ مِن إبهَام رِجليهِ، والمعنَىٰ أنَّه يأتيهِ مثل شِدَّةِ الموتِ وألمهِ مِن كلِّ جُزءٍ مِن أجزاءِ بَدَنِه حتَّىٰ شعره وظفره وهُو مَع هذا لا تَخْرُج نفسُهُ مِن فيهِ فَيستريح ولا تَرجعُ إلىٰ مكانِهَا مِن جوفهِ.

وتأوَّلَ جماعةٌ مِنَ المفسرينَ علىٰ ذلك قولـه تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١٣]. قالَ الأوزاعيُّ عَن بلالِ بنِ سَعد: تُنَادِي النارُ يـومَ القيامـةِ: يا نَارُ أحرِقي.. يا نارُ اشتَفِي.. يا نارُ أنضِجِي.. كُلِي ولا تَقْتُلِي..

(١٠) العذابُ باللفحِ:

قَالَ تَعَالىٰ: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

قال القرطبي: قَولُهُ تَعَالىٰ: ﴿تَلفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ ويُقَالُ «تَنْفَحُ» بمعناه، ومنه ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِن عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦]. إلاَّ أنَّ «تَلفح» أبلغُ بأساً، يُقال: لَفَحَتهُ النّارُ والسّمومُ بحَرِّهَا أحْرَقتهُ. ولَفَحتُهُ بالسَّيف لَفْحَةً إذا ضَربتهُ به ضربةً خفيفةً.

﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قالَ ابنُ عبَّاس: عَابسونَ. وقـالَ أهـلُ اللُّغَـةِ: الكُلُـوحُ تكشّرٌ في عبوسٍ. والكالح: الذي قَد تَشمَّرت شَفَتَاهُ وَبَدَت أسنَانُهُ وسالَ صديدُهُ.

وقال ابنُ مسعود: ألم تَرَ إلىٰ الرَّأس المشيط بالنَّارِ، وقَد بَدَت أسنَانُهُ وقَلصت شفَتَاهُ.

وفي التِّرمذي عَن أبـي سـعيدٍ الخـدري عَـن النـبيِّ ﷺ قـالَ: ﴿وَهُـمْ فِيـهَا كَالِحُونَ﴾ قَالَ: «تَشْوِيه النَّارُ فَتَقَلَّـصُ شَـفَتُهُ العُلْيَـا حَتَّـىٰ تَبْلُـغَ وَسْـطَ رَأسِـهِ وَتَسْتَرْخِي شَفَتُهُ السُّفْلَىٰ حَتَّىٰ تَضْرِبَ سُرَّتَهُ».

(١١) العذابُ المتواصلُ:

اعلم أنَّ عذابَ الكُفَّارِ في النَّار مُتَواصِلٌ أبداً، فَلا يَفترُ عنهُم ولا يَنْقَطِعُ، ولا يُخَفَّفُ طرفةَ عينٍ، بَل هو مُتَواصِلٌ أبداً، قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤ - ٧٥]

وقالَ تَعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِن عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

وقالَ تَعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦]

وقَالَ تَعالىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ ۝ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ [غافر: ٤٩- ٥٠].

وقالَ أحمَدُ بنُ أبي الحواري: سَمِعْتُ إسحَاقَ بنَ إبراهيم يَقُولُ علىٰ مِنبَرِ دمشقَ: لا يأتِي علىٰ صَاحِبِ الجنَّةِ ساعَةٌ إلاَّ وهو يزدادُ ضِعْفاً مِنَ النَّعيم لَم يكُن يَعْرِفُهُ، ولا يَأتي عَلىٰ صاحبِ النَّار ساعَةٌ إلاَّ وهُو مُستنكِرٌ لِنَوع مِنَ العذابِ لم يكُن يَعرِفُهُ، قَالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً﴾ [النبأ: ٣٠].

وعَن مَهديّ بن ميمون قَالَ: سَمعتُ الحسَنَ بنَ دينارٍ سَألَ الحسَنَ: أيُّ آيةٍ أشَدّ علىٰ أهل النَّار؟ فقالَ: سَألتُ أبا برزَةَ فَقَالَ: أشَدُّ آيةٍ نَزلَت ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً﴾ [النبأ: ٣٠].

وقَالَ مُجاهد: بلغني أنَّ استراحَةَ أهلِ النَّار أنْ يَضَعَ أحَدُهُم يَدَهُ علىٰ خَاصِرَتِهِ. عافانا الكريمُ منها برحمتهِ.

(١٢) أعظم عذابِ أهلِ النّار حجابُهُم عَن اللهِ عزَّ وَجلَّ:

اعلم أنَّ أعظمَ عَذابِ أهل النَّار هو حِجَابُهُم عَن اللهِ عزَّ وَجلَّ وإبعادُهُم عَنه وإعرَاضُهُ عنهم، وسَخَطُهُ عليهم، كَمَا أنَّ رضوانَ اللهِ عَلىٰ أهلِ الجنَّةِ أفضَل مِن كل نعيم الجنَّةِ وتجلِّيه لهم ورُؤيتُهم إيَّاهُ أعظَم مِن جميع أنواع نَعيم الجنَّةِ. قَالَ اللهُ تَعالىٰ ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ۞ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين ١٤ - ١٧] فذكرَ اللهُ تَعالىٰ ثلاثَةَ أنواعٍ مِنَ العذابِ حِجَابُهُم عَنهُ ثمَّ صليهُم الجحِيم، ثمَّ توبيخهم بتكذيبهم بهِ في الدُّنيا، وَوَصَفهم بالرَّان علىٰ قلوبِهم وهو صَدأ الذُّنوبِ الَّذي سَوَّدَ قُلُوبَهُم فَلَم يَصِل إليهَا بَعْد ذلك في الدُّنيا شيءٌ مِن معرفةِ اللهِ ولا مِن إجلالِهِ وَمَهابَتِهِ وَخَشيَتِهِ وَمَحبَّتِهِ فكمَا حُجِبَت قُلُوبُهُم في الدُّنيا عَن اللهِ حُجِبُوا في الآخرةِ عَن رؤيتِهِ تعالىٰ.

وفي حديثِ صُهيب وغيره قَالَ جَعفر بنُ سُليمان سمعتُ أبَا عمران الجونيّ قالَ: إنَّ اللهَ لَم يَنْظُر إلىٰ إنسانٍ قَطّ إلاَّ رَحِمَهُ ولو نَظَرَ إلىٰ أهلِ النَّار لَرَحِمَهُم ولكن قَضَىٰ أنْ لا يَنْظُر إليهم.

وفي الحديثِ الصَّحيح: عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلا يُزَكِّيهِمْ، وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُستكبِرٌ». [رواهُ مُسْلِم].

ولأهلِ النَّارِ أنواعٌ مِنَ العذابِ لم يُطلع اللهُ عَليها خَلْقَهُ في الدُّنيا، اللهُ أعلمُ بها. ومنها أيضاً لم أذكرهُ لأنَّني قد ذكرتُهُ قبلَ ذلكَ في أوَّل هذا الكتاب عندَ وصفي للنارِ وأهلِهَا.

الجهنميون

مَن هُمُ الجهنَّميُّونَ ؟ سؤالٌ يطرحُهُ الكثيرونَ، ويجيبُ عنهُ الحديثُ الَّذي يُخبرنا فيهِ النبيُّ ﷺ عَن حالهم وعمَّا يؤولُ إليهِ مصيرهُم.

باختصارٍ شديدٍ نقولُ: إنَّهُم قومٌ مِن أهْلِ الإيمانِ يدخلُونَ يَوْمَ القِيامَةِ النَّارَ بذنوبِهِمْ مِنَ الكبائرِ والصَّغائرِ، فيقولُ لهمُ المشركونَ: ما أغنَىٰ عنكم إيمانُكُمْ؟ ولو نَفَعكُم إيمانُكُم لما دخَلتُم النَّار بعصيانِكُم، ونحنُ مَعَاشِرَ الكفَّارِ وأنتم جماعَةُ الفُجَّار في دارٍ واحدةٍ نُعَذَّب..

طبعاً يقولونَ هَذا الكلامَ مِن جَهْلِهِم بحالِ عُصَاةِ المؤمنينَ، فإنَّ تَعذيبَهُم لتقريبِ الكافرينَ لا كمية ولا كيفيَّة، بل تَعذيبُهُم، إنما هُو تأديبُهُم، وتَهذيبُهُم..

عندَهَا يَغْضَبُ اللهُ عزَّ وَجلَّ لَهُم، ويظهَرُ آثارُ غضبِهِ سُبحانَهُ لأجلِ الإيمانِ، ولو صَدَرَ عَنهم بعضُ العصيانِ، فَيَأمُر اللهُ تعالىٰ أنْ لا يَبْقَىٰ في النَّارِ أحدٌ يقولُ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وَيَعْتَرفُ بِنُبُوَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيَخْرُجُونَ وقَد احتَرَقُوا حتَّىٰ صارُوا كالفحمةِ السَّوداء إلاَّ وجوههم، فإنَّه لا تَزْرَقُّ أعيُنُهم، ولا تَسْوَدُّ وجُوهُهُم، فيؤتَىٰ بهم نهراً علىٰ بابِ الجنَّةِ، فَيَغْتَسِلُونَ فيهِ، فيذهَبُ عنهُم كلّ فتنةٍ ومحنَةٍ، وأذيَّةٍ وبليَّةٍ ثمَّ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ، فيقولُ لهم الملَكُ: طبتُم وطابَ باطِنكُم بالإيمانِ، وطَهُرَ ظاهِركُم بالنِّيرانِ فادخُلُوا الجَنَّةَ خَالِدينَ.. فَيُسَمَّونَ الجهنميينَ في الجَنَّةِ، ثمَّ يَدْعُونَ ويَطلُبونَ مِنَ اللهِ تعالىٰ إزالَةَ هَذا الاسم عَنْهُم حياءً مِنهم.

فيذهبُ عنهُم ذلكَ الاسمُ فلا يُدعونَ بهِ أبداً. فإذا خَرَجُوا مِنَ النَّارِ، قالَ الكفَّارُ: يا ليتَنَا كنَّا مُسلمين، فَذَلِكَ قولُ اللهِ عزَّ وَجلَّ: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢].

فيتمنىٰ الكفَّارُ لو كانوا منَ المسلمينَ حين يُخْرِجُ اللهُ تَعَالىٰ المسلمينَ مِنَ النَّار.

◉ روى أبو موسىٰ الأشعريّ، عَن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «إذا اجتَمعَ أهلُ النَّارِ في النَّارِ ومَعَهُم مَن شاءَ اللهُ مِن أهلِ القِبْلَةِ قَالَ الكفَّارُ للمسلمينَ: ألم تكُونُوا مُسلمين؟ قَالُوا: بَلَىٰ. قالُوا: فَمَا أغنَىٰ عنكُم إسلامكُم وقَد صِرْتُم معنَا في النَّارِ؟ قَالُوا: كانَت لنا ذُنُوبٌ فَأُخِذْنَا بهَا.

فسمعَ اللهُ مَا قَالُوا، فَأمَرَ بمن كانَ في النَّارِ مِن أهلِ القِبْلَةِ فَأُخرِجُوا فلمَّا رأى ذَلكَ مَن بقيَ مِنَ الكفَّارِ في النَّار قَالُوا: يَا ليتَنَا كنَّا مُسْلِمينَ فَنَخْرُج كمَا خَرَجُوا».

ثمَّ قَرأ رسولُ اللهِ ﷺ: «أعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيم: ﴿آلر تِلْكَ آياتُ الكِتَابِ وَقُرآنٍ مبين ۝ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذينَ كَفَرُوا لَو كَانُوا مُسلمينَ﴾».

[رواه الطبراني، وعزاهُ لهُ الهيثمي في «مجمع الزوائدِ» وقال: فيه خالد بن نافع الأشعري، قال أبو داود: متروك، قال الذهبي: هذا تجاوز في الحدِّ فلا يستحق الترك، فقد حَدَّث عنه أحمدُ بنُ حنبل وغيره، وبقية رجاله ثقات. ا. هـ قلتُ: قال الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء»: أخرجه النسائي في الكبرى من حديث جابر نحوه بإسناد صحيح، والله تعالىٰ أعلمُ].

◉ وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أشْفَعُ لأُمَّتِي حَتَّىٰ يُنَادِيني رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيَقُولُ: أقَدْ رَضِيتَ يَا مُحمَّدُ؟ فَأَقُولُ: إِيْ رَبِّ قَدْ رَضِيتُ». [رواه البزار والطبراني وهو حديث حسن بشواهده إن شاء الله تعالىٰ].

◉ وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِن أُمَّتِي». [رواه أبو داود والبزار والطبراني وابن حبان في صحيحه والبيهقي، صحيح].

◉ وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ﷺ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «خُيِّرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعةِ أو يَدْخُلُ نِصفُ أُمَّتِي الْجَنَّة فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعةَ لأَنَّهَا أعَمُّ وأَكْفَىٰ، أمَا إِنَّهَا لَيْسَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَلكِنَّهَا لِلْمُذنِبِينَ الخَطَّائِينَ الْمُتَلَوِّثِينَ». [رواه أحمد، وهو صحيح].

◉ وفي الصحيحين، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «حَتَّىٰ إِذَا فَرَغَ اللهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَن أرَادَ مِن أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ الْمَلائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَن كَانَ لا يُشْرِكُ بِالله شَيْئاً، مِمّنْ أرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَرْحَمَهُ، مِمّنْ يَقُولُ: لا إِلَهَ إِلاّ الله. فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ ـ يَعْرِفُونَهُمْ بِأَثَرِ السّجُودِ ـ تَأْكُلُ النَّارُ مِنِ ابْنِ آدَمَ إِلاّ أَثَرَ السّجُودِ، حَرَّمَ الله عَلَىٰ النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيُخْرَجُونَ مِنَ النَّارِ وَقَدِ امْتَحَشُوا، فَيُصَبّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ مِنْهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السّيْلِ».

◉ وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يُدْخِلُ اللهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ، وَيُدْخِلُ أَهْلَ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ: انْظُرُوا مَن وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِن خَرْدَلٍ مِن إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا حُمَماً قَدِ امْتَحَشُوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الْحَيَاةِ أَوِ الْحَيَا، فَيَنْبُتُونَ فِيهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ إِلَىٰ جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَوْهَا كَيْفَ تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً». [رواه مسلم].

◉ وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ قَوْمٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ ـ أَو قَالَ بِخَطَايَاهُمْ ـ فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّىٰ إِذَا كَانُوا فَحْماً، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَىٰ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ. فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السّيْلِ».

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: كَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ كَانَ بِالْبَادِيَةِ. [رواه مسلم].

وفي روايةٍ لمسلم أيضاً: قال ﷺ: «.. فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَىٰ رَبّي، فَيُؤْذَنُ لِي فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الآنَ، يُلْهِمُنِيهِ الله، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِداً، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ،

وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: رَبِّ أُمَّتِي.. أُمَّتِي. فَيُقَالُ: انْطَلِقْ، فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِن بُرَّةٍ أَوْ شَعِيرَةٍ مِن إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ.

ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَىٰ رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِداً، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: أُمَّتِي.. أُمَّتِي. فَيُقَالُ لِيَ: انْطَلِقْ، فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِن خَرْدَلٍ مِن إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ. ثُمَّ أَعُودُ إِلَىٰ رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِداً، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي.. أُمَّتِي. فَيُقَالُ لِيَ: انْطَلِقْ، فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَىٰ أَدْنَىٰ أَدْنَىٰ مِن مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِن خَرْدَلٍ مِن إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ».

وفي روايةٍ قالَ مُسلم: هذَا حَدِيثُ أَنَسٍ الَّذِي أَنْبَأَنَا بِهِ، فَخَرَجْنَا مِن عِنْدِهِ، فَلَمَّا كُنَّا بِظَهْرِ الْجَبَّانِ قُلْنَا: لَوْ مِلْنَا إِلَىٰ الْحَسَنِ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ، وَهُوَ مُسْتَخْفٍ فِي دَارِ أَبِي خَلِيفَةَ، قَالَ فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ، فَقُلْنَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ جِئْنَا مِن عِنْدِ أَخِيكَ أَبِي حَمْزَةَ، فَلَمْ نَسْمَعْ مِثْلَ حَدِيثٍ حَدَّثَنَاهُ فِي الشَّفَاعَةِ. قَالَ: هِيهِ فَحَدَّثْنَاهُ الْحَدِيثَ. فَقَالَ: هِيهِ قُلْنَا: مَا زَادَنَا. قَالَ: قَدْ حَدَّثَنَا بِهِ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً وَهُوَ يَوْمَئِذٍ جَمِيعٌ وَلَقَدْ تَرَكَ شَيْئاً مَا أَدْرِي أَنَسِيَ الشَّيْخُ أَو كَرِهَ أَنْ يُحَدِّثَكُمْ فَتَتَّكِلُوا.

قُلْنَا لَهُ: حَدِّثْنَا. فَضَحِكَ وَقَالَ: خُلِقَ الإِنسَانُ مِن عَجَلٍ. مَا ذَكَرْتُ لَكُمْ هَذَا إِلاَّ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمُوهُ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: « .. ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَىٰ رَبِّي فِي الرَّابِعَةِ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِداً، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ. وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلاَّ الله. قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ لَكَ ـ أَو قَالَ لَيْسَ ذَاكَ إِلَيْكَ ـ وَلَكِنْ، وَعِزَّتِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي وَجِبْرِيَائِي لأُخْرِجَنَّ مَن قَالَ: لا إِلَهَ إِلاَّ الله». [صحيح].

خلودٌ لا موت

◉ عنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «يُؤْتَـىٰ بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَـادِي بِهِ مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَـدْ رَآهُ، ثُـمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ النَّارِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هـذَا؟ فَيَقُولُـونَ: نَعَمْ هذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّـهُمْ قَدْ رَآهُ فَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّـارِ، ثُـمَّ يَقُـولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلا مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩] وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَىٰ الدُّنْيَـا».

[رواه البخاري ومسلم والنسائي]

◉ ورواه الترمذيُّ، ولفظه قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أُتِيَ بِـالْمَوْتِ كَـالْكَبْشِ الأَمْلَحِ فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيُذْبَـحُ وَهُـمْ يَنْظُرُونَ، فَلَـوْ أَنَّ أَحـداً مَـاتَ فَرَحـاً لَمَاتَ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَلَوْ أَنَّ أَحَداً مَاتَ حُزْناً لَمَاتَ أَهْلُ النَّارِ». [وهو حديث صحيح].

«يشرئبون»: أي يمدُّونَ أعناقَهُم لينظروا.

◉ وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُؤْتَـىٰ بِـالْمَوْتَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُوقَفُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَطَّلِعُونَ خَائِفِينَ وَجِلِينَ أَنْ يُخْرَجُوا مِن مَكَانِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَـا أَهْـلَ النَّارِ فَيَطَّلِعُـونَ مُسْتَبْشِرِينَ فَرِحِينَ أَنْ يُخْرَجُوا مِن مَكَانِهِم الَّذِي هُمْ فِيهِ، فَيُقَالُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هذَا؟ قَالُوا نَعَمْ هذَا الْمَوْتُ. قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ ثُمَّ يُقَالُ لِلْفَرِيقَيْنِ كِلاهُمَا: خُلُودٌ فِيمَا يَجِدُونَ لا مَوْتَ فِيهَا أَبَداً». [روه ابن ماجه بإسناد جيد].

وفي رواية: «فَيَزْدَادُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحاً إِلَىٰ فَرَحِهِمْ، وَأَهْلُ النَّارِ حُزْناً إِلَىٰ حُزْنِهِمْ».

كلَّما نَضِجَت جلودُهم

قالَ تعَالىٰ: ﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [النساء: ٥٦].

قال الطبريُّ: ﴿كلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ يَقول: كلَّما انشوَت بِهَا جُلُودُهُم فأحتَرَقَت ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا﴾ يعني: غير الجلود التي قد نَضِجَت فَانشوَت.

ونَقَل عَن الحسنِ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جلودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا﴾ قالَ: ننضجهم في اليوم سَبعينَ ألفَ مَرَّة.

وعنهُ أيضاً قال: تنضج النَّارُ كلَّ يوم سبعينَ ألفَ جِلْد، وَغِلَظُ جِلْدِ الكافِرِ أربعونَ ذراعاً، واللهُ أعلَمُ بأيِّ ذِرَاع.

وفي الحديث: عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مَا بَيْنَ مِنْكَبَي الْكَافِرِ في النَّار مَسِيرَةُ ثَلاثَةِ أيَّامٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ». رواه البخاري ـ واللفظ له ـ ومسلم وغيرهما.

«المنكب»: مجتمع رأس الكتف والعضد.

◉ وَعَنْهُ رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «ضِرْسُ الْكَافِرِ مِثْلُ أحُدٍ، وَفَخِذُهُ مِثْلُ الْبَيْضَاءِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ كَمَا بَيْنَ قُدَيدٍ وَمَكَّةَ، وكَثَافَةُ جَسَدِهِ اثْنَانِ وَأرْبَعُونَ ذِرَاعاً بِذِرَاعِ الْجَبَّارِ». رواه أحمد ـ واللفظ له ـ. [صحيح لغيره].

◉ ومسلم ولفظه قالَ: «ضِرْسُ الْكَافِرِ ـ أو نابُ الكافِرِ ـ مِثْلُ أُحُدٍ، وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلاثٍ». [صحيح].

◉ والترمذي وحسَّنهُ ولفظه: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ضِرْسُ الْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِثْلُ أُحُدٍ، وَفَخِذُهُ مِثْلُ الْبَيْضَاءِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ مَسِيرَةُ ثَلاثٍ مِثْلُ الرَّبَذَةِ».

فماذا قال العلمُ عن وظيفةِ الجلدِ التي قالَ عنها القرآنُ إنَّها مكانُ الشُّعورِ بالألم والعذابِ؟ إنَّ أهمَّ مَا أُوكِلَ إلىٰ الجلدِ هو (وظيفة الحسِّ) بجميع أنماطِهِ من لمس وحَرارة وألم. ففي سطحِهِ الفسيح يوجَدُ مَا يُدعىٰ بنقاط الحسِّ وهي التي يبدأ منها صُدُور الشُّعُور وتوافق نهايةِ اللّييفات العصبية وعَدَد هذه النّقاط في السَّنتيمتر المربع يختلف حسب شأنِ البقعةِ في استقبالِ الحسِّ وأكثرها في الأنامِل، وينتقل الحسُّ مِن تلكَ النّقاط إلىٰ اللييفاتِ فالألياف حتَّىٰ مراكزِ الجملةِ العصبيةِ المركزيةِ حيثُ يكونُ إدراكُها واستبيان دَلائِلِها..



وقد جاء هذا صريحاً في أن الجلدَ دونَ غيرِهِ من أجزاءِ البدنِ هُو وحدَهُ مَصْدَرُ الألم والعذابِ. فهل كان لسيِّدنا محمَّدٍ ﷺ أجهزة تشريحية خاصة به دون غيره من البشر؟

أم أن هذه آية من آيات اللهِ تشهد أنَّ القرآن كلامُ اللهِ قَد نزلَ بعلمِهِ.

◉ وقال الشيخ الزنداني: النَّاسُ مِن قَبْلُ كانُوا يَتَصَوَّرُون أن جِسْمَ الإنسانِ حسَّاسٌ كلُّه أينما ضربته يتألم، تضربه في رأسه يتألم، تضربه في عينيه يتألم، وكانوا يعتقدون أن جسمَهُ حساسٌ كلّه للألم حتىٰ تقدم علم التَّشريح فجاء بحقيقةٍ قَالَ: لا ليس الجسمُ كلُّهُ، بل الجلد فقط هو مصدَرُ الألم.. بدليل أنَّك لو جئت بإبرة ووضعتها في جسم الإنسان فإنَّها بعد أن تدخلَ مِن جلدِ الإنسان إلىٰ اللَّحم لا يتألم، ثمَّ شرحوا هذا تحت المجهر فوجدوا أنَّ الأعصاب تتركز في الجلدِ، ووجدوا أنَّ أعصاب الإحساس متعدِّدة وأنَّها أنواع مختلفة منها:

ما يحس باللَّمس، ومنها ما يحس بالضغط، ومنها ما يحس بالحرارة، ومنها ما يحس بالبرودة. ووجدوا أن أعصاب الإحساس بالحرارة والبرودة لا توجد إلاَّ في الجلد فقط وعليه إذا دخَلَ الكافرُ النَّارَ يومَ القيامةِ وأكلت النارُ جلدَهُ كيف تكون المسألة؟

فالكفار ليس لديهم آيةٌ تُبيِّنُ لهم المسألةَ، فَتُصبح مشكلةً عندَ أهلِ الإيمانِ في مواجهةِ أهلِ الإلحادِ يقولونَ: تخوِّفُونَنَا مِنَ النَّار! فالنَّارُ تأكلُ الجلدَ ثمَّ نَرْتَاحُ.

لكن الجواب يأتي من المولىٰ جلَّ وَعَلا كاشفاً للسِّرِّ ونذيراً للكافرين فيقول تعالىٰ في سورة النِّساءِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً﴾.

وإذا كان المولىٰ جَلَّ وَعَلا يخبرنا بأنه سيُبَدِّل الجِلدَ جلداً آخَرَ لنذوقَ عذابَ النَّار - أعاذنا الكريمُ منها برحمَتِهِ - فإنَّه عندمَا أخبرنَا بالعذابِ الَّذي سيكون بالمعدةِ مِن شرابِ النَّار لا يكون بتغيير معدةٍ أخرى للتَّألم لا، قالَ تعالىٰ: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

ولماذا هنا قَطّع أمعاءهم؟ لأنهم وَجَدُوا تشريحيّاً أنَّه لا يوجد أبداً أعصاب للإحساس بالحرارة أو البرودة بالأمعاء وإنَّما تتقطع الأمعاء فإذا قطعت الأمعاء ونزلت في الأحشاء فإنَّه من أشد أنواع الآلام. تلك الآلام التي عندما تنزل مادة غذائية إلىٰ الأحشاء عندئذ يحسّ المريضُ كأنه يُطعن بالخناجرِ.. فوصفَ القرآنُ مَا يكونُ في الجِلْدِ ووصفَ ما يكونُ هنا بالمعِدَةِ والأمعاءِ وكانَ وصفاً لا يكونُ إلاَّ مِن عِنْدِ مَن يَعْلَم سِرّ تركيبِ الجلدِ وسرّ تركيب الأمعاءِ.

[من كتاب «العلم طريق الإيمان» للزنداني].

آخر من يخرج من النَّار

◉ روى مسلم: عَن عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجاً مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ. رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ حَبْواً. فيَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ. فَيأتيها فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى. فَيَرْجِعُ فيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى.

فَيَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ.

قَالَ فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى. فَيَرْجِعُ فيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى.

فَيَقُولُ الله لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ. فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا.

قَالَ فَيَقُولُ: أَتَسْخَرُ بِي (أو أَتَضْحَكُ بِي) وَأَنْتَ الْمَلِكُ؟»

قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ ضَحِكَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ. قَالَ فَكَانَ يُقَالُ: ذَاكَ أَدْنَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً. وقوله: (يصريني مِنْكَ) أي: يَقْطَع مَسْأَلَتَكَ مِنِّي.

◉ وعَن عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ عَن النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ آخِرَ مَن يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ يَمْشِي عَلَىٰ الصِّرَاطِ، فَيَنْكَبُّ مَرَّةً، وَيَمْشِي مَرَّةً، وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً، فَإِذَا جَاوَزَ الصِّرَاطَ، الْتَفَتَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ، لَقَدْ أَعْطَانِي الله مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا مِن الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، قَالَ: فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَدْنِنِي مِن هَذِهِ الشَّجَرَةِ، فَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِن مَائِهَا..

فَيَقُولُ الله تعالىٰ لَهُ: أَيْ عَبْدِي، فَلَعَلِّي إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا؟

فَيَقُولُ: لا يَا رَبِّ، وَيُعَاهِدُ الله أَنْ لا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَالرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَسْأَلُهُ، لأَنَّهُ يَرَى مَا لا صَبْرَ لَهُ - يَعْنِي عَلَيْهِ - فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ، وَهِيَ أَحْسَنُ مِنْهَا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَدْنِنِي مِن هَذِهِ الشَّجَرَةِ، فَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا،

وَأشْرَبَ مِن مَائِهَا.. فيَقُولُ اللهُ تعالىٰ لَهُ: أيْ عَبْدِي، ألَمْ تُعَاهِدْنِي أنَّكَ لا تَسْأَلُنِي غَيْرَها؟

فَيَقُولُ: يا رَبِّ، هَذِهِ لا أسْأَلُكَ غَيْرَهَا، وَيُعَاهِدُهُ، وَالرَّبُّ يَعْلَمُ أنَّهُ سَيَسْأَلُهُ غَيْرَهَا، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ، هِيَ أحْسَنُ مِنْهَا، فَيَقُولُ: أيْ رَبِّ أدْنِنِي مِن هَذِهِ الشَّجَرَةِ، أسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَأشْرَبُ مِن مَائِهَا..

فَيَقُولُ اللهُ تعالىٰ: أيْ عَبْدِي، ألَمْ تُعَاهِدْنِي أنْ لا تَسْألَنِي غَيْرَهَا؟

فَيَقُولُ: يا رَبِّ، هَذِهِ الشَّجَرَةُ، لا أسْألُكَ غَيْرَهَا، وَيُعَاهِدُهُ، وَالرَّبُّ يَعْلَمُ أنَّهُ سَيَسْألُهُ غَيْرَهَا، لأنَّهُ يَرَى مَا لا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَيَسْمَعُ أصْوَاتَ أهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: يا رَبِّ، الْجَنَّةَ، الْجَنَّةَ..

فَيَقُولُ اللهُ تعالىٰ: أيْ عَبْدِي، ألَمْ تُعَاهِدْنِي أنَّكَ لا تَسْألُنِي غَيْرَهَا؟

فَيَقُولُ: يا رَبِّ أدْخِلْنِي الْجَنَّةَ..

قَالَ: فَيَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: مَا يَصْرِينِي مِنْكَ، أيْ عَبْدِي؟ أيُرْضِيكَ أنْ أُعْطِيَكَ مِن الْجَنَّةِ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا؟

قَالَ: فَيَقُولُ: أتَهْزَأُ بِي، وَأنْتَ رَبِّي، وَأنْتَ رَبُّ الْعِزَّةِ؟

فَيَقُولُ: إنِّي لا أسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَىٰ مَا أشَاءُ قَادِرٌ».

قَالَ: فَضَحِكَ عَبْدُ اللهِ، حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَالَ: ألا تَسْألُونِي لِمَ ضَحِكْتُ؟ قَالُوا لَهُ: لِمَ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: لِضَحِكِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ألا تَسْألُونِي لِمَ ضَحِكْتُ؟» قَالُوا: لِمَ ضَحِكْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «لِضَحِكِ الرَّبِّ، حِينَ قَالَ: أتَهْزَأُ بِي، وَأنْتَ رَبُّ الْعِزَّةِ؟». [صحيح: رواه أحمد، ومسلم، وابن حبان].

الشَّمسُ والقمر

◉ عن أنس ﷺ قالَ: قَالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّ الشَّمْسَ والقَمَرَ ثَوْرانِ عَقِيرانِ فِي النَّارِ». [رواه الطيالسي، وأبو يعلىٰ، وهو صحيح]

قال المناوي في «الفيض»:

قولهُ: (ثوران) كأنَّهما يمسخانِ، ورُوي بنون وهو تصحيفٌ، وقال المديني في غريب الحديثِ: لما وُصفَا بأنَّهما يَسْبَحَان في قولِه تَعَالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]. وأنَّ كلّ مَن عُبِدَ مِن دُونِ الله إلاَّ مَن سَبَقَت له الحسنىٰ يكونُ في النَّار يُعَذَّبُ بِهِما أهلُهَا بحيثُ لا يَبْرَحَانِ منها فَصَارَا كأنَّهمَا ثوران عَقيرانِ.

وقالَ القرطبيُّ: قالَ عَليٌّ وابنُ عَبَّاس ﷺ: يجعلانَ في نورِ الحجب. وقَد يُجْمَعَانِ في نارِ جهنَّم، لأنَّهما قَد عُبِدا مِن دونِ اللهِ ولا تكونُ النَّارُ عذاباً لَهُما لأنَّهما جمادٌ، وإنما يُفْعَلُ ذلكَ بِهمَا زيادةً في تبكيتِ الكافرينَ وحَسرتهم.

وقيل: هذا الجمعُ أنَّهما يجتمعَانِ ولا يَفْتَرقَان، ويقربانِ مِنَ النَّاس، فيلحَقُهُم العرقُ لشدَّةِ الحرِّ، فكأنَّ المعنىٰ يجمعُ حَرَّهُما عليهم.

وقيلَ: يجمع الشَّمس والقَمَر، فلا يكون ثمّ تَعَاقب ليلٍ ولا نَهَار.

وربَّما يقولُ مُشَكِّكٌ: ما ذنبُهُما حتَّىٰ يُعذَّبان؟

فَلْيَعْلَم هذا المُشَكِّكُ أن ليس بقاءهما فيه لِتَعْذِيبِهِمَا، وإنما لِتَعذيبِ أهلِ النَّارِ.

❖ ❖ ❖

الفصل الرابع

الأعمالُ التي تُدْخِل النّارَ

أو

(الطَّريقُ إلى جهنَّم)

لو تساءلنا عن الأعمالِ التي تُدخل النَّار، لجاءَ الجوابُ من كتابِ اللهِ وسنَّة رسولهِ، إنَّها الكبائرُ التي توعَّدَ اللهُ فَاعِلَها ومرتكِبَها والمصرّ عليهَا العذابَ الأليم، أمَّا الصَّغائر فيغفرهَا اللهُ تعالىٰ، قالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ [النساء: ٣١].

ولا شكَّ أنَّ أعظم هذه الكبائر هو الشِّرك باللهِ تعالىٰ ـ والعياذُ باللهِ ـ فاللهُ لا يغفرُ أن يُشرك بهِ ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لمن يشاءُ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ [النساء: ١١٦]. ثمَّ هناكَ صنفٌ آخرَ يشبههُ ولا ينفكُّ عنهُ إنَّهُ النفاق والعياذُ باللهِ، فقد توعَّدَ اللهُ تعالىٰ المنافقينَ الخلودَ في النَّار أيضاً، قالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ [النساء: ١٤٥].

فهذان الصنفان (الكفرُ والنفاق) يخلدُ أصحابُهما في النَّارِ و(الرِّدةُ عن الإسلام) تندرج تحتَ الكُفْرِ، أمَّا ما تبقّىٰ من أعمالٍ كبيرةٍ فهي إن لم يستحلّ فاعِلُها تلكَ الأعمال لا يخلدُ في النَّار، كما قرَّرَ ذلكَ جمهورٌ من العلماءِ.

هذا وقد استعنتُ بكتاب «الكبائر» للذَّهبي، و«الزَّواجر» للهيتمي، لبيان الكبائر، كي يحرصَ المسلمُ علىٰ اجتنابها والابتعادِ عنها ما استطاع إلىٰ ذلكَ

سبيلاً، كي يَنْجُوَ بنفسهِ ويسلمَ له دينه. وقد اختصرتُها في هذا الكتابِ جداً، ومن أحبَّ أن يتوسَّع فيها فليرجع إلىٰ كتابي (الكبائر) فإنَّني توسعتُ فيه، ونهجتُ فيه منهج المحدِّثينَ والفُقهاء في تبيين الكبائر، وأسألُهُ تعالىٰ القبول والإخلاص. واللهُ الموفِّقُ للصواب، وبه المستعانُ وعليه التكلانُ ولا حول ولا قوةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيم.

تعريفُ الكبيرةِ

اختلفَ العلماءُ في تعريف حدِّ الكبيرة علىٰ أقوالٍ كثيرةٍ جداً ليس هنا موضعُ ذِكْرها وبيان اختلافِ العلماءِ فيها. ومن أشهر ما قيل في تعريفِ الكبيرةِ:

- قيل: إنَّ الكبيرة هي ما عليهِ حدٌّ في الشَّرعِ.
- وقيل: إنَّها المعصيةُ التي يَلْحَقُ صاحبها الوعيد الشَّديد بنصِّ كتابٍ أو سُنَّةٍ.
- وقيل: إنَّها كلّ ذنب رُتِّب عليه حدٌّ في الدُّنيا، أو وعيد شديد في الآخرة.
- وقيل: كلّ ما نهىٰ اللهُ عنه فهو كبيرةٌ.
- وقيل: هي كلُّ ذنبٍ خُتِم بلعنَةٍ، أو غَضَبٍ، أو نَارٍ.

وقد رَجَّح هذا التعريفَ الأخير بعضُ علماءِ المسلمينَ، وبيَّنَ سلامةَ هذا التَّعريف من القوادح الواردةِ علىٰ غيره، وتكلَّم بكلام نفيسٍ في هذا الجانبِ.

وقال الحافظُ ابنُ حَجَر ـ بعدَ استعراضهِ لعددٍ من الأقوال ـ: ومِن أحسَنِ التعاريفِ قول القرطبي في المفهم: «كلّ ذَنْبٍ أطلق عليهِ بنصِّ كتابٍ أو سُنَّةٍ أو إجماع أنَّه كبيرةٌ أو عظيمٌ، أو أخبرَ فيه بشدَّةِ العقابِ، أو عَلَّقَ عليهِ الحدّ، أو شدَّدَ النكيرَ عليهِ فهو كبيرةٌ».

قال الحافظ: وعلىٰ هذا فينبغي تَتَبُّعُ ما وردَ فيه الوعيدُ أو اللَّعن أو الفِسْقُ، مِنَ القرآن، أو الأحاديثِ الصَّحيحةِ والحسنَةِ، ويُضَمُّ إلىٰ ما وردَ فيه التَّنصيصُ

في القرآنِ والأحاديثِ الصِّحاح والحسانِ علىٰ أنه كبيرةٌ، فمهما بلغَ مجموع ذلك عُرِفَ منه تحريرُ عدّها.

وتبعاً للاختلاف السَّابق في تعريف الكبيرة اختلفَ العلماءُ أيضاً في تحديد عَدَدِ الكبائرِ، وما هي، فمن اقتصَرَ علىٰ أنها ما جاءَ النَّصُّ علىٰ أنَّهُ كبيرةٌ قالَ: إنَّها سبعٌ، أو تسعٌ، كما جاء ذلك في الأحاديثِ الواردة في الكبائر ومن عرَّفها بتعريف أوسعَ قال: إنَّها أكثر من ذلكَ، فعن ابنِ عباس قالَ: هي إلىٰ السبعين أقرب منها إلىٰ السَّبع.

وعن سعيدِ بن جبير أكبَر تلامِذتِهِ: هي إلىٰ السَّبعمئة أقربُ ـ يعني باعتبار أصناف أنواعها ـ واللهُ تعالىٰ أعلمُ. ثمَّ إنَّ الأحاديثَ المصرّحة بالكبائرِ نَوعان:

منها ما صرَّح فيه بأنه كبيرة، أو أكبر الكبائر، أو أعظم الذُّنوب، أو مُوبق، أو مُهلك، ومنها ما ذُكِرَ فيه نحو لَعن، أو غضبٍ، أو وعيدٍ شديدٍ.

فمن الأول خبرُ الشيخين: «ألا أُنَبِّئُكُم بأكْبَرِ الكَبائرِ؟» ـ ثلاثاً ـ قلنا: بلىٰ يا رسولَ اللهِ! قال: «الإِشْرَاكُ باللهِ، وَعُقُوقُ الوالِدَيْنِ، وكان متكئاً فجلسَ فقال: ألا وَقَوْلُ الزُّور وَشَهادَةُ الزُّورِ» فما زال يُكرِّرُها حتىٰ قُلنا: ليتَهُ سكَتَ.

ولهما أيضاً: أنَّ رجلاً قالَ للنَّبي ﷺ أيُّ الذَّنب أعظَمُ؟ قالَ: «أنْ تَجْعَلَ لله نِداً وَهُوَ خَلَقَكَ» قالَ قُلْتُ لَهُ: إنَّ ذَلِكَ لَعظِيمٌ. قَالَ قُلْتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قالَ قُلْتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ».

ورَوَيَا أيضاً: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «مِنَ الكَبائرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ» قالوا: يا رسولَ اللهِ، وهَل يشتُمُ الرَّجُلُ والدَيهِ؟ قالَ: «نَعَمْ، يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فيسبُّ أباهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ».

النوع الثاني:

ما رواه مسلم وغيره عَن النبيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قالَ: فقرأهَا رسولُ اللهِ ﷺ ثلاثَ مَرَّاتٍ، قال أبو ذرٍّ: خابُوا وخَسِروا مَن هم يا رسولَ الله؟! قال: «الْمُسْبِلُ إزارَه، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الكاذِبِ» [رواه مسلم].

ومنه أيضاً قوله ﷺ: «لا يَدْخُل الجَنَّةَ قَتَّاتٌ» أي نَمَّام. [متفق عليه].

فاعلم أخي المسلم ـ وفَّقنا اللهُ وإياكم لطاعتهِ، وأنالنا سوابغ رضاه ومهابته ـ أنَّ اللهَ تعالىٰ حذَّر عبادَهُ مِن معصيتهِ، بما أعلمهم بهِ مِن نواميس ربوبيتهِ، وأقامَهُ من سطواتِ قهره وجبروتِهِ ووحدانيتِهِ، قالَ تَعَالىٰ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥]. وقولهُ تعالىٰ: ﴿آسفونا﴾ أي أغضبونا.

وقال عزَّ وَجلَّ: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦]. وقالَ عَزَّ وَجَلَّ أيضاً: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾ [النساء: من الآية١٢٣].

لذا لا يقتحم حدودَ اللهِ إلاَّ الفاسقُ المغرورُ، ولا يصرّ عليها إلاَّ الفاجر المبتور، ولا يموتُ عليها إلاَّ الشقيُّ الجموع. عافانا المولىٰ الكريمُ من ذلكَ.

والعافيةُ من ذلكَ كلِّهِ أن نستمع إلىٰ من قال: لا تنظر إلىٰ صِغَرِ الخطيئةِ ولكن انظُر إلىٰ عظمةِ مَن عصَيتَ. وقال الحسن: تَركُ الخطيئةِ أيسرُ مِن طلبِ التَّوبة.

وقال محمد بن كعب القرظي: ما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أحبّ إليهِ مِن تَركِ المعاصِي.

ويؤيده قوله في الحديث عَن النبيِّ ﷺ أَنَّهُ قال: «ما نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فاجْتَنِبُوهُ، وَما أَمَرْتُكُمْ بِهِ فافْعَلُوا مِنْهُ ما استَطَعْتُم». [رواه مسلم].

وإليكَ الآن أهمَّ ما وردَ في تصنيف الكبائر تعداداً واختصاراً:

١- الكفرُ، والشركُ باللهِ

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ..﴾ [المائدة: ٧٢].

وَفِي الحديث الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ: أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ أَلا وَشَهَادَةُ الزُّورِ، فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّىٰ قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ».

٢- الرِّياء

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ﴾ [الماعون: ٦].

وقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَىٰ الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال ﷺ: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ». [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

وقولُهُ: (سَمَّعَ) بتَشْدِيدِ المِيمِ، ومَعْنَاهُ: أَظْهَرَ عَمَلَهُ لِلنَّاسِ رِيَاءً (سَمَّعَ اللهُ بِهِ) أَيْ: فَضَحَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَعْنَىٰ: (مَنْ رَاءَى) أَيْ: مَنْ أَظْهَرَ لِلنَاسِ الْعَمَلَ الصَّالِحَ لِيَعْظُمَ عِنْدَهُمْ (رَاءَى اللهُ بِهِ) أَيْ: أَظْهَرَ سَرِيرَتَهُ عَلَىٰ رُؤُوسِ الخَلائِقِ.

٣- قتلُ النَّفس

قالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ [النساء: ٩٣].

قال ابنُ كثير: وهذا تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ لمن تَعاطىٰ هذا الذَّنبَ العظيمَ

الَّذي هو مقرونٌ بالشِّركِ باللهِ في غيرِ مَا آيةٍ في كتابِ اللهِ، حيثُ يَقُولُ سُبحانَهُ في سورةِ الفُرقان: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾ [الفرقان: ٦٨].

والآياتُ والأحاديثُ في تحريمِ القَتْلِ كثيرةٌ منها في الصَّحيحينِ، عَن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أوَّلُ مَا يُقضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ».

◉ وللترمذي أيضاً: عَن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «لو أنَّ أهلَ السَّماءِ وأهلَ الأرض اشتركُوا في دمِ مؤمنٍ لأكبَّهُم اللهُ في النَّار». [حديث صحيح].

◉ وعَن عبدِ اللهِ بنِ مَسعود رضي الله عنه عَن النبيِّ ﷺ قَالَ: «يَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذاً بِيَدِ الرَّجُل فَيَقُولُ: يَا رَبِّ هَذَا قَتَلَنِي فيقُولُ اللهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فيقُولُ: قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ العِزَّةُ لَكَ فيَقُولُ: فَإنَّهَا لِي ويَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذاً بِيَدِ الرَّجُل فيقُولُ: إنَّ هَذَا قتَلَني فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فيقُولُ لِتَكُونَ العِزَّةُ لِفُلانٍ، فَيَقُولُ إنَّهَا لَيسَتْ لِفُلانٍ فَيَبُوءُ بِإِثْمِهِ». [صحيح، رواه أحمد والنسائي]. ومعنىٰ (فَيَبُوءُ بِإِثْمِهِ) أي يرجع بإثمه.

القَاتلُ نفسَهُ

قتلُ النَّفس حرامٌ، وهو مِنَ الكَبائِر، التي يُعذِّبُ اللهُ فاعِلَهَا عَليها..

◉ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَن قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا أَبَداً، وَمَنْ شَرِبَ سَمّاً فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبداً، وَمَنْ تَرَدَّى مِن جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبداً»[1]. [متفق عليه].

---

١ - قال المباركفوري: قوله (من قتل نفسه بحديدةٍ) أي: بآلةٍ من حديدٍ (فحديدته) أي: تلكَ بعينِهَا أو مثلهَا (يَتَوَجَّأ) من الوجأ وهو الطعنُ بالسكِّين ونحوه، والضَّمير في قوله (بها) للحديدةِ أي: يطعنُ بها=

٤- السحرُ

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: من الآية١٠٢] وما للشيطانِ الملعونِ غَرضٌ في تَعليمِهِ الإنسانَ السِّحرَ إلاَّ لِيُشرِكَ به. قَالَ اللهُ تَعَالىٰ مُخبراً عن هَاروت ومَاروت: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِن أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِن أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن خَلاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: من نَصيب.

فَتَرى خلقاً كثيراً مِن الضُّلال يَدْخُلُونَ في السِّحرِ ويظنُّونَهُ حَراماً فَقَط، ومَا يَشْعُرُونَ أَنَّهُ الكفرُ، فَيَدْخُلُونَ في تَعليم السيمياء[1] وعملِها، وهي محضُ السِّحر، وفي عقدِ الرَّجُل عَن زَوجته وهُو سِحرٌ، وفي محبَّةِ الرَّجُلِ للمرأةِ وَبغضها لَهُ، وأشباه ذلكَ بكلماتٍ مجهولةٍ أكثرها شركٌ وضلالٌ. [من كتاب الكبائر للذهبي]

٥- تركُ الصَّلاة

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ۝ إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ [مريم: من الآية٦٠].

● قَالَ ابنُ مسعود رضي الله عنه: لَيسَ مَعْنَىٰ أضاعُوهَا تركُوهَا بالكلِّيةِ، ولكن أخَّرُوهَا عَن أوقاتِهَا.

=(بطنَهُ) أي في بطنِهِ (في نار جهنَّم) أي: حال كونه في نار جهنم (ومن قتل نفسه بسمٍّ) السمُّ هذا القاتل المعروف (في يده يتحساه) أي يشربه في تَمهُّلٍ ويتجرّعُهُ (في نار جهنَّم خالداً مخلداً) قال الحافظُ: قد تَمسَّك به المعتزلةُ وغيرُهم ممن قال بتخليدِ أصحابِ المعاصي في النَّار.

١- علم السيمياء: علم يطلق على غير الحقيقي من السِّحر، وهو الأشهر، وحاصله إحداث مثالات خيالية لاوجود لها في الحسِّ، وتكون صوراً في جوهر الهواء. ولفظة سيمياء: عبرانية معبرة.

● وقالَ سَعيدُ بنُ المسيِّب ـ رحمه الله ـ: هُو أنْ لا يُصلِّي الظهرَ حتَّىٰ يأتي العَصْرُ، ولا يُصلِّي العَصْرَ إلىٰ المغرب، ولا يُصلِّي المغربَ إلىٰ العِشَاءِ، ولا يُصلِّي العشاءَ إلىٰ الفَجْرِ، ولا يُصلِّي الفَجْرَ إلىٰ طُلُوعِ الشَّمسِ، فَمَن ماتَ وَهُو مُصِرٌّ علَىٰ هذهِ الحالةِ ولَم يَتُب وَعَدَهُ اللهُ بِغَيٍّ وهُو وادٍ في جهَنَّم بعيدٌ قَعْرُهُ خَبيثٌ طَعْمُهُ.

وقال تَعالىٰ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤] أي غافلونَ عنها مُتَهاونُونَ بِهَا.

والويل، وهو شِدَّةُ العذابِ، وقيل: هو وادٍ في جهنَّم لو سيرت فيهِ جبالُ الدُّنيا لَذَابَت مِن شِدَّةِ حَرِّهِ، وهو مَسكَنُ مَن يَتَهَاوَنُ بالصَّلاةِ وَيُؤخِّرهَا عَن وقتِهَا إلاَّ أنْ يَتُوبَ إلىٰ اللهِ تَعَالىٰ، وَيَنْدَم علىٰ مَا فَرَّطَ.

● وَعَنْ مُصْعَب ﷺ قَالَ: قُلْتُ لأبي: يَا أَبَتَاهُ أرأيْتَ قَوْلَهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾. أَيُّنَا لا يَسْهُو، أَيُّنَا لا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: لَيْسَ ذاكَ، إنَّمَا هُوَ إضَاعَةُ الْوَقْتِ يَلْهُو حَتَّىٰ يُضَيِّعَ الْوَقْتَ. [رواه أبو يعلىٰ بإسناد حسن].

● وَقَالَ ﷺ: «مَنْ فَاتَتْهُ صَلاةٌ فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ». [رواه ابن حبان: صحيح].

● وَرَوَى البَزَّارُ مِن حَدِيثِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ أَوْ غَيْرِهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: ثُمَّ أَتَىٰ ـ يَعْنِي النَّبِيُّ ﷺ ـ عَلَىٰ قَوْمٍ تُرْضَخُ رُؤُوسُهُمْ بِالصَّخْرِ، كُلَّمَا رُضِخَتْ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ، وَلا يُفَتَّرُ عَنْهُم مِن ذلِكَ شَيْءٌ. قَالَ: «يَا جِبْرِيلُ مَنْ هؤُلاءِ؟ قَالَ: هؤُلاءِ الَّذِينَ تَثَاقَلَتْ رُؤُوسُهُمْ عَنِ الصَّلاةِ الْمَكْتُوبَةِ». [ضعيف، تابعيه مجهول كما قال الهيثمي في المجمع].

وقال تعالىٰ في آيةٍ أُخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

قالَ المفسرونَ: المرادُ بِذِكْرِ اللهِ في هَذِهِ الآيةِ الصَّلَواتُ الخمس، فَمَن اشتَغَلَ

بمالِهِ في بَيْعِهِ وَشِرائِهِ وَمعيشَتِهِ وَضيعَتِهِ وأولادِهِ عَن الصَّلاةِ في وَقْتِهَا كانَ مِنَ الخاسرينَ والعياذُ باللهِ تعالىٰ.

◉ وعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ أوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِن عَمَلِهِ صَلاتُهُ، فَإنْ صَلَحَتْ، فَقَدْ أفْلَحَ وَأنجَحْ، وَإنْ فَسَدَتْ، فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فإنِ انْتَقَصَ مِن فَرِيضَتِهِ شَيْئاً، قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: انظُروا هَلْ لِعَبْدِي مِن تَطَوُّعٍ، فَيُكَمَّلُ منها مَا انْتَقَصَ مِنَ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ أعمَالِهِ عَلىٰ هَذَا»[1].

٦- منعُ الزكاة

قال اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠]. وقال تعالىٰ: ﴿وَوَيلٌ للمشرِكينَ ۝ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٧].

اعلم أنَّ الزكاةَ ركنٌ مِن أركانِ الإسلام، ومَن وَجَبَ في حَقِّه الزكاة ولم يَدفعهَا ويُؤدّي حقَّ اللهِ منها كانَ مَانعاً لها، ولَقَد ثبتَ الوعيدُ الشَّديدُ لمن مَنَعَهَا.

◉ عَن أبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِن صَاحِبِ ذهَبٍ، وَلا فِضَّةٍ، لا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إلاَّ إذا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صفَائحُ مِن نَارٍ،

١- (الترمذي/٤١٣). (إن أول ما يحاسب به العبد) أي في حقوق الله فلا يشكل بما جاء أنَّهُ يبدأ بالدماء فإن ذاك في المظالم وحقوق الناس (فيكمل به مَا نقص من الفريضة) ظاهره أن من فاتته الصلاة المكتوبة فصلىٰ نافلة يحسب عنه النافلة موضع المكتوبة وقيل: بل مَا نقص من خشوع الفريضة وآدابها يجبر بالنافلة ورد بأن قوله: وسائر الأعمال كذلك لا يناسبه إذ ليس في الزكاة إلاَّ فرض أو فضل فكما تكمل فرض الزكاة بفضلها كذلك في الصلاة وفضل الله أوسع وكرمه أعم وأتم.

فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا في نارِ جَهنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ، وَجَبِينُهُ، وَظَهْرُهُ، كُلَّما بَرِدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ في يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ العِبَادِ، فَيُرَى سَبِيلُهُ، إِمَّا إِلىٰ الجَنَّةِ، وَإِمّا إِلىٰ النّارِ». قِيلَ: يا رَسُولَ الله، فالإبلُ؟ قال: «وَلا صَاحِبِ إِبِلٍ لا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، وَمِنْ حَقِّهَا حَلْبُهَا يَوْمَ وِرْدِها، إلاَّ إذا كانَ يَوْمُ القِيَامة بُطِحَ لَها بِقَاعٍ قَرْقَرٍ أَوْفَرَ مَا كانَتْ، لا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلاً وَاحِداً، تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا، وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِها، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولاها، رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاها، في يومٍ كَانَ مِقْداره خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ العِبادِ، فَيُرَى سَبِيلُه، إمَّا إِلىٰ الجَنَّةِ وَإمّا إِلىٰ النارِ».

قِيلَ: يا رَسُولَ الله فَالْبَقَرُ والغَنَمُ؟ قَالَ: «وَلا صَاحِبِ بَقَرٍ وَلا غَنَمٍ لا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ، بُطِحَ لَها بقَاعٍ قَرقَرٍ، لا يَفْقِدُ مِنْها شَيْئاً، لَيْسَ فِيْهَا عَقْصَاءُ، وَلا جَلْحاءُ، وَلا عَضْباءُ، تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا، وَتَطَؤُهُ بِأَظْلافِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولاها، رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاها، في يَومٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّىٰ يقْضَىٰ بَيْنَ العِبَادِ، فَيُرَى سَبِيلُهُ إمّا إِلىٰ الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلىٰ النَّارِ». [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

٧- إفطارُ يومٍ من رمضانَ بِغَيرِ عُذْر

◉ قال اللهُ تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَىٰ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِن أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَىٰ الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

◉ وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «مَنْ أَفْطَرَ يَوْماً مِن رَمَضَانَ مِن غَيْرِ رُخْصَةٍ، وَلا مَرَضٍ لَمْ يَقْضِهِ صَوْمُ الدَّهْرِ كُلِّهِ، وَإِنْ صَامَهُ». [رواه الترمذي ـ واللفظ له ـ وأبو داود والنسائي، وابن ماجه، وابن خزيمة في صحيحه، والبيهقي كلهم من رواية ابن

المطوس، وقيل: أبي المطوس عن أبيه عن أبي هريرة وذكره البخاري تعليقاً غير مجزوم، فقال: ويذكر عن أبي هريرة رفعه]: «مَنْ أفْطَرَ يَوْماً مِن رَمَضَانَ مِن غَيْرِ عُذْرٍ وَلا مَرَضٍ لَمْ يَقْضِهِ صَوْمُ الدَّهْرِ وَإنْ صَامَهُ». [ضعيف].

وقال الترمذي: لا نعرفه إلاَّ من هذا الوجه، وسمعت محمداً، يعني البخاريّ يقول: أبو المطوس اسمه يزيد بن المطوس، ولا أعرف له غير هذا الحديث، انتهىٰ. وقال البخاري أيضاً: لا أدري سمع أبوه من أبي هريرة أم لا، وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج بما انفرد به والله أعلم.

قال المباركفوري في «التحفةِ»: قوله: (مِن غيرِ رُخصةٍ) كَسَفَرٍ (ولا مَرَض) أي مبيح للإفطارِ، مِن عطفِ الخاصّ علىٰ العامّ (لم يَقْضِ عنهُ صومُ الدَّهر كُلِّه) أي صَومه، فالإضافةُ بمعنىٰ في نحو مكرِ اللَّيل، وكله للتأكيدِ (وإنْ صامَهُ) أي وَلَو صامَ الدَّهر كُلَّه. قالَ الطيبيُّ: أي لم يَجد فضيلَةَ الصوم المفروضِ بِصَوم النَّفلِ وإنْ سَقَطَ قضاؤهُ بصوم يوم واحدٍ، وهذا علىٰ طريقِ المبالغَةِ والتَّشديد، ولذلكَ أكَّدَهُ بقوله «وإنْ صَامَهُ» أي حقّ الصِّيام. قال ابنُ الملكِ: وإلاَّ فالإجماعُ عَلىٰ أنهُ يقضي يوماً مكانَهُ، وقالَ ابنُ حَجَر: وما اقتضاهُ ظاهِرُهُ أنَّ صومَ الدَّهرِ كُلِّه بنيَّة القضاءِ عمَّا أفطرَهُ مِن رمضان لا يُجزِئُه، قالَ بِهِ عَليٌّ وابنُ مَسْعُود، والذي عليهِ أكثرُ العلماءِ يجزئهُ وإنْ كانَ مَا أفطرهُ في غايةِ الطول والحرّ وما صامَهُ بَدَلَهُ في غاية القِصَرِ والبردِ، كذا في المرقاة. واللهُ تعالىٰ أعلم.

٨- تركُ الحجِّ مع القدرةِ

◉ قالَ تَعالىٰ: ﴿وَلِلهِ عَلىٰ النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: من الآية ٩٧].

◉ ويُروى عَن النبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «مَنْ لَمْ تَحبِسْهُ حَاجَةٌ ظَاهِرَةٌ، أوْ مَرَضٌ حَابِسٌ، أوْ سُلْطَانٌ جَائِرٌ، وَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إنْ شَاءَ يَهُودِيّاً، وَإنْ شَاءَ نَصْرَانِيّاً».

[ضعيف، رواه البيهقي، وفي إسناده شريك بن عبد الله عن ليث بن أبي سليم، وكلاهما ضعيف].

٩- عقوقُ الوالدَين

قالَ تَعَالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ۝ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

أي لا تَقُل لَهُما قولاً فيه تَبرُّمٌ إذا كَبُرا وأسنَّا، بل يَنْبَغي أنْ تَتولّىٰ خِدمَتَهُما مَا تَوليّا مِن خدمَتِك، وأن تقولَ لهما قولاً ليِّناً طيِّباً، علىٰ أنَّ الفضلَ للمتقدّم، وكيفَ يَقعُ التَّساوي وقد كانَا يحملانِ أذاكَ راجينَ حياتَكَ، وأنتَ إنْ حملْتَ أذاهمَا رَجوْتَ موتَهُما.

وقال تَعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]. فانْظُر رَحِمكَ اللهُ تعالىٰ كَيفَ قَرَنَ شُكرَهُمَا بِشُكْرِهِ. فمن شُكْرِ اللهِ أنْ يَشْكُرَ الابنُ لوالِديه، حتَّىٰ يُقبل منهُ.

◉ عَنْ أَبِي بكْرَةَ قَالَ: قَالَ ﷺ: «ألا أَنبئُكُمْ بِأكبرِ الْكَبائِرِ؟». ثَلاثاً ـ قُلْنَا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «الإشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» وكَانَ مُتَّكِئاً فَجَلَسَ، فَقَالَ: «ألا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادةُ الزُّورِ» فَمَا زَالَ يُكرِّرُهَا حَتَّىٰ قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ[1].

◉ وفي رِوَايةٍ: «إنَّ مِن أكْبَرِ الْكَبَائِرِ أنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ!». قِيلَ: يا رسولَ اللهِ كَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟! قَالَ: «يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ».

١- (متفق عليه). (الكبائر) جمع كبيرة، وهي كل فعل قبيح نهىٰ عنه الشرع وشدّد النهي عنه وأعظم أمره (عقوق) هو كلّ فعل يتأذى به الوالدان تأذياً شديداً، وهو ليس من الأفعال الواجبة شرعاً، أصله من العق وهو القطع، لأن العاق يقطع ما بينه وبينهما من صلة (الزور) الكذب والباطل.

١٠- هجرُ الأقارب

قال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: من الآية ١].

وقولهُ تعالىٰ: ﴿تساءلون به﴾ أي يسأل بعضكم بعضاً باللهِ تَعَالىٰ فيقول: أسألُكَ باللهِ أن تفعَل كذا، لِيَحُثَّه علىٰ الفِعْل ونحوه، والأرحامُ جَمْعُ رَحِم، وهُم القرابةُ مِنَ النَّسبِ. ﴿رقيباً﴾ مراقباً لأعمالكم وأحوالكم ومجازياً عليها.

وقالَ تَعَالىٰ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢- ٢٣]».

◉ وفي الصَّحيحين، عن أبي مُحمد جُبَيْر بنِ مُطْعِم ﷺ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا يَدْخُلُ الجَنَّة قَاطعٌ» قالَ سفيان في روايتِهِ: يَعْني: قَاطع رَحِم.

◉ وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: أن رجلاً قَالَ: يا رسولَ الله ﷺ إنَّ لي قَرَابَةً أصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونـي، وَأحْسِنُ إلَيْهِمْ وَيُسِيؤُونَ إليَّ، وَأحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُم المَلَّ، وَلا يَزالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلىٰ ذَلِكَ»[1].

قال النوويُّ ـ رحمه اللهُ تعالىٰ ـ: (وَالمَلُّ) هو الرَّمَادُ الحَارُّ: أيْ كَأَنَّمَا تُطْعِمُهُمُ الرَّمَادَ الحَارّ وَهُوَ تَشْبِيه لَمَّا يَلْحَقُهُم مِنَ الإثْم بِمَا يَلْحَقُ آكِلَ الرَّمَادِ الحَارِّ مِنَ الألَمِ، وَلا شَيْءَ عَلىٰ هَذَا المُحْسِنِ إلَيْهِمْ، لَكِنْ يَنَالُهُمْ إثْمٌ عَظِيمٌ بِتَقْصِيرِهِمْ في حَقِّهِ، وإدْخَالِهِمُ الأذَى عَلَيْهِ، وَاللهُ تعالىٰ أعلمُ.

---

١ ـ (مسلم/٢٥٥٨). (ويجهلون علي) أي يسيئون والجهل هنا، القبيح من القول. وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم، بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم (تسفهم الملّ) الملّ هو الرماد الحار، أي كأنما تطعمهموه (ظهير) المعين والدافع لأذاهم.

١١- الزِّنى

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقالَ تَعَالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۝ إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠].

وقالَ تَعَالىٰ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

قال العلماءُ: هذا عذابُ الزَّانيةِ والزَّاني في الدُّنيا إذا كانَا عزبين غير مُتزوّجين فإن كانا مُتزوّجين أو قد تزوّجا ولو مرّةً في العُمُر فإنَّهما يُرجمانِ بالحجارةِ إلىٰ أن يموتَا كذلكَ ثبتَ في السُّنَّةِ عَن النبيِّ ﷺ، فإن لم يُستوفَ القصاصُ منهما في الدُّنيا وماتَا من غيرِ توبةٍ فإنَّهما يُعذَّبان في النَّار بسياطٍ من نارٍ. [الكبائر، للذهبي].

◉ عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا زَنَىٰ الرَّجُلُ خَرَجَ مِنْهُ الإِيْمَانُ وكَانَ عَلَيْهِ كَالظُّلَّةِ، فإِذَا انْقَلَعَ رَجَعَ إليهِ الإِيْمَانُ». [صحيح، رواه أبو داود].

◉ وعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ ﷺ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتيَانِي فَأَخْرَجَانِي إِلَىٰ أَرْضٍ مُقَدَّسَةٍ» فَذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلىٰ أَنْ قَالَ: «فَانْطَلَقْنَا إِلىٰ ثُقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ أَعْلاهُ ضَيِّقٌ، وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَاراً، فَإِذَا ارْتَفَعَتِ ارْتَفَعُوا حَتَّىٰ كَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا، وَإِذَا أُخْمِدَتْ رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ» الحديث.. [رواه البخاري].

١٢- اللواط

لقد قصَّ اللهُ تعالىٰ علينا في كتابهِ العزيزِ قصَّةَ قومِ لوط في غيرِ موضعٍ، من ذلكَ قولُهُ تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ[1] ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً[2] عِنْدَ رَبِّكَ[3] وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ[4]﴾ [هود: ٨٢-٨٣].

◉ وعَن جابر رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ أخْوَفَ ما أخافُ عَلَىٰ أُمَّتِي عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ». [حسّنه الترمذي، ورواه ابن ماجه].

◉ وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «.. مَلْعُونٌ مَن وَقَعَ عَلَىٰ بَهِيمَةٍ، مَلْعُونٌ مَن عَمِلَ بِعَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ». [حديثٌ حسنٌ صحيح، رواه أحمد وغيره].

◉ وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَن وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قومِ لُوطٍ فاقْتُلُوا الْفَاعِلَ والمَفْعُولَ بِهِ». [رواه الترمذي، وابن ماجه].

١٣- الرِّبا

قَالَ تَعَالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ[5] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِن رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

١- ﴿من سجيل﴾: أي من طين طُبخ حتىٰ صارَ كالآجر. ﴿منضود﴾: أي: يتلو بعضه بعضاً.

٢- ﴿مسومة﴾: أي: مُعلَّمة بعلامةٍ تُعرف بها أنها ليست من حجارةِ أهلِ الدُّنيا..

٣- معنىٰ ﴿عندَ ربِّك﴾ أي: في خزائنه التي لا يُتصرَّفُ في شيء منها إلاّ بإذنه.

٤- ﴿وما هيَ مِن الظالمينَ ببعيد﴾ ما هي من ظالمي هذه الأمة إذا فعلوا فعلهم ببَعيدٍ أنْ يحلّ بهم ما حَلَّ بأولئك مِن العَذاب.

٥- أي: لا يقومون من قُبورهم يوم القيامة إلاّ كما يقوم الذي قد مسَّهُ الشيطان وصَرَعَهُ.

● قالَ قَتادَةُ: إنَّ آكِلَ الرِّبا يُبْعَثُ يومَ القِيامَةِ مجنوناً، وذلكَ عَلَمٌ لأَكَلَةِ الرِّبا يَعْرِفُهُم بهِ أهلُ الموقفِ(١).

● وعَنِ ابْنِ مَسْعُود ﷺ قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ»(٢).

● زادَ الترمِذيُّ وغيره: «وَشَاهِدَيْهِ، وكَاتِبَهُ».

● وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الرِّبَا اثْنَانِ وَسَبْعُونَ بَاباً، أدْنَاهَا مِثْلُ إتْيَانِ الرَّجُلِ أُمَّهُ، وَإنَّ أرْبَىٰ الرِّبَا اسْتِطَالَةُ الرَّجُلِ في عِرْضِ أخِيهِ». [رواه الطبراني في الأوسط من رواية عمر بن راشد. وهو حديثٌ صحيحٌ لغيره].

١٤- أكلُ مال اليتيم وظلمه

لقد حرَّمَ اللهُ تَعَالىٰ أكلَ مَالِ اليتيم تحريماً مُغَلَّظاً لِكَونِ اليَتِيْم لا وَالِيَ لَهُ إلاَّ اللهُ تَعَالىٰ، ومَا لَهُ وَالِدٌ يُرَاعىٰ لأجلِهِ، فَافهَم.

لِذا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ [النساء: ١٠].

قال الطّبري: قوله تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً..﴾ رُوي أنَّها نَزَلَت في رجلٍ مِن غطفَان يقالُ له: مرثد بن زيد، وَلِيَ مَالَ ابنِ أخيهِ وهو يتيمٌ صغيرٌ فأكَلَهُ، فأنزلَ اللهُ تَعَالىٰ فيهِ هَذهِ الآية، قالَ مُقاتل بن حيان: ولهذا قالَ الجمهورُ: إنَّ المرادَ الأوصياءَ الَّذين يأكُلُونَ مَا لَم يُبح لَهُم مِن مَال اليَتِيم.

١- أخرجه الطبريُّ بسندٍ صحيح عن قتادة بنحوهِ.

٢- (مسلم، والترمذي). (آكل الرّبا) أي آخذه وإن لم يأكل وإنما خصّ بالأكل لأنه أعظم أنواع الانتفاع كما قَالَ تعالىٰ: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامىٰ ظلماً﴾. (وموكله) أي معطيه لمن يأخذه وإن لم يأكل منه نظراً إلىٰ أن الأكل هو الأغلب أو الأعظم. والله تعالىٰ أعلم.

وقَالَ ابن زيد: نَزَلَت في الكُفَّار الَّذين كانُوا لا يُورِّثُونَ النساءَ ولا الصِّغارَ.

◉ وأخرجَ ابنُ جَرير، وابنُ أبي حَاتم عَن السُّديّ، بسندٍ ضعيف في الآيةِ المذكورةِ قَالَ: إذا كانَ الرَّجُلُ يأكُلُ مَالَ اليتِيْم ظُلْماً، يُبْعَثُ يومَ القِيامَةِ ولَهبُ النَّارِ يَخرجُ مِن فِيْهِ وَمِن مَسامِعِهِ ومِن أُذُنَيْهِ وأنفِهِ وعَينَيْهِ، يَعْرِفُهُ مَن رآهُ بِأكلِ مَالِ اليَتِيْم.

١٥ - الكذب

اعلم أنَّ الكذبَ أنواعٌ وأشدّها الكذبُ علىٰ اللهِ تعالىٰ وعلىٰ رسولِهِ ﷺ..

قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

قَالَ الحسنُ: هُم الَّذين يَقُولُونَ إنْ شِئْنَا فَعلْنَا، وإنْ شِئْنَا لَم نَفْعَل.

قالَ ابنُ الجوزيّ في تَفسيرِهِ: وقَد ذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنَ العُلَمَاءِ إلىٰ أنَّ الكَذِبَ عَلىٰ اللهِ وَعَلىٰ رَسُولِهِ كُفْرٌ يَنْقُلُ عَن المِلَّةِ، وَلا رَيْبَ أنَّ الكذِبَ علىٰ اللهِ وعَلىٰ رَسُولِهِ في تَحْليلِ حَرام وَتحريم حَلالٍ كُفْرٌ مَحْضٌ، وإنما الشأنُ في الكَذِبِ عليهِ فيمَا سِوى ذلكَ.

◉ وفي الحديثِ الصَّحيح، قَالَ ﷺ: «إنَّ كَذِباً عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلىٰ أحَدٍ، مَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِن النَّارِ» [متفق عليه].

◉ وعَنِ ابْنِ مسعودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ الصِّدقَ يَهْدِي إلىٰ البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدِي إلىٰ الجَنَّةِ، وَإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقاً، وَإنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إلىٰ الفُجُورِ، وَإنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إلىٰ النَّارِ، وَإنَّ الرجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً». [متفق عليه].

١٦- الفرارُ منَ الزَّحف

قالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

اعلم أنَّ الْفِرَارَ الْمُحَرَّمَ كَبِيرَةٌ مُوبِقَةٌ بِظَاهِرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيم وَإِجْمَاعِ الأَكْثَرِ مِنَ الأَئِمَّةِ لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ..». [متفق عليه]. وَهِيَ كَبِيرَةٌ تُكَفِّرُهَا التَّوْبَةُ بِعَفْوِ اللهِ تَعَالىٰ وَمَشِيئَتِهِ.

١٧- غشُّ الإمامُ الرَّعيةَ وظلمُه لهم

لا شكَّ أنَّ الغشَّ حرامٌ بشكلٍ عامّ، ولكنَّ غشّ الأمير لرعيَّتِهِ أكبرُ جرماً وأعظمُ إثماً. قال اللهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَىٰ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤٢]

وقالَ تَعَالىٰ: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

◉ وعن مَعْقِل بن يَسَار رضي الله عنه قَالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما مِن عَبْد يَستَرعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يومَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِه إلاَّ حَرَّمَ الله عَلَيه الجَنَّةَ»(١).

١- (متفق عليه). (يسترعيه الله) أي يفوض إليه رعاية رعية وهي بمعنىٰ المرعية بأن ينصّبه إلىٰ القيام بمصالحهم ويعطيه زمام أمورهم (غاش) أي خائن (لرعيته) المراد يوم يموت وقت إزهاق روحه وما قبله من حالة لا تقبل فيها التوبة لأن التائب من خيانته وتقصيره لا يستحق هذا الوعيد (إلا حرم اللّه عليه الجَنَّة) أي إن استحل أو المراد يمنعه من دخولها مع السابقين الأولين وأفاد التحذير من غش الرعية لمن قلد شيئاً من أمرهم فإذا لم ينصح فيما قلد أو أهمل فلم يقم بإقامة الحدود واستخلاص الحقوق وحماية البيضة ومجاهدة العدو وحفظ الشريعة ورد المبتدعة فهو داخل في هذا الوعيد الشديد المفيد لكون ذلك من أكبر الكبائر المبعدة عن الجَنَّة، وأفاد بقوله يوم يموت أن التوبة قبل حالة الموت مفيدة. والله أعلم.

١٨- الكِبرُ والفخرُ والخيلاءُ والعجب

قالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: من الآية ٢٣].

وقالَ تَعَالىٰ: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ(١)﴾ [لقمان: ١٨].

وقالَ تَعَالىٰ: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء: ٣٧].

◉ عن أبي هُريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «العِزُّ إِزَارِي، والكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَن يُنازِعُني، عَذَّبْتُهُ»(٢).

قَالَ الإمَامُ المناوي في فيض القدير: (قَالَ الله تعالىٰ الكبرياء ردائي والعظمة إزاري) أي أنه خاصّ صِفَتِي، فلا يليق إلاَّ بي، فالمنازع فيه منازعٌ في صفةٍ من صفاتي، فإذا كان الكِبر علىٰ عبادِه لا يليقُ إلاَّ بِهِ فمن تكَبَّر علىٰ عبادِهِ فَقَد جني عليه، ذكره الغزالي. وقَالَ الكلاباذي: الرداء عبارة عن الجمال والبهاء، أما الإزار عبارة عن الجلال والستر والحجاب، فكأنه قال: لا تليق الكبرياء إلاّ بي، وقوله (فمن نازعني واحداً منهما) أي جاذبني إياه (قذفته) أي رميتُهُ. وفي رواية: أدخلته (في النَّار) لتشوفه إلىٰ مَا لا يليق إلاَّ بالقادر القهَّار القَوي الجبار الغني العليّ سبحانه ليس كمثلِهِ شيءٌ. وقَالَ: ولقد أفاد هذا الوعيد أن التَّكبُّرَ والتَّعاظُمَ مِنَ الكبائِر.

وفيه تحذيرٌ شديد من الكِبْر، ومن آفاتِهِ حِرمانُ الحقّ وعَمَىٰ القَلب عَن مَعْرفَةِ آياتِ الله وفَهْمِ أحكامِهِ، والمقت والبُغض مِنَ اللهِ. واللهُ تَعَالىٰ أعلَمُ.

١- معنىٰ (تُصعِّرْ خَدَّكَ) أي: تُميلُهُ وتعرِضُ بِهِ عَنِ النَّاس تكَبُّراً عَلَيْهِمْ. (والمَرَح): التَّبَخْتُر..

٢- (مسلم/ ٢٦٢٠). (فمن ينازعني عذبته) ينازعني يتخلق بذلك فيصير في معنىٰ المشارك، وهذا وعيدٌ شديدٌ في الكِبْر مصرّح بتحريمه، وأمَّا تسميته إزاراً ورداءً فمجازٌ واستعارةٌ حسنةٌ.

● وعَن ابن مسعُودٍ رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لا يَدْخُل الجَنَّةَ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ» فَقَالَ رَجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحبُّ أنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إنَّ اللهَ جَميلٌ يُحبُّ الجَمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»(١).

١٩- شهادةُ الزُّور

قال تَعَالىٰ: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: من الآية٣٠].

وقالَ تَعَالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ..﴾ [الفرقان: ٧٢].

● وعَنْ أَبِي بكْرَةَ قَالَ: قَالَ ﷺ: «ألا أنبِئُكُمْ بِأكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟». ثَلاثاً. قُلْنَا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «الإشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» وَكَانَ مُتَّكِئاً فَجَلَسَ، فَقَالَ: «ألا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادةُ الزُّورِ» فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّىٰ قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ(٢).

٢٠- شربُ الخمر، والحشيشة

قالَ تَعَالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِن عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

الخَمرُ لغةً: مَا أسكرَ مِن عَصِيرِ العِنَبِ، وسُمِّيت بِذَلِكَ لأنَّها تُخَامِرُ العَقلَ. وحَقِيْقَةُ الخَمْرِ إنَّمَا هِيَ مَا كَانَ مِنَ العِنَبِ دُونَ مَا كَانَ مِن سَائِرِ الأشياءِ.

والخَمْرُ شرعاً: تُطلقُ علىٰ ما يُسكِرُ قليلُهُ أو كثيرُهُ، سواءٌ اتُّخذَ مِن العِنَبِ أو التَّمرِ أوِ الحِنْطَةِ أو الشَّعيرِ أو غيرِهَا. لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «كلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وكُلُّ

١- (مسلم/٩١). (بطر الحق) هو دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً. وغَمطُ النَّاس: احتِقَارُهُمْ.

٢- (متفق عليه). (الكبائر) جمع كبيرة، وهي كل فعل قبيح نهىٰ عنه الشرع وشدّد النهي عنه وأعظم أمره (عقوق) هو كلّ فعل يتأذى به الوالدان تأذياً شديداً، وهو ليس من الأفعال الواجبة شرعاً، أصله من العق وهو القطع، لأن العاق يقطع ما بينه وبينهما من صلة (الزور) الكذب والباطل.

خَمْرٍ حَرَامٌ». [رواه مسلم].

وقَولُهُ تَعالىٰ: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ يظنُّ بعضُ المُغَفَّلِين أنَّ مَعْنَىٰ ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أي هُوَ مكْرُوهٌ ولَيْسَ حَراماً، مَع أنَّ الاجْتِنَابَ هُوَ أشَدُّ حُرْمَةً مِنَ قَولِهِ تَعَالىٰ: «لا تَشْرَبُوهُ». وذلِكَ لأنَّ مَعْنَىٰ «لا تَشْرَبُوهُ» أي يَجُوزُ عِنْدَهَا أن يَقْتَنِيهِ أو يُهْدِيَهُ أو يَبِيْعَهُ أو يَجْلِسَ عَلىٰ طَاولَةٍ يُدارُ عَلَيْهَا الخَمْرُ.. المُهِمّ أنْ لا يَشْرَبَها!! أمَّا الاجْتِنَابُ فَهُو تَحْرِيمُ كُلِّ ذَلِكَ قَطْعاً.

◉ وعَن أسْمَاء بِنْتِ يَزِيدَ أنَّهَا سَمِعَت النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَن شَرِبَ الخَمْرَ، لَمْ يَرْضَ اللهُ عَنْهُ أرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَإِنْ مَاتَ، مَاتَ كَافِرًا، وَإِنْ تَابَ، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ، كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ أنْ يَسْقِيَهُ مِن طِينَةِ الخَبَالِ». قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا طِينَةُ الخَبَالِ؟ قَالَ: «صَدِيدُ أهْلِ النَّارِ». [صحيح لغيره دون قوله: «فإن ماتَ ماتَ كافرًا» وهذا إسنادٌ ضعيف، لضعف شهر بن حوشب، وابن خُثيم - وهو عبد الله بن عثمان - مختلف فيه: رواه أحمد، والطبرانيُّ في الكبير].

وقال الذهبيُّ في «الكبائر»: والحشيشَةُ المصنوعَةُ مِن وَرَقِ القِنَّبِ حرامٌ كالخمرِ يحدُّ شارِبُها كما يُحَدُّ شارِبُ الخمرِ، وهي أخبثُ مِنَ الخمرِ مِن جهةِ أنَّها تُفْسِدُ العَقْلَ والمزاجَ حَتَّىٰ يصيرَ في الرَّجُلِ تخنُّثٌ ودياثَةٌ وغيرُ ذلكَ مِنَ الفسادِ، والخمرُ أخبثُ مِن جهةِ أنَّها تُفْضِي إلىٰ المخاصَمَةِ والمقاتَلَةِ وكلاهُما يَصُدُّ عَن ذِكْرِ اللهِ وعَن الصَّلاةِ.

٢١- القُمارُ والميسر

قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِن عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ

يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠- ٩١].

الميسرُ لغةً: قمارُ العَربِ بالأزلام، وقالَ صَاحبُ القاموس هُو اللَّعبُ بالقداح أو هُو النَّردُ، أو كلّ قِمَارٍ.

ولا يخرجُ المعنىٰ الاصطلاحيّ عَن المعنىٰ اللغويّ.

وقال ابنُ حجر المكّي: الميسرُ: القمارُ بأيّ نوع كانَ، وقال المحلّي: صورةُ القمار المحرّم التّردد بينَ أن يَغْنَمَ وأن يَغْرَمَ.

وقال مالك: الميسرُ: ميسران، ميسر اللّهوِ، وميسر القمار فَمِن مَيسرِ اللَّهو النّرد، والشَّطرنج والملاهي كلها، وميسرُ القمارِ ما يَتخَاطَرُ النَّاس عليهِ. وبمثل ذلكَ قالَ ابنُ تيمية.

واتَّفق الفقهاء علىٰ تحريم الميسِر في الجملةِ لقولهِ تَعَالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. ومَا يكسِبُهُ المقامِرُ هو كسبٌ خبيثٌ، وهو مِنَ المالِ الحرام مثل كَسْب المخادع والمقامِرِ، والواجِب في الكسبِ الخبيث تَفْريغ الذِّمّةِ منهُ، بردِّه إلىٰ أربابهِ إنْ عَلِمُوا وإلاَّ إلىٰ الفقراء.

اللّعب بالورَقِ (الشَّدّة)

الورق وهو ما يُعرف بـ(الشَّدَّة) ببلاد الشام، حرَّمهُ العلماءُ، والسَّببُ في ذلكَ أنَّهُ وسيلةٌ وذريعةٌ للميسرِ المحرَّم أوّلاً، وثانياً: يَصرفُ الإنسانُ وقتَهُ في غيرِ طاعةِ اللهِ تعالىٰ، فهو أكبرُ ذريعةٍ للانشِغَال عَن الذِّكرِ والصَّلاةِ. والعُمُر مسؤولٌ عنهُ كلّ إنسانٍ.. حتّىٰ ولو كانَ لا يُلهي عن الصَّلاةِ وبدون عِوَضٍ.

وفي الفتاوى الإسلاميَّةِ، للجنةِ الدَّائمة، لعلماءِ بَلَدِ اللهِ الحرَام (ص/١٢٥١):
سُئلت اللجنةُ عَن لَعِبِ الورقِ إذا كانَ لا يُلهي عن الصَّلاةِ ومن دُونِ فلوسٍ هل هو حرامٌ أم لا؟

فأجابت: اللعبُ بالورقِ لا يجوزُ ولو كانَ بغيرِ عِوَضٍ لأنَّ الشأنَ فيهِ أنَّهُ يشغلُ عن ذِكْرِ اللهِ تعالىٰ وعَن الصَّلاةِ، وإنْ زُعِمَ أنَّهُ لا يَصُدُّ عن ذلكَ. ثمَّ هوَ ذَريعةٌ إلىٰ الميسرِ المحرَّم بنصِّ القرآنِ، قالَ تَعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]. انتهىٰ جوابُ فتواهم حرفيًّا.

٢٢- قذفُ المحصناتِ

يقولُ اللهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

وقالَ تَعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

(معنىٰ القَذف): قال الذهبيُّ: بَيَّنَ اللهُ تَعالىٰ في الآيةِ أنَّ مَن قَذَفَ امرأةً محصنَةً حُرَّةً عفيفةً عَن الزِّنا والفَاحِشَةِ أنه مَلعُونٌ في الدُّنيا والآخرةِ، ولهُ عذابٌ عظيمٌ، وعليهِ في الدُّنيا الحدُّ ثمانونَ جَلْدَةً، وتَسْقُطُ شَهَادَتُهُ وإن كان عدلاً، وفي الصَّحيحين أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اجتَنِبُوا السَّبعَ الموبِقَات..» فذكَرَ منهَا قَذْفَ المحصناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ.

والقذفُ: أن يَقُولَ لامرأةٍ أجنبيةٍ حُرَّةٍ عفيفةٍ مسلمةٍ: (يا زانيةُ) أو (يا باغيةُ)

أو (يا قَحْبَةُ) أو يقول لزوجها: (يا زَوج القَحْبَةِ) أو يقول لولدها: (يا وَلَد الزَّانية) أو (يا ابنَ القَحْبَةِ) أو يقول لِبِنْتِهَا: (يا بنتَ الزَّانية) أو (يا بنتَ القَحْبَةِ) فإنَّ القحبةَ عبارَةٌ عَن الزَّانية.

٢٣- الغلولُ مِن الغَنيمة

الغلول: هو السَّرقة من الغنيمةِ، وكذا من بيتِ مالِ المسلمينَ ومنَ الزكاة..

قالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: من الآية ٥٨].

وقالَ تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

◉ عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَامَ فِينَا النَّبِيُّ ﷺ فَذَكَر الغُلُولَ فَعظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، قَالَ: «لا أُلفِينَّ أحَدَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ شاة لها ثغاء، علىٰ رقبته فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. وَعَلَىٰ رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. وَعَلَىٰ رَقَبَتِهِ صَامِتٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. أَوْ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ»[1].

◉ وعن عُمَرَ بنِ الْخطَّابِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِن صَحَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: فُلانٌ شَهِيدٌ، فُلانٌ شَهِيدٌ، حَتَّىٰ مَرُّوا عَلَىٰ رَجُلٍ فَقَالُوا: فُلانٌ

١- (متفق عليه) قوله: (فذكر الغلول) تعرض لذكره وبيان حكمه. (عظم أمره) شدد في الإنكار علىٰ فاعله. (لا ألفين) لا أجدن. (ثغاء) صوت الغنم. (حمحمة) صوت الفرس إذا طلب العلف. (لا أملك لك شيئاً) من المغفرة، لأن الشفاعة أمرها إلىٰ الله تعالىٰ. (رغاء) صوت البعير. (صامت) الذهب والفضة ونحوهما. (رقاع) جمع رقعة وهي الخرقة. (تخفق) تتحرك.

شَهِيدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَلاَّ، إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ، فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا، أَوْ عَبَاءَةٍ». [متفق عليه].

٢٤- السَّرقة

قال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

قالَ العلماءُ: تُقْطَعُ يَدُ السَّارقِ اليُمنىٰ مِن مفصَلِ الكُوع إن سرقَ في المرَّةِ الأولىٰ، فإن سَرَقَ ثَانياً قُطِعَت رِجْلُهُ اليُسرَى، فإن سَرَقَ ثالثاً، قُطِعَت يَدُهُ اليُسرى، فإن سَرَقَ رابعاً قُطِعَت رِجْلُهُ اليُمْنىٰ، فإن سَرَقَ بَعْدَ ذَلِكَ عُزِّرَ، وقِيلَ يُقْتَلُ صَبراً. وتقطعُ اليدُ اليمنىٰ مِن مفصل الكفِّ فورَ ثُبوتِ الجريمةِ عَليهِ.

ولا يجوزُ العفوُ عنها مِن أحدٍ، لا مِن المجنيِّ عليهِ ولا مِن الحاكِم، كمَا لا يجوزُ أن تُسْتَبْدَلَ بها عُقُوبَةٌ أُخرَى أخفَّ مِنهَا، أو تأخير تَنْفيذِها أو تَعْطيلها.

فقد روى أصحابُ السُّنن: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «تجافُوا العقوبةَ بينكُم، فإذَا انتهىٰ بهَا إلىٰ الإمام فَلا عفَا اللهُ عَنْهُ إنْ عَفَا».

ويجبُ أن تحسَمَ يَدُ السَّارقِ بَعْدَ القَطع بأيِّ طريقةٍ مِنَ الطُّرُق الَّتي تحبسُ الدَّمَ حتىٰ لا يَتَعَرَّض المقطوع للتَّلَف والهلاكِ.

فعن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بسارقٍ قَد سَرَقَ شَمْلَةً فقالُوا: يا رسولَ الله إنَّ هذا قَد سَرَقَ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «مَا إخالُه سَرَقَ» فقَالَ السارقُ: بَلىٰ يَا رَسُولَ اللهِ. فقَالَ ﷺ: «اذهَبُوا بِهِ فَاقطَعُوهُ ثمَّ احسمُوهُ، ثمَّ ائتوا بِهِ، فَقُطِعَ فَأتِي، فَقَالَ له ﷺ: «تُبْ إلىٰ اللهِ» قَالَ: قَد تُبْتُ إلىٰ اللهِ، فَقَالَ ﷺ: «تَابَ اللهُ عَلَيكَ». [رواه الدارقطني، والحاكم].

٢٥- الحرابةُ، وقطعُ الطريق

الْحِرَابَةُ مِن الْكَبَائِرِ، وَهِيَ مِن الحُدُودِ بِاتِّفَاقِ الْفُقَهَاءِ، وَسَمَّىٰ الْقُرآنُ مُرْتَكِبِيهَا: مُحَارِبِينَ للهِ وَرَسُولِهِ، وَسَاعِينَ فِي الأَرْضِ بِالْفَسَادِ، وَغَلَّظَ عُقُوبَتَهَا أَشَدَّ التَّغْلِيظِ، فَقَالَ تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِن خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

ولَقَد نَفَىٰ الرَّسُولُ ﷺ انْتِسَابَهُمْ إلىٰ الإسْلامِ فقَالَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاحَ فَلَيْسَ مِنَّا».

قولهُ ﷺ: (فليسَ منَّا) أي ليسَ علىٰ طريقَتِنا أو ليسَ مُتَّبعاً لِطَريقَتِنا، لأنَّ مِن حَقِّ المسلم علىٰ المسلم أنْ يَنْصُرَهُ ويُقَاتِل دونَهُ، لا أن يُرعِبَهُ بحملِ السِّلاح عليهِ لإرادةِ قِتَالِهِ أو قَتْلِهِ. وهذا طبعاً في حقِّ مَن لا يَسْتَحِلّ ذَلك، فأمَّا مَن يَسْتَحِلّه فإنَّهُ يكفُرُ باستِحْلالِ المحرَّم بشرطِهِ، لا بمجردِ حملِ السلاحِ.

والأولىٰ عند كثيرٍ مِنَ السَّلف إطلاقُ لفظِ الخبرِ مِن غير تَعرُّض لتأويلِهِ ليكونَ أبلغَ في الزَّجر. وكان سفيانُ بنُ عيينة يُنكِرُ علىٰ مَن يَصْرِفهُ عَن ظاهِرِهِ فيقول: مَعْنَاه ليسَ عَلىٰ طَريقَتِنا، ويَرَى أنَّ الإمساكَ عَن تأويلِهِ أولىٰ لما ذكرناه.

والوعيدُ المذكورُ لا يَتَنَاوَل مَن قاتَلَ البغَاةَ مِن أهلِ الحقِّ، فَيُحْمَل علىٰ البُغَاة وعلىٰ مَن بَدأ بالقِتَال ظَالماً انتهىٰ. [كذا في تحفة الأحوذي].

وَقَدْ أَجْمَعَ الْفُقَهَاءُ عَلَىٰ مَشْرُوعِيَّةِ حَدِّ قَاطِعِ الطَّرِيقِ. وَحَدِيثُ الْعُرَنِيِّينَ عَنْ أَبِي قِلابَةَ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَدِمَ رَهْطٌ مِن عُكْلٍ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ كَانُوا فِي الصُّفَّةِ، فَاجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْغِنَا رِسْلاً، فَقَالَ: «مَا أَجِدُ لَكُمْ إِلاَّ أَنْ تَلْحَقُوا بِإِبِلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ» فَأَتَوْهَا فَشَرِبُوا مِن أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا حَتَّىٰ

صَحُّوا وَسَمِنُوا وَقَتَلُوا الرَّاعِيَ وَاسْتَاقُوا الذَّوْدَ، فَأَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ الصَّرِيخُ، فَبَعَثَ الطَّلَبَ فِي آثَارِهِمْ، فَمَا تَرَجَّلَ النَّهَارُ حَتَّىٰ أُتِيَ بِهِمْ، فَأَمَرَ بِمَسَامِيرَ فَأُحْمِيَتْ فَكَحَّلَهُمْ، وَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَمَا حَسَمَهُمْ، ثُمَّ أُلْقُوا فِي الْحَرَّةِ يَسْتَسْقُونَ، فَمَا سُقُوا حَتَّىٰ مَاتُوا. وَقَالَ أَبُو قِلابَةَ: سَرَقُوا وَقَتَلُوا وَحَارَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ.

٢٦- اليمين الغموس

«اليَمِينُ الْغَمُوسُ» هِيَ الَّتِي يَحْلِفُهَا كَاذِباً عَامِداً، سُمِّيَتْ غَمُوساً، لأَنَّهَا تَغْمِسُ الحَالِفَ فِي الإثْم. وفعلُها من الكبائر والعياذُ باللهِ.

وقيلَ: هِيَ اليمينُ الكاذِبَةُ الفاجرةُ كالتي يَقْتطع بها الحالفُ مَالَ غيرِه وسُمِّيت غَموس لأَنَّها تَغْمِسُ في الإثم والنَّار، وفعول للمبالغة.

قال اللهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

◉ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ»[1]. [رواه البخاري].

٢٧- الظُّلْمُ والبَغي

قال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ۝ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ

١- (الكبائر) جمع كبيرة، وهي معصية أوعد الشارع عليها بخصوصها (عقوق الوالدين) قطع الصلة بينه وبينهما، وعدم البر بهما وإساءتهما (قتل النفس) المعصومة بدين أو عهد ظلماً (اليمين الغموس) هي الحلف علىٰ أمر وهو يعلم أنَّهُ كاذب فيه، سميت بذلك لأنها تغمس صاحبها في النار. والعياذ بالله تعالىٰ.

وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ۝ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ۝ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٥].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٤].

◉ وعَن أبي ذرٍّ ﷺ عَن النَّبِيِّ ﷺ فيما يَروِي عَنِ الله تبارك وتعالىٰ أَنَّهُ قَالَ: «يا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظَالموا..»(١).

◉ وعَنْ جَابِرٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْم ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ..»(٢).

٢٨- أكلُ الحرام

قال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٨].

أي لا يأكلُ بعضُكم مالَ بَعْض بالباطِل. قالَ ابنُ عبَّاس ﷺ: يَعْني بِاليَمينِ البَاطِلَةِ الكَاذِبَةِ يَقْتَطِعُ بهَا الرَّجُلُ مالَ أخيهِ بالبَاطِلِ.

١- (مسلم/٢٥٧٧). قَالَ الإمَامُ المناوي في فيض القدير: (إني حَرَّمْتُ) أي منعت (الظلم على نفسي) أي تقدَّست وتعاليت عنه لأنه مجاوزة والتصرف في ملك الغير وكلاهما في حقي كالمحرم، ثم إنه قدم ذلك تمهيداً وتوطئة لقوله (وجعلته بينكم محرماً) أي حكمت بتحريمه عليكم وهذا وما قبله توطئة لقوله (فلا تظالموا) بشد الظاء وتُخفَّف، أصله تتظالموا أي لا يظلم بعضكم بعضاً فإنه لا بد من اقتصاصه تعالىٰ للمظلوم من ظالمه. واللهُ تعالىٰ أعلم.

٢- (مسلم/٢٥٧٨). (فإنَّ الظلم ظلمات..) قال القاضي: قيل هو علىٰ ظاهره. فيكون ظلمات علىٰ صاحبه لا يهتدي يوم القيامة سبيلاً حين يسعىٰ نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم. ويحتمل أن الظلمات هنا، الشدائد. ويحتمل أنها عبارة عن الأنكال والعقوبات. واللهُ تعالىٰ أعلمُ.

والأكلُ بالبَاطِلِ علىٰ وجهين:

(أحدهما): أن يكُونَ علىٰ جهةِ الظُّلْم نحو الغَصْبِ، والخيانَةِ، والسَّرِقَةِ.

و(الثَّاني): علىٰ جهةِ الهَزْلِ، واللَّعب، كالَّذي يُؤْخَذُ في القمَارِ والملاهِي ونحو ذلكَ. [«الكبائر» للذهبي].

◉ عَن كعبِ بن عُجرَةَ قَالَ: قَال النَّبيُّ ﷺ: «يا كَعْبَ بنَ عُجْرَةَ، إنّهُ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ لَحمٌ ودَمٌ نَبتا علىٰ سُحْتٍ، النَّارُ أولىٰ بِه، يا كَعْبَ بنَ عُجْرَةَ، النَّاسُ غَادِيان: فَغادٍ في فِكَاكِ نفسِهِ فمُعتِقُها، وغَادٍ مُوبِقُها..». [صحيح: رواه ابنُ حبان].

◉ وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ جَسَدٌ غُذِّيَ بِحَرَامٍ». [رواه أبو يعلىٰ، والبزار، والطبراني في الأوسط، والبيهقي، وهو صحيح لغيره].

◉ وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي الْمَرَاسِيلِ عَن الْقَاسِمِ بْنِ مخيْمَرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنِ اكْتَسَبَ مَالاً مِنْ مَأْثَمٍ فَوَصَلَ بِهِ رَحِمَهُ، أَوْ تَصَدَّقَ بِهِ، أَوْ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، جُمِعَ ذلِكَ كُلُّهُ جَمِيعاً فَقُذِفَ بِهِ فِي جَهَنَّمَ». [حسن لغيره].

◉ وعَن خَوْلَةَ الأنْصَارِيَّةِ رضي الله عنها قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ رِجَالاً يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». [رواه البخاريُّ].

٢٩- القاضي السُّوء

قالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: من الآية ٤٤]. وقالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: من الآية٤٥].

وقالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: من الآية ٤٧].

● وعَن بُرَيْدَةَ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: «الْقُضَاةُ ثَلاثَةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ: رَجُلٌ قَضىٰ بِغَيْرِ حَقٍّ يَعْلَمُ بِذلِكَ، فذلِكَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ لا يَعْلَمُ فَأَهْلَكَ حُقُوقَ النَّاسِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قَضىٰ بِالْحَقِّ فذلِكَ في الْجَنَّةِ».
[صحيح لغيره، رواه أبو داود].

● وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قالَ: «مَنْ طَلَبَ قَضَاءَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّىٰ يَنَالَهُ ثُمَّ غَلَبَ عَدْلَهُ جَوْرُهُ فلَهُ النَّارُ». [رواه أبو داود].

● وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ ﷺ عَن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «يُؤْتَىٰ بِالْقَاضِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُوقَفُ عَلَىٰ شَفِيرِ جهَنَّمَ، فَإِنْ أُمِرَ بِهِ دُفِعَ فَهَوَى فِيهَا سَبْعِينَ خَرِيفاً».
[رواه ابن ماجه، والبزار، واللفظ له].

٣٠- الرشوة

قال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَلا تَأكُلُوا أمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلىٰ الْحُكَّامِ لِتَأكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

أي: لا تُدْلُوا بِأموالِكُم إلىٰ الحكَّام، أي: لا تُصَانِعُوهُم بهَا، ولا تَرْشُوهُم لِيَقْتَطِعُوا لكُم حقّاً لِغَيركُم، وأنتُم تعلمونَ أنّه لا يحلُّ لكُم.

والرِّشوةُ جريمةٌ محرّمةٌ بالقرآنِ لقولِه تَعالىٰ: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢] وهي في اليهودِ وكانُوا يأكلونَ السُّحتَ مِن الرّشوةِ.

وهي كذلكَ محرَّمة بالسُّنَّةِ لحديثِ: «لَعَنَ اللهُ الرَّاشي والمرتشي والرَّائش».

ولّما كانَت هذهِ الجريمة لَيْسَت فيهَا عقوبة مُقَدَّرة ففيهَا التَّعزيرُ.

● وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ».
[رواه أبو داود، والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجه].

٣١- تشبُّه النِّساء بالرِّجال وبالعكس

اعلَم أخِي المسلم أنَّ اللِّباسَ متَىٰ كانَ يَختَصُّ بأحَدِ النَّوعينِ لم يَجُزْ للنَّوعِ الآخِرَ أنْ يَلْبَسَهُ، وإذا كانَ اللِّباسُ ضيقاً أيضاً لَم يَجُز لبسُهُ لا للرِّجَالِ ولا للنِّساءِ، لأنَّ ذلكَ يُسَبِّبُ الفِتْنَةَ ويَلْفِتُ الانتبَاهَ.

وهذه الأكسيةُ الضَّيِّقَةُ يحرُمُ علىٰ النِّساءِ لبسُهَا سيَّما إذا خَرَجَت وتَعَرَّضَت للنَّظَرِ والبروزِ للرِّجالِ، فإنَّ ذلكَ مِن دَواعي الفِتْنَةِ.

وكذا لا يَلْبسهَا الرَّجُل إذا بَيَّنَت تَفَاصيلَ أعضَائِه وَعورَتِه. وعَلىٰ ذَلكَ فَلا يجوزُ بَيْعُهَا ولا خِيَاطَتُها، لمن يَلبِسهَا وهي كذلكَ، ويأثمُ مَن استَوْرَدَهَا وَعَرَفَ أنها تُلْبَس علىٰ هذِهِ الهيئةِ المخزيةِ خارج البيتِ.

أمَّا إن لبستها الزوجةُ لزوجِها دَاخِلَ البيتِ فلا شيءَ عليهَا، بَل يُندبُ ذلكَ لها، حتىٰ تعفَّ نفسَها وزوجَها.

أمَّا أن تَرْتَدي هذهِ الملابِس في الأسوَاقِ والطُّرقاتِ فهذا مِنَ الكبائرِ التي لَعَنَ رسولُ اللهِ ﷺ فاعلتهَا.

◉ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ المُخَنَّثِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَالمُترجِّلات مِنَ النِّسَاءِ». وفي رواية: «لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ المُتَشَبِّهين مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بالرِّجَالِ»[1].

◉ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ الرَّجُلَ يَلْبِسُ لِبْسَةَ المَرْأَةِ، وَالمَرأَةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ». [رواه أبو داود، بإسنادٍ صحيح].

١- (البخاري/٥٨٨٦). (المخنثين من الرجال) أي المتشبهين بالنساء في الزي واللباس والخضاب والصوت والصورة والتكلم وسائر الحركات والسكنات (والمترجلات) أي المتشبهات بالرجال (من النساء) زياً وهيئة ومشية ورفع صوت ونحوها، لا رأياً وعلماً، فإن التشبه بهم محمود.

٣٢- الدَّيوثُ والقوّاد

قال تعالىٰ: ﴿الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

والدِّياثةُ: هو أن يَرضَىٰ الرَّجُلُ في أهلِهِ الخبثَ، ويقرّهم عليهِ. أو يستحسِنهُ لهم.

قالَ الذَّهبيُّ في «الكبائر»: مَن كانَ يَظُنُّ بأهلِهِ الفاحِشَةَ وَيَتَغافَلُ لمحبَّتِهِ فيهَا، أو لأنَّ لَهَا عليهِ دَيْناً وهوَ عاجِزٌ، أو صَدَاقاً ثقيلاً، أو لَهُ أطفالٌ صِغارٌ فترفَعُهُ إلىٰ القَاضِي وتَطْلُب فَرْضَهُم فَهُو دونَ مَن يُعْرَضَ عَنْهُ ولا خيرَ فيمَن لا غَيْرَةَ لَهُ، فنسألُ اللهَ العافيةَ مِن كلِّ بلاءٍ ومحنَةٍ، إنَّهُ جوادٌ كريمٌ.

قلتُ: أمَّا (القوّاد): فهو الذي يَرْضىٰ أن يكونَ دلاَّلاً للفُساقِ لِغَير محرَمِهِ في الخبثِ والزِّنىٰ، لقاء شيءٍ من المالِ والعياذُ باللهِ. وحالهُ والدَّيوثُ سَواء.

◉ وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلاثَةٌ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَالدَّيُّوثُ، وَرَجُلَةُ النِّسَاءِ». [صحيح: رواه النسائي والبزار].

٣٣- المحلِّل والمحلَّل له

زواجُ التَّحليل: هـو زَواجٌ مُؤقَّت، وصُورَتُهُ أنْ يَتزَوَّج الرَّجُلُ امرأةً مُطَلَّقةً ثلاثاً لِيُحلّها لِزَوجِهَا الأوَّل، لا ليعيشَ مَعَهَا حياةً دائمةً كما هوَ الشأنُ في الزَّواج المشروع، وقد أفتىٰ أكثر أهل العلم بتحريمِه.

◉ عَن ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ». [رواه أحمد، والنسائي، والترمذي، وقال:] هَذَا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، والعَمَلُ عَلَىٰ هذا الحديث عِنْدَ أهْلِ العِلْمِ مِن أصْحَابِ النبي ﷺ مِنْهُمْ: عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ وعُثْمَانُ بنُ عفَّانَ وعَبْدُ الله بنُ عَمْرٍو وغَيْرهم، وهُوَ قَوْلُ الفُقَهَاءِ مِنَ التَّابِعِينَ، وَبِهِ يَقُولُ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ،

وابنُ المُبَارَكِ، والشّافِعِيُّ، وأحْمَدُ، وإسْحَاقُ قَالَ: وسَمِعْتُ الجَارُودَ بن معاذٍ يذْكُرُ عَن وكِيعٍ أنَّهُ قَالَ بِهذَا، وقالَ: يَنْبَغِي أنْ يرمي بِهذَا البَابِ مِن قَوْلِ أصْحَابِ الرأي، قَالَ جارود: قَالَ وكِيعٌ: وقالَ سُفْيَانُ: إذَا تَزوَّجَ الرَّجل المَرأةَ لِيُحلِّلها ثُمَّ بَدَا لَهُ أنْ يُمْسِكَهَا فَلا يَحِلُّ لَهُ أنْ يُمْسِكَهَا حَتَّىٰ يَتَزوَّجهَا بِنكَاحٍ جَدِيدٍ.

◉ وعن عمر رضي الله عنه قالَ: «لا أُوتَىٰ بمحلِّلٍ ولا محلَّلٍ لَهُ إلاَّ رَجَمْتُهُمَا» فَسُئِل ابنُهُ عَن ذلكَ فقَالَ: «كلاهُما زانٍ». [رواه ابن المنذر، وابن أبي شيبة، وعبد الرزاق، وهذا إسنادٌ رجالُهُ ثقات، إلاَّ أنَّ الأعمش لم يُبيِّن سماعهُ].

فهذهِ الأحاديثُ تفيدُ أنَّ زواج التَّحليل زواجٌ فاسدٌ، وأنَّه مِنَ الكبائر الملعون فاعلها سواء صرَّح بإرادةِ التَّحليل أثناءَ العقدِ، أم كَتَمَ ذلكَ في نَفْسِهِ.

قال ابن القيم في «زاد المعاد»: ولا فرقَ عندَ أهلِ المدينةِ وأهل الحديثِ وفقهائهم بينَ اشتراطِ ذلكَ بالقولِ أو بالتواطؤ والقَصْدِ، فإنَّ المقصودَ في العقودِ عندهم معتبرة، والأعمال بالنِّيات والشَّرط المتواطأ عليهِ الَّذي دخلَ عليه المتعاقدانِ كالملفُوظِ عندَهُم، والألفاظ لا تُراد لعينِهَا بَل للدلالةِ علىٰ المعانِي، فإذا ظهَرَت المعاني والمقَاصِد فلا عِبرةَ بالألفاظِ لأنَّها وسائِل وقَد تحقَّقت غاياتُها فَتَرَتَّب عليهَا أحكامُها.

وعن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ألا أُخْبِرُكُمْ بِالتَّيْسِ الْمُسْتَعَارِ؟» قَالُوا: بَلىٰ، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «هُوَ الْمُحَلِّلُ، لَعَنَ اللهُ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ». [رواه ابنُ ماجه، وحسَّنهُ الألبانيُّ].

٣٤- عدمُ التنزُّه من البول

قال تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤].

اعلم أنَّ الاستنجاءَ واجبٌ علىٰ المشهورِ، لأنهُ إزالةٌ لنجاسةٍ حلَّت بِعُضوٍ مِن أعضاءِ البدنِ، وإزالةِ النَّجاسةِ مِنَ الثَّوب والمكانِ والبدنِ واجبةٌ، ويُشْرَعُ

الاستنجاءُ قبلَ الوضوءِ عندَ جُمْهُور الفقهاءِ.

فمن نسيَ أن يستنجي إن قَضَىٰ حاجتَهُ قبلَ أنْ يتوضأ فَلَهُ أن يَلُفَّ علىٰ يدهِ اليُسرى خِرقةً يستنجِي بها وهذا عند من يَرى أنَّ مَسَّ الذَّكَرِ وحلقةَ الدُّبر ناقِضٌ للوضوء، أمَّا كيفيتُهُ:

(١) أن يُفرِّغَ المسلمُ ذَكَرَهُ مِنَ البولِ تماماً بطريقتِهِ الخاصَّة، لقولـه ﷺ: «تَنَزَّهُوا مِنَ البَولِ، فَإِنَّ عَامَّةَ عَذَابِ القَبْرِ مِنْهُ». [أخرجه الدارقطني وصحَّح إرسالَهُ].

ولقوله ﷺ: «إِذَا بَالَ أَحَدُكُمْ فَلْيَنْتُرْ ذَكَرَهُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ» [روه أحمد وفيه ضعف].

ويستحب أن يكونَ نترُ الذَّكَرِ إلىٰ أسفل حتىٰ لا يصيبهُ رذاذُ البولِ.

والنَّترُ والعصرُ والاتكاءُ علىٰ القَدَم اليُسرى، والوقوف والمشي خطوات كلّ ذلكَ يُسَاعدُ علىٰ إفراغ الذَّكَرِ مِنَ البولِ.

(٢) أن يَسْتَنجيَ باليدِ اليُسرى، لا باليدِ اليُمنىٰ إلاَّ لضَرورةٍ. فإنَّ اليدَ اليمنَىٰ خُصِّصت لِفِعْل كلِّ شيء طاهرٍ، كالأكلِ والشُّرب والكتابةِ ومَا إلىٰ ذلكَ.

(٣) إذا قامَ نضحَ في سرواله الماءَ لكي لا يشكّ في خروج شيءٍ من ذَكَرِهِ فإنَّ الوسواس يُوجِدُ حرجاً للمسلم، وقد نَهَىٰ الرسول ﷺ عن التمادي في الوسواس، وأمرنا أن نقطع الشَّكَّ باليقين. والوسواس خبلٌ في العَقْل ونقصٌ في الدِّين.

◉ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ قَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «أَمَا إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لا يَسْتَنزِهُ مِنْ بَوْلِهِ» قَالَ: فَدَعَا بِعَسِيبٍ رَطْبٍ فَشَقَّهُ بِاثْنَيْنِ، ثُمَّ غَرَسَ عَلَىٰ هَذَا وَاحِداً، وَعَلَىٰ هذَا وَاحِداً، ثُمَّ قَالَ: «لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا، مَا لَمْ يَيْبَسَا»[1].

١- (متفق عليه) قولهُ: (فِي كبير) أي فِي أمر يشق عليهما الإحتراز منه. (لا يستنزه) أي لا يجتنب ولا يحترز عَن وقوعه عَلَيْهِ. وقال السُّيوطي: أي لا يستبرئ ولا يَتَطَهَّر. واللهُ أعلم.

٣٥- كتمانُ العلم، والتعلُّم للدُّنيا

قالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

قال القرطبيُّ: قوله تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ..﴾ أخبرَ اللهُ تَعَالىٰ أنَّ الَّذي يكتُمُ ما أنزلَ مِنَ البيِّنات والهدَى ملعونٌ. واختَلَفُوا مَنِ المرادُ بذلكَ، فقيلَ: أحبارُ اليهودِ ورهبانُ النَّصارى الَّذين كتَمُوا أمرَ محمَّدٍ ﷺ وقد كتَمَ اليهودُ أمرَ الرَّجم.

وقيلَ: المراد كلّ مَن كتَمَ الحقَّ، فهي عامَّةٌ في كلِّ مَن كتَمَ عِلماً مِن دينِ اللهِ يحتاجُ إلىٰ بثِّه، واللهُ تعالىٰ أعلم.

◉ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ». [رواه أبو داود والترمذي وحسنه وهو صحيح].

◉ وفي رواية لابن ماجه قال: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَحْفَظُ عِلْماً فَيَكْتُمُهُ إلاَّ أَتَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَلْجُوماً بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»(1). [صحيح لغيره].

◉ وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّا يُبْتَغَىٰ

١- قوله: (من سئل عن علم علمه) وهو علم يحتاج إليه السَّائل في أمر دينِهِ (ثم كتمَهُ) بعدم الجواب أو بمنع الكتابِ (ألجم) أي أُدخل في فمهِ لجامٌ لأنه موضع خروجِ العلم والكلام. قال الطيبي: شبَّه ما يوضع في فِيْهِ مِنَ النَّار بلجام في فم الدَّابة بلجام مِن نار مكافأةً له حيثُ ألجم نفسهُ بالسكوتِ، وشبَّه بالحيوان الذي سخر ومنع من قصده ما يريده، فإنّ العالِمَ مِن شأنه أن يَدْعُوَ إلىٰ الحقّ. قال ابنُ حجرَ: ثم هنا استبعادية لأن تعلمَ العِلْم إنما يقصد لنشرهِ ونفعِهِ النّاس وبكتمه يزول ذلك الغرضُ الأكملُ فكانَ بعيداً ممن هو في صورةِ العلماءِ والحكماءِ. قال السَّيد: هذا في العلم اللاَّزم التعليم كاستعلام كافرٍ عن الإسلام ما هو؟ وحديث عَهْدٍ به عن تعليم صلاةٍ حضرَ وقتها، وكالمستفتي في الحلالِ والحرام فإنه يلزم في هذه الأمور الجواب، لا نوافل العلوم الغير الضرورية. وقيل: العلم هنا علم الشَّهادة. واللهُ أعلم [انظر تحفة الأحوذي].

بِهِ وَجْهُ اللهِ تَعَالَىٰ لا يَتَعَلَّمُهُ إلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». [رواه أبو داود، وابن ماجه، وهو صحيح لغيره]. قولُهُ: (عَرْفَ الْجَنَّةِ) أي: ريحها.

◉ وَرُوِيَ عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ». [رواه الترمذي، وقال: حديث غريب. وهو صحيح لغيره].

٣٦- الخيانة

قالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: من الآية ٥٢].

أي لا يُرشدُ كيدَ مَن خانَ أمانَتَهُ، يعني: أَنَّهُ يفتضحُ في العاقبةِ بحرمَانِ الهدايةِ.

وقالَ تَعَالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

قال ابنُ كثير: الخيانَةُ تَعُمُّ الذُّنوبَ الصِّغار والكبارَ اللاَّزمة والمتعَديَّة، وقال ابنُ عباسٍ، قولُهُ تعالىٰ: ﴿وتخونُوا أمانَاتِكُم﴾: الأمانَةُ الأعمَالُ التي ائتمَنَ اللهُ عَلَيْهَا العبادَ يَعْني: الفريضَةَ، يقول: لا تخونُوا: لا تَنْقضوهَا، وقال في رواية: ﴿لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ يقولُ: بتركِ سُنَّته وارتكابِ مَعصيَتِهِ.

وقال السّديُّ: إذا خانُوا اللهَ والرَّسُولَ فَقَد خانُوا أماناتِهم. وقال أيضاً: كانُوا يسمعونَ مِنَ النبيِّ ﷺ الحديثَ فيفشونَهُ حتَّىٰ يبلغَ المشركينَ.

وقالَ ابنُ زيد: نهاكُم أن تخونُوا اللهَ والرَّسولُ كما صَنَعَ المنافقونَ.

وقال الطبريُّ: يقولُ تَعالىٰ ذكرهُ للمؤمنينَ باللهِ ورسولهِ مِن أصحابِ نَبيِّهِ ﷺ: يَا أيها الَّذين صَدَّقُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ﴿لا تَخُونُوا اللهَ﴾ وخيانتُهم اللهَ ورَسُولَهُ

كانت بإظهارِ مَن أظهَرَ منهم لرسُولِ اللهِ ﷺ والمؤمنينَ الإيمانَ في الظاهِرِ والنَّصيحَةِ، وهو يَستَسرُّ الكُفْرَ والغِشَّ لهم في البَاطِنِ، يَدُلُّونَ المشركينَ علَىٰ عَورَتِهم، ويخبُرونَهُم بما خَفيَ عنهم مِن خَبَرِهِم.

◉ عَن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإذَا وَعَدَ أخلَفَ، وَإذا اؤْتُمِن خَانَ» [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

زَادَ في روايةٍ لمسلم: «وَإنْ صَامَ وَصَلَّىٰ وَزَعَمَ أنَّهُ مُسلِمٌ»

◉ وعَن عبدِ اللهِ بنِ عَمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً، وَمَنْ كَانَتْ فيه خَصلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّىٰ يَدَعَهَا إذا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإذا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإذا خَاصَمَ فَجَر»[1]. [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

٣٧- المنَّان

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾. [البقرة: ٢٦٤].

فشبَّهَ سبحانَهُ الّذي يمنّ ويؤذِي في صدقَتِهِ بالّذي يُنفقُ مالَهُ رئاءَ النَّاسِ لا لوجهِ اللهِ، وبالكافِرِ الَّذي ينفقُ مالَهُ ليقَالَ: إنَّه جوادٌ ويُثْنَىٰ عليه أنواع الثَّناء.

ومثَّلَ سُبحانَهُ المنفقَ المنَّان بصفوانٍ ـ أي: حجر أملس ـ عليهِ تُرابٌ، فَيَظُنُّهُ

---

١ - (متفق عليه). (منافقاً خالصاً) قد استجمع صفات النفاق (خصلة) صفة (يدعها) يتركها ويخلص نفسه منها (غدر) ترك الوفاء بالعهد (خاصم) نازع وجادل (فجر) مال عن الحق واحتال في ردِّه. والله أعلم

الرَّائي أرضاً منبتةً طيّبةً، فإذا أصابَهُ وابلٌ مِنَ المطرِ أذهَبَ عنهُ التُّرابَ وبقي صَلْداً، فكذلكَ المرائي والمنّانُ، فالمنُّ والرِّياءُ والأذى تكشف عَن النِّيَّـةِ في الآخرة كما يكشف المطرُ الغزيرُ عَن الحجرِ الأملسِ.

لذلكَ حَثَّ اللهُ تَعَالىٰ المنفقينَ في سبيلِ اللهِ بعدَم إتباع مَا أنفقوا منّاً ولا أذىً فقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أذى﴾.

◉ ولا خلافَ بينَ الفُقَهَاءِ، في أنَّ المنَّ والأذى في الصَّدَقَةِ حرامٌ يُبطلُ الثَّوابَ.

قالَ القُرطبيُّ: عبَّرَ تَعَالىٰ عَن عَدَم القبولِ وحرمَانِ الثَّواب بالإبطالِ.

وقالَ الشَّربينيُّ: المنُّ بالصَّدقة حرامٌ، مُبطلٌ للأجرِ للآيةِ السَّابقة، ولخبر مسلم: «ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ الله ﷺ ثَلاثَ مَرَّاتٍ. قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا مَنْ هُمْ يا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ «المُسْبِلُ، وَالمَنَّانُ، وَالمُنفِّقُ سِلْعَتَهُ بالحَلِفِ الكَاذِبِ»[1]. وجعلَهُ البهوتيّ مِنَ الكبائرِ فقالَ: ويحرُمُ المنُّ بالصَّدَقَةِ وغيرها، وهو مِنَ الكبيرةِ ويُبطل الثَّوابَ بذلكَ. واللهُ تعالىٰ أعلمُ.

٣٨- التجسُّسُ والتَّنصُّت

قال تعالىٰ: ﴿ولا تجسَّسُوا..﴾ [الحجرات: ١٢].

قال ابنُ الجوزيّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: قَرأ أبو زَيد، والحسَنُ، والضَّحاكُ، وابنُ سيرينَ بالحاءِ، قالَ أبو عبيدة: التَّجَسُّسُ والتَّحسُّس واحدٌ، وهو البَحْثُ، ومنهُ الجاسوسُ. وقال يحيىٰ بنُ أبي كَثير: التَّجَسُّس بالجيم: عَن عوراتِ النَّاس، وبالحاء: الاستماع لحديثِ القَوم.

---

١ ـ (مسلم/١٠٦). (لا ينظر إليهم) أي نظر رحمة (ولا يزكيهم) أي لا يطهرهم من الذنوب (فقد خابوا) أي حرموا من الخير (المنان) الَّذي لا يعطىٰ شيئاً إلاَّ منَّ به علىٰ من أعطاه (والمنفق) المروج.

قالَ المفسرونَ: التَّجَسُّس: البَحْثُ عَن عيبِ المسلمينَ وعوراتِهِم، فالمعنىٰ: لا يبحث أحدُكُم عَن عيبِ أخيهِ ليَطَّلعَ عليهِ إذا سَتَرَهُ اللهُ.

وقيلَ لابنِ مسعودٍ: هذا الوليدُ بنُ عقبة تقطرُ لحيتُهُ خمراً. فَقَالَ: إنا نُهينَا عَن التَّجَسُّس فإن يَظْهَر لنَا شيءٌ نأخذُ بهِ.

وقيل: التَّحسُّسُ أعمُّ، وهو مِن استراقِ السَّمع، قال في عونِ المعبودِ في شَرح قوله ﷺ: «ولا تَحَسَّسُوا» أي: لا تَطلُبوا الشَّيءَ بالحاسَّةِ، كاستراقِ السَّمع.

● عَنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَمَنِ اسْتَمَعَ إِلىٰ حَدِيثِ قَوْمٍ، وَهُم لَهُ كَارِهُونَ صُبَّ فِي أُذُنَيْهِ الآنُكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ..». [رواه البخاري وغيره].

(كارهون) لا يريدون سماعه. و«الآنك»: بمد الهمزة وضَمّ النون: هو الرَّصَاصُ المذابُ.

إذا كانَ استراقُ السَّمع منهيّاً عنه في الجملةِ إلاَّ في حالاتٍ. وإتيان المنهيّ عنه يوجب التّعزير. فإنَّ استِرَاق السَّمع في غير الحالاتِ المسموح بهِ فيها يستحقُّ فاعِلُهُ التَّعزيرَ. واللهُ تعالىٰ أعلم.

٣٩- النَّمام

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠- ١١].

فالنّميمة: السَّعي للإيقاع في الفِتْنَةِ والوحشَةِ. وفي الحديث الصحيح: «أتدْرُونَ ما العَضَهُ؟ نَقْلُ الحَدِيْثِ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ إلىٰ بَعْضٍ، لِيُفْسِدُوا بَيْنَهُم». [رواه البيهقي]

وقالَ الإمامُ أبو حامد الغزالي - رحمهُ اللهُ -: إنما تطلَقُ في الغالبِ علىٰ مَن يَنِمُّ قولَ الغيرِ إلىٰ المقولِ فيهِ بقولِهِ: فلانٌ يقولُ فيكَ كَذا، وليست النَّميمةُ مخصوصةً بذلكَ، بَل حدُّها كَشْفُ ما يُكْرَهُ كشفُهُ، سواءٌ كَرِهَ المنقُولُ عنهُ أو المنقولُ إليهِ أو ثالثٌ، وسواءٌ أكانَ الكشفُ بالقولِ أو بالكتابَةِ أو الرَّمزِ أو الإيماءِ أو نحوِهَا،

وسواءٌ كانَ مِنَ الأقوالِ أو الأعمالِ، وسواءٌ كانَ عيباً أو غيرَهُ، فحقيقةُ النميمةِ إفشاءُ السِّرِّ وهتكُ السِّترِ عمَّا يُكْرَهُ كشفُهُ.

وَيَنْبَغي للإنسانِ أن يسكُتَ عَن كلِّ ما رآهُ مِن أحوالِ النَّاسِ إلاَّ مَا في حكايَتِه فائدةٌ للمسلمينَ، أو دفعُ معصيةٍ.

والنَّميمةُ حرامٌ منهيٌّ عنها، وهِي مِنَ الكبائِر، فهيَ تهتِكُ الأستارَ، وتورثُ الضغائنَ، وترفعُ المودَّةَ، وتُجدِّدُ العداوةَ، وتُبدِّدُ الجماعةَ، وتُهيِّجُ الحقدَ، وتزيدُ الصَّدَّ، وهي سببٌ كبيرٌ في التَّحريشِ بينَ النَّاسِ بِقَصْدِ الإفسادِ وذلكَ حرامٌ باتِّفاق، فهيَ وسيلةٌ لإفسادِ ذاتِ البَين، واللهُ لا يحبُّ الفَسَادَ. وقد قالَ ﷺ: «ألا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ»؟ قَالُوا: بَلَىٰ، قَالَ: «إِصْلاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ». [رواه أبو داود، والترمذي، وهو حديث صحيح].

وفي روايةٍ قال ﷺ: «هِيَ الْحَالِقَة، لا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ».

◉ وعَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ»(١).

٤٠- اللّعان

اللَّعنُ في اللُّغة: الطَّردُ والإبعادُ مِنَ الخيرِ، والمسبَّة، يقال: لَعَنَهُ لعناً، ولاعَنَهُ ملاعَنَةً، ولعاناً، وتَلاعَنُوا، إذا لَعَنَ بَعْضُهُم بعضاً.

وشرعاً: الإبعادُ مِن رحمةِ اللهِ تَعالىٰ.

◉ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ ﷺ قَالَ: كُنَّا إِذَا رَأَيْنَا الرَّجُلَ يَلْعَنُ أَخَاهُ رَأَيْنَا أَنْ قَدْ أَتَىٰ بَاباً مِنَ الْكَبَائِرِ. [رواه الطبراني بإسناد جيد].

١- (البخاري/٦٠٥٥، مسلم/١٠٥). (لا يدخل الجنة) أي في أول وهلة كما في نظائره من الأحاديث (نمام) النمام هو الَّذي يحضر القصة فينقلها علىٰ سبيل الفساد والتحريش بين الإخوان.

● وعنْ أبي زَيْدٍ ثابتِ بنِ الضحَّاكِ الأنصاريِّ ﷺ - وهو من أهْلِ بَيْعَةِ الرِّضوانِ - قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَن حَلَفَ عَلىٰ يَمينٍ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الإسْلامِ كاذِباً مُتَعَمِّداً، فَهُوَ كَما قالَ، وَمَنْ قتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ، عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ، ولَيْسَ عَلىٰ رَجُلٍ نَذْرٌ فِيما لا يَمْلِكُهُ، وَلَعْنُ المُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ»(١).

ويجوزُ لَعْن أصْحَابِ المَعَاصِي غَيْر المعَيَّنِيْن.

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿ألا لَعْنَةُ الله عَلىٰ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]. وقَالَ تَعَالىٰ: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أنْ لَعْنَةُ الله عَلىٰ الظَّالمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

وَثَبتَ فِي الصَّحِيحِ أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللهُ الوَاصِلَةَ وَالمُسْتَوْصِلَةَ» وَأنَّهُ قَالَ: «لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا». وَأنَّهُ ﷺ: «لَعَنَ المُصَوِّرِينَ». إلخ..

٤١- الغَدْرُ، وعدمُ الوفاءِ بالعهد

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَأوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤].

الغدرُ لغةً: نَقْضُ العهدِ وتَركُ الوفاءِ بهِ، وغَدَرَ به غَدْراً مِن بابِ ضَرَبَ.

ولا يخرجُ المعنىٰ الاصطلاحيّ عَن المعنىٰ اللّغويِّ.

● عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ

١- (البخاري/٦٠٤٤، مسلم/١١٠). (من حلف بملة) المِلَّةُ: الدِّين والشريعة، وهي نكرة في سياق الشرط، فتعمه جميع الملل كاليهودية والنصرانية والدهرية ونحوها (كاذباً) أي في حلفه (فهو كما قَالَ) قَالَ في الفتح: يحتمل أن يكون المراد بهذا الكلام التّهديد والمبالغة في الوعيد لا الحكم، كأن قَالَ فهو مستحقّ مثل عذاب من اعتقد مَا قَالَ، ونظيره من ترك الصَّلاة فقد كفَرَ، أي استوجب عقوبة من كفر.

وقولُهُ: (لعن المؤمن كقتلهِ) أي في أصل الإثم فلاعِنُهُ كقَاتِلِهِ. وقال الطيبيُّ - رحمه اللهُ -: أي في التَّحريم أو في العقابِ، واللهُ تَعالىٰ أعلم.

قَالَ: «أرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ، كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً، وَمَنْ كانَتْ فيه خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ، كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّىٰ يَدَعَهَا: إذا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإذا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإذا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإذا خَاصَمَ فَجَرَ»(١).

◉ وذَهَبَ الفُقَهَاءُ إلىٰ تحريم الغَدْر لأنَّهُ مِن علاماتِ النِّفاقِ ومِن كبائِرِ الذُّنوب، ولا سيّما إذا كانَ الغادرُ مِن أصحاب الولاياتِ العامَّةِ، لأنَّ ضَرَرَ غَدْرِهِ يَتَعَدَّى إلىٰ خَلْقٍ كثيرٍ. وقيلَ: لأنَّه غير مضطرٍّ إلىٰ الغدرِ لقدرَتِه علىٰ الوفاءِ.

واستدلّوا علىٰ تحريم الغَدْر بأدلَّة منها: قولُهُ ﷺ: «أرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ، كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً..».

◉ وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عُمَرَ، وَأنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قَالُوا: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لِكُلِّ غادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، يُقَالُ: هذه غَدْرَةُ فُلانٍ»(٢).

٤٢- تصديقُ الكاهنِ والمنجِّم

قال تعالىٰ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١- ٢٢٣].

الكهانةُ في اللُّغة: من كَهَنَ يكهنُ كهانةً: قضىٰ له بالغَيبِ، والكاهنُ: هوَ الَّذي يَتَعَاطىٰ الخبرَ عَن الكائناتِ في مستقبلِ الزَّمَانِ، ويدَّعِي معرفَةَ الأسرارِ ومطالَعَةَ الغيبِ. وتطلق العربُ علىٰ الَّذي يقومُ بأمر الرَّجل ويسعىٰ في حاجتِهِ: كاهناً، كما يسمون كلّ من يتعاطىٰ علماً دقيقاً كاهناً.

١- (البخاري/٣٤، مسلم/٥٨). (منافقاً خالصاً) قد استجمع صفات النفاق (خصلة) صفة (يدعها) يتركها ويخلص نفسه منها (غدر) ترك الوفاء بالعهد (خاصم) نازع وجادل (فجر) مال عن الحق واحتال في رده.

٢- (متّفق عليه). (غادر) هو الَّذي يواعد علىٰ أمر ولا يفي به (لواء) علامة يشتهر بها.

ومنهم مَن يسمِّي المنجّمَ والطَّبيبَ كاهناً. والمعنىٰ الاصطلاحي لا يخرج عن المعنىٰ اللغويّ.

أمَّا التَّنجيم: فهو علمٌ يُعرفُ به الاستدلالُ بالتَّشكلات الفلكيَّةِ علىٰ الحوادثِ السّفليّة. والتَّنجيمُ بهذا المعنىٰ ضربٌ مِنَ الكهانَةِ.

فالغيبُ لا يعلَمُهُ إلاَّ الله، قالَ تَعَالىٰ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

◉ والنبيُّ ﷺ لا يعلمُ الغيبَ إلاَّ إذا أطلعهُ اللهُ علىٰ شيءٍ منها، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿قُل لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال تعالىٰ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً ۝ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

◉ والجنُّ لا يعلمونَ الغيبَ، ولو علِمُوا الغيبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ، فلقد ماتَ سُليمانُ عليه السَّلامُ، وهو في منزلِهِ قائماً، وبقي كذلكَ سنةً، والجنُّ لم يعلموا بموتِهِ ولبثوا يأتمرونَ بأمرِهِ، يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ، فبعثَ اللهُ تعالىٰ بعدَ سنةٍ تقريباً، حشرةً صغيرةً فأكلت عصاهُ التي يتّكأ عليها، فسقطَ إلىٰ الأرضِ، عندها علمت الجنُّ بموتِهِ، قالَ تَعَالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

وأجمعَ الفقهاءُ علىٰ أنَّ التَّكهُّنَ والكهانَة بمعنَىٰ ادِّعاءِ عِلْم الغَيْبِ، والاكتِسَاب أي: جَمْع المال بهِ حرامٌ، لأنَّ النبيَّ ﷺ نَهَىٰ عَن أكلِ مَا اكتسَبَهُ بالكهانة، لأنَّه سُحْتٌ، جاءَ عَن طريقٍ غيرِ مَشروعٍ، كأجرةِ البَغِيِّ.

◉ كما أجمَعُوا علىٰ أنَّ إتيان الكَاهِن للسُّؤال عَن عواقِبِ الأمورِ حَرَامٌ، وأنَّ التَّصديقَ بما يقولُهُ كُفْرٌ.

◉ وتَشْمَلُ الكهانَةُ كلَّ ادِّعاءٍ بِعِلْم الغَيْبِ الَّذي استأثَرَ اللهُ بِعِلْمِهِ، ويَشْمَل اسم الكاهِنِ: كلَّ مَن يدَّعي ذلك مِن مُنَجِّمٍ وعرَّافٍ وضرَّابٍ بالحصباءِ ونحو ذلكَ.

ولَقَد أبطَلَ الإسلامُ الكهانَةَ بأنواعِهَا، وحرَّمَ مُزاوَلَتَها وَقَرَّر أنَّ الغيبَ لا يعلَمُهُ إلاَّ اللهُ، فقَالَ عزَّ مِن قَائِلٍ: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

وكذَّبَ اللهُ تعالىٰ مَزَاعِمَ الكَهَنَةِ أنَّ الشَّياطِينَ تَأتي لهم بخبرِ السَّماءِ، فَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١١- ٢١٢].

◉ قالَ الفقهاءُ: الكاهِنُ يكفرُ بادِّعاءِ علم الغيبِ، لأنَّهُ يتعارَضُ مَع نصِّ القرآنِ، قالَ تَعَالىٰ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً ۝ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]. أي عالم الغيبِ هو اللهُ وَحْدَهُ فَلا يُطْلِعُ عليهِ أحداً مِن خَلْقِهِ إلاَّ مَن ارتضَاهُ للرِّسالَةِ، فإنَّهُ يُطْلِعُهُ عَلىٰ ما يشاءُ في غَيبِه.

ولقول النبيِّ ﷺ: «مَنْ أتَىٰ كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ». [قال المنذري: رواه البزار بإسنادٍ جيد. وقال الألبانيُّ: هو حديثٌ صحيح لغيره].

◉ وعَنْ بَعْضِ أزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أتَىٰ عَرَّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ، لَمْ تُقبَلْ لَهُ صلاةٌ أرْبَعِينَ يَوْماً»[1].

٤٣- نشوزُ المرأة على زوجِهَا

معنىٰ النشوز: قال العُلماءُ: نشوزُ الزَّوجةِ يكونُ بتركِهَا ما يتَّصل بهِ مِن الحقوقِ، كَتَركِها الزِّينةَ لَهُ مع القدرةِ عليهَا، وتَرْكِ الغُسْلِ عندَ الجنابةِ، والخروج مِنَ المنزلِ بغيرِ إذنِهِ، أو أن تأذنَ في بيتِهِ لمن يكره، أو تَتْرُكَ الإجابَةَ إلىٰ الفِرَاشِ، إلىٰ غير ذلكَ ممّا لَهُ صِلَةٌ بالعلاقَةِ الزَّوجيَّةِ، وهذا مُتَّفقٌ عليهِ بينَ الفقهاءِ.

قالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً﴾ [النساء: من الآية ٣٤].

قال الذَّهبيُّ: قالَ الواحديُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ ـ: النُّشُوزُ ههنَا: مَعصيةُ الزَّوج وهو التَّرفُّعُ عليهِ بالخلافِ. وقال عطاء: هو أن تَتَعَطَّر له وتمنَعْهُ نَفْسَهَا وتتغيَّر عمَّا كانت تَفْعَلُهُ مِن الطواعيةِ. ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ بكتابِ اللهِ وذكِّروهُنَّ ما أمَرَهُنَّ اللهُ بهِ.

﴿واهجُرُوهُنَّ في المضَاجعِ﴾ قالَ ابنُ عَبَّاس: هوَ أن يُولِّيَهَا ظَهْرَهُ علىٰ الفراشِ ولا يكلِّمَهَا. وقال الشعبيُّ ومجاهدٌ: هو أن يَهْجُرَ مُضَاجعَتَهَا فلا يُضَاجِعْهَا ولا يكلِّمْهَا. ﴿واضْرِبُوهُنَّ﴾ ضرباً غَيْرَ مبرحٍ. وقالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: أدباً مثلَ اللَّكزَةِ. وللزَّوج أن يَتَلافَىٰ نشوزَ امرأتِهِ بما أذِنَ اللهُ لَهُ ممَّا ذكَرَهُ اللهُ في هذهِ

---

١ ـ (مسلم/ ٢٢٣٠). (عرافاً) العراف من جملة أنواع الكهان. وهو الَّذي يدَّعي معرفة المسروق. وقال المنذري: «العَرَّافُ»: كالكاهن، وقيل: هو السَّاحر. وقال البغويُّ: العرّاف: هو الذي يَدَّعي معرفة الأمور بمقدِّمات وأسباب يَستدل بها علىٰ مواقِعِها كالمسرُوق مَن الذي سَرَقَهُ، ومعرفة مكانِ الضَّالة، ونحو ذلك، ومنهم مَن يسمي المنجم كاهناً، انتهىٰ. واللهُ تعالىٰ أعلم.

الآيةِ: ﴿فَإِن أطَعْنَكُم﴾ فيمَا يُلْتَمَسُ مِنهُنَّ ﴿فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ﴾ قالَ ابنُ عبَّاس: فَلا تَتَجَنَّوا عَليهنَّ العِلَلَ.

◉ وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأتَهُ إلَىٰ فِرَاشِهِ فَلَمْ تَأتِهِ فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا لَعَنَتْهَا المَلائِكَةُ حَتَّىٰ تُصبِحَ»[1].

◉ وعنهُ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إذا بَاتَتِ المَرْأةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا لَعَنَتْهَا المَلائِكَةُ حَتَّىٰ تُصبِحَ».

◉ وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ دِينَارٍ الْهُذَلِيِّ ﷺ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ثَلاثَةٌ لا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُمْ صَلاةً، وَلا تَصْعَدُ إلَىٰ السَّمَاءِ، وَلا تُجَاوِزُ رُؤُوسَهُمْ: رَجُلٌ أمَّ قَوْماً وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ، وَرَجُلٌ صَلَّىٰ عَلَىٰ جَنَازَةٍ وَلَمْ يُؤْمَرْ، وَامْرَأةٌ دَعَاهَا زَوْجُهَا مِنَ اللَّيْلِ فَأَبَتْ عَلَيْهِ». [رواه ابن خزيمة في صحيحه هكذا مرسلاً]. [صحيح لغيره].

٤٤- التَّصويرُ[2]

التَّصويرُ لغةً: صنعُ الصُّورة. وصورةُ الشّيءِ هي هيئَتُهُ الخاصَّةُ الَّتي يتميَّزُ بها عَن غيره. وورد في حديثِ ابنِ عُمَر ﷺ تسمية الوجهِ صُورة، قالَ ﷺ: «نَهَىٰ النَّبيُّ ﷺ أن تُضْرَبَ الصُّورة، أو نَهىٰ عَن الوَسْم في الوجهِ» [صحيح البخاري] أي: أن يُضربَ الوجهُ أو يُوسَم الحيوانُ في وجهِهِ.

◉ وَالتَّصْوِيرُ أيْضًا: ذِكْرُ صُورَةِ الشَّيْءِ، أيْ: صِفَتُهُ، يُقَالُ: صَوَّرْت لِفُلانٍ الأمْرَ، أيْ: وَصَفْته لَهُ.

١- (البخاري/٥١٩٣، مسلم/١٤٣٦، ١٢١). (إلىٰ فراشه) أي ليجامعها (فلم تأته) امتنعت عن إجابته (لعنتها) دعت الله تعالىٰ أن يطردها من رحمته ويبعدها من جنته، أو يعاقبها عقوبة شديدة.

٢- فقراتُ هذا البحث كثيرة ومتفرّعة، انظُرها في كتابي (الكبائر).

◉ وَالتَّصْوِيرُ أيْضًا: صُنْعُ الصُّورَةِ الَّتِي هِيَ تِمْثَالُ الشَّيْءِ، أيْ: مَا يُمَاثِلُ الشَّيْءَ وَيَحْكِي هَيْئَتَهُ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا، سَوَاءٌ أكَانَت الصُّورَةُ مُجَسَّمَةً أوْ غَيْرَ مُجَسَّمَةٍ، أوْ كَمَا يُعَبِّرُ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ: ذَاتُ ظِلٍّ أوْ غَيْرُ ذَاتِ ظِلٍّ.

◉ وَالْمُرَادُ بِالصُّورَةِ الْمُجَسَّمَةِ أوْ ذَاتُ الظِّلِّ مَا كَانَتْ ذَاتَ ثَلاثَةِ أبْعَادٍ، أيْ لَهَا حَجْمٌ، بِحَيْثُ تَكُونُ أعْضَاؤُهَا نَافِرَةً يُمْكِنُ أنْ تَتَمَيَّزَ بِاللَّمْسِ، بِالإضَافَةِ إلَىٰ تَمَيُّزِهَا بِالنَّظَرِ.

◉ وَأمَّا غَيْرُ الْمُجَسَّمَةِ، أو الَّتِي لَيْسَ لَهَا ظِلٌّ، فَهِيَ الْمُسَطَّحَةُ، أوْ ذَاتُ الْبُعْدَيْنِ، وَتَتَمَيَّزُ أعْضَاؤُهَا بِالنَّظَرِ فَقَطْ، دُونَ اللَّمْسِ، لأنَّهَا لَيْسَتْ نَافِرَةً، كَالصُّوَرِ الَّتِي عَلَىٰ الْوَرَقِ، أو الْقُمَاشِ، أو السُّطُوحِ الْمَلْسَاءِ. وَالتَّصْوِيرُ وَالصُّورَةُ فِي اصْطِلاحِ الْفُقَهَاءِ يَجْرِي عَلَىٰ مَا جَرَى عَلَيْهِ فِي اللُّغَةِ.

وَقَدْ تُسَمَّىٰ الصُّورَةُ تَصْوِيرَةً، وَجَمْعُهَا تَصَاوِيرُ، وَقَدْ وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ فِي السُّنَّةِ حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي شَأنِ السِّترِ قَوْلُهُ ﷺ: « أمِيطِي عَنَّا قِرَامَكِ هَذَا، فَإنَّهُ لا تَزَالُ تَصَاوِيرُهُ تَعْرِضُ فِي صَلاتِي » . [رواه البخاريُّ، وأحمد].

◉ وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَت: قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِن سَفَرٍ وَقَدْ سَتَرتُ سَهْوَةً لِي بِقِرَامٍ فِيهِ تَمَاثِيلُ فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَلَوَّنَ وَجْهُهُ، وَقَالَ: « يَا عَائِشَةُ، أشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ » قَالَت: فَقَطَعْنَاهُ، فَجَعَلْنَا مِنْهُ وِسَادَةً أو وِسَادَتَيْنِ.[1]

◉ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « إنَّ الَّذِينَ يَصْنَعُونَ هَذِهِ الصُّوَرَ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُقَالُ لَهُمْ: أحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ » . [متفق عليه].

---

١ - (متفق عليه) (القِرَامُ) السِّتْرُ. (وَالسَّهْوَةُ) هِيَ: الصُّفَّةُ تَكُونُ بَيْنَ يَدَيِ الْبَيْتِ. وَقِيلَ: هِيَ الطَّاقُ النَّافِذُ فِي الحَائِطِ. (أشد الناس) أي من أشد الناس (الذين يضاهون) يشبهون الله تعالىٰ في خلقه.

٤٥ - اللَّطمُ والنِّياحةُ وشقُّ الثوب

◉ النِّيَاحُ وَالنِّيَاحَةُ لُغَةً: الْبُكَاءُ بِصَوْتٍ عَلَىٰ الْمَيِّتِ. وَقَالَ فِي الْمِصْبَاحِ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِمَّا جَاءَ فِي الْقَامُوسِ: نَاحَتِ الْمَرْأَةُ عَلَىٰ الْمَيِّتِ نَوْحًا مِن بَابِ قَالَ، وَالاسْمُ النُّوَاحُ وِزَانُ غُرَابٍ، وَرُبَّمَا قِيلَ: النِّيَاحُ، فَهِيَ نَائِحَةٌ، وَالنِّيَاحَةُ: الاسْمُ مِنْهُ، وَالْمَنَاحَةُ: مَوْضِعُ النَّوْحِ.

◉ النَّدْبُ لغةً: الدُّعَاءُ إلىٰ الأمر والحثُّ عليه. والنَّدبُ: البكاءُ علىٰ الميِّتِ وتعدادُ محاسنِهِ. والاسم: النُّدْبَةُ.

◉ النَّحْبُ لغةً: أشدُّ البكاءِ، كالنَّحيب.

◉ الْعَوِيلُ: هُوَ رَفْعُ الصَّوْتِ بِالْبُكَاءِ، يُقَالُ: أَعْوَلَت الْمَرْأَةُ إِعْوَالاً وَعَوِيلاً.

هَذَا وَيَتَّضِحُ مِمَّا تَقَدَّمَ: أَنَّ النَّحِيبَ وَالْعَوِيلَ مَعْنَاهُمَا الْبُكَاءُ الشَّدِيدُ، وَأَنَّ الصُّرَاخَ وَالصِّيَاحَ مُتَقَارِبَانِ فِي الْمَعْنَىٰ، وَأَنَّ النُّوَاحَ يَأْتِي بِمَعْنَىٰ الْبُكَاءِ عَلَىٰ الْمَيِّتِ، وَأَنَّ النَّدْبَ هُوَ تَعْدَادُ مَحَاسِنِ الْمَيِّتِ، وَأَنَّ الْبُكَاءَ مَا كَانَ مَصْحُوبًا بِصَوْتٍ، وَالْبُكَي مَا كَانَ بِلا صَوْتٍ، بِأَن كَانَ قَاصِرًا عَلَىٰ خُرُوجِ الدَّمْعِ.

◉ الْبُكَاءُ: قَد يَكُونُ قَاصِرًا عَلَىٰ خُرُوجِ الدَّمْعِ فَقَط بِلا صَوْتٍ، أو بِصَوْتٍ لا يُمْكِنُ الاحْتِرَازُ عَنْهُ، وَقَد يَكُونُ مَصْحُوبًا بِصَوْتٍ كَصُرَاخٍ أو نُوَاحٍ أو نَدْبٍ وَغَيْرِهَا، وَهَذَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلافِ مَن يُصْدَرُ مِنْهُ الْبُكَاءُ، فَمِن النَّاسِ مَن يَقْدِرُ عَلَىٰ كِتْمَانِ الْحُزْنِ، وَيَمْلِكُ السَّيْطَرَةَ عَلَىٰ مَشَاعِرِهِ، وَمِنْهُم مَن لا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ.

واتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَىٰ أنَّ الْبُكَاءَ إن كَانَ قَاصِرًا عَلَىٰ خُرُوجِ الدَّمْعِ فَقَط بِلا صَوْتٍ فَإِنَّهُ جَائِزٌ، قَبْلَ الْمَوْتِ وَبَعْدَهُ، وَمِثْلُهُ غَلَبَةُ الْبُكَاءِ بِصَوْتٍ إذَا لَم يَقْدِر عَلَىٰ رَدِّهِ، وَمِثْلُهُ حُزْنُ الْقَلْبِ.

وَاتَّفَقُوا أَيْضًا عَلَىٰ تَحْرِيمِ النَّدْبِ بِتَعْدَادِ مَحَاسِنِ الْمَيِّتِ بِرَفْعِ صَوْتٍ، إلاَّ مَا نُقِلَ فِي الْفُرُوعِ عَن بَعْضِ الْحَنَابِلَةِ.

وَاتَّفَقُوا عَلَىٰ تَحْرِيمِ النُّوَاحِ وَشَقِّ الْجَيْبِ أو الثَّوْبِ وَلَطْمِ الْخَدِّ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، إلاَّ أَنَّ الْحَنَفِيَّةَ عَبَّرُوا فِي ذَلِكَ بِالْكَرَاهَةِ التَّحْرِيمِيَّةِ، وَبِذَلِكَ لا يَكُونُ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي ذَلِكَ خِلافٌ.

◉ وَعَنِ ابْنِ مَسْعُود ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَن ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»[1].

٤٦- أذى الجار وغيره

قال تعالىٰ: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي الجارِ القَريب فَلَهُ عليكَ حقُّ الجوار وَحقُّ القُربىٰ ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [سورة النساء: ٣٦] أي الجار الأجنبيّ الذي لا قرابَةَ بينَكَ وبينَهُ.

ولقد أوضحَ النبيُّ ﷺ أهميَّةَ الجارِ بقولِهِ ﷺ في الحديثِ الصَّحيح: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّىٰ ظَنَنْتُ أَنَّه سَيُوَرِّثُهُ». وبيَّن النبيُّ ﷺ أيضاً أنَّ خَيْرَ الجيرانِ خَيْرُهُم لجارِهِ فقَالَ ﷺ: «خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُم لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُم لِجَارِهِ». وكلاهما صحيحٌ، الأوَّلُ مُتَّفَقٌ

١- (البخاري/١٢٩٤، مسلم/١٠٣). (ليس منا) أي من أهل سنتنا وطريقتنا، وليس المراد به إخراجه عن الدِّين ولكن فائدة إيراده بهذا اللفظ المبالغة في الردع عن الوقوع في مثل ذلك، كما يقول الرجل لولده عند معاتبته لست منك ولست مني. أي مَا أنت علىٰ طريقتي. وقيل: المعنىٰ ليس علىٰ ديننا الكامل أي أَنَّهُ خرج من فرع من فروع الدِّين وإن كَانَ معه أصله (من شق الجيوب) هو مَا يفتح من الثوب ليدخل فيه الرأس، والمراد بشقه إكمال فتحه إلىٰ آخره وهو من علامات التسخط (وضرب الخدود) جمع الخد خص الخد بذلك لكونه الغالب في ذلك وإلا فضرب بقية الوجه داخل في ذلك (ودعا بدعوى الجاهلية) أي بدعائهم.

عليهِ، والثَّاني رواهُ التِّرمذيُّ. ولا يُؤمِنُ عَبْدٌ حتَّىٰ يَأمنَ جَارُهُ بَوائِقَهُ وشُرُورَهُ. فحرمةُ الجارِ كبيرةٌ وعظيمةٌ، لا يحافظُ عليها إلاَّ مؤمنٌ، ولا يُفرِّط فيهَا إلاَّ ظَالِم.

وقالَ الحسنُ البصريُّ: ليسَ حُسْنُ الجوارِ كفُّ الأذى عَن الجارِ، ولكِن حُسنُ الجوارِ الصَّبرُ علىٰ الأذى مِن الجارِ.

◉ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «واللهِ لا يُؤْمِنُ، وَاللّهِ لا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لا يُؤْمِنُ» قِيلَ: مَن يَا رسولَ الله؟ قَالَ: «الَّذي لا يَأمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[1].

وفي رِوَايَةٍ لمسلم: «لا يَدْخُلُ الجَنَّة مَن لا يَأمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ».

◉ وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ تَعَالىٰ قَالَ: مَن عَادَى لي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُه بالْحَرْب..». [رواه البخاري].

وقولُهُ: (آذَنْتُهُ): أعلَمْتُه بِأنّي مُحَارِبٌ لَهُ.

◉ وعن أبي شُرَيْحٍ خُوَيْلِدِ بْن عَمْرٍو الخُزَاعِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إنِّي أحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ الْيَتِيمِ وَالمَرْأةِ». [حديثٌ حسنٌ رَوَاهُ النسائي بإسناد جيدٍ].

ومعنىٰ: (أحَرِّجُ): ألحِقُ الحَرَجَ، وَهُوَ الإثْمُ بِمن ضَيَّعَ حَقَّهُمَا، وأُحَذِّرُ منْ ذلِكَ تَحْذِيراً بَلِيغاً، وَأزْجُرُ عَنْهُ زَجْراً أكِيداً.

◉ وعن مُصْعَبِ بنِ سعد بن أبي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: رَأى سَعْدٌ أنَّ لَـهُ فَضْلاً عَلَىٰ مَنْ دُونَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إلاَّ بِضُعَفَائِكُمْ»[2]. [رَوَاهُ البخاري هكَذَا مُرْسَلاً، ووصلهُ غيره].

---

١ - (البخاري/٦٠١٦، مسلم/٤٦). (لا يؤمن) لا يكمل إيمانه (يأمن) من الأمان، وهو السلامة من الشيء (بوائقه) جمع بائقة، وهي الظلم والشرّ والغوائِل والشّيء المهلك.

٢ - (البخاري/٢٨٩٧). (رأى) ظن (فضلاً) زيادة منزلة، بسبب شجاعته وغناه ونحو ذلك (بضعفائكم) ببركتهم ودعائهم، لصفاء ضمائرهم وقلة تعلقهم بزخرف الدنيا، فيغلب عليهم الإخلاص في العبادة، ويستجاب دعاؤهم.

٤٧- لبسُ الحرير والذَّهب للرِّجال

اعلم أنَّ مِنَ الحَرَامِ لُبْسُ الْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ بِالنِّسْبَةِ لِلرِّجَالِ، وَلَو بِحَائِلٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَدَنِهِ، مَا لَم يَدْعُ إلىٰ لُبْسِهِ ضَرُورَةٌ، أو مَرَضٌ كَحَكَّةٍ بِهِ، فَيَلْبَسُ الحَرِيرَ لِذَلِكَ، لِمَا رُوِيَ عَن عليٍّ رضي الله عنه قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أخَذَ حَرِيراً، فَجَعَلَهُ في يَمِينِهِ، وَذَهَباً فَجعَلَهُ في شِمَالِهِ، ثمَّ قَالَ: «إنَّ هَذَيْنِ حَرَامٌ عَلىٰ ذُكُورِ أمَّتي»(١).
[رَوَاهُ أبو داود بإسناد حسن].

◉ وعَن عُمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا تَلْبَسُوا الحَرِيرَ فَإنَّ مَن لَبِسَهُ في الدُّنْيَا لَم يَلْبَسْهُ في الآخِرَةِ»(٢). وفي روايةٍ للبُخاري: «إنَّما يَلْبَسُ الحَرِيرَ مَن لا خَلاق لَهُ في الآخِرَةِ». أيْ: لا نَصِيبَ لَهُ.

الذَّهب جمرٌ من جهنَّم

◉ عَن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رأى خَاتماً مِن ذَهَبٍ في يَدِ رَجُلٍ، فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ وَقَالَ: «يَعْمِدُ أحَدُكُم إلىٰ جَمْرَةٍ مِن نَارٍ فَيَجْعَلُهَا في يَدِهِ!» فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رسولُ اللهِ ﷺ: خُذ خَاتَمَكَ، انْتَفع بِهِ.
قَالَ: لا وَاللهِ لا آخُذُهُ أبداً وَقَد طَرَحَهُ رسول الله ﷺ(٣).

١- قولُهُ: (إن هذين) إشارة إلىٰ جنسهما لا عينهما فقط (حرام) قيل: القياس حرامان إلا أنه مصدر وهو لا يثنىٰ ولا يجمع أو التقدير كل واحد منهما حرام فأفرد لئلا يتوهم الجمع وقال ابن مالك: أي استعمال هذين. وعلىٰ كل تقدير فالمراد استعمالهما لبساً وإلا فالاستعمال صرفاً وإنفاقاً وبيعاً جائز للكل، واستعمال الذهب باتخاذ الأواني منه واستعمالها حرام للكل والله تعالىٰ أعلم.

٢- (البخاري/٥٨٣٠، مسلم/٢٠٦٩). (لا تلبسوا الحرير) هذا خاص بالرجال دون النساء.

٣- (مسلم/٢٠٩٠). (رأى خاتماً من ذهب..) فيه إزالة المنكر باليد لمن قدر عليها (يعمد أحدكم إلىٰ جمرة) فيه تصريح بأن النهي عن خاتم الذهب للتحريم. (لا آخذه) فيه المبالغة في امتثال أمره ﷺ واجتناب نهيه وعدم الترخص فيه بالتأويلات الضعيفة، ثم إن هذا الرجل إنما ترك الخاتم علىٰ سبيل=

٤٨- إباق العبد

الإِبَاقُ لُغَةً: مَصْدَرُ أَبَقَ الْعَبْدُ - بِفَتْحِ الْبَاءِ - يَأْبِقُ وَيَأْبُقُ، بِكَسْرِ الْبَاءِ وَضَمِّهَا، أَبْقًا وَإِبَاقًا، بِمَعْنَىٰ الْهَرَبِ. وَالإِبَاقُ خَاصٌّ بِالإِنْسَانِ سَوَاءٌ أَكَانَ عَبْدًا أم حُرًّا.

وَفِي الاصْطِلاحِ: انْطِلاقُ الْعَبْدِ تَمَرُّدًا مِمَّن هُوَ فِي يَدِهِ مِن غَيْرِ خَوْفٍ وَلا كَدٍّ فِي العَمَلِ. فَإِن لَم يَكُن كَذَلِكَ فَهُوَ إِمَّا هَارِبٌ، وَإِمَّا ضَالٌّ وَإِمَّا فَارٌّ. لَكِن قَد يُطْلِقُ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ لَفْظَ الآبِقِ عَلَىٰ مَن ذَهَبَ مُخْتَفِيًا مُطْلَقًا لِسَبَبٍ أو غَيْرِهِ.

والإِبَاقُ مُحَرَّمٌ شَرْعًا بِالاتِّفَاقِ، وَهُوَ عَيْبٌ فِي الْعَبْدِ، وَقَد عَدَّهُ ابْنُ حَجَرٍ الْهَيْتَمِيُّ وَالذَّهَبِيُّ مِن الْكَبَائِرِ، وَوَرَدَت فِي النَّهْيِ عَنْهُ عِدَّةُ أَحَادِيثَ: مِنْهَا:

◉ عَن جَرِيرِ بْنِ عَبدِ الله ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ فَقَد بَرِئَت مِنْهُ الذِّمَّةُ»(١).

◉ وَعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا أَبَقَ الْعَبْدُ، لَم تُقْبَل لَهُ صَلاةٌ». [رواه مسلم].

◉ وفي رواية: «فَقَد كَفَرَ». وفي روايةٍ لمسلم: قَالَ ﷺ: «أَيُّمَا عَبْدٌ أَبَقَ مِن مَوَالِيهِ فَقَد كَفَرَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ».

٤٩- الذَّبح لغير الله

قال تعالىٰ: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَم يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

اعلم أنَّ الإهلالَ بالذَّبح يجبُ أن يكونَ باسم اللهِ. فإن أهلَّ بالذَّبح لغيرِ اللهِ،

=الإباحة لمن أراد أخذه من الفقراء وغيرهم وحينئذ يجوز أخذه لمن شاء، فإذا أخذه جاز تصرفه فيه، ولو كان صاحبه أخذه لم يحرم عليه الأخذ والتصرف فيه بالبيع وغيره، ولكن تورع عن أخذه وأراد الصدقة به علىٰ من يحتاج إليه، لأن النبيّ ﷺ لم ينهه عن التصرف فيه بكل وجه وإنما نهاه عن لبسه وبقي ما سواه من تصرفه علىٰ الإباحة.

١- (مسلم/٦٩). (فقد برئت منه الذمة) فمعناه لا ذمة لَهُ. قَالَ الشيخ أبو عمرو رحمه الله: الذمة هنا يجوز أن تكون هي الذمة المفسرة بالذمام وهي الحرمة.

وذلكَ بأن يذكُرَ عليهِ اسمَ غيرِ اللهِ سُبحانَهُ، كأن يَقُول: باسم المسيح أو العذراءِ مثلاً، فلا يحلُّ أكل المذبُوح.

◉ وعَن عليٍّ رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «لَعَنَ اللهُ مَن ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ». [رواه مسلم]

واللعنُ: هو الطردُ والإبعادُ عن رحمةِ اللهِ تعالىٰ.

٥٠- من ادَّعى لغير أبيهِ وهو يَعْلَم

اعلم أنَّ مِنَ الكبائِر الَّتي حَذَّر منهَا الشَّارع لما يَترَتَّب عليهَا مِنَ المفاسِد وتَغييرِ ما شَرَعَ اللهُ تَعَالىٰ أنِ يَنْتَسِبَ المرءُ إلىٰ غيرِ أبيهِ، أو يَدَّعِي ابناً لَيسَ ابنَهُ وهُو يَعْلَم أَنَّهُ كَاذِبٌ فيما ادَّعَاهُ. فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لا تَرْغَبُوا عَن آبَائِكُمْ، فَمن رَغِبَ عَن أبِيهِ، فَهُوَ كُفرٌ»[١]. وفي روايةٍ: «فالجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ». [مُتَّفقٌ عَلَيْهِ]. والكُفْرُ المذكورُ في الحديثِ لَهُ تأويلانِ ذكرَهُما النّوويُّ: أحدهما: أنَّه في حقِّ المستحلِّ. والثَّاني: أنَّه كُفْر النِّعْمَةِ والإحسانِ وحقّ اللهِ تَعالىٰ وَحقّ أبيهِ، وليسَ المرادُ الكُفر الَّذي يُخرج عَن مِلَّةِ الإسلام.

وكذلكَ الحكمُ لمن يَنْفِي نسَبَ ابنِه وهُوَ يَعْلَم كَذِبَهُ، لما رُوي عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: «أَيُّما امْرَأَةٍ أدْخَلَت عَلَىٰ قَوْمٍ مَن لَيْسَ مِنهُمْ، فَلَيْسَت مِنَ اللهِ في شَيْءٍ، وَلَن يُدْخِلَهَا اللهُ جَنَّتَهُ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ جَحَدَ وَلَدَهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إلَيْهِ احْتَجَبَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْهُ وَفَضَحَهُ عَلَىٰ رُؤُوسِ الأوَّلِينَ وَالآخِرِينَ»[٢]. [رواه أبو داود، وفيه ضعف].

١- (البخاري/٦٧٦٨، مسلم/٦٢). (كفر) أي كفر بالنعمة التي كانت لأبيه عليه، وفعل مَا يشبه أفعال أهل الكفر، وإن استحل ذلك خرج عن الإسلام. والعياذ بالله تعالىٰ.

٢- (أيما امرأة أدخلت علىٰ قوم): أي مولوداً بالزنىٰ ونسبته باطلاً لقومه (فليست من الله): أي من دينه أو رحمته، وهذا تغليظ لفعلها (في شيء): أي شيء يعتد به (ولن يدخلها الله جنته): أي مع من يدخلها من المحسنين بل يؤخرها أو يعذبها ما شاء إلا أن تكون كافرة فيجب عليها الخلود، كذا في المرقاة.

٥١- الجدلُ والمراءُ واللَّدَدُ

قال تَعَالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤- ٢٠٥].

قال الذهبيُّ: وممَّا يُذَمُّ مِن الألفاظِ: المراءُ، والجدالُ، والخصومَةُ.

قالَ الإمامُ حجَّةُ الإسلام الغَزالي ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: المراءُ طعنُكَ في كلامٍ لإظهارِ خَلَلٍ فيهِ، لِغَير غَرَضٍ سِوى تَحْقير قَائِلِهِ وأظهارِ مَزيتِكَ عليه.

وقالَ: وأمَّا الجدالُ فعبارةٌ عَن أمرٍ يَتَعَلَّقُ بإظهارِ المذاهِبِ وتَقريرِها.

قالَ: وأمَّا الخصومَةُ فَلِجَاجٌ في الكلام لِيَسْتَوفِيَ بهِ مقصوداً مِن مالٍ أو غَيرِهِ وتارةً يكونُ ابتداءً، وتارةً يكونُ اعتراضاً، والمراءُ لا يكونُ إلاَّ اعتراضاً. هذا كلامُ الغزالي.

وقالَ النوويُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: اعلَم أنَّ الجدالَ قَد يكون بحقٍّ، وقَد يكونُ بباطلٍ قالَ اللهُ تَعَالىٰ: قالَ تَعَالىٰ: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: من الآية ١٢٥].

وقالَ تَعَالىٰ: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا..﴾ [غافر: من الآية ٤].

قالَ: فإن كانَ الجدالُ للوقوفِ علىٰ الحقِّ وتَقريرِه كانَ محموداً، وإن كانَ في مدافعَةِ الحقِّ، أو كانَ جدالاً بغيرِ عِلْم كانَ مَذمُوماً، وعلىٰ هَذا التَّفصيل تَنزَّلُ النُّصوصُ الواردةُ في إباحَتِهِ وذَمِّهِ، والمجادَلَةُ والجِدَالُ بمعنًى واحدٍ.

قالَ بَعْضُهُم: مَا رأيتُ شيئاً أذْهَبَ للدِّينِ، وَلا أنقَص للمروءةِ، ولا أشْغَلَ للقَلْبِ مِنَ الخصُومَةِ.

◉ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَفَىٰ بِكَ إِثْمَاً أن لا تَزَالَ مُخَاصِماً». [رواه الترمذي، وهو حديثٌ ضَعيف، في إسناده: ابن وهب، مجهول].

٥٢- منعُ فضلِ الماءَ

قال تَعـالىٰ: ﴿قُل أرأيْتُم إن أصبَحَ مَاؤُكُم غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

◉ عَن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا تَمْنَعُوا فَضْلَ الْمَاءِ لِتَمْنَعُوا بِهِ الْكَلأَ». [متفق عليه].

معنىٰ الحديث: أن يَشُقَّ إنسانٌ بئراً بفلاةٍ، ويكون حولَ البئر عُشْبٌ، ولَيْسَ هناكَ ماءٌ غيره، ولا يتوَصَّل إلىٰ رَعي العُشْب إلاَّ إذا كانَت المواشِي تَرِد ذَلِكَ الماءَ، فإذا مَنَعَهُم مِنَ الماءِ أدَّى ذلكَ إلىٰ مَنْعِهم مِن رَعي العُشْب، ولَيْسَ ذلكَ لَهُ.

وعَن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَومَ الْقِيامَةِ ولاَ يَنْظُرُ إلَيْهِم ولاَ يُزَكِّيهِم ولَهُم عَذابٌ أليمٌ: رَجُلٌ عَلىٰ فَضْلِ مَاءٍ بِالْفَلاةِ يَمْنَعُهُ مِنِ ابْنِ السَّبِيلِ، ورَجُلٌ بَايَعَ رَجُلاً سِلْعَةً بَعْدَ الْعَصْرِ..»[1]. الحديث.

٥٣- نقصُ الكيلِ والميزان

قالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَيْل لِلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذينَ إذَا اكتَالُوا عَلىٰ النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإذَا كَالُوهُم أو وَزَنُوهُم يُخسِرُونَ ۝ ألاَ يَظُنُّ أولئِكَ أنهُم مَبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمينَ﴾ [المطففين: ١- ٦].

◉ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ كَانُوا مِن أخْبَثِ النَّاسِ كَيْلاً، فَأنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] فَأحسَنُوا الْكَيْلَ بَعْدَ ذلِكَ. [رواه ابن ماجه، وابن حبان في صحيحه والبيهقي. وهو حديثٌ حسنٌ، وصحَّحَهُ بعضُهُم].

١- (البخاري/٢٣٦٩، مسلم/١٠٨). (فضل ماء) أي: ماء زائدٌ عن حاجته. والله تعالىٰ أعلم.

٥٤- الأمن من مكر الله

قالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

◉ عَن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي العَبْدَ مِن الدُّنْيَا عَلَىٰ مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ» ثُمَّ تَلا رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]. [حسن صحيح].

أي: آيِسُونَ مِن النَّجَاةِ وكُلِّ خَيْرٍ سَدِيدٍ، وَلَهُم الْحَسْرَةُ وَالْحُزْنُ وَالْخِزْيُ لاغْتِرَارِهِم بِتَرَادُفِ النِّعْمَةِ عَلَيْهِم، مَعَ مُقَابَلَتِهِم لَهَا بِمَزِيدِ الإِعْرَاضِ وَالإِدْبَارِ.

◉ وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَو نُودِيَ لِيَدْخُل الْجَنَّةَ كُلُّ النَّاسِ إِلاَّ رَجُلاً وَاحِدًا لَخَشِيتُ أَن أَكُونَ أَنَا ذَلِكَ الرَّجُلَ.

◉ وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ: مَاتَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، فَلَمَّا اشْتَدَّ بِهِ جَعَلَ يَبْكِي، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ أَتُرَاكَ كَثِيرَ الذُّنُوبِ؟

فَرَفَعَ رَأْسَهُ وَأَخَذَ شَيْئًا مِنَ الأَرْضِ فَقَالَ: وَاللهِ لَذُنُوبِي أَهْوَنُ عِنْدِي مِن هَذَا، إِنِّي أَخَافُ أَن أُسْلَبَ الإِيمَانَ قَبْلَ أَن أَمُوتَ.

◉ وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ: لَمَّا احْتُضِرَ أَبِي جَلَسْتُ عِنْدَهُ وَبِيَدِي الْخِرْقَةُ لأَشُدَّ بِهَا لَحْيَيْهِ، فَجَعَلَ يَغْرَقُ ثُمَّ يُفِيقُ وَيَقُولُ: لا بَعْدُ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ مَا هَذَا الَّذِي قَد لَهِجْتَ بِهِ فِي هَذَا الْوَقْتِ؟

فَقَالَ: يَا بُنَيَّ أَوَمَا تَعْلَمُ؟ قُلْتُ: لا، قَالَ: إِبْلِيسُ قَائِمٌ بِحِذَائِي يَقُولُ يَا أَحْمَدُ: فُتَّنِي، فَأَقُولُ: لا بَعْدُ، حَتَّىٰ أَمُوتَ.

٥٥- الإياسُ والقنوط من رحمةِ الله

الإيَاسُ مِن حُصُولِ بعْضِ الأَشْيَاءِ جائِزٌ ولا بَأْسَ بِهِ. بَل اسْتِحْضَارُ إيَاسٍ مِن بَعْضِ الأَشْيَاءِ الْبَعِيدَةِ الْحُصُولِ قد يكُونُ راحَةً لِلنَّفْسِ مِن تَطَلُّبِهَا. وَفِي الْحَدِيثِ عَن سَعْدِ بْنِ أبي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قالَ: جاءَ رَجُلٌ إِلىٰ النَّبيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أوْصِنِي. قالَ: «عَلَيْكَ بِالإِيَاسِ مِمَّا فِي أيْدِي النَّاسِ، وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعَ، فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ، وَصَلِّ صَلاتَكَ وَأَنْتَ مُوَدِّعٌ، وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ». [رواه الحاكم، والبيهقي في الزّهد].

● لَكِن لا يَجُوزُ لِلْمُؤْمِنِ الْيَأْسُ مِن رَوْحِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ. قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وَمِن أَمْثِلَةِ الإِيَاسِ مِن رَحْمَةِ اللهِ إِيَاسُ البعضِ مِن الرِّزْقِ أو نَحْوِهِ كَالْوَلَدِ، أو وُجُودِ الْمَفْقُودِ، أو يَأْسِ الْمَرِيضِ مِن الْعَافِيَةِ، أو يَأْسِ الْمُذْنِبِ مِن الْمَغْفِرَةِ.

فالإِيَاسُ مِن رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ مَنْهِيٌّ عَنْهُ. وَقَد عَدَّهُ الْعُلَمَاءُ مِنَ الْكَبَائِرِ. قَالَ ابْنُ حَجَرٍ الْمَكِّيُّ: عَدُّ ذَلِكَ كَبِيرَةً هُوَ مَا أطْبَقُوا عَلَيْهِ، لِمَا وَرَدَ فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ. كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] وقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

٥٦- الاحتكار

الاحْتِكَارُ لُغَةً: حَبْسُ الطَّعَامِ إِرَادَةَ الْغَلاءِ، وَالاسْمُ مِنْهُ: الْحُكْرَةُ.

أَمَّا فِي الشَّرْعِ فَقَد عَرَّفَهُ الْحَنَفِيَّةُ: بِأَنَّهُ اشْتِرَاءُ طَعَامٍ وَنَحْوِهِ وَحَبْسُهُ إِلَىٰ الْغَلاءِ.

وَعَرَّفَهُ الْمَالِكِيَّةُ: بِأَنَّهُ رَصْدُ الأَسْوَاقِ انْتِظَارًا لارْتِفَاعِ الأَثْمَانِ.

وَعَرَّفَهُ الشَّافِعِيَّةُ: بِأَنَّهُ اشْتِرَاءُ الْقُوتِ وَقْتَ الْغَلاءِ، وَإِمْسَاكُهُ وَبَيْعُهُ بِأَكْثَرَ مِن ثَمَنِهِ لِلتَّضْيِيقِ. وَعَرَّفَهُ الْحَنَابِلَةُ: بِأَنَّهُ اشْتِرَاءُ الْقُوتِ وَحَبْسُهُ انْتِظَارًا لِلْغَلاءِ.

ويَتَّفِقُ الْفُقَهَاءُ عَلَىٰ أنَّ الاحْتِكَارَ بِالْقُيُودِ الَّتِي اعْتَبَرَهَا كُلٌّ مِنْهُم مَحْظُورٌ، لِمَا فِيهِ مِن الإضْرَارِ بِالنَّاسِ، وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِم. وَقَد اخْتَلَفَت عِبَارَاتُ الْفُقَهَاءِ فِي التَّعْبِيرِ عَن هَذَا الْحَظْرِ. فَجُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ صَرَّحُوا بِالْحُرْمَةِ، مُسْتَدِلِّينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ ﴿وَمَن يُرِد فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ..﴾ [الحج: ٢٥] فَقَد فَهِمَ مِنْهَا صَاحِبُ الاخْتِيَارِ أَنَّهَا أصْلٌ فِي إفَادَةِ التَّحْرِيمِ، وَقَد ذَكَرَ الْقُرْطُبِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ أنَّ أَبَا دَاوُد رَوَى عَن يَعْلَىٰ بْنِ أُمَيَّةَ أنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ: «احْتِكَارُ الطَّعَامِ فِي الْحَرَمِ إلْحَادٌ فِيهِ». [ضعيف] وَهُوَ قَوْلُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ.

٥٧- الإضرارُ في الوصيَّة

قالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أو دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: من الآية ١٢].

الوصية في اللُّغةِ: النُّصح بفعلِ شَيءٍ أو بتركِهِ، ولكن لها عندَ الفقهاءِ تعريفٌ يَتَمَشَّىٰ مَع أحكامِها في الشَّرع الحكيم، فهي عندهم: تَصَرُّفٌ يستوجِب في تركَةِ الموصِي حقّاً للموصَىٰ لَهُ.

والأصلُ في الوَصيَّةِ الإباحة، لأنَّها موكولةٌ في الشَّرع لإرادةِ الموصِي في الشيءِ الَّذي يُوصِي بهِ، وفي الشَّخص الَّذي يُوصىٰ لَهُ، لكن هناكَ أمورٌ تجعلها مُسْتَحبَّة وأخرى تجعلهَا واجبةً، أو مكرُوهَةً، أو حَراماً، فتكون بهذه الاعتبارات مِن الأمورِ التي تَعتَريها الأحكامُ الخمسةُ كمَا يقولُ الفقهاءُ.

◉ روى الدّارقطنيُّ والنسائيّ، مِن حديثِ ابن عبَّاسٍ ﷺ مرفوعاً: «الإضرارُ في الوصيَّةِ مِنَ الكبائِر». رواه النسائي. [صحيح موقوفاً، ورفعه وهم].

◉ والإضرارُ في الوصيَّةِ تَارةً يكونُ بأن يخصَّ بَعْضَ الورثةِ بزيادَةٍ علىٰ فَرْضِهِ الَّذي فَرَضَهُ اللهُ لَهُ فيَتَضَرَّر بقيَّةُ الورثةِ بتَخْصيصِهِ، ولهذَا قَالَ النّبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ قَد أعطَىٰ كلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلا وَصيَّةَ لِوارثٍ». [صحيح: رواه أحمد].

◉ وتارةً بأن يوصي لأجنبيٍّ بزيادةٍ علىٰ الثُّلُث فينقص حقوقَ الوَرَثَةِ، ولهذا قال ﷺ: «الثُّلث، والثُّلث كثيرٌ». ومتىٰ أوصىٰ لوارث أو لأجنبيّ بزيادةٍ علىٰ الثُّلُث لم يَنْفُذ ما أوصَىٰ بهِ إلاَّ بإجازةِ الورثةِ. [فقراتُ البحث، من كتاب الفقه الواضح، بتصرف].

٥٨- سبُّ أحدٍ من الصحابة ﷺ

قالَ اللهُ تعَالىٰ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُم جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قَالَ ابْنُ حَمْدَانَ الْحَنْبَلِيُّ: يَجِبُ حُبُّ كُلِّ الصَّحَابَةِ، وَالْكَفُّ عَمَّا جَرَى بَيْنَهُم - كِتَابَةً، وَقِرَاءَةً، وَإِقْرَاءً، وَسَمَاعًا، وَتَسْمِيعًا - وَيَجِبُ ذِكْرُ مَحَاسِنِهِمْ، وَالتَّرَضِّي عَنْهُمْ، وَالْمَحَبَّةُ لَهُمْ، وَتَرْكُ التَّحَامُلِ عَلَيْهِمْ، وَاعْتِقَادُ الْعُذْرِ لَهُمْ، وَأَنَّهُم إِنَّمَا فَعَلُوا مَا فَعَلُوا بِاجْتِهَادٍ سَائِغٍ لا يُوجِبُ كُفْرًا وَلا فِسْقًا، بَل رُبَّمَا يُثَابُونَ عَلَيْهِ، لأَنَّهُ اجْتِهَادٌ سَائِغٌ. واللهُ تعالىٰ أعلمُ.

◉ وعن ابن عباسٍ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَن سَبَّ أصْحَابِي، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ، وَالمَلائِكَةِ، والنَّاسِ أجْمَعِيْنَ». [حسن: رواه الطبراني في الكبير].

الفَصْلُ الخَامِسُ

المبشرون بالنَّار

(١) إبليس اللعين

من هو الشيطان

● (**الشّياطين**) جمع شيطان وصيغته (فيعال) من شطن إذا بعد أي: بعد عَن الخيرِ، أو من الحبلِ الطّويل كأنّه طالَ في الشّرِّ. وهذا فيمن جعل النُّون أصلاً، وقيل: الشَّيطان (فعلان) من شاطَ يشيط إذا هلكَ واحترقَ، وهذا فيمن جعلَ النُّون زائدة.

قال الأزهريّ: الأوَّل أكثر. وهو من حيث العموم: العصيّ الأبيّ الممتلئ شرّاً ومكراً، أو المتمادي في الطّغيان الممتدّ إلىٰ العصيان. وكلّ عات متمرّد من الجنّ والإنس والدّوابّ شيطان. فبين الجنّ والشّيطان عموم وخصوص وجهيّ.

ويدعىٰ متمرّد الشّياطين «عفريتاً». والعفريت: الخبيث المنكر الدّاهية، ويسمّىٰ الجنّ عفريتاً إذا بلغ الغايةَ في الكفر والظّلم والتَّعدِّي والقوّة.

قال أبو عمر بن عبد البرّ: الجنّ عند أهل الكلام واللّسان منزّلون علىٰ مراتب. فإذا ذكروا الجنّ خالصاً قالوا: (جنّيّ). فإن أرادوا أنّه ممّن يسكن مع النَّاس قالوا: (عامر) والجمع عمّار. فإن كان ممّن يعرض للصّبيان قالوا (أرواح) فإن خبث وتعزّم فهو (شيطانٌ) فإن زادَ علىٰ ذلك فهو (ماردٌ) فإن زادَ علىٰ ذلك وقويَ أمرُهُ قالوا: (عِفريت) والجمع عفاريت. وكبير الجنّ: (إبليس). قالَ اللهُ تعالىٰ:

﴿فَسَجَدُوا إلاّ إبليسَ كَانَ مِن الجِنِّ فَفَسَقَ عَن أمْرِ ربِّهِ﴾. [الموسوعة الفقهية الكويتية].

◉ (**إبليس**): وزنه إفعيل، مشتقٌّ من الإبلاسِ وهو اليأسُ من رحمةِ اللهِ تعالى. ولم يَنْصَرِف، لأنَّه معرفة ولا نَظير له في الأسماءِ فشبه بالأعجميةِ، قال أبو عبيدة وغيره. وقيل: هو أعجمي لا اشتقاقَ له فلم ينصرف للعجمةِ والتَّعريف.

◉ وَعَن ابن عبَّاس، قَال: إبليسُ أبلَسَهُ اللهُ من الخيرِ كلِّه وجعلَهُ شيطاناً رجيماً عقوبة لمعصيته. [ابن جرير]

◉ وعن ابن عبَّاس ﷺ قالَ: كانَ إبليسُ من حيٍّ من أحياءِ الملائكةِ، يُقال لهم (الجنّ) خُلِقُوا من نارِ السَّموم من بينِ الملائكة. قالَ: فكانَ اسمُهُ (الحارث). قالَ: وكان خازناً من خُزَّان الجنَّةِ. قال: وخُلِقَت الملائكةُ مِن نُور غير هذا الحيِّ. قَالَ: وخُلِقَت الجنُّ الَّذين ذُكِرُوا في القرآنِ مِن مارج مِن نار، وهو لسانُ النَّار الَّذي يكون في طرفهَا إذا التهبت. [ابن جرير].

◉ وعن ابنِ عباسٍ ﷺ قَالَ: كانَ إبليس قبلَ أن يركبَ المعصيةَ مِن الملائكةِ اسمُهُ عزازيل، وكانَ مِن سكَّان الأرضِ وكانَ من أشدِّ الملائكةِ اجتهاداً وأكثرهم علماً، فذلكَ دعاهُ إلى الكِبْرِ، وكانَ مِن حيٍّ يسمون حنّا. [ابن جرير].

◉ وعَن ابنِ عبَّاس ﷺ قالَ: إنَّ من الملائكة قبيلاً يُقال لهم الجنُّ، فكان إبليسُ منهم، وكان إبليسُ يسوسُ ما بينَ السَّماء والأرضِ فَعَصَى، فمسخَهُ اللهُ شيطاناً رجيماً. [ابن جرير].

◉ وعَن الحسنِ، قالَ: ما كانَ إبليسُ من الملائكةِ طرفةَ عينٍ قطُّ، وإنَّهُ لأصل الجنِّ كما أنَّ آدمَ أصلُ الإنس. [ابن جرير].

- والرَّاجح - واللهُ أعلم - ما قاله ابن زيد: أنَّ إبليس أبو الجنِّ، كما أنَّ آدم

أبو الإنس. وحجَّةُ من قال هذهِ المقالَةَ، أنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤه أخبر في كتابهِ أنهُ خَلَقَ إبليسَ مِن نارِ السَّمُومِ ومن مارجٍ مِن نار، ولم يُخْبِر عَن الملائكةِ أنَّه خلقَها من شيءٍ من ذلك. وأنَّ اللهَ جلَّ ثناؤه أخبرَ أنه من الجنِّ. فقالوا: فَغَيْرُ جائزٍ أنْ يُنْسَبَ إلىٰ غير ما نَسَبَهُ اللهُ إليه. قالُوا: ولإبليس نَسْلٌ وذُرِّيةٌ، والملائكةُ لا تَتناسَلُ ولا تَتوَالَدُ. [ابن جرير].

ولكن هَل يَنْفَعُ العِلْمُ بدونِ العَمَلِ؟

كلاَّ ثمَّ كلاَّ بَل يكونُ حُجَّةً علىٰ صاحبهِ إلىٰ يوم القيامةِ، ومن هنا صَدَرَ الأمرُ الإلهيُّ بالطردِ واللَّعن، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤-٣٥].

ثم إنَّ إبليس أُخرِجَ مِنَ الجنَّةِ بَعْدَ الاستكبارِ عَن السُّجود لآدمَ، وأسكَنَها آدم قبلَ أن يَهْبِطَ إبليسُ إلىٰ الأرضِ، ألا تسمعونَ اللهَ جَلَّ ثناؤه يقولُ: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٥-٣٦].

فقد تبينَ أنَّ إبليسَ إنما أزلَّهما عن طاعةِ الله، بعدَ أن لُعِنَ وأظْهَرَ التكبُّرَ، لأنَّ سجودَ الملائكةِ لآدم كان بعدَ أن نَفَخَ فيهِ الرُّوحَ، وحينئذ كانَ امتناع إبليس مِن السجودِ لَهُ، وعند الامتناع مِن ذلكَ حَلَّت عليه اللَّعنَةُ. [ابن جرير].

وبذلك تأصَّلت العداوةُ بين الشيطانِ وبين آدمَ ففكَّر الشَّيطانُ في الانتقام والتَّشفِّي منهُ ومن ذرِّيَّتِه، وَوَضَعَ خُطَّةً ماكرةً خبيثةً فَنطَقَ علىٰ عجلٍ كما ذكر اللهُ لنا حكايةً عنهُ في كتابِهِ: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦].

أنظرني إلى يوم يُبعثون

وكانَ إبليسُ يَسْتَحِقّ هذَا الجَزاء العَادِل علىٰ عِنَادِهِ وكِبْرِيَائِهِ وَتَمرُّدِهِ فأخْرَجَهُ اللهُ تَعَالىٰ مِنَ الجنَّةِ ذَليلاً مُهاناً، وَهُنَا طَلَب إبْليسُ اللعينُ مِن ربِّه تَبَاركَ وتَعالىٰ أن يُمْهِلَهُ إلىٰ يوم القِيَامَةِ فأجَابَهُ اللهُ عزَّ وجَلَّ وأعطَاهُ سُؤلَهُ لِحِكمَةٍ يَعلمُها اللهُ تَعَالىٰ وَقَالَ لهُ: ﴿فإنَّكَ مِنَ المُنْظَرِينَ ۝ إلىٰ يَومِ الوَقْتِ المَعْلُومِ﴾ [ص: ٨٠-٨١]. والوقتُ المَعْلُومُ هُوَ يَومُ القِيَامَةِ. فَأنْظَرَهُ الحَلِيْمُ الَّذي لا يَعْجَلُ علىٰ مَن عَصَاهُ بالعُقُوبَةِ.

لقد طلبَ النَّظرَ إلىٰ يوم البعثِ لا لينـدمَ علـىٰ خطيئتِهِ ولا ليتـوبَ إلىٰ اللهِ ويرجعَ ويُكَفِّـر عـن إثمهِ الجسيم ولكـن لينتَقِـمَ مِن آدمَ وذرِّيته جزاءَ ما لعنَهُ اللهُ وطرَدَهُ حيثُ أنهُ يربطُ لعنةَ اللهِ لَهُ بآدمَ ولا يربطهَا بعصيانِهِ للهِ تعالىٰ.

وبعدَما اطمأنَّ لبقائهِ إلىٰ يوم البعثِ، وحقَّقَ اللهُ لَـهُ رَغبَتَـهُ في البَقَـاءِ إلىٰ اليَوم المَعْلُوم، وأمِـنَ مـنَ الـهَلاكِ إلىٰ يـوم القِيَامَـةِ تمرَّدَ وطَغَـىٰ، وَقَـابَلَ ذَلِـكَ بـالجُحُودِ وَالكُفْرَانِ وَقَالَ: ﴿فبِمَا أغْوَيْتَنِي لأقْعُدَنَّ لَهُم صِرَاطَـكَ المُسْتَقِيْمَ ۝ ثُـمَّ لآتِينَّـهُم مِن بَيْنِ أيْدِيْهِم وَمِن خَلفِهِم وَعَن أيْمَانِهِم وَعَن شَمَائِلِهِم ولا تَجِـدُ أكْـثَرهُم شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

أي: بِسَبَبِ حُكْمِكَ عَلَيَّ يا ربِّ بالخُسْـرَانِ أُقْسِـمُ لأُحَاوِلَنَّ جَهْدِي أن أُضِـلَّ بَنِي آدَمَ وَأصْرِفَهُم عَن طَرِيْقِكَ المُسْتَقِيْمِ مُتَّخِذاً في سَبِيْلِ ذَلِكَ كُلَّ وَسِيْلَةٍ مُمْكِنَةٍ، وَسَآتِينَّهُم مِن كُلِّ جِهَةٍ أسْتَطِيعُهَا مُتَرَقِّباً كُلَّ غَفْلَـةٍ مِنْهُم حَتَّىٰ أصلَ إلىٰ إغوائِهِم وإفْسَادِهِم، وَأجعلَ أكْثَرَهُم غَيْر شَاكِرِينَ لَكَ.

فَقَالَ تَعَالَىٰ لهُ: ﴿اخْرُج مِنْهَا مَذْؤوماً مَدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُم لأملأنَّ جَهَنَّم مِنْكُم أجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

فَطَرَدَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أيضاً مِن رَحْمَتِـهِ، بَعْدَ أن طَرَدَهُ مِـن جَنَّتِهِ فَأقْسَمَ لإبليسُ بِعزَّةِ اللهِ أن يَتَرَصَّدَ لِعِبَادِهِ بِالغِوايَةِ، وَيَجْهَدَ في إضْلالِـهِم مَا اسْتَطاعَ إلىٰ ذَلكَ سبيلاً، إلاَّ عبادَ اللهِ المُخْلَصِيْنَ، كَمَا قَالَ تَعَـالَىٰ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغوِيَنَّهم أجْمَعِيْنَ ۝ إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُم المُخْلَصِيْنَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

وبذلك حدَّدَ إبليسُ المعركةَ إنـها الأرضُ وحـدَّدَ عِدَّتَهُ فيها إنَّـه التَّزيين تَزيـينُ القبيح وَتجميله فالإنسانُ لا يفعل الشرَّ إلا وعليهِ مِنَ الشيطانَ مَسحة تُزَيِّنُهُ وتجمِّلُهُ وتُظهرُه في غير حقيقتِهِ وردائِهِ، فَليَفْطَن النَّاسُ إلىٰ عِدَّةِ الشـيطانِ وليحـذَرُوا كُلَّما وجدوا في أمرٍ تزييناً وكلَّما وجدُوا من نُفُوسهم إليـهِ اشـتِهَاء ليحـذَرُوا فقـد يكـون الشيطانُ هناك فليتَعوَّذوا بالله وحدهُ وليعتصموا بهِ فليسَ للشيطانِ علىٰ عبادِ اللهِ المخلصينَ مِن سبيلٍ هذا هُو شَرطُهُ: ﴿إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُم المُخْلَصِيْنَ﴾ [ص: ٨٣].

خطبةُ إبليس في النَّار

قال اللهُ تعالىٰ في كتابِهِ العزيز: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأمْـرُ إنَّ اللهَ وَعَدَكُـم وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُم فَأخْلَفْتُكُم وَمَا كَـانَ لِـيَ عَلَيْكُـم مِـن سُلْطَانٍ إلاَّ أن دَعَوْتُكُـم فَاسْتَجَبْتُم لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أنْفُسَكُم مَـا أنَـا بِمُصْرِخِكُـم وَمَـا أنْتُم بِمُصْرِخِيَّ إنِّي كَفَرْتُ بِمَا أشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إنَّ الظَّالِمِينَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

هذا العنوان (خطبةُ إبليس في النَّار) قالَهُ الإمام العلاّمة أبو الفداء ابـنُ كثير في تفسيره، وفي هذا العنوان ـ في ظنِّي ـ ما يحتاجُ إلىٰ بعض التوضيح لتَصويب ما يقـعُ في خلدِ القارئ من تمثُّل للطريقةِ الَّتي يُلقي فيها الشَّيطانُ خُطبتَهُ، وهذا التمثّل لـه أهمّية في تحقيق المعنىٰ النَّفسي لقارئ هذه الآيةِ العظيمةِ، فإنَّ تصوّر المسلم لخطيـبٍ

فوق منبر، شامخ بأنفِهِ، دَافع لِصَدْرِهِ، معتزٌ بنفسهِ، تُلْقِي ظلالاً من الهيبةِ علىٰ معاني الكلماتِ التي يُخْرِجُهَا، وتُكْسِبُ الألفاظ قوّة زائدةً، كما هو شأنُ حركةِ اليدِ للخطيبِ أو المدرِّس أو الواعظِ، وهذا الموقفُ الذي سيخطبُ فيه الشيطانُ خطبتَهُ ليس فيهِ أيّ قَدرٍ مِن هذهِ المعاني، بَل هو علىٰ الضِّدِّ منها مِن كلّ وجهٍ.

فإذا كانَ شأنُ الخطيب أن يخطبَ علىٰ مستمعيهِ من عَلو، فوقَ درجةٍ أو درجاتٍ، فإنَّ الشيطانَ ها هنا يخطبُ مِن سفلٍ تحتَ دَركاتٍ..

وإذا كانَ الخطيب فوقَ منبرِهِ يقرِّرُ وَيَعِظُ وَيُعَلِّمُ، فإبليسُ هنا يتنصَّلُ ويبكتُ وَيَخْزَىٰ ويُخزِي.

وإذا كانَ الخطيبُ يرفعُ رأسَهُ ليراهُ النَّاسُ وليكسيَ ألفاظَهُ معنىٰ الهيبةَ والقوَّةَ، فإنَّ إبليسَ هنا ينكَمِشُ ويتصَاغَرُ لأنَّ جموعَ المطالبين بالحقوقِ منه هَادِرَةٌ غاضبةٌ صادخةٌ، تَطلُبُ التَّفسيرَ والجوابَ.

فإبليسُ في خطبتِهِ هذهِ قابعٌ في الدَّرك الأسفلِ، بَل في أسفلِ دَركةٍ، خائبٌ حسيرٌ، تلفحُهُ النَّارُ ويأتيهِ العذابُ مِن كلِّ مكَانٍ، وملائكةُ العذابِ تَضربُهُ مِن كلّ جانبٍ، وصراخُ وعويلُ أتبَاعِهِ تَزيدُهُ آلاماً فوقَ ما هو عليهِ، ورؤيتُهُ للفقراءِ والمساكين الَّذين كان يَستهزئُ بهم ويتَعَالىٰ عليهم وهُم ملوكٌ في الجنانِ تأكل قَلْبَهُ وَتُشعِلُ نَدمَهُ، هكذا يجبُ أن نَقْرأ هذه الخطبةَ، وإلاَّ وَقَعْنَا في الكثيرِ مِنَ الأخطاءِ في فهمِنَا لما يقولُهُ اللهُ تَعالىٰ.

ويقولُ الحسنُ البصريُّ ـ رحمه اللهُ تعالىٰ ـ إنَّ إبليسَ يقفُ علىٰ مِنْبَرٍ مِن نارٍ. ومَن يقومُ علىٰ هذا المنبرِ باختياره؟ فوجهُ ما قالهُ الإمام ـ والله أعلم ـ أنَّه أُقِيْمَ رَغْمَ أنفِهِ عَلىٰ منبرِ محاكمَةٍ وعذابٍ ولم يَقُم باختِيَارِهِ، فَلا يَبْعُدُ أبداً عن المعنَىٰ

الذي قلناه، والله الموفّقُ للصواب.

وهذه الآية عن خطبةِ الشَّيطانِ قِيْلَت في كتابِ الله تعالىٰ بعدما أخبرنَا اللهُ تعالىٰ عن تبرّي الأسيادِ مِنَ الأتباع، قالَ تعالىٰ: ﴿وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُم تبعاً فَهَل أَنْتُم مُغْنُونَ عَنَّا مِن عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَو هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُم سَوَاءٌ عَلَيْنَا أجزِعْنَا أم صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَحِيصٍ ۝ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ..﴾ [إبراهيم: ٢١].

فالمناسبةُ بينَ الآيتين واضحةٌ جليّةٌ، فإنَّ سياق الآيتين حديثٌ عن قضيّة مهمَّة وهي قضيةُ الخول والأتباع، وأنَّه لا حُجَّةَ لهم عندَ الله تعالىٰ بكونِهم كانوا مستضعفينَ في قوّتهم وعقُولهم، رضُوا لأنفسهم بالتَّسليم، وتعليقِ ما هُم عليه مِنَ الكُفر والضَّلال علىٰ مشجبِ أسيادِهِم، رافعينَ عَن أنفُسِهم التُّهمَةَ، واجدينَ لها العُذْرَ والحجَّةَ، وهي حجّةٌ تتكرَّرُ علىٰ مرِّ الأزمانِ والدُّهُور، يقولُها الناسُ بصيغ متعدّدةٍ وبألفاظٍ متباينةٍ لكنَّها تدورُ علىٰ معنىٰ واحدٍ وهو: ﴿كنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرضِ﴾ واللهُ تَعَالىٰ قَد قَطَعَ هذهِ الحجّةَ في الدُّنيا وقطَعَها في الآخرةِ، أمَّا في الدُّنيا فإنَّ اللهَ تَعَالىٰ قَد أهلكَ أتباع الفراعنةَ والطواغيتَ مَع أسيادِهِم، ولم يستَثْنِهِم من العذابِ والهلاكِ، قال تعالىٰ عن فرعون: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُم فِي الْيَمِّ فَانْظُر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠].

وَدَمَّر اللهُ تعالىٰ صنيعَ الآمرِ والمأمورِ، قال تعالىٰ: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: من الآية ١٣٧].

وأمَّا في الآخرة فكما هو قوله سبحانه وتعالىٰ في هذه الآية التي بينَ أيدينا.. وكما في غيرهَا من الآيات الكثيرة.

وقد ذكرَ الإمامُ ابنُ القيّم رحمه الله تعالىٰ في كتابه « طريق الهجرتين » مراتبَ المكلّفين، وذكر مرتبةً من هذه المراتبِ هي مرتبةُ بهائم البشرِ من المقلّدين للكفّار والطواغيت. أعاذنا اللهُ الكريمُ من ذلكَ.

والآيات في هذا البابِ فيها التّحذير من التّقليد الأعمىٰ، ومن عدم استعمالِ المرءِ لما وَهَبَهُ اللهُ تَعَالىٰ من نعمةِ العقلِ والنَّظر..

وفيها أيضاً الدَّعوة إلىٰ عَدَم قبول الاستضعافِ، وأنَّ الاستضعافَ والذِّلّةَ هي طريقُ الكفرِ والضَّلال والعياذُ باللهِ تعالىٰ..

فالإنسانُ، عِلْمٌ وإرادةٌ، وما جاءَ الإسلام إلاّ لتحريرهِمَا من الأغلال والقيود والموانع، وإنَّ تقدُّمَ أيَّ أمَّةٍ من الأمم لا يكونُ إلاَّ بتصويب العِلم وتحرير الإرادةِ، وصدَقَ الشافعيّ رحمهُ الله تَعَالىٰ حينَ مَدَحَ نَفْسَهُ بأنَّه يَرى المذلّة كفراً كما هو في ديوانه، وما تَراجُعُ أمّتنا وتخلُّفُها وارتكاستُها في مراتبِ الذُّلِّ والهوان إلاَّ بسبب الجهلِ والّذي منهُ التَّقليدُ، وبسببِ تحطّم إرادتِهَا بقيودِ الشَّهوات والأفكارِ الباطلةِ.

﴿وقالَ الشيطانُ لمّا قُضِي الأمرُ..﴾

لا بدَّ هنا مِن حركةٍ يتصوّرها المرءُ لتسبق قولَ الشّيطان، إنَّها حركةُ الأتباع والعبَّادِ له، ذلك أنَّهم تشاورُوا فيما بينهم واتَّفقوا علىٰ محاسبَتِهِ ومطالبَتِهِ بتنفيذِ وُعُودِهِ، فتدافَعُوا كالموج يُطالبون الشَّيطانَ أن يُبَرِّرَ لهم هذا المستَقَرّ الَّذي آلوا إليهِ، وصَرَخُوا بملء أفواههم: أيُّها الشَّيطانُ.. يا إبليس.. أين مَا وَعدّتنا..؟ أينَ ما زَيَّنتَ لنا..؟ أين مَا أقسَمْتَ لنا مِن صِدْقِ القولِ وصَواب الحديثِ، إنَّهم يصطرخونَ فيها.. ليسَ صُراخاً.. إنّه اصطراخٌ.. وزيادةُ المبني تدلّ علىٰ زيادةٍ في المعنىٰ. فإمَّا أنَّهم جرجروهُ حتَّىٰ أقامُوهُ فوقَ منبرٍ مِن نارٍ.. وإمَّا أنَّه تَصَاغَرَ وأطلق كلماته هذه محاولاً قَدر استطاعَتِهِ أن يُخفي خِزْيَهُ وعَارَهُ، ولم يَبْقَ لهُ مِن عُذْرٍ

فقد قُضي الأمرُ، وآبَ النَّاسُ إلىٰ منازلهم: هو وحزْبُهُ إلىٰ النَّار وحزبُ الله إلىٰ الجنّة. فقال لهم:

﴿إنَّ اللهَ وَعَدَكُم وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُم فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾

فوعدُ الشيطانِ في هذهِ الآيةِ مثلُ وصفِ اللهِ تعالىٰ في هذه الآيةِ أعمالَ الكفَّار فقالَ سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُم كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَم يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

فاللهُ قد وَعَدَ، ووعدُهُ حقٌّ، وهو القادرُ سبحانَهُ وتَعَالىٰ أن ينفِّذَ وَعْدَهُ، لا يُعجِزُهُ شيءٌ إذا أرادَهُ. وقد وعدكُم اللهُ تعالىٰ بالبعثِ والجنَّةِ والنَّار، والثَّوابِ للمطيع وبالعِقَابِ للعاصِي، ووعدكُم في اتِّبَاعِ الرُّسُلِ بالنجاة والسَّلامة، وكانَ وعداً حقاً وخبراً صدقاً فَصَدَقكُم وَعْدَهُ، أمَّا أنا فوعدتكُم أن لا بعثَ ولا جنَّةَ ولا نارَ ولا ثوابَ ولا عِقاب فأخلفتكُم.

نعم لقد ظَهرَ سَرابُ وعُودِهِ، وتكشَّفَ كذبُهَا، وبانَت علىٰ حقيقَتِها، لقد تلاشَت كلُّها تحتَ كلمةِ الشَّيطان ﴿فَأَخلَفْتُكُم﴾.. لقد بحثُوا عنهُ في كلِّ مَوطن أقسمَ لهم أن يكونَ لهم فيهِ، ونادُوا عليه بكلِّ أصواتِهم حتَّىٰ كلَّت وبحّت، لكنَّهُ لم يكن هناكَ، لقد تخلَّفَ.

﴿فَأَخْلَفْتُكُم﴾.. كلمةٌ لَم تُبْقِ لهم في نُفُوسِهم أملاً، وقَطّعت كُلّ أَمَانيهم، ولم يبقِ لهم مِن رَجَاء، وإذا كانَ للشَّيطانِ أن يَصْدُقَ قليلاً فإنَّ صِدْقَهُ هنا لم يكُن سِوى تَصوير لحقيقَةِ الأمرِ الَّتي لا دافعَ لَها. وللهِ الأمرُ مِن قَبْلُ ومِن بَعْدُ.

ثمّ بكلماتٍ يسيرةٍ خاطفةٍ، ككلّ خطبةٍ، قذفَ البراءةَ والتبرّي في وجوههم:

وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِن سُلْطَانٍ إلاَّ أن دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُم لي..﴾

والسُّلطان ههنا اختلفَ العلماءُ في تَفسيره، فأكثرهُم علىٰ أَنَّهُ الحجّةُ والدَّليل، أي لم يكُن لي مِن دليل ولا حجَّة علىٰ ما دَعَوتكُم له من الشِّركِ والكُفْرِ والمعصيةِ، بَل بمجرّد أن رَفَعْتُ لكم لواءَ الشَّهوات حتّىٰ أقبلتُم إليها دونَ تفكّر بالعواقبِ، ودون نظرٍ صحيح، وقالَ بعضُ أهل العلم: إنّما السلطان هو القوّة والقَهْرُ، أي لم أقهركُم علىٰ الكفرِ والشِّركِ إنَّما أَقْبَلْتُم إلىٰ ذلك بمحضِ إرادتِكُم، ولا يبعدُ أنّ المرادَ بالسلطانِ هو هذا وهَذا، بل كلمةُ السُّلطان أشمل من ذلك، فإنَّ الشيطانَ يُريد أن يبرّئَ نَفْسَهُ، وأنْ يُحَمِّلَ الأتباعَ نتيجةَ ما أتوا وعَمِلُوا، ولكنَّه استدركَ وبيّنَ مَا كانَ مِنْهُ مِن عَمَل: ﴿إلاَّ أنْ دَعَوتكُم﴾ وهكذا أخفَىٰ كلَّ مَا يقومُ به من تَزيين للباطلِ ونُصْرَةٍ للشَّرِّ والنَّفْخ والهمزِ في قلوبِ الناسِ بكلمةٍ واحدةٍ: ﴿دَعَوتُكُم﴾.

وهي كلمةُ تَبرّي، نَعَم، لكنَّها كلمةُ تبكيتٍ وتحقيرٍ لأتباعِهِ وعُبَّادِهِ، وهي بلا شكّ ستملأ قلوبَهُم حسرةً وندامةً. لأنَّ الشيطانَ هو الذي دَعَاهُم، وزَيَّنَ لهم، ووسوسَ لهم، ووعَدَهُم، وأوحَىٰ لَهُم، ورمَاهُم بِسِهَامِهِ، وقذفَ في طريق الحقِّ ألفَ معوّق ومعوّق، وصاحَبَ قُلُوبَهُم في السِّرِّ والعلنِ، وكانَ ممّا قالَ لربّه يومَ لَعَنَهُ: ﴿قالَ أرَأَيْتَكَ هَـٰذَا الَّذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢].

فقالَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ: ﴿.. اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً ۝ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً ۝ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٣ ـ ٦٥].

فقارن بين هذهِ الأفعال: دفعُ الشيطان النَّاسَ بالصَّوت والنِّداء إلىٰ الكُفر والشِّركِ والمعصيةِ، والجَلْبِ عليهم بالخيلِ والرِّجال والمشاركةِ في الأموال والأولادِ، والوعودِ الكاذبةِ، وهي قولُهُ: ﴿لأحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَتَهُ﴾ أي لأشُدَّنَّهم إلىٰ الشرِّ مِن الحنكِ وأسوقنَّهُم إليه بكلِّ قُوّةٍ، وبينَ قَولهِ: ﴿دَعوتُكُم﴾ ترى كيفَ أنَّ الشَّيطان مَا زالَ يكذبُ ويُراوغُ في كلِّ مَوطنٍ، فكلّ مَا فعَلَهُ اختزَلَهُ في كلمةٍ واحدةٍ، أمَّا تحقيقُهَا علىٰ أرضِ الواقع فهي تحتاجُ إلىٰ شروح وشُروح.

وقولهُ: ﴿دَعوتُكُم فَٱستَجَبْتُم لي﴾..

وهكذا يتمّ التَّقريع والتَّبكيت، لقد استجبتُم لنداءِ الشَّيطان بمجرَّد أن دَعاكُم، لكن هل سكَتُوا؟ اسمَع ماذَا قالَ اللهُ عَن جوابِ الأتبَاع للأسيادِ بَعْدَ قولِ الأسيادِ: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنحْنُ صَدَدْنَاكُم عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذ جَاءكُم بَل كُنتُم مُجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣٢]. فَردَّ الأتباع: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَل مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذ تَأْمُرُونَنَا أن نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَل يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣].

نعم.. إنَّه مكرُ الليل والنَّهار، والتَّخطيط الدؤوب بترتيبِ الخطواتِ ـ خطوات الشيطان ـ ليتمّ الانزلاقِ والعياذُ باللهِ.

ثمَّ قال لهم: ﴿فَلا تَلُومُونِي ولُومُوا أنْفُسَكُم﴾

إذاً كان ممّا صَرَخُوا في وجهه أنَّهم لامُوهُ علىٰ ما زيَّن لهم، فيردّ لومهم عليهم، لكنَّ السؤالَ الذي يوجّه له: لماذا لا يَلُومُوه؟ أليسَ هو الَّذي دعاهم، وقد اعترفَ بذلكَ؟! أم أنَّه يعتبرُ أنَّ هذهِ ليست بالجريمةِ التي تستحقُّ العقابَ ولا

حتَّىٰ اللومَ، نعم.. ليس لهم عذرٌ عِنْدَ اللهِ بأنَّهم اتَّبعُوا الشيطانَ وَصَدَّقُوا وعودَهُ، لأنَّ الشيطانَ قد حذّرنا جميعاً منه فقال تعالىٰ: ﴿.. وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: من الآية ١٤٢].

ثمَّ قال: ﴿مَا أن بمصرخكم وما أنتم بمصرِخِيَّ﴾..

وهكذا تَدرَّج في حديثِهِ حتَّىٰ وصلَ إلىٰ هـذه الحقيقةِ، وهي: أنَّهُ لا يستطيعُ ولن يستطيعَ إنقاذهم ولا نجدتهم، كما أنَّهم لا يَستطيعونَ إنقاذَهُ ولا نجدتَهُ، والعربُ تقولُ للنَّجدة والمغيثِ والمعين: الصَّارخ، والصّراخ هو الصِّياح، لأنَّ طلبَ الغوثِ وكذا المغيث لا يخلو منهُ غالباً.

قال أميّة بن أبي الصلت:

وليسَ لكُم عندي غَنَاءٌ ولا نَصْر ... ولا تَجْزَعُوا إنِّي لكم غَير مُصرخ

أي، لست لكُم بمغيث.

وهكذا لم يجدُوا عندَهُ إلاَّ السَّرابَ الخادع، والأمانيّ الكاذبةَ، والوُعُود الباطلَةَ، والمرءُ لا يقدِّم إلاَّ ما يَقْدِرُ عليه، وههنا لا يَقْدِرُ الشيطانُ علىٰ إنقاذِ نَفْسِهِ، فكيفَ يَقْدِرُ علىٰ إنقاذِ غَيره؟! ثـمَّ مَتَىٰ استطاعَ الشيطانُ أنْ يقدِّمَ لِعُبَّادِهِ وأتباعِهِ شيئاً؟! ومتَىٰ صَدَقَ في وعدٍ قَطَعَهُ علىٰ نفسِهِ لهم؟

ألا مَا أشقىٰ من يتّبع الشيطانَ وَيَثِقُ بِهِ ويصدِّقُ وعودَهُ.

وأخيراً قالَ لهم: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ..﴾

فها هو ذا يَردُّ عبادَتَهُم لَهُ في وجوهِهِم، ويرميهَا خلقَةً باليةً، فَقَد كَفَرَ بعبادَتِهِم، وتبرَّأ مِن إشراكهم إيَّاه مَع اللهِ تَعَالىٰ، لَقَد كَفَرَ بشركهم، وهو اعترافٌ منه أنَّ تألّههُ علىٰ أتباعِهِ هو تألّهٌ باطلٌ، وأنَّ عِبَادَتَهُم إيَّاهُ عبادةٌ باطلةٌ، وأنَّ كلَّ

طاعةٍ قدَّموهَا له رجاءَ خيرٍ منه أو جزاء ذَهَبت سراباً ولم تَكُ شيئاً.

وهكذا تبيَّن للأتباع من عُبَّادِهِ الَّذين نَراهم يملؤون السَّهلَ والـواد، ويأخذونَ عنه شَريعتهم، ويدمِّـرونَ فِطرَتَـهُم بالانقيـاد لـه، ويُعْرِضُـونَ عَـن أمـرِ ربِّـهم وشريعتِهِ، وسنّة النبيِّ ﷺ وهديِهِ، تبيّنَ لهم، أنَّ وعودَهُ كاذبةٌ، وأنَّ نهايةَ العلاقةِ بينهمَا هـي التبريِّ والقطيعة، وأنَّه لـن يَنْصُرَهُـم في أيِّ مقـام مِن مقامَاتِهم الَّتي يحتاجونَ فيها إلىٰ النُّصرة والتأييدِ.

واعلموا أخيراً أنَّ قولَ اللهِ صدقٌ، ووعدُهُ حقٌّ، ومـا أخبرنَا بـهذا إلاَّ رحمـةً بنا، وإخباراً لما سَيَقَع يقيناً مـن أجلِ العِظَةِ قبلَ فَواتِ الأوان، فيومـها لا ينفـعُ الظالمين معذرتـهم، فَليعَجِّلُ الناسُ بوصلِ حبالهم مَـع اللهِ تَعَالىٰ، وليقطَعُـوا حِبَالَهُم مَع الشَّيطانِ وجُنْدِهِ، وليسمَعُوا قَولَهُ سُبحَانَهُ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١]. فويلٌ بعد ذلكَ للقاسيةِ قُلوبهم مِن ذِكْرِ اللهِ.

❖ ❖ ❖

٢- قابيل

قالَ تَعَالىٰ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِم نَبَأَ ابْنَي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَم يُتَقَبَّل مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

قالَ القرطبيُّ: كانَ إبليسُ أوَّلَ من سنَّ الكُفرَ، وقابيل أوَّلَ مَن سنَّ القتلَ، وإنَّه كان أصل ذلكَ كلِّه الحسد.

وقال ابنُ كثير في تفسيرِهِ: إنَّ اللهَ تَعَالىٰ شرعَ لآدمَ عليهِ السَّلام أن يُزَوِّج بناته مِن بنيهِ لِضَرُورةِ الحال، ولكن قَالُوا: كانَ يُولد لَهُ في كلِّ بطنٍ ذكر وأنثىٰ، فكانَ يُزَوِّج أنثىٰ هَذا البَطن لِذكَرِ البطنِ الآخر، وكانَت أخت (هَابيل) دميمةً وأخت (قابيل) وضيئةً، فأرادَ أن يَسْتَأثِرَ بها علىٰ أخيهِ، فأبىٰ آدمُ ذَلِكَ إلاَّ أن يُقَرِّبا قرباناً، فَمَن تُقُبِّل منه فَهِي لَهُ، فَتُقُبِّل مِن هابيل، ولَم يُتَقَبَّل مِن قَابيل، فكانَ مِن أمرِهِمَا مَا قَصَّهُ اللهُ لنا في كتابِهِ.

قالَ السّدي عَن ابنِ عباس، وعن ابنِ مَسعود: فَقَرَّبا قرباناً إلىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أيهما أحقّ بالجاريةِ، فَقَرَّب هَابيل جذعةً سمينةً، وقرَّبَ قابيل حزمةَ سُنبل، فوجد فيهَا سُنبلةً عظيمةً ففركَهَا وأكلَهَا، فَنزَلَت النَّارُ فأكلَت قُربانَ هابيل، وتركَت قُربان قَابيل، فغضِبَ، وقالَ: لأقتُلَنَّك حتىٰ لا تنكح أختِي، فَقَالَ هَابيل ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [رواه ابن جرير]. أي ممن اتَّقىٰ اللهَ في فِعْلِهِ ذَلِكَ.

وقوله تَعَالىٰ: ﴿لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]. يقولُ لَهُ أخُوه الرَّجُلُ الصَّالح الَّذي تَقَبَّل اللهُ قُربانَهُ لِتَقْواه، حين تَوَعَّده أخوه بالقَتْل عَن غير ما ذَنْب مِنْهُ إليهِ ﴿لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ﴾ أي: لا أقابِلُك علىٰ

صَنيعِكَ الفَاسِـد بمثلِهِ، فأكون أنا وَأنتَ سَواء في الخطيئة ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: مِن أن أصنَعَ كما تُريد أنْ تَصْنَع بَـل أصبر وَأحتَسِب، وقال ابنُ جَرير عَن عبدِ الله بن عمرو قالَ: وايم اللهِ إنْ كانَ المقتولُ لأشدّ الرَّجُلين، ولكن مَنَعَهُ التَّحرج أن يَبْسُطَ يَدَهُ إلىٰ أخيه.

وقولُهُ تَعَالىٰ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩]. قالَ ابنُ عَبَّاس ومجاهد: أي بإثم قَتْلِي وإثمك الَّذي عليكَ قَبْلَ ذَلِكَ، وقالَ آخرونَ: يعـني بذلـكَ: إني أُريدُ أنْ تَبُوءَ بخطيئتِي فَتَتَحَمَّل وزرَهَا وإثمك في قتلك إيَّاي.

وعَن مجاهد يَقُول: إنِّي أُريدُ أن يكونَ عليكَ خطيئتي وَدَمِي، فتبوء بهمَا جميعاً.

فإن قيل: كيفَ أرادَ هَابيل أن يكونَ علىٰ أخيهِ قَابيل إثم قَتْلِهِ؟ والجواب: أن هابيلَ أخبَرَ عَن نفسهِ بأنهُ لا يُقاتِل أخاه إنْ قَاتَلَهُ هـوَ، بَل رفـعَ عَنْهُ يَدَهُ طالباً إنْ وقَعَ قَتْلٌ أن يكونَ مِن أخيهِ لا مِنْهُ. وهَـذا الكـلامُ متضمـنٌ موعظةً لَـهُ لَـو اتَّعظ وزَجراً لو انزجَرَ، ولهذا قَالَ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي: تَتَحمَّل إثمي وَإثمكَ ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ قـالَ ابنُ عباس: خوَّفه بالنَّارِ فَلَم يَنْتَهِ ولم يَنْزَجِر.

وقولُهُ تَعَالىٰ: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠]. أي: فَحَسَّنت وسَوَّلَت له نَفْسُهُ وَشَجَّعته علىٰ قَتْلِ أخيهِ فقَتَلَهُ أي: بَعْدَ هذهِ الموعِظَةِ، وهذا الزَّجر. فَقَتَلَهُ بحديدةٍ كانت في يَدِهِ.

وقالَ السّدي: فَطَلَبَهُ قابيلُ ليقتُلَهُ فـراغَ منهُ هـابيلُ إلىٰ رؤوس الجبـالِ، فأتـاه يوماً مِنَ الأيَّام، وهو يرعىٰ غنماً له، وهو نَائم، فَرَفَـع صخـرةً فَشَدَخَ بها رَأسَـهُ فَمَات، فتركَهُ بالعراءِ. [رواه ابن جرير].

وعَن بعضِ أهل الكتابِ أنهُ قتَلَهُ خنقاً وعضّاً كما تَقْتُل السِّباع.

وقالَ ابنُ جَرير: لما أرادَ أن يَقْتُلَهُ جعَلَ يلوي عُنُقَهُ، فأخذَ إبليسُ دابّةً ووضَعَ رأسهَا علىٰ حَجَرٍ ثمَّ أخذَ حجراً آخرَ فضَرَبَ بهِ رَأسَهَا حتَّىٰ قتَلَهَا، وقابيلُ ينظُرُ، فَفَعَلَ بأخيهِ مِثْلَ ذَلِكَ.

وقَولُهُ: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: في الدُّنيا والآخِرَةِ، وأيُّ خَسَارَةٍ أعظَم مِن هذهِ.

وعَن عبدِ اللهِ بن مَسعُود ﷺ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ: «لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إلاَّ كَانَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ الأوَّلِ كِفْلٌ مِن دَمِهَا، لأَنَّهُ كَانَ أوَّلَ مَن سَنَّ الْقَتْلَ». [متفق عليه]

وقولُهُ تَعَالىٰ: ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أعَجَزْتُ أن أكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

قالَ السّدي: لما مَاتَ هابيلُ تَركَهُ قابيلُ بالعراءِ ولا يَعْلَم كيفَ يَدفِنُ أخاه، فَبَعَثَ اللهُ غُرابين أخوين، فاقتَتَلا فَقَتَل أحدُهُمَا صَاحِبَهُ، فَحفَرَ لَهُ، ثمَّ حثَىٰ عليهِ التُرابَ، فلَمَّا رآه قَالَ: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أعَجَزْتُ أن أكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أخِي﴾؟

وقالَ الضَّحاك: عن ابن عبَّاس: مكَثَ يحملُ أخَاه في جرابٍ علىٰ عَاتِقِهِ سَنَةً حتَّىٰ بَعَثَ اللهُ الغُرابين فرآهمَا يَبْحثان فَقَالَ: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أعَجَزْتُ أن أكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أخِي﴾؟ فَدَفَنَ أخاه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ قالَ الحسنُ البصري: عَلاهُ اللهُ بِنَدَامَةٍ بَعْدَ خُسران. فَهذهِ أقوالُ المفسرين في هذه القصَّة، وكلّهم مُتَّفقونَ علىٰ أن هذين ابنا آدم لِصُلبِهِ كما هُو ظاهر القرآن، وكمَا نطق بهِ الحديثُ السابق، واللهُ أعلم.

٣- كنعان بن نوح

عِندَما أوحَىٰ اللهُ تعالىٰ إلىٰ نُوْح عليه السَّلام: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَد آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِس بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. [هود: ٣٦].

فعَلِمَ نُوْحٌ أنَّ اللهَ تعالىٰ قَد حقَّت كَلِمَتهُ، وقَضَىٰ وَحْيُهُ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ أحَدٌ بَعْدَ الذي آمَنَ معَهُ وَهُم قَليلٌ، وَأَنَّهُ قَد طُبِعَ علىٰ قُلُوبِهم، فنَفِذَ صَبْرُهُ وقَالَ عِندَهَا: ﴿رَبِّ لا تَذَر عَلىٰ الأَرضِ مِن الكَافِرِيْنَ دَيَّاراً إنَّـك إن تَذَرْهُـم يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ [نُوْح: ٢٦-٢٧].

ولَمَّا استنصرَ نُوْحٌ رَبَّهُ علىٰ قَومِهِ قَائِلاً: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ أوحَىٰ اللهُ إليـهِ: ﴿واصْنَـعِ الفُلْـكَ بِأعْيُنِنـا وَوَحْيِنَـا وَلا تُخَـاطِبْنِي في الَّذِيـنَ ظَلَمُـوا إنَّـهُم مُغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

فَأَقْبَلَ نُوْحٌ عَلىٰ صُنْعِ الفُلْكِ (السَّفينة) واتَّخَذَ مَكَاناً بَعِيداً عَن المدينةِ، وَأَعَدَّ الأَلْوَاحَ وَالمَسَامِيْرَ، وَأَخَذَ يَعْمَل بِجِدٍّ ونَشَاطٍ، مُمْتَثِلاً لأمرِ اللهِ تعـالىٰ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذلِكَ لَم يَنْجُ مِن سُخْرِيَةِ القَومِ وَاسْتِهْزَائِهم بِهِ وبِدَعوَتِه، فَكَانَ بَعْضُهُم يَمُرُّ عليهِ ويَقُولُ لهُ: يَا نُوْحُ كُنْتَ تَزْعُمُ قَبْلَ اليومِ أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ، فَكَيْفَ أَصْبَحْتَ اليَومَ نَجَّاراً، أزَهِدْتَ في النُّبُوَّةِ، وَرَغِبْتَ في النِّجَارَة! وَذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ ذلكَ في كِتَابِهِ فقَالَ: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِن قَومِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إن تَسْخَرُوا مِنَّـا فَإنَّا نَسْخَرُ مِنْكُم كَمَا تَسْخَرُونَ﴾. [هود: ٣٨].

لكن نُوْحاً عليهِ السَّلام انصرفَ إلىٰ السَّفِيْنَةِ يُقِيْمُ أَلْوَاحَهَا، وَيَصِلُ أجْزَاءهَا، حَتَّىٰ اسْتَوَت سَفِيْنَةً ذَات ألواح وَدُسُر ضخمَةً قويَّةً، وَجَعَلَهَا نُوْحٌ ثَلاثَ طَبَقَاتٍ: سُفْلِيَّة، وَوُسْطَىٰ، وَعُلْيَا.

وبعْدَ أن فَرَغَ سَيّدُنا نُوحٌ مِن صُنْعِ الفُلْكِ أوْحَىٰ اللهُ إليهِ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. فكَانَ فَورانُ التَّنورِ آيةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، فَلَمَّا ظَهَرت هَذِهِ الآيَةُ عَمَدَ نُوحٌ إلىٰ السَّفينَةِ، وَأخَذَ معَهُ مَن آمَنَ مِن قَومِهِ وَأهْلِهِ، وَحَمَلَ مَعَهُ مِن كُلٍّ زَوجَيْنِ مِنَ الحَيوانَاتِ اثْنَينِ، وكَانَ عَدَدهُم ثَلاثَةَ عَشْر شَخْصاً وَهُم: سَيّدنا نُوحٌ وأوْلادُهُ سَام وَحَامَ وَيَافِث، وَنِسَاؤُهم، وَسِتَّةُ أشْخَاصٍ، وَقَد تَخلَّفَ عَنْه ابنُهُ يَام وقيل: (كَنْعَان) وكَانَ كَافِراً، فَلَمَّا اطْمَأنَّ نُوحٌ فِي الفُلْكِ ـ أي السَّفينَةِ ـ جاءَ الماءُ من كُلِّ جِهَةٍ وناحِيةٍ، فهَطَلَ مِنَ السَّمَاء، ونَبعَ منَ الأرضِ، قَالَ تعَالَىٰ: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَىٰ الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾. [القمر: ١١ - ١٢] ثُمَّ قَالوا: ﴿بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١].

فسارت مرةً في رِيَاحٍ هَادِئَةٍ وتَارةً في رِيحٍ عَاصِفَةٍ، وَأَصْبَحَت الأمْواجُ تَفْتَحُ بَيْنَ طَيَّاتِهَا للكَافِرِينَ قُبُوراً، يُغَالِبُونَ الموتَ وَالموتُ يَغْلِبُهُم، وَيُصَارِعُونَ الموجَ وَلكِنَّ الموجَ يَصْرَعُهُم، فَكَانُوا مِنَ الْمُغْرَقِيْنَ الهَالِكِينَ.

ومِن هَؤُلاءِ الْمُغْرَقِينَ وَلَدُ نُوحٍ واسمُهُ يَام، وَقَد رآهُ نُوحٌ عليهِ السَّلامُ مِن فَوقَ ظَهْرِ السَّفِينَةِ يُدَافِعُ المَوجَ، وَيُحَاوِلُ أن يَعْتَصِمَ بِجَبَلٍ يُنْجيهِ ـ وكَانَ كَافِراً ـ فَنَادَاهُ أَبُوهُ نُوحٌ لعلَّ نِداءَهُ يصلُ إلىٰ مَكَانِ الإيمانِ في قَلْبِهِ فَيُؤْمِن: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلا تَكُن مَعَ الكَافِرِيْنَ﴾ [هود: ٤٢]. يا بُنَيَّ إلىٰ أيْن؟ إنَّكَ تَفِرُّ مِن قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ إلىٰ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، يا بُنَيَّ هَلُمَّ إلىٰ السَّفِيْنَةِ مُؤمِناً، كَي يَلْتَمَّ شَمْلُكَ بِأهْلِكَ، وَتَنْجُو بِبَدنِكَ وروحِكَ مِنَ النَّارِ وعَذَابِ الجَبَّار..

لكِن هَذِهِ الكَلِمَات لَم تَصِل إلىٰ قَرَارَةِ وُجْدَانِه ، وكانَ جَوابُ ابْنِه : إليكَ عَنِّي يا نُوح فَإنِّي ﴿سَآوي إلىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُني مِن المَاءِ﴾. قَالَ نُوْحٌ : يَا بُنَيَّ إنَّهُ ﴿لا عَاصِمَ اليَومَ مِن أمْرِ اللهِ إلا مَن رَحِم وَحَالَ بَيْنَهُمَا المَوجُ فَكَانَ مِنَ المُغْرَقِيْنَ﴾ [هود: ٤٣].

وحِينَ رَأى نُوْحٌ ولَدَهُ يَغْرَقُ أمَامَ عَيْنَيْهِ ، امْتَلأ صَدْرُه حُزْناً وَهَمَّاً ، واتَّجَهَ إلىٰ اللهِ تَعالىٰ مُتوسِّلاً أن يُنقِذَ وَلَدَهُ وقَالَ : ﴿رَبِّ إنَّ ابْنِي مِن أهْلِي وَإنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ وأنْتَ أحْكَمُ الحَاكِمِيْنَ﴾ [هود: ٤٥].

لَكِنَّ اللهَ تَعالىٰ أوْحَىٰ إليهِ : يَا نُوْح إنهُ لَيسَ مِن أهْلِكَ ، فَقَد اتَّبعَ مِلَّةَ الكُفْر وَلَم يَسْتَجِب لِدَعْوَتِكَ ، أمَّا الَّذِيْنَ وَعَدتُكَ بِنَجَاتِهِم وَنَصْرِهِم هُم المُؤمنونَ بِكَ. قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وكَانَ حَقَّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤمِنِيْنَ﴾ [الروم: ٤٧] فَإيَّاكَ بَعْدَهَا أن تَسْألَنِي عَن شَيءٍ لا تَعْلَمُه : ﴿إنِّي أعِظُكَ أن تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾. [هود: ٤٦].

حِيْنَئِذٍ أدْرَكَ نُوْحٌ ، أنَّ العَطْفَ أذْهَلَهُ عَنِ الحَقِّ ، والإشْفَاقَ سَتَرَ عَنْهُ الصَّوَابَ ، فَالتَجَأ إلىٰ اللهِ مُستَغْفِراً مِن ذَنْبِهِ مُسْتَعِيْذاً مِن سخَطِهِ وَقَال : ﴿رَبِّ إنِّي أعُوذُ بِكَ أن أسْألَكَ مَا لَيسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإلاَّ تَغْفِر لِي وتَرْحَمنِي أكُن مِنَ الخَاسِرِيْنَ﴾. [هود: ٤٧].

وَلَمَّا تَمَّ مَا أرَادَهُ اللهُ تَعالىٰ مِن إغْرَاقِ الكَافِرِينَ ، أمَرَ اللهُ تَعالىٰ السَّمَاءَ فَأمْسَكَتِ مَطَرَهَا وَغَارَ المَاءُ فِي الأرضِ كما قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَقِيلَ يَا أرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاء أقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَت عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

وقيل : ﴿يَا نُوحُ اهْبِط بِسَلامٍ مِنَّا وَبَركَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّن مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُم ثُمَّ يَمَسُّهُم مِنَّا عَذَابٌ ألِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

فهبطَ نوحٌ عليهِ السلامُ ومن معهُ إلىٰ الأرض بسلامٍ. والعاقبةُ للمتَّقين..

٤- ٥ زوجة نوح وزوجة لوط

قال اللهُ تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِن عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَم يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

قال القرطبيُّ: ضربَ اللهُ تَعالىٰ هذا المثلَ تنبيهاً علىٰ أنَّهُ لا يُغنِي أحدٌ في الآخرةِ عَن قريبٍ ولا نَسيب إذا فَرَّقَ بَيْنَهُما الدِّين.

وكانَ اسم امرأةِ نُوح: والهة، واسم امرأة لوط: والعة، قَالَهُ مُقاتل.

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾: قالَ عكرمة والضَّحاك: أي: بالكفر.

وعن ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما قالَ: كانَت امرأة نُوح تَقُولُ للنَّاس: إنَّه مجنونٌ، وكانَت امرأةُ لوطٍ تُخْبِرُ بأضيافِهِ.

وعنه قالَ: ما بَغَت امرأةُ نَبِيٍّ قَطّ. وهذا إجماعٌ مِنَ المفسرين فيمَا ذكَرَ القُشيري. إنما كانَت خيَانَتهُما في الدِّين وكانتا مُشركتين. وقيل: كانَتَا مُنافِقَتين.

وقيل: خِيانتهما النَّميمة إذا أوحىٰ اللهُ إليهما شيئاً أفشَتَاهُ إلىٰ المشركينَ، قالَهُ الضَّحاك.

وقيل: كانَت امرأةُ لوطٍ إذا نزلَ بهِ ضَيفٌ دَخَّنت لِتُعْلِمَ قَوْمَهَا أنَّهُ قَد نَزَلَ بِهِ ضَيفٌ، لما كانُوا عليهِ مِن إتيانِ الرِّجال.

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿فَلَم يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾ أي: لم يَدفع نوحٌ ولُوط عليهما السَّلامُ مَع كرامَتِهِمَا علىٰ اللهِ تَعالىٰ عَن زَوْجَتيهِمَا ـ لَمَّا عَصَتا ـ شيئاً مِن عذابِ اللهِ، تنبيهاً بذلكَ عَلىٰ أنَّ العذابَ يُدْفَعُ بالطاعَةِ لا بالوسيلةِ. وقيلَ لَهُما: ﴿ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ في الآخرة، كمَا يُقال لكفَّارِ مكَّةَ وَغيرهم. واللهُ أعلمُ.

٦- النمرود

تَوالَتِ الأيَّامُ وَالسُّنونُ علىٰ دوْلَةِ الكِلْدانيينَ وتعاقبَ المُلُوكُ علىٰ عَرْشِ الدَّوْلَةِ إلىٰ أن حَكَمَهَا مَلِكٌ اسْمُهُ النَّمْرودُ، وكَانَ يُوصَفُ بِالذَّكَاءِ وَالقُوَّةِ، فرأى قَوْمَهُ يَعْبُدُونَ الأصْنَامَ، فَجمَعَهُم وقَالَ لَهُم: أيُّها النَّاسُ اعْبُدُونِي، فَإنَّمَا أنَا إلهٌ، فَأنَا أسْمَعُ وَأُبْصِرُ وَأتكلَّمُ وَأُفَكِّرُ وأجْعَلُ فقِيرَكُم غَنِيًّاً وَغَنِيَّكُم فقِيراً وَأرْفَعُ ذَلِيْلَكُم وَأُذِلُّ شَرِيْفَكُم، وَالقُوَّةُ وَالسُّلْطَانُ بِيَدِي فَمَن خَالَفَ أمْرِي قَتَلْتُهُ وَمَن أطَاعَنِي رَفَعْتُهُ، فَلا تَعْبُدُوا غَيْرِي فَتهْلِكُوا .. فَاسْتَخَفَّ عُقُولَهُم، وَصَدَّقَهُ النَّاسُ لِجَهلِهِم.. وهَكَذَا جَعَلَ النَّمرودُ نَفْسَهُ إلهاً علىٰ قَومٍ جَاهِلِيْنَ.

وفي هذه البِيْئَةِ التي سَيْطَرَت عَلَيْها الأوثَانُ، وُلِدَ مَولُودٌ صَغِيْرٌ، اسمُهُ إبراهِيْم عليهِ السَّلامُ نَشَأ وَتَرعْرَعَ، ولَـمَّا كَبُرَ آتَاهُ اللهُ تعَالىٰ الفَهْمَ والرُّشدَ وَالحِكْمَةَ، وَهَدَاهُ إلىٰ الحَقِّ، فَعرَفَ أنَّ اللهَ وَاحِدٌ لا شَريكَ لَهُ، قَد خَلَقَ الحِجَارَةَ وَالأشْجَارَ وَخَلَقَ الكوَاكِبَ وَالنُّجُومَ.. وَهُوخَالِقُ كلِّ شيءٍ، وهُوَ علىٰ كُلِّ شيءٍ قَديرٌ.

وَفَهِمَ أنَّ الأصْنَامَ الَّتِي يَعْبُدُهَا قَوْمُهُ مِن دُونِ اللهِ تَعَالىٰ، لا تَضُرُّ ولا تَنْفَع، فَهِي حِجَارَةٌ صمَّاء لا تَنْطِقُ حَرْفاً وَاحِداً، وَعَمْيَاء لا تَرى سَاكِناً، فَتسَاءلَ إبراهيمُ: كَيْفَ يَعْبُدُ هَؤُلاءِ القَوم مَا لا يَضُرُّهم وَلا يَنْفَعُهُم أبَداً ؟!

وَفِي وَسَطِ ظَلامِ الجَهْلِ أخَذَ إبْرَاهِيْمُ عليهِ السَّلامُ يَعْمَلُ بِمَا أمَرَهُ اللهُ تَعَالىٰ فَيدْعُو إليهِ سُبْحَانَهُ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَد آتَيْنَا إبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وكُنَّا بِهِ عَالِمِيْنَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

وَأخَذَ إبْرَاهِيْمُ عليهِ السَّلامُ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ أنَّ اللهَ وَاحِدٌ لا شَرِيْكَ لَهُ، وَهُوَ الإلهُ الحَقُّ، الَّذِي يَسْتَحِقُّ العِبَادَةَ دونَ غيرِهِ. وهُوَ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيءٍ، وَأنَّ هَذِهِ

الأصْنَام لا يَنْبَغِي أن تُعْبَدَ مِن دُونِ اللهِ لأنَّها لا تَمْلِكُ ضَرّاً ولا نَفْعاً، بَل هِيَ آلِهَةٌ كَاذِبَةٌ. قالَ تَعالىٰ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُم خَيْرٌ لَّكُم إِن كُنتُم تَعْلَمُونَ ۝ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُم رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦-١٧].

لكنَّ قومَهُ لم يستجيبُوا لهُ، وعكَفُوا علىٰ الأصنَام يقدِّسُونَها ويَعبُدُونَها ويقرِّبونَ إليها القرابين.. فأرادَ إبراهِيْمُ أن يُرِيَ الكُفَّارَ بأَعيُنِهم أنَّ الأصْنَامَ لا تضُرّ وَلا تَنْفَع، فَأَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ تَحْطِيْمَ الأَصْنَامِ، وَانْتَظَرَ إِبْرَاهِيمُ الفُرْصَةَ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ يُومُ عِيْدِهِم وَخُرُوجِهِم، قَرَّرَ أَلاَّ يَخْرُجَ مَعَهم، وفِي اليَوْمِ المُحَدَّدِ دَعَوهُ لِلخُروجِ فأبىٰ وقال لهُم: إنِّي سَقِيْمٌ! لا أَسْتَطِيْعُ الخُرُوج مَعَكُم، فَذَهَبُوا وَتَركُوهُ فِي البَيْتِ، وَعِنْدَمَا خَرَجَ القَوْمُ إِلىٰ خَارِجِ المَدِيْنَةِ، جَاءَ إِبْرَاهِيْمُ إِلىٰ المعْبَدِ وَخَاطَبَ الأَصْنَامَ قائلاً: ﴿أَلا تَأْكُلُونَ﴾ هَذَا طَعَامٌ أمامَكُم تركَهُ لَكُمُ النَّاسُ ﴿مَا لَكُم لا تَنْطِقُونَ﴾. ولَكِنَّ الأصنامَ بقِيَت ساكِتَةً لا تَنْطِقُ. حِيْنَئِذٍ غَضِبَ إبْرَاهِيْمُ وَأَخَذَ الفَأْسَ وَبَدَأَ يَضْرِبُ الأَصْنَامَ وَيُحطِّمُهَا الوَاحِدَ بَعْدَ الآخَرِ، إلاَّ كَبِيرهم فَقَد تَرَكَهُ، وَعلَّقَ الفَأْسَ بِرأسِهِ ثُمَّ خَرَجَ، وَلَمَّا عَادَ النَّاسُ إِلىٰ مَعْبَدِهِم، رَأَوا حُطَامَ الأَصْنَامِ فَقَالُوا مُتَعجِّبِيْنَ: ﴿مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾. فَقَالَ أَحَدُهُم: ﴿سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذْكُرُهُم يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾. فَقَالُوا: نَعم لَقَد عَرَفْنَاهُ.. إِنَّهُ إِبْرَاهِيْمُ بن آزر! فَذَهَبَ عَدَدٌ مِنَ القَوْمِ لإِحْضَارِ إِبْرَاهِيْمَ وَقَالُوا هَذَا ذَنْبٌ كَبِيْرٌ لا يَنْبَغِي السُّكُوتُ عَلَيْهِ.

وَاجْتَمَعَ النَّاسُ لِيَروا مُحَاكَمَةَ إِبْرَاهِيْمَ وَمَا يَحِلُّ بِهِ مِنَ القَصَاصِ، وَلاشَكَّ أَنَّ اجتِمَاعَهُم هَذَا كَانَ أُمْنِيَةً لإِبْرَاهِيْمَ، لِيُقِيْمَ عَلَيْهِمُ الحُجَّةَ جَمِيعاً علىٰ بُطْلانِ مَا يَعْتَقِدُونَهُ مِن عِبَادَةِ الأَصْنَامِ، وَلَمَّا أُحْضِرَ إِبراهِيْمُ قَالُوا لَهُ: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا

بآلهتنا يا إبراهِيمُ﴾ قال: ﴿بَل فَعلَهُ كَبِيرُهُم هَذا فاسْأَلُوهُم إن كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٣]. لَكِنَّ النَّاسَ يَعرِفُونَ أَنَّ الأَصْنَامَ حِجَارَةٌ وَيَعْرِفُونَ أَنَّ الحِجَارَةَ لا تَنْطِقُ ولا تَسْمَعُ فَقَالُوا لإبْرَاهِيمَ: ﴿لَقَد عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥]. وَيَا لَها مِن حُجَّةٍ قويَّةٍ لصَالحِ إبْراهِيم، أيْقظَتْهُم مِن غفْلَتِهِم، فَأقْبَلَ بَعْضُهم يَلُومُ بَعْضاً وَيَقُولُ: إنَّكُم لَظَالِمُونَ!! وَسَكَتَ النَّاسُ وَخَجِلُوا، وَمَلَكَت قَوْمُ إبْرَاهِيمَ الحَيْرَةَ، وأطْرَقُوا رُؤُوسَهُم مُفكِّرين.

وَلَكِنَّ قَوْمَ إبراهِيمَ لا يُفَكِّرُون تَفكِيرَ العُقَلاءِ.. بل يُقَلِّدُونَ أَسْيَادَهُم في كُلِّ شَيْءٍ حتَّىٰ في الضَّلالِ المُبِينِ، لِذَا حِينَ أَمَرَ المَلِكُ بِحَرقِهِ قَالُوا بِصَوتٍ وَاحِدٍ: ﴿حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلهَتَكُم إن كُنْتُم فَاعِلِيْنَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

وَقَرَّرُوا أن يُلْقُوا بِإبْرَاهِيمَ إلىٰ النَّارِ كَي يَمُوتَ، وَجَمَعَ القَوْمُ الحَطَبَ الكَثِيْرَ، وَأشْعَلُوا عَلَيْهَا النَّار حَتَّىٰ أصْبَحَت كبيرةً ومخيفَةً ثُمَّ ألقُوا إبْرَاهِيمَ فيها، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالىٰ حفظَهُ مِمَّا مُكِرَ بِهِ، وأمَرَ اللهُ تَعَالىٰ النَّارَ فَقَالَ لها: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلىٰ إبْرَاهِيمَ﴾. [الأنبياء: ٦٩]. وَبَعْدَ أيَّامٍ انْطَفَأتِ النَّارُ دُونَ أن تُؤْذِي إبْرَاهِيمَ، فَتَعَجَّبَ النَّاسُ، وَخَجِلُوا مِن مَوقِفِهِم المُخْزِي ضِدَّ إبْرَاهِيْمَ وعادَ كَيدُهُم إلىٰ نَحرِهِم. قَالَ تَعالىٰ: ﴿وَأرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُم الأخْسَرِيْنَ﴾ [الأنبياء: ٧٠].

وَسَمعَ المَلِكُ نَمْرُودُ بِإبْرَاهِيم، فَأرْسَلَ إليهِ، وَلَمَّا حَضَرَ إبْرَاهِيْمُ سألهُ النَّمْرُودُ قائلاً: مَا هَذا الإلهُ الَّذِي تَدْعُونَا إليهِ؟ فَقَالَ إبْرَاهِيْمُ: إنَّهُ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَه هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيت. فَقَالَ النَّمرودُ سَاخِراً: ﴿أنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. أي: أَقْتُلُ مَن أشَاءُ، وَأعْفُو عَمَّن أشَاءُ.. وَلَكِنَّ اللهَ أرَادَ أن يَرُدَّ كَيْدَ النَّمْرُودِ وَيُبيِّنَ كَذِبَهُ عَلىٰ لِسَانِ إبْرَاهِيْمَ، فَقَالَ لَهُ: إنَّ هَذِهِ الشَّمْسَ مُسَخَّرَةٌ كُلَّ يَوْمٍ، تَطْلُعُ مِنَ الشَّرْقِ كَمَا سَخَّرَهَا خَالِقُهَا، وَهُو الَّذِي لا إلَهَ إلاَّ هُو خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، فَإن كُنْتَ

كَمَا زَعَمْتَ مِن أَنَّكَ تُحْيِي وتُمِيْت فَائِتِ بِهَذِهِ الشَّمْسِ مِنَ المَغْرِبِ فَإِنَّ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيْتُ هُوَ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاء، فَإِن كُنْتَ كَما تَزْعُمُ فَافْعَل هَذَا، فَإِن لَم تَفْعَلْهُ فَلَسْتَ بِإِلَهٍ بل أنتَ مَخلُوقٌ كسائر المَخلُوقَات، عاجِزٌ لا تَقْدِرُ على شيءٍ.

عندها ظَهَرَ ضَلالُهُ وَجَهْلُهُ وكَذِبُهُ فِيْمَا ادَّعَاهُ، وَلَم يَبْقَ لَهُ كَلامٌ يُجِيْبُ بِهِ إِبْرَاهِيْمَ، فَسَكَتَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَر وَاللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِيْنَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. وَخَافَ نَمْرُودُ عَلَى مُلْكِهِ، فَأَمَرَ إِبْرَاهِيْمَ عليهِ السَّلامُ أن يَتْرُكَ البِلادَ إلى بِلادٍ أُخْرَى بَعِيْدَةٍ.

❖ ❖ ❖

٧- آزر والد إبراهيم

عندما أخَذَ إبْرَاهِيْمُ عليهِ السَّلامُ يُبَيِّنُ للنَّاسِ أنَّ اللهَ وَاحِدٌ لا شَرِيْكَ لَهُ، وَهُوَ الإلهُ الحَقُّ، الَّذِي يَسْتَحِقُّ العِبَادَةَ دونَ غيرِهِ. وهُوَ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيءٍ، وَأنَّ هَذِهِ الأصْنَامُ لا يَنْبَغِي أن تُعْبَدَ مِن دُونِ اللهِ لأنَّها لا تَمْلِكُ ضَرّاً ولا نَفْعاً، بَل هِيَ آلِهَةٌ كَاذِبَةٌ. قال تَعَالىٰ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُم خَيْرٌ لَّكُم إِن كُنتُم تَعْلَمُونَ ۝ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُم رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦-١٧].

فكَانَ مِن بَينِ هؤلاءِ الكُفَّارِ آزَرُ وَالِدُ إبرَاهِيْمَ، وكَانَ يَذْهَبُ فِي الصَّبَاحِ لِيَجْلِبَ الصُّخُورَ، ثُمَّ يَقُومُ بِنَحْتِهَا وَيَجْعَلُهَا أصْنَاماً وَيَبِيْعُهَا لِقَوْمِهِ لِيَعْبُدُونَهَا، وكَانَ عِنْدَ آزَر صَنَمٌ خَاصٌّ بِهِ يَعْبُدُهُ مِثْلَ قَوْمِهِ، فَكَانَ إبْرَاهِيْمُ يَرَى أبَاه يَسْجُدُ للأصْنَامِ فِي الصَّبَاحِ وَفِي المَسَاءَ وَيَطْلُبُ مِنْهَا الرِّزقَ، فَعَزَّ عَلَىٰ إبراهِيمُ فِعْلَ وَالِدِهِ وَهُو أقْرَبُ النَّاسِ إلىٰ قَلْبِهِ، فَقَامَ إليهِ يَخُصُّهُ بِالنَّصِيْحَةِ وَيُحَذِّرُهُ عَاقِبَةَ كُفْرِهِ، فَقَالَ لأبِيْهِ: ﴿وَاذْكُر فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ۝ إِذ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً ۝ يَا أَبَتِ إِنِّي قَد جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَم يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ۝ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً ۝ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً﴾. [مريم: ٤١-٤٥].

وَمَا إن عَرَضَ إبْرَاهِيْمُ دَعْوَتَهُ عَلىٰ أبِيْهِ، حتَّىٰ غَضِبَ غَضَباً شَدِيْداً، وأخَذَ يَتَهَدَّده وَيَتَوَعَّده قَائِلاً: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّم تَنتَهِ

لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾. فقال إبراهيمُ لَهُ: ﴿.. سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ۝ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾. [مريم: ٤٧-٤٨].

وَلَكِن هَذا الغَضَبَ مِنَ الوَالِدِ عَلَىٰ وَلَدِهِ لا تَأْثِيْرَ لَهُ، لأَنَّهُ لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ في مَعْصِيَةِ الخَالِقِ، لِذَا بَقِيَ إبرَاهِيْمُ يُذَكِّرُهُ بِاللهِ تَعَالَىٰ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّر أو يَخْشَىٰ. وَلَمَّا عَلِمَ إِبْرَاهِيْمُ أَنَّ أَبَاهُ لَن يُؤمِنَ بِهِ وَدَّعَهُ وَانْصَرَفَ قائلاً لَهُ: ﴿.. سَلامٌ عَلَيْكَ..﴾ وَانصرفَ عنهُ وهُو حَزِينٌ عَلىٰ كُفْرِهِ، وَعَادَ إلىٰ قَوْمِهِ يَدعُوهُم إلىٰ الحَقِّ بِصَبْرٍ وَحِلْمٍ.

وكانت خاتمةُ آزر خاتمة كفرٍ، قال تعالىٰ في ذلكَ: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

يقولُ تعالىٰ: لَم يكُن استغفَارُ إبراهيم لأبيهِ إلاَّ لموعدةٍ وَعَدَها إيَّاه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ وعَلِمَ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ خلاه وتَركَ الاستغفَار لَهُ، وآثرَ اللهَ وَأَمْرَهُ عليهِ، فَتبرَّأَ منه حينَ تَبَيَّنَ لَهُ أمرهُ.

وفي الحديث الصَّحيح عَن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَلقَىٰ إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزرَ يَوْمَ القِيامَةِ وَعَلَىٰ وَجْهِ آزرَ قَترةٌ وغَبرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُل لَكَ لا تَعْصِنِي؟ فيَقُولُ أبوهُ: فَاليَوْمَ لا أَعْصِيكَ. فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِن أَبِي الأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَىٰ الكَافِرِينَ. ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ». [رواه البخاري].

٨- قدار بن سالف

كَانَت أرْضُ ثَمُودَ أرضاً جَمِيْلَةً خَضْرَاء عَمَرُوها أكْثَرَ مِمَّا فَعَلَ قَومُ هُود عليه السَّلامُ، وَفَجَّرُوا فِيْهَا العُيُونَ، وَشَقُّوا الأنْهَارَ، وَغَرَسُوا الحَدَائِقَ وَالبَسَاتِيْنَ، وَبَنَوا القُصُورَ وَالقِلاعَ، وَنَحَتُوا مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً، لِيَأمَنُوا الطُّوفَانَ، وَيَأمَنُوا الرِّيَاحَ الَّتِي أهلَكَتِ الأُمَمَ السَّابِقَةَ فَكَانَت ثَمُودُ كَعَادٍ في العِمَارَةِ وَالزِّرَاعَةِ وكَثْرَةِ البَسَاتِيْنِ والزُّروعِ. بَل فَاقُوهُم في الصِّنَاعَةِ أيضَاً، فَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَاسِعَةً جَمِيْلَةً، وَيَنْقُشُونَ مِنَ الحِجَارَةِ نُقُوشاً بَدِيْعَةً كَأَنَّهَا رُسِمَت بِرِيْشَةِ رَسَّامٍ. وَقَد لانَت لَهُمُ الحِجَارَةُ بِعَقْلِهِم وَصِنَاعَتِهِم فَكانُوا يَصْنَعُونَ بِهِ ما يَشَاؤُونَ كأَنَّهُ شَمْعٌ بينَ أيدِيهِم.

وَلَكِن كُلّ هذِهِ النِّعَم لَم تَحمِل ثَمُود علىٰ الشُّكْرِ وَعِبَادَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، بَل حَمَلَهُم ذَلِكَ عَلىٰ الكُفْرِ وَالطُّغيانِ، فَفَسَدَ حَالُهُم، عندَما جَحَدُوا نِعَمَ اللهِ العَظِيْمَةِ الَّتِي أجْزَلَهَا لَهُم، وَنَسُوا اللهَ تعالىٰ، وَفرِحُوا بِمَا أُوتُوا وَقَالُوا: من أشَدُّ مِنَّا قوَّةً؟. مَن يَملِكُ القُصُورَ التي نَملِكُهَا؟ وَظَنُّوا أَنَّهُم لا يَمُوتُونَ وَلا يَخْرُجُونَ مِن قُصُورِهِم وَجَنَّاتِهِم أبداً.. وظَنُّوا أنَّ الموتَ لا يَدْخُلُ إلىٰ جِبَالِهم المَنِيْعَةِ وَلايَجِد إلَيْهِم سبيلاً!! وَأنَّهم مِن الخَوفِ وَالموتِ بِمَكَانٍ آمِنٍ.

فنَحَتُوا الحِجَارَةَ وَعَبَدُوا الأصْنَامَ من دُونِ اللهِ وَأشْرَكُوا بِهِ، وَصَارُوا يَعْبُدُونَها كَمَا كَانَت أُمَّةُ نُوحٍ تَعبُدُهَا، وأصبَحُوا يُقَدِّمُونَ لَهَا القَرَابِيْنَ وَيَتَوجَّهُونَ إليهَا عِنْدَ كُلِّ أمرٍ يَعْتَرِضُهُم فَيَسألُونَها الرَّحْمَةَ وَالمَغْفِرَةَ والتَّوبَةَ، وَيَسْتَغِيْثُونَ بِهَا كَي تُمْطِرِ السَّمَاء لَهُم المَطَر، فَكانُوا شَرَّاً مِمَّن سَبَقَهُم، أجسادٌ ضخمَةٌ لكن ليسَ لَدَيهم عُقُولٌ واعيةٌ ولا قلوبٌ مبصرةٌ، لَقَد خَتَمَ اللهُ عَلىٰ قُلُوبِهم وعلىٰ أسماعِهِم، فَقَد

سَخَّرَ اللهُ تعالىٰ لهم الحِجارَةَ لِينتفِعُوا بها ولَكنَّهم مِن جهْلِهم أصْبحُوا عَبِيداً لَهَا.

فأرْسَلَ اللهُ تعالىٰ إلىٰ ثَمُود رَسُولاً مِنْ أنفسهم، واسمُهُ: (صالح عليهِ السَّلامُ) يَدعُوهُم لِدينِهِ ويُرشِدُهُم لِسَبِيلِهِ الصَّحِيْح.

فَقَامَ صَالِحٌ في قَوْمِهِ يَدْعُو ويَقُول فِي أعْلَىٰ صَوْتِه: ﴿يَا قَوم اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ﴾. الَّذي خَلَقَكُم مِن تُرابٍ، ثُمَّ جَعَلَكُم تَعْمُرُونَهَا بِفَضْلِهِ عَلَيْكُم، فَيَجِبُ عَلَيْكُم أن تَعبُدُوهُ لا أن تَكفُرُوه! يا قَوم عُودُوا إلىٰ رُشْدِكُم واسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم يَغفِر لَكُم مِمَّا بَدَرَ مِنكُم من سَيِّئَاتٍ، تُوبُوا إليهِ إنَّهُ قَريبٌ مِنكُم يُجِيْبُ دُعَاءَ مَن دَعَاه وَيَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيْعاً إلا مَنْ أشْرَكَ بِهِ وكَفَر.

لَكِنَّ أغْنِيَاءَ ثَمُودَ ضَحِكُوا مِمَّا سَمِعُوا وَقَالُوا: مِسْكِيْنٌ صَالِحٌ هذا! كيفَ يَكُونُ رَسُولاً؟ ما نَظُنُّهُ أنَّهُ يَطْلُبُ إلاَّ المُلْك بِزَعْمِهِ أنَّهُ نَبِيُّ الله.

ولَمَّا أحَسَّ هؤلاء الأغْنِيَاءُ أنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَمِيْلُونَ إلىٰ صَالِح عليهِ السَّلامُ خَافُوا عَلَىٰ مَكَانَتِهِم بَيْنَ قَومِهِم وَادَّعُوا قَائِلِينَ: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ۝ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَىٰ اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾.
[المؤمنون: ٣٣/٣٨].

وهكذا أغرى الأغنياءُ أتباعهُم وحَرَّضوهُم علىٰ الكفْرِ وعدَمِ الإنصَاتِ إلىٰ مَا يَدعُو إليهِ نَبِيُّ اللهِ صالحٌ، وأعْلَنَ هؤلاءِ الكفرَ صراحَةً بصالحٍ عليهِ السَّلامُ وبِمَا جَاءَ بِهِ.

ولَمّا رأى الكُبَرَاءُ مِـن صَالِحٍ عليهِ السَّلامُ الإيمَـانَ القَـوِيَّ، وَالصَّبرَ والتَّمسُّكَ الشَّـديدَيْنِ، ازدَادَ خَوفُـهُم أكثر فَـأكثَر خَشـيَةَ أن يَكْـثُرَ أصحَابُـهُ مِـنَ المُؤْمِنِيْـنَ، وَيَزْدَادُوا قوةً إلىٰ قُوَّتِهِم، فَخَافُوا علىٰ أمْوَالِهِم وَعلىٰ مَصَالِحِهِم، وَخَافُوا أيضَاً عَلَىٰ دَوْلَتِهِم وَسُلْطَانِهِم، وَفَكَّروا في الأَمرِ الَّذي بَاتَ يَشْغَلُهُم ويَتَهَدَّدُهُم جَمِيْعـاً. وَهَدَاهُم تَفْكِيْرُهُم أخيْراً إلىٰ أن يَسْأَلُوهُ مُعْجِزَةً لا يَسْتَطِيْعُ البَشَـرُ أن يَـأتُوا بِمِثْلِهَا، لِيُظهِروا لِلذِيْنَ اتَّبَعُوهُ عَجْزَهُ وَضَعْفَهُ.

وَجَاءَ زُعَمَاؤُهُم إلىٰ صَالِحٍ عليهِ السَّلامُ يُحَدِّثُونَهُ فِي مُعْجِزَةٍ تَدُلُّ علىٰ صِـدقِ ما يَدْعُو إليهِ، وأنَّـهُ حَقِيقَـةً رَسُـولٌ مِن عِنْدِ اللهِ تَعَـالَىٰ كَمَـا يَزْعُـمُ لَـهُم، فقـالوا: ﴿..إنَّمَـا أنْتَ مِـنَ المُسَـحَّرِينَ ۝ مَـا أنـتَ إلاَّ بَشَـرٌ مِثْلُنَـا فَـائتِ بِآيَـةٍ إن كُنْـتَ مِـنَ الصَّادِقِيْنَ﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٤].

فَقَالَ صَالِحٌ عليهِ السَّـلامُ لِقَوْمِـهِ: وَأيُّ آيَـةٍ تُرِيْـدُونَ؟ قَـالُوا: إن كُنْـتَ صَادِقـاً فَأَخْرِج لَنَا مِن هَذِهِ الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ نَاقَةً حَامِلاً نَرَاهَا جَمِيْعاً.

فَقَالَ صَالِحٌ: أرَأَيْتُم إن أَجَبْتُكُم إلىٰ مَا سَألْتُم عَنْهُ فَهَل تُؤْمِنُونَ بِمَا جِئْتُكُـم بِـهِ مِن عِنْدِ اللهِ تَعَالَىٰ؟ فَقَالُوا: نَعَم. فَأَخَذَ مِنْهُمُ المَوَاثِيْقَ وَالعُهُودَ عَلَىٰ ذَلِكَ، ثُمَّ قَامَ نَبِيُّ اللهِ صَالِحٌ إلىٰ مُصَلاهُ فَصَلَّىٰ للهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ دَعَا رَبَّهُ أن يُجِيْبَهُـم إلىٰ مَا طَلَبُوهُ.

فَـأَمَرَ اللهُ تَعَـالىٰ الصَّخْـرَةَ أن تَنْشَـقَّ وَتُخْـرِجَ لَـهُم نَاقَـةً عَشْـرَاءَ قَـد مَضَـىٰ عَلـىٰ حَمْلِـهَا عَشـرَةُ أَشْـهُرٍ، وَمَـا هـيَ إلاَّ لَحَظَـاتٌ حتَّـىٰ تَحرَّكَـتِ الصَّخْـرَةُ وَانْشَـقَّت وَخَرجَت مِنها نَاقَةٌ عَشراءُ عَظِيمَةٌ وهُم يَنظُرونَ إليها بِأُمِّ أعْيُنِهِم.

ثُمَّ وَلَدَت أمَامَهُم وَهُم يَنْظُرونَ إلَيْهَا أيضَاً.. وَأمَامَ هَذَا المَنْظَرِ الهَـائِلِ العَظِيْـمِ، دُهِشَ النَّاسُ وتَحيَّرُوا من هَذِهِ القُدْرَةِ البَاهِرَةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ وُجُودِ اللهِ تَعالىٰ.

وَلَكِنَّهم للأسفِ لم يَنْتَفِعُوا بِها، فَقَد اسْتَمَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِم وَضَلالِهِم وَعِنَادِهِم، وَلَم يُؤْمِن مَعَهُ إلا رَجُلٌ وَاحِدٌ، كَانَ مِن رُؤسَائِهِم وَأشْرَافِهِم.

وحِينَ رأى صَالِحٌ عليهِ السَّلامُ إصْرارَ قَومِهِ علىٰ الكُفرِ باللهِ قالَ لَهُم: يا قَومِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ، وَهَذِهِ آيَةُ اللهِ! سَألْتُم فَخلَقَهَا لَكُم بِقُدْرَتِهِ فَاحْتَرِمُوا هَذِهِ النَّاقَةَ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأخُذَكُم عَذَابٌ قَرِيْبٌ..

واعلَمُوا أنَّ هَذِهِ النَّاقَةَ تَأكُلُ فِي أرْضِ اللهِ وَتَشْرَبُ وَتَأتِي وتَذْهَبُ، وَلَيْسَ عَلَيْكُم عَلَفُهَا ولامَاؤهَا، فالعلفُ كثيرٌ والماءُ كثيرٌ. فللنَّاقَةِ يَومٌ وَلِمَاشِيَتِكُم يَومٌ، فَيوماً تَشْرَبُ هَذِهِ النَّاقةُ، وَيَوماً تَشْرَبُ مَاشِيَتُكُم، وَوَافَقَ القَومُ بَادِئَ الأمْرِ، فَإذَا كَانَت نَوْبَةُ النَّاقَةِ خَلَّوا سَبِيْلَهَا فَتَذْهَب وَتَشْرَب، وَإذا كَانَت نَوْبَةُ مَاشِيَةِ القَومِ ذَهَبَت فَشَرِبَت.

وَمَكَثَت النَّاقَةُ بَيْنَهُم زَمَنَاً تَأكُلُ مِن نَبَاتِ الأرضِ، وَتَرِدُ المَاءَ يَوماً وَتُصَدُّ عَنْهُ يَوماً، وَمَعَ مُرُورِ الأيَّام ازْدَادَ عَدَدُ المُؤمِنِيْنَ بِنُبُوَّةِ صَالِحٍ.. فَخَافَ الكفَّار مِن ازْدِيَادِ أتْبَاعِهِ بِهَذِهِ المُعْجِزَةِ الوَاضِحَةِ فَخَافُوا عَلىٰ مَكَانَتِهِم أن تَضِيْعَ، وَعَلىٰ سُلْطَانِهِم أن يَزُولَ، فَجَمَعَ الكُفَّارُ أمْرَهُم، وَبَيَّتُوا في أنْفُسِهِم شَرّاً للنَّاقَةِ.

وَقَد أحَسَّ صَالِحٌ عليهِ السَّلامُ بِمَا يُبَيِّتُونَ مِن شَرٍّ فَقَالَ لَهُم: يَا قَومِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ العَذَابَ الَّذِي تُوعَدُونَ بِهِ، هَلاَّ طَلَبْتُم المَغْفِرَةَ مِن رَبِّكُم لِيَرْحَمكُم!! وَلَكِنَّ القومَ أجَابُوهُ: إنَّا قَد تَشَاءمْنَا بِكَ وَبِمَن مَعَكَ وَقَد أصَابَنَا القَحْطُ بَعْدَ أن جِئْتَنَا بِدَعْوَتِكَ.. فَقَالَ لَهُم صَالِحٌ عليهِ السَّلامُ: لَيسَ هُناكَ شَيءٌ تَتَشَاءمُونَ مِنْهُ سوى هذا الكُفر الذي أنتُم عاكفونَ عَلَيهِ، فَأسْبَابُ الخَيرِ وَالشَّرِّ هِي مِن عِنْدِ اللهِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُكُم بِهَذِهِ الشِّدَّةِ الَّتِي أنْتُم فِيْهَا لَعَلَّكُم تُؤمِنُونَ.

قال تعالىٰ : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل : ٤٦-٤٧].

وَلَكِنَّ القَوْمَ اسْتَكْبَرُوا وَطَغَوا، وَقَالُوا: لِمَاذَا لا تَشْرَبُ مَاشِيَتُنَا كُلَّ يَومٍ. وَضَجِرَ القومُ مِن هَذِهِ النَّاقَةِ وَأَرَادُوا قَتْلَهَا.

وذكَرَ ابنُ جَرير وغيرُهُ مِن علماءِ التَّفسير: أنَّ سببَ قتلِهَا أنَّ امرأةً منهُم يُقَالُ لها: (عنيزة) وتكنَّىٰ أمّ عثمان، كانَت عجوزاً كافرةً، وكانَت مِن أشدِّ النَّاسِ عداوةً لِصَالح عليهِ السَّلام، وكانت لها بَنات حسانٌ ومالٌ جزيلٌ، وكانَ زوجُهَا (ذؤاب بن عمرو) أحد رؤساءِ ثمود، وامرأة أخرى يقالُ لها: (صدقة) ذات حسبٍ ومالٍ وجمالٍ، وكانت تحتَ رَجُل مُسلم مِن ثمود فَفَارقتهُ، فكانتا تجعلان جُعْلاً (أي: أُجْرَةً) لمن التزَمَ لهما بِقَتْلِ النَّاقَةِ، فَدَعت (صَدقة) رجلاً يُقال لَهُ: الحباب، فَعَرَضَت عليهِ نفسها إن هوَ عقَرَ الناقةَ، فأبىٰ عليهَا، فَدَعَت ابنَ عمٍّ لها يقال له: (مصدع بن المحيا) فأجابها إلىٰ ذلكَ، ودعت عنيزة بنتُ غنم (قُدَارَ بنَ سالف) وكانَ رجلاً أحمر أزرقَ قصيراً يزعمونَ أنه كانَ وَلَد زانيةٍ، وقالت له: أُعطيكَ أيّ بناتِي شئتَ علىٰ أن تَعْقِرَ الناقةَ، فعند ذلكَ انطلقَ (قدار بن سالف) و(مصدع بن المحيا) فاستغويا غواةً مِن ثمود، فاتبعهمَا سبعةُ نَفَرٍ، فصارُوا تسعةَ رهط، وهم الَّذين قالَ فيهم اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل:٤٨]. وكانُوا رؤساء في قَومِهم، فاستمَالوا القبيلةَ الكافِرَةَ بكاملِهَا، فطاوعتهُم علىٰ ذلكَ، فانطلَقوا فرصَدُوا النَّاقة حين صَدَرَت عَن الماءِ وقَد كَمَنَ لها (قدار بن سالف) في أصلِ صَخرةٍ علىٰ طريقهَا،

وكمن لَها (مصدع) في أصلٍ أخرى، فَمَرَّت علىٰ مصدع فَرَمَاهَا بسهم فانتَظَمَ به عَضَلَةُ ساقِهَا، وشَدَّ عليها (قدَار) بالسَّيف فنحرها بهِ فَخَرَّت ساقطةً إلىٰ الأرض، ورَغَت رغاة واحدةً، وانطلَقَ سقبها وهو فَصيلُها حتَّىٰ أتىٰ جبلاً منيعاً، فَصَعدَ أعلىٰ صخرةٍ فيه ورَغَا.

فَلَمَّا فَعَلُوا ذلك وَفرغُوا مِن عَقْر الناقةِ، بَلَغَ الخبرُ صالحاً عليهِ السَّلامُ فجاءهم وهم مجتمعونَ، فلمَّا رأى الناقةَ بكَىٰ وقَالَ: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُم ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: من الآية ٦٥]. الآية، وكانَ قَتلَهُم الناقةَ يومَ الأربعاء، فَلَمَّا أمسَىٰ أولئكَ التِّسعة الرَّهط عَزَمُوا علىٰ قَتْلِ صَالح، وقَالُوا: إن كانَ صادقاً عجلناهُ قَبْلَنَا، وإن كانَ كاذباً ألحقنَاهُ بناقَتِهِ: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩].

فَلَمَّا عَزَمُوا علىٰ ذلكَ وَتَواطؤوا عليهِ وجاؤوا مِنَ الليل ليفتِكُوا بنبيِّ اللهِ، أرسلَ اللهُ سُبحانه وتَعَالىٰ - ولهُ العزَّةُ ولرسولهِ - عليهم حجارةً فَرَضَختهُم سلفاً وتعجيلاً قبلَ قَوْمِهِم، وأصبحَ ثمود يوم الخميسِ - وهو اليومُ الأوَّل مِن أيَّام النَّظْرةِ - ووجوههم مصفرَّة، كما وَعَدَهُم صالحٌ عليهِ السَّلام، وأصبَحُوا في اليوم الثَّاني مِن أيام التَّأجيل - وهو يومُ الجمعة - ووجوهُهم محمَرَّة، وأصبَحُوا في اليوم الثَّالث من أيام المتاع - وهو يومُ السَّبت - ووجوهُهُم مُسْوَدَّة، فلمَا أصبحوا مِن يوم الأحدِ، وقد تحنَّطوا وقعدوا ينتظرونَ نقمةَ اللهِ وعذابَهُ - عياذاً باللهِ من ذلك - لا يدرونَ ماذا يُفْعَلُ بِهم، ولا كيفَ يأتيهم العذاب، وأشرَقَت الشمسُ، جاءتهم صيحةٌ مِنَ السَّماء ورجفة شَديدة مِن أسفل منهم، فَفَاضَت الأرواحُ، وزهقت النفوسُ في ساعةٍ واحدةٍ. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾

[الأعراف: ٧٨]. أي: صَرعَىٰ لا أرواحَ فيهم، ولم يَفْلِت منهم أحدٌ لا صغير ولا كبير، لا ذكَر ولا أنثىٰ، ولم يبقَ مِن ذريَّةِ ثمود أحدٌ سِوى صالح عليهِ السَّلام ومن تَبِعَهُ رضي اللهُ عنهم، إلاَّ أن رجلاً يُقال له (أبو رغال) كان لما وَقعَت النِّقمة بقومهِ مقيماً إذ ذاك في الحرم فَلَم يصبهُ شيءٌ، فَلَمَّا خرجَ في بعض الأيام إلىٰ الحلِّ جاءه حَجَرٌ مِن السَّماءِ فقتَلَهُ. واللهُ تعالىٰ أعلم.

وفي الحديثِ الصَّحيح: عَن عَبْدِ اللهِ بْنِ زَمْعَةَ، قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ النَّاقَةَ وَذَكَرَ الَّذِي عَقَرَهَا، فَقَالَ: «إِذ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا: انْبَعَثَ بِهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ، مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ» [متفق عليه].

وفي رواية: قَالَ ﷺ: «ألا أُحَدِّثُكُمَا بِأَشْقَىٰ النَّاسِ رَجُلَيْنِ؟» قُلْنَا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «أُحَيْمِرُ ثَمُودَ الَّذِي عَقَرَ النَّاقَةَ، وَالَّذِي يَضْرِبُكَ يَا عَلِيُّ عَلَىٰ هَذِهِ» يَعْنِي قَرْنَهُ «حَتَّىٰ تُبَلَّ مِنْهُ هَذِهِ» يَعْنِي لِحْيَتَهُ. [حسن لغيره: رواه أحمد].

وفي رواية لأحمد من حديث الإسراء: رَأى رسولُ اللهِ ﷺ رَجُلاً أَحْمَرَ أَزْرَقَ جَعْدًا شَعِثًا، فقَالَ: «مَن هَذَا يا جِبْرِيلُ؟» قَالَ: هَذَا عَاقِرُ النَّاقَةِ. [رواه أحمد].

❖ ❖ ❖

٩- فرعون

لقد بعثَ اللهُ تعالىٰ موسىٰ وهارونَ عليهما السلامُ إلىٰ الطاغيةِ فرعونَ ليذكِّراهُ باللهِ تعالىٰ، وأمرهُما أن يقولا لهُ كلاماً ليِّنا لعلَّهُ يذَّكرُ أو يخشىٰ، قالَ تَعالىٰ: ﴿اذْهَبَا إِلىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أو يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣- ٤٤].

ولكن فرعونَ أصرَّ واستكبرَ وعتىٰ وبَغىٰ وتجبَّر فأخذَهُ اللهُ وجنودَهُ نكالَ الآخرةِ والأولىٰ. قالَ تَعالىٰ: ﴿هَل أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَب إِلىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُل هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاه الآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات].

ولَمَّا بلَّغَ موسىٰ عليهِ السَّلام رسالتَهُ إلىٰ فرعونَ ولم يُؤمن بل هدَدَ وتوعَّدَ، أمرَ اللهُ تَعَالىٰ مُوسىٰ عليهِ السَّلام أن يأخُذَ بني إسرائيلَ ويَسير بهم باتِّجاه البحرِ، ولما سارَ القومُ علمَ فرعونُ بذلكَ فجمَعَ جنودهُ وجيوشَهُ للحاقِ به، وعِنْدَمَا أشْرَفَ فِرْعَوْنُ علىٰ المكانِ الَّذي عَبَرَ مِنْهُ مُوسَىٰ وبَنُو إسْرائيلَ رأى طَرِيقاً في البَحْرِ لا وُعُورَةَ فيهِ، فطَمعَ أن يَعبُرَهُ مَعَ جُنُودِهِ، وأصْدَرَ أوامِرَهُ إلىٰ الجُنُودِ بِالعُبورِ.. حَتَّىٰ إذا كَانَ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ في وَسَطِ الطَّرِيْقِ وكَانَ بَنُو إسْرَائِيْلَ جَمِيْعاً قَد وَصَلُوا إلىٰ الشَّاطِئ الثَّاني، جاءَ أمْرُ اللهِ الَّذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ في الأَرْضِ ولا في السَّمَاءِ وَأَطْبَقَتِ المِيَاهُ الْمُنْحَسِرَةُ مِن البَحْرِ علىٰ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ فَغَرِقُوا جَمِيْعاً،

وَلَم يُفْلِت مِنْهُم أحَدٌ وكَانَت لَحْظَةُ الغَرَقِ مَرِيْرَةً علىٰ نَفْسِ فِرْعَوْنَ فَجعَلَ يَصْرُخُ قَائِلاً: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لا إلـهَ إلاَّ الَّـذي آمَنَت بِهِ بَنُو إسْرَائِيْلَ وَأَنَا مِـنَ المُسْـلِمِيْنَ﴾ [يونس: ٩٠]. ولكِنَّ اللهَ لَم يَقبَل تَوبَتَهُ لأَنَّهُ تَابَ مُضطرّاً فَأغْرَقَهُ وَألْقَىٰ بِجَسَدِهِ عَلَىٰ الشَّاطِئِ لِيَقُولَ لَهُ وَلِكُلِّ طَاغِيَةٍ مُتَجَبِّرٍ مَغْرُورٍ: ﴿فَاليَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَن خَلْفَكَ آيَةً وَإنَّ كَثِيْراً مِنَ النَّاسِ عن آيَاتِنَا لَغَافِلونَ﴾ [يونس: ٩٢].

وروى أحمد والترمذي، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَت بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] قَالَ: قَالَ لِي جِبْرِيلُ: يا مُحَمَّدُ، لَو رَأَيْتَنِي وقَد أَخَذْتُ حَالاً مِن حَالِ الْبَحْرِ، فَدَسَّيْتُهُ فِي فِيهِ، مَخَافَةَ أن تَنالَهُ الرَّحْمَةُ».

❖ ❖ ❖

١٠- هامان

هو وزيرُ فرعونَ، وكانَ المسؤول عن أعمال البناءِ والهندسةِ في زمنِ فرعون، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾ [غافر: ٣٦].

وهذا ما ثبتَ في الكتبِ الَّتي تَرجمت الشَّخصيات المعروفة عبرَ التَّاريخ..

والمعلومات الَّتي في القرآنِ الكريم حَولَ مِصرَ القديمة وحكَّامها تكشِفُ العديدَ مِنَ الحقائق التاريخية الَّتي لم تكُن معلَنَة وغَير معروفة حتَّىٰ أوقات أخيرة..

فهامان مذكورٌ في القرآن في عدَّةِ أماكن مختَلِفَة كأحدِ المقرَّبين إلىٰ فرعونَ، بينما تذكُر لنا (التَّوراة): أنَّ هامان لم يُذكَر في حياةِ مُوسىٰ عليهِ السَّلام علىٰ الإطلاق، وأنَّ هامانَ كانَ وزيراً وخَليلاً (لأحشوريش) ملكِ الفُرس الذي يدعوهُ اليونان: (زركيس) وكثيراً مِنَ الَّذين يريدونَ أن يَطْعَنُوا في القرآنِ وَيدَّعُونَ أنَّ محمَّداً ﷺ كتبَ القرآنَ بالنَّسخ مِنَ التَّوراة، مَع أنَّ هناكَ اختلافٌ في بعضِ القصصِ منها شخصية هامَان في القرآنِ والتَّوراة.

وسخَافَةُ هذه الادِّعاءات عُرضت فقط بَعْدَ فَكِّ طلاسِمِ الأبجديةِ الهيروغليفية المصرية قبل (٢٠٠) سنة تقريباً، واسم هامَان قَد اكتُشِفَ في المخطوطاتِ القَديمةِ وقَبْلَ هذهِ الاكتشافات لم يكُن شيءٌ معروفٌ عَن التَّاريخ الفرعونيِّ، ولغز الهيروغليفية تمَّ حلُّه سنةَ (١٧٩٩ م) باكتِشَاف حَجَر رشيد الَّذي يعود إلىٰ سنة (١٩٦) قبلَ الميلاد، وتَعُودُ أهمِّيةُ هذا الحجَرِ بأنَّهُ كُتِبَ بثلاثِ لُغات: اللّغة الهيروغليفية، والديموقيطية، واليونانية، وبمساعدة اليونانية تمَّ فَكّ لغزِ الهيروغليفية مِن قِبل (شاملبيون) وبعدها تمَّ معرفة الكثير حولَ تاريخ الفراعنة

وخلالَ ترجمة نَقْشٍ مِنَ النُّقوش المصرية القَديمة تمَّ الكشف عن اسم « هامان » وهذا الاسم أشيرَ إليه في لَوح أثريّ في متحَف « هوف » في (فينا) وفي مجموعةٍ من النقوشِ كَشَفَت لنا أنَّ هامَان كانَ رَئيس عُمَّال محجرِ البناءِ وها هِيَ النُّقوش تكشِفُ لنا حقيقَةَ هامَان بعكسِ ما ذكرتهُ التَّوراةُ والإنجيلُ، وَرَدّاً على الزَّعم الخاطئ لمعارضِي القرآن، فَهَامَان الشخصُ الَّذي عاشَ في مصرَ وفي وقتِ مُوسىٰ، والذي كانَ أقرب المقربينَ لِفرعَون كمَا ذكَرَ القرآنُ لَنَا: قَالَ الله تَعالىٰ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِن إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِد لِي يَا هَامَانُ عَلَىٰ الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

والنقطةُ المهمَّةُ المذكورةُ في القرآنِ هِي: أنَّ هامانَ هُوَ الشَّخصُ الَّذي أمرَهُ فرعونُ بأن يَبْنِي له صرحاً ليتطّلع لآلهِ مُوسىٰ، وهنا يظهرُ إعجازُ القرآنُ في حقيقَةِ هَامَان، والَّتي لم تُعرَف حقيقَتُهُ إلاَّ بَعْدَ فكّ رُمُوز اللُّغةِ الهيروغليفية بعكسِ التَّحريف الَّذي في التَّوراة والإنجيل الَّذي يذكُرُ لَنَا بأنهُ كانَ وزيراً وخليلاً (لأحشوريش) مَلك الفرس. [من كتاب « معجزات القرآن » للمؤلف هارون يحيىٰ].

قلتُ: وهذه الحقيقة الناصعة كانت سبباً في إسلام الكاتب الفرنسيّ المشهور (موريس بوكاي) وكتبَ حولَ هذهِ الحقيقةِ ما يُثلجُ الصُّدُورَ، بعدَ أن وضعَ النُّقاطَ علىٰ الحروفِ.. ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: من الآية ٧].

❖ ❖ ❖

١١- قارون

قارون بنُ يصهر بن لاوى، كانَ ابنَ عمِّ مُوسىٰ عليهِ السَّلام، علىٰ قولِ أكثر أهلِ العِلْم، كما ذكَرَ ذلكَ ابنُ كثير في البدايةِ والنهاية: [١٠/ ٣٦٠].

كانَ مُنافقاً ولم يزَل كذَلِكَ حتَّىٰ أهلكَهُ اللهُ تعالىٰ.

قالَ تَعالىٰ: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِم وآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَح إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

لقد كانَ قارونُ مِن عَشيرةِ مُوسىٰ بنِ عِمْرَان النبيِّ، وهوَ ابنُ عَمِّه لأبيهِ وأمِّهِ إلاَّ أنَّهُ لم يكن مُؤمناً بل كانَ جبَّاراً متكَبِّراً باغياً، وكانَ لهُ مِنَ الأموالِ الشيءَ الكثيرَ، فَلَقَد آتاهُ اللهُ مِنَ الكُنُوزِ ما إنَّ مَفَاتحهَا لتنوءُ بالعصبَةِ أولي القُوَّة مِنَ الرِّجالِ، فَعَن خيثمَةَ، قَالَ: كانَت مفاتيحُ كُنُوز قارونَ مِن جلودٍ، كلٌّ مفتاح مثل الأصبع، كلّ مفتاح علىٰ خزَانَةٍ علىٰ حِدَة، فإذا ركِبَ حُمِلَت المفاتيحُ علىٰ ستِّين بغلاً أغرّ محجَّل. وقَالَ أيضاً: نجدُ مكتوباً في الإنجيلِ: مفاتيحُ قَارُون وَقر ستِّين بغلاً غرّاً مُحَجَّلة، ما يَزيدُ كلّ مِفتَاح منها علىٰ أصبع، لكلِّ مفتاح منهَا كَنْزٌ.

ومع كلِّ هذهِ النِّعم التي أعطاهُ اللهُ إيَّاها بدلَ أن يشكُر بَغىٰ وطَغَىٰ، وكانَ مِن بغيهِ أنَّه دَعَا امرأةً بغيّاً فأعطاهَا مئةَ دينارٍ وقالَ لَهَا: انطلِقِي إلىٰ محلّةِ بني إسرائيل وقولي: إنَّ مُوسىٰ أرسَلَ إليَّ بهذِهِ المئةِ دِينار يدعُوني إلىٰ نَفْسِهِ، فإذا فَعلْتِ فهذه المئة دينارٍ لكِ، فانطَلَقَت حتىٰ أتت محلّةَ بَني إسرائيلَ، فَقَالت: يا مَعْشَرَ بني إسرائيل، ولم تُكمل كَلامَهَا، حيثُ حوَّلَ اللهُ كَلامَها، فَقَالَت: إنَّ قارونَ أرْسَلَ إليَّ بهذِهِ الدَّنانير وأمَرَني أن أُعلِمَ النَّاسَ أنَّ مُوسىٰ أرسلَ إليَّ بهَا، وأنَّه راوَدَني

عَن نَفْسِي ويعطيني مِثْلَها، فجاءت بنُو إسرائيل ومَعَهُم موسىٰ فقالوا: ويحكَ يَا قارون مَا حَمَلَكَ علىٰ ما صَنَعْت؟ هذا مُوسىٰ نبيُّ الله، وهو ابنُ عمِّكَ، وقد أهْلَكَ اللهُ عَدُوَّنا، وبَسَطَ لَكَ مِنَ الدُّنيا ما لم يُعْطِهِ أحداً مِن بني إسرائيلَ فلا تَفْرَح، أي: لا يحملنَّك علىٰ ما تصنع البَطَرُ، ولا تبطر إنَّ اللهَ لا يحبُّ المبطرين.

وخُذْ حظَّكَ مِن الدُّنيا لكن مِن غيرِ أن تتكبَّر، قَالَ اللهُ تَعالىٰ مخبراً عَن قيلِ قَوم قَارونَ لَهُ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

أي: لا تَبْغ يا قَارُون علىٰ قَوْمِكَ، بكثرةِ مَالِكَ، والتَمِس فيمَا آتاكَ اللهُ مِن الأموالِ خيرات الآخِرَةِ، بالعملِ فيهَا بطاعةِ اللهِ في الدُّنيا.

وقوله: ﴿ولا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنيا﴾ يقول: وَلا تَتْرُكْ نَصيبَكَ وَحَظَّكَ مِن الدُّنيا، أن تَأْخُذَ فيها بِنَصيبِكَ مِنَ الآخرةِ، فَتَعْمَل فيه بما يُنجِّيكَ غداً مِن عقابِ الله.

وَلكن بَدَل أن يستمعَ إلىٰ نصيحةِ قومِه، ويشكُرِ اللهَ تَعَالىٰ علىٰ هذهِ النِّعم، نسبَ الفضلَ إليهِ، فقال لقومِهِ الَّذين وَعَظُوهُ: إنما أُوتِيْتُ هذهِ الكنوزَ عَلىٰ فَضْلِ عِلْم عندِي، فَرَضِي بذلكَ عَنِّي، وفَضَّلَنِي بهذَا المالِ عليكُم، لِعِلْمِهِ بِفَضْلِي عَلَيكُم.

ثمَّ لم يقف عندَ هذا الحدِّ بَل بَغَىٰ علىٰ قومِهِ فخرجَ عليهم بزينتهِ مختالاً فخوراً، مُعجباً بما عندَهُ مِنَ الأموالِ والعبيدِ والخدَم والحشمِ حتَّىٰ فُتِنَ بهِ بعضُ النَّاس، قَالَ تَعالىٰ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُم ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾

[القصص: ٧٩-٨٠]. ولمَّا فعلَ قارونُ ذلكَ خسف اللهُ بهِ وبدارِهِ وبأموالِهِ الأرضَ.

قال ابنُ كثيرٍ في «تفسيرِهِ»: وَقَد ذُكِرَ أنَّ هَلاكَ قارونَ كانَ مِن دَعْوةِ مُوسَىٰ نبيِّ اللهِ عَليه السَّلام، وقيلَ: إنَّ قارونَ لما خَرَجَ علىٰ قومِهِ في زِينَتِهِ تِلْك وهُوَ راكبٌ علىٰ البِغَالِ الشُّهب، وعَليه وعلىٰ خَدَمِهِ ثيابُ الأرجوانِ المصبَّغةِ، فَمرَّ في محفلِهِ ذلكَ عَلىٰ مجلسِ نبيِّ اللهِ مُوسىٰ عليهِ السَّلام وهو يُذكِّرُهُم بأيَّام اللهِ، فَلمَّا رأى النَّاسُ قارونَ انْصرَفَت وجوهُهُم نحوَهُ يَنْظُرُونَ إلىٰ ما هُو فيهِ، فَدَعَاهُ مُوسَىٰ عليهِ السَّلامُ وقَالَ: مَا حَمَلَكَ علىٰ ما صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: يَا مُوسىٰ أمَا لَئِن كُنْتَ فُضِّلتَ عَليَّ بالنُّبوَّةِ فَلَقَد فُضِّلتُ عَليكَ بالدُّنيا، فَاستَوت بِهِم الأرضُ.

وعَن ابنِ عبَّاس قَالَ: خَسَفَ بهم إلىٰ الأرضَ السَّابعةِ.

وقالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ لنَا أنَّهُ يخسفُ بِهِم كلَّ يوم قامةً يَتَجَلْجَلُونَ فيهَا إلىٰ يوم القيامَةِ.

وقولُه تعالىٰ: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ أي: مَا أغنىٰ عنهُ مَالُهُ ولا جَمْعُهُ ولا خَدَمُهُ وحَشَمُهُ، ولا دَفَعُوا عنهُ نِقْمَةَ اللهِ وَعذابَه ونكَالَهُ، ولا كانَ هُو نَفسه منتصراً لِنَفْسِهِ، فَلا نَاصِرَ له مِن نَفْسِهِ ولا غَيره.

وقولُه تَعَالىٰ: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ﴾ أي: الَّذين لما رَأوهُ في زِينَتِهِ قَالُوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فَلَمَّا خُسِفَ بِهِ أصبَحُوا يَقُولُونَ: ﴿وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أي: لَيْسَ المالُ بدالٍّ علىٰ رِضَا اللهِ عَن صَاحِبِهِ، فَإنَّ اللهَ يُعْطِي ويَمْنَع، ويُضَيِّقُ ويُوَسِّعُ، ويخفِضُ ويرفَعُ، وهذا كما في الحديث المرفوع عَن ابن مَسعود: «إنَّ الله

قَسَم بينكُم أخلاقَكُم كمَا قَسَمَ أرزَاقكُم، وإنَّ اللهَ يُعْطِي المالَ مَن يحبّ ومَن لا يحبّ، ولا يُعطي الإيمانَ إلاَّ مَن يحبّ». [رواه الحاكمُ وصحّحهُ].

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿لَوْلا أن مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: لولا لطفُ اللهِ بِنَا وإحسانُهُ إلينَا لخَسَفَ بنا كمَا خَسَفَ بهِ، لأنَّا وَددنَا أن نكونَ مِثْلَهُ، يَعنُونَ أنهُ كانَ كافراً ولا يُفْلِحُ الكافرونَ عِنْدَ اللهِ لا في الدُّنيا ولا في الآخرة.

❖ ❖ ❖

١٢- صاحب الجنتين

قالَ تَعالىٰ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً ۝ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً ۝ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ۝ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۝ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ۝ لَّكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ۝ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۝ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ۝ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۝ هُنَالِكَ الْوَلايَةُ للهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٣٢- ٤٤].

قال ابنُ كثير: ضَرَبَ اللهُ للمشركينَ مثلاً برجلين، جَعَلَ اللهُ لأحدِهِمَا جنَّتين، أي: بُساتين من أعنابٍ محفوفَتين بالنَّخيل المحدقَةِ في جَنَباتِهِمَا، وفي خِلالهِمَا الزُّرُوع، وكلٌّ مِن الأشجارِ والزُّروع مُثمرٌ مُقبلٌ في غايةِ الجودةِ، وكان الرجُلانِ شَريكين، ثمَّ اقتسَمَا المالَ، فصَارَ لكلِّ واحدٍ منهما ثلاثة آلاف دينار، فاشتَرَى المؤمنُ منهما عبيداً بألفٍ وأعتقَهُم، وبالألفِ الثَّانية ثياباً وكسَا العُراةَ، وبالألفِ الثَّالثَةِ طعاماً وأطعَمَ الجياعَ، وبَنَىٰ أيضاً مساجدَ، وفَعَلَ خيراً كثيراً.

وأمَّا الآخرُ: فنكَحَ بمالِه نساء ذات يَسَارٍ، واشتَرَى دوابّ وبَقَراً فاستَنْتَجَهَا فَنَمَت له نماءً مفرطاً، واتَّجَرَ بباقيهَا فَربحَ حتَّىٰ فاقَ أهل زمانِه غنًىٰ.

وأدركَت الأوَّلَ الحاجَةُ فأرادَ أن يَسْتأجِرَ نَفْسَهُ في جنةٍ يخدمُهَا فقَال: لو ذَهَبْتُ إلىٰ شَريكي وصاحِبي فسألتُهُ أن يَستَخدِمَني في بعضِ جنَّاتِه رجوتُ أن يكونَ ذلكَ أصلَح لي، فجاءَ فَلَم يكَد يَصِلُ إليهِ مِن غلظ الحجابِ، فَلَمَّا دَخَلَ عليه وعَرَفَهُ سَألَهُ حاجَتَهُ، قَالَ: ألم أكُن قَاسَمْتُكَ المالَ شَطرين، فمَا صَنَعْتَ بمالك؟

فقَالَ: اشتَرَيتُ بهِ مِنَ اللهِ مَا هو خيرٌ وأبقَىٰ.

قَالَ: أئنَّك لمن المصدِّقين، مَا أظنُّ السَّاعةَ قَائمَة، وما أراك إلاَّ سفيهاً، ومَا جزاؤكَ عندي علىٰ سفاهَتِكَ إلاَّ الحرمان. أو مَا تَرى ما صَنعتُ أنا بمالي حتَّىٰ آل إلىٰ ما تراهُ مِنَ الثَّروة وحُسن المالِ؟ وذلك أنِّي كسبتُ وسفهتَ أنتَ، اخرُج عَنِّي. ثمَّ كانَ مِن قِصَّةِ هذا الغَنِّي ما ذكَرَهُ اللهُ في القرآنِ مِنَ الإحاطةِ بثمرهَا وذَهَابِهَا أصلاً.

وفي عجائب الكرماني، قيل: كانَا أخوين في بَني إسرائيل، أحدُهُما مؤمنٌ اسمه: (تمليخا) وقيل: (يهوذا)، والآخرُ كافرٌ اسمُهُ: (نطروس) وهما المذكوران في سورةِ الصَّافات: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنهُم إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ الآية. ولهذا قال: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَت أُكُلَهَا..﴾ [الكهف: ٣٣] أي أخرجَت ثَمرهَا ﴿وَلَم تَظْلِم مِنْهُ شَيْئاً﴾ أي: لم تنقص منهُ شيئاً ﴿وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهراً﴾ أي: والأنهار متفرّقة ههنَا وهُهنا ﴿وكانَ لَهُ ثَمرٌ﴾ قيل: المرادُ به المالُ، وقيل: الثِّمار، وهو أظهرُ ههنا، ﴿فقَالَ﴾ أي: صاحب هَاتين الجنَّتين ﴿لِصَاحِبِهِ وَهُو يُحَاوِرُهُ﴾ أي: يجادلُهُ ويخاصِمُهُ، يَفْتَخِر عليهِ ويَترأس ﴿أنا أكثَر منكَ مالاً وأعزّ نفراً﴾ أي: أكثر خدماً وحشماً وولداً، قال قتادة: تلكَ واللهِ أمنيةُ الفَاجِرِ، كثرة المالِ، وعزَّة النَّفر.

وقوله: ﴿ودَخَلَ جَنَّتَهُ وهو ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أي: بكفرِهِ وتَمَرُّدِهِ وتجبُّره وإنكاره المعَادَ ويومَ القيامةِ. ﴿قَالَ مَا أظنُّ أن تَبِيْدَ هذهِ أبداً﴾ وذلك اغـترارٌ منه، لَمَّا رأى فيها مِنَ الزُّروعِ والثِّمـار والأشـجارِ والأنـهار المطـردةِ في جوانِبِهَا وأرجائِهَا، ظَنَّ أنها لا تَفْنَىٰ ولا تفرغ ولا تَهلكَ ولا تتلَفَ، وذلكَ لِقِلَّةِ عَقْلِهِ وضعـفِ يقينِـه بـالله وإعجابه بالحياةِ الدُّنيا وزينتها، وكفره بالآخرةِ، ولهذا قالَ: ﴿ومَا أظنُّ السـاعَةَ قائمةً﴾ أي: كائنةً. ﴿ولئِن رُدِدْتُ إلىٰ رَبِّي لأجدنَّ خيراً منهَا مُنْقَلَباً﴾ أي: ولئن كانَ معادٌ ورجعةٌ إلىٰ اللهِ ليكوننَّ لي هناكَ أحسَن مِن هذا الحظِّ عنـدَ ربِّي، ولـولا كرامتي عليهِ ما أعطاني هَذا، كما قالَ في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: من الآية ٥٠].

يقولُ تَعَالىٰ مخبراً عمَّا أجابَهُ به صاحبُهُ المؤمنُ واعظـاً لَـهُ وزاجـراً عمَّـا هـو فيـهِ مِنَ الكفرِ باللهِ والاغـترارِ: ﴿أكَفَرْتَ بِـالَّذِي خَلَقَكَ مِـن تُـرَابٍ ثُـمَّ مِـن نُطْفَـةٍ ثُـمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ [الكهف: ٣٧]. وهذا إنكارٌ وتعظيمٌ لما وقَعَ فيه مِن جحـودِ ربِّـه الَّـذي خَلَقَهُ، وابتدأ خَلْقَ الإنسانِ مِن طينٍ وهو آدمُ، ثمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُـلالةٍ مِـن مـاءٍ مَهِين، كمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وكُنْتُم أمْوَاتاً فَأَحْيَاكُم ثُمَّ يُمِيتُكُم ثُمَّ يُحْيِيكُـم ثُـمَّ إِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ﴾ [البقرة: ٢٨]. أي: كيـفَ تجحـدُونَ ربَّكـم، ودلالَتـهُ عليكُم ظاهرة جليَّة، ولهذا قالَ المؤمنُ: ﴿لكنَّا هُو اللهُ رَبِّي﴾: أي لكـن لا أقـولُ بمقالَتِكَ بَل أعترفُ للهِ بالوحدانيةِ والرُّبُوبيةِ ﴿ولا أشركُ بِرَبِّي أحداً﴾ أي: بَل هـو اللهُ المعبودُ وحدهُ لا شريكَ لَهُ، ثمَّ قَالَ له ناصحاً: ﴿وَلَوْلا إذ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لا قُـوَّةَ إلاَّ بِـاللهِ إن تَـرَنِ أنَـا أَقَـلَّ مِنْـكَ مَـالاً وَوَلَـداً﴾ [الكهف: ٣٩]. هـذا تخصيصٌ وحـثٌّ علـىٰ ذلـكَ، أي: هـلاَّ إذ أعجبَتـكَ حـينَ دَخَلْتَـهَا ونظرتَ إليـهَا حمدتَ اللهَ علىٰ ما أنعَمَ بِهِ عليكَ، وأعطاكَ مِنَ المالِ والولدِ مَا لم يُعْطِه غـيركَ،

وقُلتَ: ما شاءَ اللهُ لا قوَّةَ إلاَّ باللهِ، ولهذا قالَ بعضُ السَّلفِ: مَن أعجَبَهُ شيءٌ مِن حالِهِ أو مَالِهِ أو ولَدِهِ فليقل: مَا شاءَ اللهُ لا قوَّةَ إلاَّ باللهِ.

وهذا مأخوذٌ مِن هذهِ الآيةِ الكريمةِ.

وقوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِن جَنَّتِكَ..﴾ [الكهف: ٤٠]. أي: في الدَّار الآخرةِ ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي: علىٰ جَنَّتِكَ في الدُّنيا الَّتي ظَنَنْتَ أنَّها لا تبيد ولا تفنىٰ ﴿حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ﴾ قالَ ابنُ عبَّاس والضَّحاك: أي: عذاباً مِـنَ السَّماءِ، والظاهِر أنه مطرٌ عظيمٌ مزعجٌ، يقلَعُ زَرْعَهَا وأشجَارَهَا، ولهذا قَالَ: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾ أي: بلقعاً تراباً أملس، لا يَثْبت فيهِ قَدَمٌ.

وقوله: ﴿أو يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴾ [الكهف: ٤١]. أي: غـائراً في الأرضِ وهو ضدّ النَّابع الَّذي يطلب وَجْهَ الأرضِ. فالغائرُ يطلب أسفَلَهَا.

ثمَّ قالَ تَعَالىٰ: ﴿وأحيطَ بِثَمَرِهِ﴾ بأموالـهِ وبثمـارِهِ ما كـانَ يحذَر ممَّا خَوَّفَهُ بـهِ المؤمنُ، مِن إرسالِ الحسبانِ علىٰ جَنَّتِهِ الَّتي اغترَّ بِهَا وألهتهُ عَن اللهِ عزَّ وَجَلَّ، ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ قَالَ قَتَادة: يصفـقُ كفَّيـهِ متأسفاً مُتَلَهِّفاً علىٰ الأموالِ الَّتي أذهَبَهَا عليهَا ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَـم أُشْرِك بِرَبِّي أحَداً ۝ وَلَـم تَكُن لَهُ فِئَةٌ﴾ أي: عشيرة أو ولد كَمَا افتخَرَ بهم واستَعَزَّ ﴿يَنْصُرُونَـهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ۝ هُنَالِكَ الْوَلايَةُ للهِ الْحَقِّ﴾ أي: المـولاة للهِ، أي: هنـالك كـلّ أحـد مؤمـن أو كـافِر يَرجـعُ إلىٰ اللهِ وإلىٰ مولاتـهِ والخضـوع لـهُ إذا وقـع العـذابُ، ومنهم مَن كَسَـر الـواوَ مِـن ﴿الوِلايـةِ﴾ أي: هنـالك الحكـم للهِ الحقّ ﴿هُـوَ خَـيْرٌ ثَوَاباً﴾ أي: جزاءً ﴿وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ أي: الأعمـال الـتي تكون للهِ عزَّ وجلَّ ثوابها خيرٌ، وعاقبتُهَا حميدةٌ رشيدةٌ، كُلُّها خيرٌ. واللهُ تعالىٰ أعلمُ وأحكمُ.

١٣- موسى السامري

قال اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِم عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَم يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُم وَلا يَهْدِيهِم سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ۝ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِم وَرَأَوْا أَنَّهُم قَد ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَم يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِر لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُم أَمْرَ رَبِّكُم وَأَلْقَىٰ الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِت بِي الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ قَالَ رَبِّ اغْفِر لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُم غَضَبٌ مِن رَبِّهِم وَذِلَّةٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ۝ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَىٰ الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُم لِرَبِّهِم يَرْهَبُونَ﴾. [الأعراف: ١٤٨- ١٥٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ۝ قَالَ هُم أُولاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝ قَالَ فَإِنَّا قَد فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُم السَّامِرِيُّ ۝ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَم يَعِدْكُم رَبُّكُم وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَم أَرَدْتُم أَن يَحِلَّ عَلَيْكُم غَضَبٌ مِن رَبِّكُم فَأَخْلَفْتُم مَوْعِدِي ۝ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَىٰ السَّامِرِيُّ ۝ فَأَخْرَجَ لَهُم عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُم وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ۝ أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِم قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُم ضَرّاً وَلا نَفْعاً ۝ وَلَقَد قَالَ لَهُم هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ

وَإِنَّ رَبَّكُم الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذ رَأَيْتَهُم ضَلُّوا ﴿﴾ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لا تَأْخُذ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَم تَرْقُب قَوْلِي ﴿﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَم يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِن أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَت لِي نَفْسِي ﴿﴾ قَالَ فَاذْهَب فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَن تُخْلَفَهُ وَانظُر إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً ﴿﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾. [طه : ٨٣-٩٨].

يذكرُ اللهُ تَعَالىٰ ما كانَ مِن أمر بني إسرائيلَ ، حينَ ذهبَ مُوسىٰ عليهِ السَّلام إلىٰ ميقاتِ ربِّه فمكثَ علىٰ الطُّورِ يناجيهِ ربَّه ويسأله مُوسىٰ عليهِ السَّلامُ عَن أشياءَ كثيرة وهو تعالىٰ يجيبهُ عنها.

فَعمَدَ رَجُلٌ مِنْهُم يقالُ له هارون السَّامري ، فأخذَ ما كانُوا استعارُوه مِن الحليِّ ، فصاغَ منه عجلاً وألقىٰ فيهِ قبضةً مِنَ التُّراب ، كانَ أخذَهَا مِن أثرِ فَرَسِ جبريلَ ، حين رآه يومَ أغرقَ اللهُ فرعونَ علىٰ يديه. فَلَمَّا ألقاهَا فيهِ خارَ كما يخُورُ العجلُ الحقيقيُّ. ويقال : إنَّهُ استحالَ عجلاً جسَداً أي : لحماً ودماً حياً يخُور ، قالهُ قتادة وغيرُه.

وقيلَ : بَل كانَت الرِّيحُ إذا دَخلَت مِن دُبُرِهِ خرَجَت من فمِهِ فَيخُورُ كمَا تخور البقرةُ ، فيرقصونَ حَوْلَهُ ويفرحونَ.

﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُم وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أي : نَسِيَ مُوسىٰ رَبَّهُ عندَنَا ، وذهَب يتطلّبه وهُو هَا هنا ! تَعَالىٰ اللهُ عمَّا يقولونَ عُلُوّاً كبيراً ، وتَقدَّست أسماؤُهُ وصفَاتُهُ ، وَتَضاعفَت آلاؤهُ وهِباتُه.

قالَ اللهُ تَعالىٰ مبيّناً بطلانَ مَا ذَهَبُوا إليه، ومَا عوَّلوا عليهِ مِن إلهية هَذا الَّذي صنعوهُ بأيديهم أن يكونَ حيواناً بهيماً أو شيطاناً رجيماً: ﴿أفَلا يَروْنَ ألاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً﴾. فذكرَ أنَّ هذا الحيوانَ لا يتكلَّم ولا يردّ جواباً، ولا يملكُ ضرّاً ولا نفعاً، وَلا يهدي إلىٰ رُشْدٍ أبداً، اتَّخذُوهُ وهم ظالمونَ لأنفسهم، عالمونَ في أنفسهم بطلانَ مَا هم عليهِ مِن الجهلِ والضَّلالِ.

ولما رَجَعَ مُوسىٰ عليهِ السَّلام إليهِم، ورأى مَا هُم عليهِ مِن عبادَةِ العِجْل، ومَعَهُ الألواحُ المتضمِّنة التَّوراة ألقَاها، فيقالُ إنه كَسَرَهَا. وهكذا هو عندَ أهلِ الكتابِ، وإنّ اللهَ أبدَلَهُ غيرَهَا، وليسَ في اللَّفظ القرآني ما يدل علىٰ ذلكَ، إلاَّ أنه ألقاهَا حين عاينَ ما عايَنَ.

وعندَ أهلِ الكتابِ: أنهمَا كانا لوحَين، وظاهر القرآنِ أنها ألواحٌ مُتَعَدِّدةٌ. ولم يتأثَّر بمجرد الخبرِ مِنَ اللهِ تَعالىٰ عَن عبادةِ العجل، فأمره بمعاينة ذَلِكَ.

ولهذا جاءَ في الحديثِ الذي رواهُ الإمامُ أحمَد، عَن ابنِ عَبَّاس قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ الخَبَرُ كالمعاينة».

ثمَّ أقبلَ عليهم فَعَنَّفَهُم وَوَبَّخَهُم وهَجنهُم في صَنيعهم هذا القَبيح، فاعتذَرُوا إليهِ، بما ليسَ بصحيح، قالُوا: ﴿ولكنَّا حُمِّلْنا أوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَىٰ السَّامِرِيُّ﴾. تحرَّجُوا مِن تملُّك حُلِيّ آل فرعونَ وَهُم أهلُ حَرْبٍ، وقَد أمرَهُم اللهُ بأخذهِ وأباحَهُ لَهُم، ولم يَتحرَّجُوا بجهلِهِم وقِلَّةِ عِلْمِهِم وَعَقْلِهِم مِن عبادَةِ العِجْلِ الجسَدِ الَّذي له خوارٌ، مَع الواحدِ الأحدِ الفَردِ الصَّمدِ القهَّار!.

ثمَّ أقبلَ موسىٰ عليهِ السَّلامُ علىٰ أخيهِ هَارونَ عَليهِ السَّلام قائلاً له: ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۝ ألاَّ تَتَّبِعَنِي﴾ أي: هَلاَّ لما رأيتَ مَا صَنَعُوا اتَّبعْتَني فأعلَمْتَنِي بما فَعَلُوا، فقالَ هَارون عَليهِ السَّلام: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ

بَنِي إسرائِيلَ﴾ أي: تركتَهُم وجِئْتَنِي وأنتَ قد استَخْلَفْتَنِي فيهم.

فقال موسىٰ: ﴿رَبِّ اغْفِر لِي وَلأخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. وقد كانَ هارونُ عليهِ السَّلام نهاهُم عَن هذا الصَّنِيع الفَظِيع أشدَّ النَّهي، وزَجَرَهُم عنهُ أتمَّ الزَّجر، قَالَ اللهُ تَعالىٰ: ﴿وَلَقَد قَالَ لَهُم هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾ أي: إنما قدر اللهُ أمر هذا العِجْل وجعلَهُ يخورُ فِتْنَةً واختباراً لكم ﴿وَإِنَّ رَبَّكُم الرَّحْمَنُ﴾ أي: لا هذا ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي: فيما أقولُ لَكُم ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي ۝ قَالُوا لَن نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ يَشْهَدُ اللهُ تعالىٰ لهارونَ عليهِ السَّلام ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً﴾. أَنَّهُ نَهاهُم وَزَجَرَهُم عَن ذلكَ فَلَم يُطيعُوهُ وَلَم يَتَّبِعُوهُ.

ثمَّ أقبلَ مُوسىٰ علىٰ السَّامريِّ: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾؟ أي: ما حَمَلَكَ علىٰ ما صَنَعْتَ؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَم يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي: رأيتُ جبرائيلَ وهو راكبٌ فرساً ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِن أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أي: مِن أثرِ فَرَس جبريلَ. وقَد ذكَرَ بعضُهُم أنه رآهُ، وكلَّما وَطِئَت بحوافرِهَا علىٰ موضع اخضَّرَ وأعشَبَ، فأخذَ مِن أثر حَافِرِها، فلمَّا ألقاهُ في هذا العِجْل المصنوع مِنَ الذَّهب كانَ مِن أمره ما كانَ. ولهذا قالَ: ﴿فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَت لِي نَفْسِي ۝ قَالَ فَاذْهَب فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ﴾ وهذا دعاءٌ عليهِ بأن لا يَمَسَّ أحداً، أي: لا أَمَسّ ولا أُمَسَّ طول الحياة. فَنَفَاهُ مُوسىٰ عَن قومِهِ، وأمَرَ بني إسرائيلَ ألاَّ يُخَالِطُوهُ ولا يَقْرَبُوهُ ولا يكلِّمُوهُ عقوبةً لَهُ علىٰ مَسِّه مَا لم يكُن له مَسّه، وقيل: إنَّهُ إذا مسَّ أحدَهُم حمَّ، أي: أصابتهُ الحمَّىٰ، وهذا مُعاقَبَةٌ له في الدُّنيا، ثمَّ تَوَعَّدَهُ في الأُخرى فقالَ: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَن تُخْلَفَه وَانظُر إِلىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾ قال: فَعَمَدَ مُوسىٰ عليهِ السَّلام إلىٰ هَذا

العِجْل، فَحَرَّقه بالنَّار، كما قاله قتادة وغيره. وقيل بالمباردِ، كما قالَهُ عليّ وابن عباسٍ وغيرهما، وهو نصُّ أهلِ الكتابِ، ثمَّ ذَراهُ في البَحْر، وأمرَ بني إسرائيلَ فَشَرِبُوا، فَمَن كانَ مِن عابديهِ عَلَقَ علىٰ شِفَاهِهِم مِن ذلكَ الرَّماد ما يَدُلُّ عليهِ، وقيلَ: بَل اصفرَّت ألوانُهم.

ثم قالَ تَعَالىٰ إخباراً عَن موسىٰ أنه قالَ لَهُم: ﴿إِنَّمَا إِلَـٰهُكُم اللهُ الَّذي لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَسعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُم غَضَبٌ مِن رَبِّهِم وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾

ثمَّ أخبرَ تَعَالىٰ عَن حلمِهِ ورَحْمَتِه بخلقِهِ، وإحسَانه علىٰ عبيدِهِ في قبولهِ تَوْبَةَ مَن تابَ إليهِ، بتوبتِهِ عليهِ، فَقَال: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٥٣].

لكن لم يقبل اللهُ تَوْبَةَ عابدي العِجْل إلاَّ بالقتل، كما قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَإِذ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُم ظَلَمْتُم أنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُم الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُم فَاقْتُلُوا أنفُسَكُم ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُم عِنْدَ بَارِئِكُم فَتَابَ عَلَيْكُم إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ فيقال: إنَّهم أصبحُوا يوماً وقَد أخذَ مَن لم يَعْبد العِجْلَ في أيديهم السّيوفَ، وألقىٰ اللهُ عليهم ضباباً حتَّىٰ لا يعرف القَريبُ قَرِيبَهُ ولا النَّسيبُ نسيبَهُ، ثمَّ مَالُوا علىٰ عابديهِ فَقَتَلُوهُم وحَصَدُوهُم فيقال: إنهم قتلوا في صبيحةٍ واحدةٍ سبعين ألفاً!

ثم قالَ تَعَالىٰ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَىٰ الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُم لِرَبِّهِم يَرْهَبُونَ﴾. استَدَلَّ بعضُهُم بقولِهِ: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾. علىٰ أنها تكسَّرت، وفي هذا الاستدلال نَظَرٌ، وليس في اللَّفظ ما يدلُّ علىٰ أنها تكسَّرت، واللهُ أعلَمُ.

١٤- عمرو بن لحي الخزاعي

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: وَحَدَّثني عَبْد اللهِ بن أبي بكر بن مُحَمَّد بن عمرو بن حزم عن أبيه قَالَ: حدثت أن رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ: «رأيت عمرو بن لُحَيٍّ يجر قُصْبَه[١] في النَّار، فسألته عمن بيني وبينه من النَّاس، فَقَالَ: هلكوا»[٢].

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: وَحَدَّثني مُحَمَّد بن إبراهيم بن الحارث التيمي أن أبا صالح السمان حدثه أَنَّه سمع أبا هريرة - قَالَ ابنُ هِشَام: واسم أبي هريرة: عَبْد اللهِ بن عامر، ويقال اسمه عبد الرحمن بن صخر - يقول:

سمعت رَسُول اللهِ ﷺ يقول لأكثم بن الجون الخزاعي: «يا أكثم، رأيت عمرو بن لحي ابن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار، فما رأيت رجلاً أشبه برجل منك به، ولا بك منه» فَقَالَ أكثم: عسىٰ أن يضرني شبهه يا رَسُول اللهِ؟ قَالَ: «لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه كَانَ أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وَبَحَر البَحيرة[٣]، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمىٰ الحامي»[٤].

أمّا جلب الأصنام من الشام إلىٰ مكة:

١- القصب: الأمعاء.

٢- (صحيح) رواه البخاري ومسلم وأحمد، لكن بلفظ: «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ (أي أمعاءهُ) فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السُّيُوب». ولم أجده بلفظ ابن إسحاق.

٣- ويقال: إن أول من بحر البحيرة رجل من بني مدلج كانت له ناقتان فجدع آذانهما، وحرم ألبانهما، (راجع الروض الأُنف).

٤- (ضعيف) رواه أحمد، والحاكم، وعبد بن حميد. بلفظ: « .. وَرَأَيْتُ فِيهَا عَمْرو بْنَ لُحَيٍّ يَجُرُّ قُصْبَهُ، وَأَشْبَهُ مَن رَأَيْتُ بِهِ مَعْبَدُ بْنُ أَكْثَمَ» قَالَ مَعْبَدٌ: أيْ رَسُولَ الله، يُخْشَىٰ عَلَيَّ مِن شَبَهِهِ، فَإِنَّهُ وَالِدٌ؟ قَالَ: «لا، أَنْتَ مُؤْمِنٌ وَهُوَ كَافِرٌ» وَهُوَ أَوَّلُ مَن جَمَعَ العَرَبَ عَلَىٰ الأَصْنَام.

فيقولُ ابنُ هِشَام : حَدَّثَني بعض أهل العلم :

أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلىٰ الشام في بعض أموره ، فلَمَّا قدم مآب من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق - وهم ولد عِملاق. ويقال عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح - رآهم يعبدون الأصنام ، فَقَالَ لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قَالُوا له : هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها فُتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فَقَالَ لهم : أفلا تُعطُونني منها صنماً ، فأسير به إلىٰ أرض العرب ، فيعبدوه[١] ؟ فأعطوه صنماً يقال له هُبَل ، فقدم به مكة ، فنصبه وأمر النَّاس بعبادته وتعظيمه[٢].

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ : ويزعمون أن أول ما كَانَت عبادة الحجارة في بني إسماعيل ، أنَّه كَانَ لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حين ضاقت عليهم ، والتمسوا الفسح في البلاد ، إلاَّ حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة ، حتَّىٰ سَلَخ ذلك بهم[٣] إلىٰ أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة ، وأعجبهم ، حتَّىٰ خَلَف الخُلُوف[٤] ، ونَسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيرَه ،

١- في الأصول : « فيعبدونه ».

٢- ويقال : إنه أول ما كان من أمر عمرو هذا في عبادة الأصنام : أنه كان حين غلبت خزاعة علىٰ البيت ونفت جرهم عن مكة ، وجعلته العرب رباً لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة ، لأنه كان يطعم الناس ويكسوهم في الموسم ، فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة ، وكسا عشرة آلاف حلة ، وكانت هناك صخرة يلت عليها السويق للحجاج رجل من ثقيف ، وكانت تسمىٰ صخرة اللات (أي الذي يلت العجين) فلما مات هذا الرجل ، قال لهم عمرو : إنه لم يمت ، ولكن دخل في الصخرة ، وأمرهم بعبادتها ، وأن يبنوا عليها بيتاً يسمىٰ اللات. (راجع الروض الأُنف).

٣- سلخ بهم : خرج بهم.

٤- الخلوف : جمع خلف (بالفتح) وهو القرن بعد القرن.

فعبدوا الأوثان، وصاروا إلىٰ ما كَانَت عليه الأمم قَبْلَهم من الضلالات، وفيهم علىٰ ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسَّكون بها، من تعظيم البيت، والطواف به، والحج والعمرة، والوقوف علىٰ عرفة والمزدلفة، وهَدْي البُدن، والإهلال بالحجّ والعُمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه.

فكانت كِنانة وقُريش إذا أهلُّوا قَالُوا: «لبيك اللَّهُمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك، إلاَّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك».فيوحدونه بالتلبية، ثمَّ يدخلون معه أصنامهم، ويجعلون ملكها بيده.

يَقُولُ الله تبارَكَ وتَعَالىٰ لمحمَّد ﷺ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]. أي: ما يوحدونني لمعرفة حقي إلاَّ جعلوا معي شريكاً من خلقي. والله تعالىٰ أعلمُ وأحكم.

❖ ❖ ❖

١٥- أبو جهل

عَمرُو بنُ هشام بن المغيرة بن عبدِ الله بن عمر بن مخزوم بنِ يقظة بنِ مرّة بنِ كعب بن لؤي القرشي المخزومي، كانَ أبو جَهل يُكنَّىٰ أبا الحكم، فكنَّاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أبا جَهْل فَذَهَبت مَعَهُ.

يُقال: كانَ أفضلَ قريش في الجاهليةِ رياً ثلاثةٌ: عتبةُ، وأبو جَهْل، وأبو سُفيان، فَلَمَّا جاءَ الإسلامُ أدبرُوا في الرّأي. ثمَّ تابَ أبو سفيان رضي الله عنه.

وقِصَصُ مُعاداتهِ للإسلام وأهلِهِ مَشهورة وكثيرة، منها:

كانَ يَعْمَل جاهداً علىٰ صدِّ النَّاس عَن دينِ اللهِ تعالىٰ، فَمِن ذلكَ قُدُومُ أَحَدِ الأعرابِ السُّوق ليبيع غَنَمَهُ فرآه النبيُّ ﷺ فَدعَاهُ إلىٰ الإسلام، فقامَ إليهِ أبو جَهل، فقالَ: انظُر إلىٰ مَا يَقُول لكَ، فإيَّاك أن تركنَ إلىٰ قَوْلِهِ فَفَارَقَهُ الأعرابيُّ.

ومن ذلك أيضاً: ما ذكَرَه ابن الأثير في «أُسد الغابَةِ» مِن أنَّهُ عليه الصَّلاة والسَّلام وقَفَ مرَّةً بسوقِ ذِي المجاز يَدْعُو النَّاس قائلاً: «أيُّها النَّاسُ: قُولُوا لا إلهَ إلاَّ الله تفلِحُوا» وأبو جهل يذرّ عليهِ التُّراب، ويقولُ: أيُّها النَّاس لا يغرنَّكُم هذا عَن دينكم، فإنَّما يريدُ لِتَتْركُوا دينكُم، ولتتركُوا اللاَّت والعزَّى.

◉ وكانَ شديدَ الإيذاءِ لرسولِ اللهِ ﷺ، ومن ذلكَ ما رواه البُخاريُّ في صحيحه عن عبدِ اللهِ بنِ مسعود رضي الله عنه قالَ: كَانَ النبيُّ ﷺ يُصَلِّي عِنْدَ البَيْتِ وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ إذ قَالَ بَعْضُهُم لِبَعْض: أيُّكُم يَجِيءُ بِسَلَىٰ جَزُورِ بَنِي فُلانٍ فَيَضَعُهُ عَلَىٰ ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أشْقَىٰ القَوْمِ (عقبةُ بنُ أبي معيط) فَجَاءَ بِهِ، فَنَظَرَ حَتَّىٰ إذا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ عَلَىٰ ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ وَأَنَا أَنْظُرُ لا أُغَيِّرُ شَيْئاً، لَو كَانَ لِي مَنْعَةٌ. قَال: فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُم

عَلَىٰ بَعْضٍ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ سَاجِدٌ لا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّىٰ جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ فَطَرَحَت عَن ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ» ثَلاثَ مَرَّاتٍ. فَشَقَّ عَلَيْهِم إِذ دَعَا عَلَيْهِمْ. قَال: وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ البَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ. ثُمَّ سَمَّىٰ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ ابْنِ رَبِيعَةَ، وَالوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ» وَعَدَّ السَّابِعَ فَلَم نحفظه قَال: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَد رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَرْعَىٰ فِي القَلِيبِ، قَلِيبِ بَدْرٍ.

◉ وروى أحمد في «مسنده» عَن أَشْعَثَ، قَالَ: حَدَّثَنِي شَيْخٌ مِن بَنِي مَالِكِ ابْنِ كِنَانَةَ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِسُوقِ ذِي المَجَازِ يَتَخَلَّلُهَا يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ تُفْلِحُوا». قَالَ: وَأَبُو جَهْلٍ يَحْثِي عَلَيْهِ التُّرَابَ، وَيَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لا يَغُرَّنَّكُم هَذَا عَن دِينِكُمْ، فَإِنَّمَا يُرِيدُ لِتَتْرُكُوا آلِهَتَكُمْ، وَتَتْرُكُوا اللاَّتَ وَالْعُزَّى، قَالَ: وَمَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: قُلْنَا: انْعَت لَنَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: بَيْنَ بُرْدَيْنِ أَحْمَرَيْنِ، مَرْبُوعٌ كَثِيرُ اللَّحْمِ، حَسَنُ الوَجْهِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، أَبْيَضُ شَدِيدُ البَيَاضِ، سَابِغُ الشَّعْرِ. [صحيح].

◉ وكانَ أيضاً من النَّفر الَّذين صوَّتوا علىٰ فكرةِ قتلِ النبيِّ ﷺ قبلَ الهجرةِ.

روى ابنُ إِسْحَاقَ فَقَالَ: حَدَّثني من لا أتهم مِن أصحابنا، عَن عَبْدِ اللهِ بن أبي نجيح، عن مجاهد بن جبير أبي الحجاج، وغيره ممن لا أتهم، عن عَبْدِ اللهِ بن عباس رضي الله عنهما قَالَ: لما أجمعوا لذلك، واتعدوا أن يدخلوا في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر رَسُول اللهِ ﷺ، غدوا في اليوم الَّذي اتعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمىٰ يوم الزَّحمة، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل[1]، عليه كساءٌ غليظٌ،

١ - جليل، أي حسن، يقال: جلَّ الرجل، وجلت المرأة، إذا أسنت.

فوقفَ علىٰ باب الدار، فلمَّا رأوه واقفاً علىٰ بابها، قَالُوا: من الشيخُ؟ قَالَ: شيخٌ من أهل نجد[1] سمع بالذي اتَّعدتُم له، فحضرَ معكم ليسمعَ مَا تقولونَ، وعَسَىٰ أن لا يُعدمكم منهُ رأياً ونصحاً، قَالُوا: أجَل، فادخُل، فَدَخَل مَعَهُم، وقَد اجتمَعَ فيها أشرافُ قُريش، منهم: أبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ومن كَانَ معهم وغيرهم ممن لا يعدّ من قُريش.

فَقَالَ بعضهم لبعض: إنَّ هذا الرَّجلَ قَد كَانَ من أمرهِ مَا قَد رأيتُم، فإنَّا واللهِ ما نأمنه عَلَىٰ الوثوبِ علينا فيمَن قَد اتَّبعهُ من غَيرنا، فأجمِعُوا فيه رأياً.

قَالَ: فتشاورُوا، ثمَّ قَالَ قائل منهُم: احبسُوهُ في الحديدِ، وأغلِقُوا عليه باباً، ثمَّ تربَّصُوا به ما أصابَ أشباههُ مِن الشُّعَراء الَّذين كانُوا قَبْلَهُ، زهيراً والنَّابغة، ومن مَضَىٰ منهم، مِن هذا الموتِ، حتَّىٰ يصيبهُ ما أصابَهُم[2].

فَقَالَ الشيخُ النَّجديُّ: لا واللهِ، مَا هَذا لكُم بِرأي. واللهِ لئن حَبَسْتُمُوهُ كما تَقُولُونَ ليخرجنَّ أمرُهُ مِن وراءِ البابِ الَّذي أغلَقْتُم دونَهُ إلىٰ أصحابِهِ، فلأوشكُوا أن يَثِبُوا عليكم، فَينزعُوهُ مِن أيديكُم، ثمَّ يكاثروكُم به، حتَّىٰ يغلبوكُم علىٰ أمرِكُم، ما هذا لكُم برأي، فانظُرُوا في غيرِهِ.

فَتَشَاورُوا. ثمَّ قَالَ قائلُ منهم: نخرجُهُ مِن بينِ أظهرنَا، فَنَنْفِيهِ مِن بِلادِنَا، فإذا أُخرج عنَّا، فواللهِ مَا نُبالي أينَ ذهبَ، ولا حيثُ وَقَعَ، إذا غابَ عنَّا وفرغنَا منه، فأصلَحْنَا أمرَنا وأُلْفتَنا كما كَانَت[3].

١- قال السهيلي: وإنما قال لهم، إني من أهل نجد، فيما ذكر بعض أهل السيرة، لأنهم قالوا: لا يدخلن معكم في المشاورة أحد من أهل تهامة، لأن هواهم مع محمد، فلذلك تمثل لهم في صورة شيخ نجدي.

٢- كان صاحب هذا الرأي والمشير به: أبا البختري بن هشام.

٣- صاحب هذا الرأي: أبو الأسود ربيعة بن عامر، أحد بني عامر بن لؤي.

فَقَالَ الشيخُ النَّجديُّ: لا واللهِ، ما هَذا لكُم برأي، ألم تَروا حُسْن حديثِهِ، وحلاوة مَنطقِهِ، وغلبته علىٰ قلوبِ الرِّجال بما يأتي بـهِ، واللهِ لـو فَعَلْتُم ذلكَ مَا أمنتُم أن يحلَّ علىٰ حيٍّ مِنَ العربِ، فيغلب عليهم بذلكَ مِن قولِهِ وحديثِهِ حتَّىٰ يتابعوهُ عليهِ، ثمَّ يسيرُ بهِم إليكُم حتَّىٰ يطأكم بهم في بلادِكم، فيأخذ أمركُم من أيديكم، ثمَّ يفعل بكُم مَا أرادَ، دبِّروا فيه رأياً غير هذا.

قَالَ: فقَالَ أبو جهل بن هشام: واللهِ إنَّ لي فيهِ لرأياً ما أراكُم وقعتُم عليهِ بعدُ، قَالُوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قَالَ: أرى أن نأخذَ مِن كلِّ قبيلةٍ فتًىٰ شاباً جليداً نسيباً وسيطاً[1] فينا، ثمَّ نُعطِي كلَّ فتًىٰ منهم سيفاً صارماً، ثمَّ يعمدُوا إليه، فيضربُوهُ بها ضربةَ رَجُل واحدٍ، فيَقْتُلُوهُ، فَنستريح منه. فإنَّهم إذا فعلوا ذلكَ تفرَّقَ دَمُهُ في القَبَائِل جميعاً، فَلَم يَقْدِر بنو عبدِ منافٍ علىٰ حربِ قَومِهِم جميعاً، فَرَضُوا منَّا بالعَقْل، فعقَلنَاهُ لَهُم.

قَالَ: فقَالَ الشيخُ النجديُّ: القولُ ما قَالَ الرَّجُل، هذا الرَّأي الَّذي لا رأي غيره، فَتفرَّق القَومُ علىٰ ذلكَ وهم مجمعونَ لَهُ.

فأتىٰ جبريل عَلَيْهِ السَّلامُ رَسُول اللهِ ﷺ، فَقَالَ: لا تَبِتْ هذهِ الليلةَ علىٰ فراشِكَ الَّذي كنت تبيتَ عليه. قَالَ: فلَمَّا كَانَت عتمَةٌ مِنَ اللَّيل اجتمَعُوا علىٰ بابهِ يرصدونَهُ متىٰ ينَام، فيثبونَ عليهِ، فلَمَّا رَأى رَسُول اللهِ ﷺ مكانَهُم، قَالَ لعليِّ بن أبي طالب: نَمْ عَلَىٰ فراشِي وتسجَّ[2] بِبُردي هذا الحضرمي الأخضر، فَنَمْ فيهِ، فإنَّه لن يخلصَ إليكَ شيءٌ تكرههُ منهم، وكانَ رَسُول اللهِ ﷺ ينام في بردهِ ذلك إذا نَامَ.

١- الوسيط: الشريف في قومه.

٢- تسجىٰ بالثوب: غطىٰ به جسده ووجهه.

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: فحدَّثني يزيدُ بنُ زياد، عَن مُحَمَّد بن كعبِ القُرظي قَالَ: لما اجتَمَعُوا له، وفيهم أبو جَهل بنُ هشام، فَقَالَ وهم علىٰ بابهِ: إنَّ محمدًا يَزْعُمُ أنكُم إن تَابَعْتُمُوهُ علىٰ أمرِهِ، كنتم ملوكَ العربِ والعَجَم، ثمَّ بُعثتِم مِن بَعْدِ مَوتِكُم، فجُعلت لكُم جنانٌ كجنانِ الأردنّ، وإنْ لم تَفْعَلُوا كَانَ له فيكُم ذبحٌ، ثمَّ بُعثتم مِن بعدِ مَوتِكُم، ثمَّ جُعِلَت لكُم نار تُحرَقُونَ فِيهَا.

قَالَ: وخَرَجَ عليهم رَسُولُ اللهِ ﷺ، فأخذَ حَفْنَةً مِن تُراب في يدِهِ، ثمَّ قَالَ: «أنا أقولُ ذلكَ، وأنتَ أحدهم». وأخذَ اللهُ تَعَالىٰ علىٰ أبصارهم عَنْهُ، فلا يرونَهُ، فَجَعَل يَنْثُر ذلكَ التُّرابَ علىٰ رؤوسِهم وهو يتلُو هؤلاءِ الآيات مِن يس: ﴿يس ۝ وَالْقُرآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾... إلىٰ قوله: ﴿فأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]. حتَّىٰ فرغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ من هؤلاء الآيات، ولم يَبْقَ منهم رجلٌ إلاَّ وقد وضعَ علىٰ رأسه تراباً، ثمَّ انصرفَ إلىٰ حيثُ أرادَ أن يذهبَ، فأتاهُم آتٍ ممَّن لم يكن مَعَهُم، فَقَالَ: ما تَنْتَظِرُونَ هَا هُنا؟ قَالُوا: محمَّدًا، قَالَ: خيَّبكُم اللهُ! قد واللهِ خرجَ عليكُم مُحَمَّد، ثمَّ ما تَركَ منكُم رجلاً إلاَّ وقد وَضعَ علىٰ رأسهِ تُراباً، وانطلَقَ لحاجَتِهِ، أفمَا ترونَ مَا بِكُم؟ قَالَ: فَوَضَعَ كلُّ رَجُل مِنْهُم يَدَهُ عَلىٰ رأسِهِ، فإذا عليهِ تُرابٌ، ثمَّ جَعَلُوا يتطَلَّعُونَ فيرونَ علياً علىٰ الفِرَاشِ مُتَسجيّاً بِبُرْد رَسُولِ اللهِ ﷺ، فيقولونَ: واللهِ إنَّ هذا لمحمَّد نائماً، عليهِ بُرده. فَلَم يَبْرَحُوا كذلكَ حتَّىٰ أصبحُوا فقام عليٌّ رضي الله عنه عَن الفراشِ، فقَالُوا: واللهِ لَقَد كَانَ صَدَقَنَا الَّذي حَدَّثَنَا.

◉ وكانَ أبو جَهل كذلكَ شَديدَ الإيذاء لأصحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَد كَانَ يبطح بلالاً الحبشيَّ ويضع الرَّحا عليهِ حَتَّىٰ تُصهرَه الشَّمسُ ويقول: اكفُر بربِّ

محمَّد، فيقول بلال: أحدٌ أحدٌ.

◉ ومن هؤلاءِ الذينَ كانَ يُعذِّبهم أبو جهل: آل ياسرٍ، فكان المُشرِكون يُخرِجُون عمَّاراً وأُمَّه سُمَيَّة وأباه إلىٰ الأبطح «مكانٌ واسعٌ يكثرُ فيه الحصىٰ» في حَرِّ الرَّمضاءِ، ويُعَذِّبونَهم أشَدَّ العَذابِ، فكانَ النَّبيُّ ﷺ يمرُّ بهم وهم يُعذَّبونَ، فيقولُ لهم: «صبراً آل ياسرٍ.. فإنَّ موعدَكُم الجنَّة..» فماتَ ياسرٌ في العذابِ، ثمَّ زَوْجَتُه أُمُّ عَمَّار، طَعَنَها عدُّو اللهِ أبو جهلٍ بِحَرْبَةٍ كانت معه في بَطْنِها، فماتَتْ وكانت أوَّل شهيدةٍ في الإسلامِ.. رضي اللهُ تَعَالىٰ عنهُم جميعاً. [رواه ابنُ إسحاق].

◉ وفي حادِثَةِ الهجرة جاءَ أبو جَهل يسأل عَن النَّبيِّ ﷺ فَخَرجَت إليهِ أسماء رضي الله عنها فقالَ: أينَ أبوكِ؟ فَقالَت: لا أدرِي. فَلَطَمَهَا عَدُوُّ اللهِ لطمةً حتَّىٰ خرَّ منها قرطُها.

وقد رأى أبو جَهْل بأمِّ عينِهِ مُعجزاتٍ حَدَثَت للنبيِّ ﷺ ومَا زادَه ذلكَ إلاَّ عناداً.

فمن ذلك: أنَّ أحدَ الأعرابِ ويُدعىٰ (كهلة) كانَ لَهُ دَينٌ علىٰ أبي جَهْل فجعَلَ هذا الأخير يماطِلُهُ فاستَعْدَى عليه قريشاً، فقالوا لَهُ: كلِّم محمداً في شأنه، فذهبَ الأعرابيُّ مَع أبي جَهْل: إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فطَرَقَ عليهِ البابَ فَخَرَجَ إليهِ، فَقَالَ ﷺ: «أعطِ هذا حقَّهُ» فَقَالَ أبو جَهْل: سأفعَلُ يا محمَّد! وأعطاهُ فَلامتهُ قريشٌ، فقالَ: رأيتُ مَعَهُ بعيراً فاغراً فاه، واللهِ لو امتَنَعْتُ لأكلَني. [البداية والنهاية].

◉ ورُوي عَن ابنِ عباس رضي الله عنه في قولِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. قالَ: هو أبو جَهْل بن هشام.

◉ ولما ذكرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ شجرةَ الزَّقُوم تخويفاً بهَا لَهُم، قَالَ: يا مَعْشَرَ قريش، هَل تَدرُونَ ما شجرَةُ الزَّقوم الَّتي يخوفكُم بهَا مُحَمَّد؟ قَالُوا: لا، قَالَ:

عجوة[١] يشرب بالزُّبد، واللهِ لئن استمكنَّا منها لنتزقمنَّها[٢] تزقماً. فَـأنزلَ اللهُ تعَالىٰ فيه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ الأَثِيمِ ۝ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٦]: أي ليس كما يقول.

◉ قُتِلَ أبو جَهْلٍ يومَ بَدْر، قَتَلَهُ ابنا عَفراء: معاذ ومعوّذ.

قَال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: إِنِّي لفِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ إِذ التَفَتُّ فَإِذَا عَن يَمِينِي وَعَن يَسَارِي فَتَيَانِ حَدِيثَا السِّنِّ. فَكَأَنِّي لم آمَن بِمكَانِهمَا، إِذ قَال لِي أحَدُهُمَا سِراً مِن صَاحِبِهِ: يَا عَمِّ أرِنِي أَبَا جَهْلٍ. فَقُلتُ: يَا ابْنَ أخِي وَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟ قَال: عَاهَدْتُ اللهَ إِن رَأيْتُهُ أن أقْتُلهُ أو أمُوتَ دُونَهُ. فَقَال لِي الآخَرُ سِراً مِن صَاحِبِه مِثْلهُ. قَال: فَمَا سَرَّنِي أَنِّي بَيْنَ رَجُلَيْنِ مَكَانَهُمَا، فَأشَرْتُ لَهُمَا إِليْهِ، فَشَدَّا عَليْهِ مِثْل الصَّقْرَيْنِ حَتَّىٰ ضَرَبَاهُ، وَهُمَا ابْنَا عَفْرَاءَ». [رواه البخاري في صحيحه].

❖ ❖ ❖

---

١ ـ العجوة: ضرب من التمر.

٢ ـ نتزقمنها تزقماً: نبتلعها ابتلاعاً.

١٦- أبو لهب

هو عبدُ العـزَّى بنُ عبد المطّلب بنِ هاشِم، كنيتُهُ أبو عُتْبَة، وأبو معتب، القرشيّ، الهاشِميّ، عمُّ النَّبيِّ ﷺ.

كانَ أبو لَهب مِـن أشـدِّ النَّاس إيذاءً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وصحابَتِهِ الكِرَام، فَقَد خرجَ إلىٰ قُريش فظاهَرَهُم علىٰ بَنِي هاشِـم وبني المطلب، وقَطَعُوا عنهم الميرةَ والمادَّة فكانُوا لا يخرجونَ إلاَّ مِن مَوسم إلىٰ مَوسم، حتىٰ بَلَغَهُم الجهد، وأقامُوا بالشِّعب ثلاثَ سِنينَ.

كانَ أبو لهب صَديقاً حميماً لأبي جَهل وعقبة بن أبي معيط: فقالَ لَـهُ يَوماً: يا أبا لَهب سَل ابنَ أخيكَ: أين مدخل أبيك؟.

فقالَ أبو لهب: يا محمَّد: أينَ مَدْخل عبدِ المطّلب؟ فَقَالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام: «مع قومِهِ». فَخَرَجَ إليهِمَا فقَالَ: قَد سألتُهُ فقَالَ: «مَع قَومِهِ» فَقَالا: يَزْعُم أنَّهُ في النَّار. فقَالَ: يا محمَّد أيدخُل عبدُ المطَّلبِ النَّارَ؟ فقال ﷺ: «ومَن ماتَ عَلىٰ مَا مَاتَ عليهِ عبدُ المطَّلب دَخَلَ النَّارَ». فَقَالَ أبو لهبٍ: واللهِ لا برحت لكَ عدوّاً أبداً وأنتَ تَزْعُم أنَّ عبدَ المطلب في النَّار، واشتدَّ إيذاؤه مِن تلكَ اللَّحظة علىٰ النبيِّ ﷺ. [البداية والنهاية]. ومن أصنافِ هذا البلاء:

ما رواه أحمد، عَن رَبِيعَةَ بْنِ عَبَّادٍ الدِّيلِيِّ وكَانَ جَاهِلِيًّا وأسْلَمَ، فَقَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَصرَ عَيْنِي بِسُوقِ ذِي المَجَازِ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لا إِلَهَ إلاَّ اللهُ، تُفلِحُوا» ويَدْخُلُ فِي فِجَاجِهَا، وَالنَّاسُ مُتَقَصِّفُونَ عَلَيْهِ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَقُولُ شَيْئًا، وَهُوَ لا يَسْكُتُ يَقُولُ: «أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لا إِلَهَ إلاَّ اللهُ، تُفْلِحُوا» إلاَّ أنَّ وَرَاءهُ رَجُلاً أَحْوَلَ وَضِيءِ الوَجْهِ ذَا غَدِيرَتَيْنِ يَقُولُ: إِنَّهُ صَابِئٌ كَاذِبٌ.

فَقُلْتُ: مَن هَذَا؟ قَالُوا: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ وَهُوَ يَذْكُرُ النُّبُوَّةَ، قُلْتُ: مَن هَذَا الَّذِي يُكَذِّبُهُ؟ قَالُوا: عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ. قُلْتُ: إِنَّكَ كُنْتَ يَوْمَئِذٍ صَغِيرًا! قَالَ: لا وَاللهِ إِنِّي يَوْمَئِذٍ لأَعْقِلُ. [صحيح لغيره].

◉ وفي الصَّحيحين: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قَالَ: أَتَى النَّبِيُّ ﷺ الصَّفَا، فَصَعِدَ عَلَيْهِ، ثُمَّ نَادَى: « يا صَبَاحَاهْ» فَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ، بَيْنَ رَجُلٍ يَجِيءُ إِلَيْهِ، وَبَيْنَ رَجُلٍ يَبْعَثُ رَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يا بَنِي فِهْرٍ، يا بَنِي لُؤَيٍّ أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، صَدَّقْتُمُونِي؟ » قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَمَا دَعَوْتَنَا إِلاَّ لِهَذَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾. [المسند].

ولَمَّا نَزَلت هذهِ السُّورة قالَ أبو لهب لابنيه: طلِّقا رقيَّةَ وأمَّ كُلثوم - وكانتا تحتَ عتبة وعتيبة ولكنَّهما لم يَدخُلا عليهِمَا - طلِّقاهما وإلاَّ فرأسي مِن رؤوسكما حرامٌ، فطَلَّقاهمَا، فتزوَّجت رقيَّةُ مِن عثمان، ثم أم كلثوم أيضاً لما توفيت رقية.

◉ ماتَ أبو لهب علىٰ الكفر، ووعدُهُ اللهُ وامرأته النَّارَ.

عَنْ أَبِي رَافِعٍ مَوْلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: كُنْتُ غُلامًا لِلْعَبَّاسِ بن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكُنْتُ قَدْ أَسْلَمْتُ، وَأَسْلَمَتْ أُمُّ الْفَضْلِ، وَأَسْلَمَ الْعَبَّاسُ، وَكَانَ يَكْتُمُ إِسْلامَهُ مَخَافَةَ قَوْمِهِ، وَكَانَ أَبُو لَهَبٍ قَدْ تَخَلَّفَ عَنْ بَدْرٍ وَبَعَثَ مَكَانَهُ الْعَاصَ بن هِشَامٍ، وَكَانَ لَهُ عَلَيْهِ دَيْنٌ، فَقَالَ لَهُ: اكْفِنِي هَذَا الْغَزْوَ، وَأَتْرُكُ لَكَ مَا عَلَيْكَ، فَفَعَلَ، فَلَمَّا جَاءَ الْخَبَرُ، وَكَبَتَ اللهُ أَبَا لَهَبٍ، وَكُنْتُ رَجُلا ضَعِيفًا أَنْحِتُ

هَذِهِ الأَقْدَاحَ فِي حُجْرَةٍ، وَمَرَّ بِي، فَوَاللهِ إِنِّي لَجَالِسٌ فِي الْحُجْرَةِ أَنْحِتُ أَقْدَاحِي وَعِنْدِي أُمُّ الْفَضْلِ، إِذِ الْفَاسِقُ أَبُو لَهَبٍ يَجُرُّ رِجْلَيْهِ أُرَاهُ، قَالَ: حَتَّىٰ جَلَسَ عِنْدَ طُنُبِ الْحُجْرَةِ، فَكَانَ ظَهْرُهُ إِلَىٰ ظَهْرِي، فَقَالَ النَّاسُ: هَذَا أَبُو سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: هَلُمَّ إِلَيَّ يَا ابْنَ أَخِي، فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ حَتَّىٰ جَلَسَ عِنْدَهُ، فَجَاءَ النَّاسُ، فَقَامُوا عَلَيْهِمَا، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي كَيْفَ كَانَ أَمْرُ النَّاسِ؟ (أي في غزوةِ بدرٍ) قَالَ: لا شَيْءَ، وَاللهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ لَقِينَاهُمْ فَمَنَحْنَاهُمْ أَكْتَافَنَا يَقْتُلُونَنَا كَيْفَ شَاؤُوا، وَيَأْسِرُونَنَا كَيْفَ شَاؤُوا وَايْمُ اللهِ، لَمَا لُمْتُ النَّاسَ، قَالَ: وَلِمَ؟ فَقَالَ: رَأَيْتُ رِجَالاً بِيضًا عَلَىٰ خَيْلٍ بُلْقٍ لا وَاللهِ مَا تَلِيقُ شَيْئًا وَلا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ، قَالَ: فَرَفَعْتُ طُنُبَ الْحُجْرَةِ، فَقُلْتُ: تِلْكَ وَاللهِ الْمَلائِكَةُ، فَرَفَعَ أَبُو لَهَبٍ يَدَهُ فَلَطَمَ وَجْهِي، وَثَاوَرْتُهُ فَاحْتَمَلَنِي، فَضَرَبَ بِيَ الأَرْضَ حَتَّىٰ نَزَلَ عَلَيَّ، فَقَامَتْ أُمُّ الْفَضْلِ فَاحْتَجَزَتْ، فَأَخَذَتْ عَمُودًا مِن عُمُدِ الْحُجْرَةِ فَضَرَبَتْهُ بِهِ، فَفَلَقَتْ فِي رَأْسِهِ شَجَّةً مُنْكَرَةً، وَقَالَتْ: أَيْ عَدُوَّ اللهِ، اسْتَضْعَفْتَهُ إِنْ رَأَيْتَ سَيِّدَهُ غَائِبًا عَنْهُ؟ فَقَامَ ذَلِيلاً، فَوَاللهِ مَا عَاشَ إِلاَّ سَبْعَ لَيَالٍ حَتَّىٰ ضَرَبَهُ اللهُ بِالْعَدَسَةِ، فَقَتَلَتْهُ، فَلَقَدْ تَرَكَهُ ابْنَاهُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثَةً مَا يَدْفِنَاهُ حَتَّىٰ أَنْتَنَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِن قُرَيْشٍ لابْنَيْهِ: أَلا تَسْتَحِيَانِ، إِنَّ أَبَاكُمَا قَدْ أَنْتَنَ فِي بَيْتِهِ؟ فَقَالا: إِنَّا نَخْشَىٰ هَذِهِ الْقُرْحَةَ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ يَتَّقُونَ الْعَدَسَةَ كَمَا يُتَّقَىٰ الطَّاعُونُ، فَقَالَ رَجُلٌ: انْطَلِقَا فَأَنَا مَعَكُمَا، قَالَ: فَوَاللهِ مَا غَسَّلُوهُ إِلاَّ قَذْفًا بِالْمَاءِ عَلَيْهِ مِن بَعِيدٍ، ثُمَّ احْتَمَلُوهُ فَقَذَفُوهُ فِي أَعْلَىٰ مَكَّةَ إِلَىٰ جِدَارٍ، وَقَذَفُوا عَلَيْهِ الْحِجَارَةَ.

[رواه الطبراني، والبزار، والحاكم، وفي إسناده الحسين بن عبد الله، قال الهيثمي في الزوائد: وثقه أبو حاتم وغيره وضعَّفه جماعة، وبقيةُ رجاله ثقات. قلت: قال الذهبيُّ في التلخيص: « واهٍ »].

١٧- أم جميل زوجة أبي لهب

هي أمُّ جَميل بنت حرب بنِ أميَّة زوجة أبي لَهب، وأخت أبي سُفيان، حمّالة الحطب، اسمهَا العوراء، سميت بذلك لأنها كانَت غايةً في الجمالِ، لكنَّ فعلَهَا لم يكُن كذلك!!.

◉ كانت تُؤذي رَسُولَ اللهِ ﷺ بلِسَانِهَا وبِفِعْلِهَا. فَمن إيذائِها لرسولِ الله ﷺ بلسانِهَا ما رواه الحاكم، عن أسماء بنتِ أبي بكر رضي الله عنهما قَالَت: لما نَزَلَت: ﴿تَبَّت يَدا أَبِي لَهَبٍ وتبّ﴾ أقبلَت العَوراءُ أمُّ جميل بنتُ حربٍ ولها وَلْوَلَةٌ، وفي يَدِهَا فهرٌ (حجر) وهي تقول:

مذمَّماً عصينَا وأمرُهُ أبينَا ودينُهُ قَلَيْنَا

والنبيُّ ﷺ جالسٌ في المسجدِ، ومعهُ أبو بكر، فَلَمَّا رآهَا أبو بكرٍ رضي الله عنه قَالَ: يَا رسولَ اللهِ، قَد أقبلَت، وأنا أخافُ أن تَرَاكَ.

فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إنَّها لَن تَرانِي».

وقرأ ﷺ قرآناً، فَاعتَصَم بهِ كَمَا قَالَ، وقرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ القُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ [الإسراء: ٤٥].

فَوَقَفَت علىٰ أبي بكرٍ رضي الله عنه، ولم ترَ رَسُولَ اللهِ ﷺ. فَقَالَت: يا أبا بكرٍ، أينَ صاحِبُكَ؟ إنِّي أُخبِرتُ أنَّ صاحِبَكَ هَجَانِي، واللهِ لو وَجَدتهُ لَضَربتُهُ بهذا الحجَر واللهِ إنِّي لشاعرةٌ ثمَّ ردَّدت قَائِلَةً:

مذمَّماً عصينَا وأمرُهُ أبينَا ودينُهُ قَلَيْنَا

فقالَ أبو بكرٍ رضي الله عنه: لا وَربِّ هذا البيت مَا هَجَاكِ.

فَوَلَّت، وهي تقولُ: قد عَلمت قريش أنِّي بنت سَيِّدها.

فلمَّا انصرفَت قَالَ أبـو بكرٍ ﷺ : يا رسُولَ اللهِ أما رَأَتْكَ ؟ فقَالَ ﷺ : « مَا رَأتني لَقَد أخذَ اللهُ بَصرَهَا عنِّي » . [رواه الحاكم].

وفي صحيح البخاري ، عَن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « ألا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْـرِفُ اللهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَـهُمْ ، يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا ، وَأَنَا مُحَمَّدٌ » .

◉ وروى الحاكمُ مِن طريقِ إسرائيل ، عَن أبي إسحاق ، عَن زيد بن أرقم ، قالَ : قَالَت امرأةُ أبي لهبٍ لمَّا مكثَ النبيُّ ﷺ أياماً لم يَنْزل عليهِ الوحيُ : يَا محمَّد مَا أرَى شيطانَكَ إلاَّ قَد قَلاكَ ، فنزَلَت : ﴿والضُّحىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ..﴾ [قال ابنُ حجر في الفتح : رجاله ثقات].

◉ وأمَّا إيذاؤُهـا لرسـولِ اللهِ ﷺ بفعلِـهَا فقَـد كـانَت اللعينـةُ تحمـلُ الشَّـوكَ وتطرحهُ علىٰ طريقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، ولذلكَ سَمَّاهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حمَّالَةَ الحطبِ.

قالَ تَعالىٰ : ﴿تَبَّت يَدا أَبِي لَهَب﴾ أي : خَسرت وخَابَت وضَلَّ عَمَلُهُ وسَعيُهُ. ﴿وتبّ﴾ أي : وقَد تبّ تحقّق خسارتُهُ وهلاكُهُ.

وقوله تعالىٰ : ﴿مَا أغنَىٰ عنهُ مالُهُ ومَا كَسَب﴾ قَالَ ابـنُ عبَّـاس : ﴿ومَا كَسَب﴾ يعني : ولده ، يُروى أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لما دعا قومَهُ إلىٰ الإيمانِ قَالَ أبو لهبٍ : إن كانَ ما يقولُ ابنُ أخِي حقّاً فإنِّي أفتَدِي نَفْسِي يومَ القيامَةِ مِن العذابِ بمالي وَوَلَدِي ، فأنزل اللهُ تَعالىٰ : ﴿مَا أغنَىٰ عنهُ مَالُهُ ومَا كَسَب﴾.

وقوله تَعالىٰ : ﴿سَيَصْلَىٰ ناراً ذاتَ لَهب﴾ أي : ذات شَرَرٍ ولهبٍ وإحراقٍ شديدٍ. ﴿وامرأتُهُ حَمَّالَةَ الحطَب﴾ وكانَت زوجتُهُ مِن ساداتِ نساء قُريش ، وهي (أمُّ جميل) واسمها : (أروى بنت حرب بن أميَّة) وهي أخت أبي سفيان ،

وكانَت عوناً لزَوجِهَا علىٰ كفرِهِ وجُحُودِه وعنادِهِ، فلهذَا تكونُ يومَ القيامةِ عَوناً عليهِ في عذابهِ في نارِ جَهَنَّم، ولهذا قالَ تَعَالىٰ: ﴿حمَّالَةَ الحطبِ في جيدِهَا حبلٌ مِن مَسَدٍ﴾ يعني: تحملُ الحطبَ فَتُلقِي علىٰ زَوْجِها ليزداد عَلىٰ ما هو فيهِ، هي مهيأةٌ لذلكَ مستعدة لَه. ﴿في جيدِهَا حبلٌ مِن مَسَدٍ﴾ قالَ مجاهد: مِن مَسدِ النَّار، وعن مجاهدٍ وعكرمة ﴿حمَّالَةَ الحطبِ﴾ كانَت تمشي بالنَّميمةِ (واختارَهُ ابنُ جرير). وقالَ ابنُ عباس والضحَّاك: كانَت تضَع الشوكَ في طريقِ رسولِ اللهِ ﷺ وقالَ سعيدُ بنُ المسيب: كانت لها قِلادة فاخرة، فَقَالت: لأنفقنَّها في عَداوَةِ محمَّد، فأعقَبَهَا اللهُ منها حبلاً في جيدِها مِن مَسَدِ النَّار، والمسد اللِّيف، وقيل: هُوَ قلادةٌ مِن نارٍ طُولُها سبعونَ ذراعاً، قالَ الجوهري: المسدُ: اللِّيف، والمسد أيضاً: حبلٌ مِن ليفٍ أو خوص، وقالَ مجاهد: حبلٌ مِن مَسَد أي: طوقٌ مِن حديد.

قال ابنُ كثير: وقَد قَالَ بعضُ أهلِ العِلْم في قولِه تَعَالىٰ: ﴿في جيدِهَا حبلٌ مِن مَسَدٍ﴾ أي: في عنقِها حبلٌ مِن نارِ جَهَنَّم تُرْفَعُ بهِ إلىٰ شَفيرها، ثمَّ تُرمَىٰ إلىٰ أسفلِهَا، ثمَّ لا تزال كذلكَ دائماً.

قالُ العلماءُ: وفي هذه السُّورةِ مُعجزةٌ ظاهرةٌ ودليلٌ واضحٌ علىٰ النُّبوَّةِ، فإنَّهُ منذُ نزلَ قَولُهُ تَعَالىٰ: ﴿سَيَصْلَىٰ ناراً ذَات لهبٍ ۝ وامرأتهُ حَمَّالَةَ الحطَب ۝ في جيدِهَا حبلٌ مِن مَسَدٍ﴾ فأخبرَ عنهمَا بالشَّقاء وعَدَم الإيمانِ، لم يُقيض لهما أن يؤمنَا ولا واحد مِنهمَا لا باطناً ولا ظاهراً، لا سرّاً ولا عَلَناً، فكانَ هذا مِن أقوَى الأدلةِ الباهرةِ، علىٰ النُّبوّةِ الظَّاهِرَةِ. [انظر تفسير ابن كثير].

◉ ماتت أمُّ جميل كافرةً، فكانَت نهايتُها مِن جِنْسِ عَمَلِهَا، فَقَد خَرجَت لِتَجْمَع حطباً وشوكاً لِتَضعَهُ في طريقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ والمسلمين فَجَلَست عَلىٰ حجرٍ لتستَريح فَجَذَبَهَا الملَكُ مِن خَلْفِهَا فَسقَطَت فكانَت نهايتها، فأراحَ اللهُ رسولَه مِنْهَا. [تفسير القرطبي]

١٨- الوليد بن المغيرة

هو الوليدُ بنُ المغيرة بنِ عبدِ اللهِ بنِ عمر بنِ مخزوم بنِ يقظة بنِ مرَّة بنِ كَعب ابنِ لؤيّ بنِ غَالب القُرشي المخزوميّ.

يُعَدُّ الوليدُ بنُ المغيرة مِن الَّذين حملُوا رايةَ العداءِ للإسلام وَالمسلمينَ وحاول بشتَّىٰ الوسَائل الوقوفَ في وجهِ الإسلام.

◉ فمن ذلكَ طَلَبُهُ مَع جماعةٍ مِن مشركي قريش مِنَ النبيِّ ﷺ أن يَشُقَّ لَهُم القمرَ، فَدَعا النبيُّ ﷺ ربَّه فَاستجابَ لَهُ، ورَغم ذَلكَ بَقِي علىٰ عِنَادِهِ وكُفرِهِ.

عَن أَنسٍ ﷺ قالَ: سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ آيَةً، فَانْشَقَّ القَمَرُ بِمكَّةَ مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «اشهَدُوا». ونزَلَ قولُهُ تعالىٰ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ القَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾. [رواه مسلم].

◉ وفي روايةٍ عَن ابن مَسعود قَالَ: انشَقَّ القَمَرُ علىٰ عهدِ النبيِّ ﷺ فقَالَت قُريش: هَذا سِحرُ ابنُ أبي كبشَةَ، فقَالُوا: انتَظِرُوا مَا يأتيكُم بِهِ السُّفارُ فإنَّ محمَّداً لا يستطيعُ أن يَسْحَرَ النَّاسَ كُلَّهُم، فجاءَ السُّفارُ فسألوهُم فقَالُوا: نَعَم، قَد رأيناهُ فَأنزَلَ اللهُ تعالىٰ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ القَمَرُ﴾. الآية..

[أخرجهُ ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في (الدلائل)].

◉ وحاولَ الوليدُ أيضاً مع جَمْع مِن صحبهِ أن يَعْرِضُوا علىٰ النَّبِيِّ ﷺ أن يَعْبُدَ آلهتَهم يوماً ويَعبُدُوا اللهَ يوماً آخرَ، فباءت محاولتُهُم بالفشلِ.

قال ابنُ هشَام: واعترضَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وهو يطوفُ بالكعبةِ ـ فيما بلَغَني ـ الأسودُ بنُ المطلب، والوليد بن المغيرة، وأميَّةُ بن خلف، والعاص بن وائل

السَّهمي، وكانُوا ذوي أسنانٍ في قَومِهم، فقَالُوا: يا مُحَمَّد، هَلُمَّ فَلْنَعْبُد ما تَعْبُد، وتَعْبُد ما نَعْبُد، فَنَشْتَرِك نحنُ وأنتَ في الأمرِ، فإنْ كَانَ الَّذي تعبد خيراً مما نَعْبُد، كنَّا قَد أخذنا بحظِّنا منهُ، وإن كَانَ ما نَعْبُد خيراً مما تَعْبُد، كنتَ قَد أخذتَ بحظِّكَ منه. فَأنزلَ اللهُ تَعَالىٰ فيهم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُّمْ ۝ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون].

أي: إن كُنتم لا تَعبدُونَ اللهَ، إلاَّ أن أعبدَ ما تَعبدونَ، فَلا حاجَةَ لي بذلك منكُم، لكُم دينكُم جميعاً، ولي دِيني.

◉ وهو القائل عَن القرآنِ الذي أُنزلَ علىٰ النبيِّ ﷺ سحراً.

فلقَد اجتمع إليهِ نفرٌ مِن قُريش، وكانَ ذا سنٍّ فيهم، وقَد حَضَرَ الموسمُ فَقَالَ لهم: يا معشرَ قُريش، إنَّهُ قَد حَضَرَ هذا الموسمُ، وإنَّ وفودَ العربِ سَتَقْدُم عليكُم فيهِ، وقَد سَمِعُوا بأمرِ صاحبكم هَذا، فَأجمِعُوا فيهِ رأياً واحداً، ولا تَختَلِفُوا فيكَذِّبُ بعضكم بَعْضاً، ويَرُدُّ قولكم بعضهُ بعضاً، قَالُوا: فأنتَ يا أبا عبدِ شمسٍ، فقلْ وأقمْ لنا رأياً نقولُ به، قَالَ: بل أنتُم فقُولُوا أسمعْ، قَالُوا: نقول كاهِن، قَالَ: لا واللهِ مَا هُو بكاهِنٍ، لقَد رأينا الكهَّان فمَا هو بزمزمة[1] الكاهن ولا سجعهِ، قَالُوا: فنقول: مجنون، قَالَ: ما هو بمجنون، لقَد رأينا الجنونَ وعرفنَاهُ، فما هوَ بخنقهِ، ولا تخالجهِ، ولا وسوستِهِ، قَالُوا: فنقول: شاعر، قَالَ: ما هو بشاعرٍ، لقد عَرَفنَا الشعرَ كُلَّهُ رجزَه وهزجَه وقريضَه ومقبوضَه ومبسوطَه، فما هو بالشِّعر، قَالُوا: فنقول: سَاحِر، قَالَ: ما هو بساحرٍ، لَقَد

---

١ - الزمزمة: الكلام الخفي الذي لا يسمع.

رأينا السُّحَّار وسحرَهُم، فما هو بِنَفْثِهِم ولا عقدهم[1]، قَالُوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قَالَ: واللهِ إنَّ لقولهِ لَحَلاوة، وإنَّ أصلَهُ لعذق[2]، وإنَّ فرعه لجناة ـ قَالَ ابنُ هِشَام: ويقال لغَدَق[3] ـ وما أنتم بقَائلين مِنْ هذا شَيْئًا إلاَّ عُرف أنَّه بَاطلٌ، وإن أقربَ القول فيهِ لأن تَقُولُوا هو ساحرٌ، جاء بقولٍ هو سِحرٌ يفرِّقُ به بينَ المرءِ وأبيهِ، وبينَ المرءِ وأخيهِ، وبينَ المرءِ وزوجتهِ، وبينَ المرءِ وعشيرتهِ.

فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ بذلكَ، فجعلُوا يجلسونَ بسبلِ النَّاس حينَ قَدِمُوا الموسمَ، لا يمرُّ بهم أحدٌ إلاَّ حذَّرُوهُ إيَّاه، وذكرُوا لهم أمرَهُ.

فأنزلَ اللهُ تَعَالىٰ في الوليد بن المغيرة وفي ذلك من قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝ وَمَهَّدْتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۝ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾: أي خصيماً. [المدثر: ١١ ـ ١٦].

قَالَ ابنُ هِشَام: عنيد: معاند مخالف. قَالَ رؤبة بن العجاج: [من الرجز].

ونحن ضرابون رأس العُنَّدِ

وهذا البيت في أرجوزة له[4].

﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۝ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ [المدثر: ١٧ ـ ٢٢].

---

١ ـ إشارة إلىٰ ما كان يفعل الساحر بأن يعقد خيطاً ثم ينفث فيه. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿من شر النفاثات في العقد﴾ يعني الساحرات.

٢ ـ العذق (بالفتح): النخلة. يشبهه بالنخلة التي ثبت أصلها وقوي وطاب فرعها إذا جني.

٣ ـ الغدق: الماء الكثير. ومنه يقال: غيدق الرجل: إذا كثر بصاقه. وكان أحد أجداد النبي ﷺ يسمىٰ الغيدق، لكثرة عطائه.

٤ ـ في استشهاد ابن هشام ببيت رؤبة عقب تفسيره لكلمة «العنيد» ما يشعر بأن «عند»: جمع «لعنيد». والذي في اللسان والراغب أن عند: جمع لعاند، وهي مماتة.

قَالَ ابنُ هِشَام: بسر: كره وجهه. قَالَ العجاج: [من الرجز]

مُضَّــبر اللَّحْيَــين بَسْــرًا مِنْهسَــا[١]

يصف كراهية وجهه. وهذا البيت في أرجوزة له.

﴿ثُمَّ أدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٣ ـ ٢٥].

[سيرة ابن هشام ١/٣١٧ بتحقيقنا].

◉ ذكر ابن إسحاق: إنَّ الوليد لما حضرتهُ الوفاةُ أوصَىٰ بنيهِ الثلاثةَ قائلاً: أوصيكُم بدمي في خزاعَةَ فَلا تطلبوهُ، واللهِ إني لأعلمُ أنهم منه براء، ورِبَاي في ثقيف فَلا تَدَعُوه حتىٰ تأخذُوهُ، وعقري عندَ أبي أزيهر فَلا يفوتكم بهِ.

وكانَ أبو أزيهر قَد زوَّج الوليدَ بنتاً له ثمَّ أمسكَهَا عنه، فَلَم يَدْخُل عليها حتَّىٰ ماتَ.

❖ ❖ ❖

١ ـ المضبر: الشديد الخلق واللحيان: العظمان اللذان في الوجه، والمنهس: الذي يأخذ اللحم بمقدم أسنانه، وقد روي هذا البيت في اللسان (مادتي ضبر ونهس) هكذا:

مضبر اللحيين نسراً منهسا

ونسبه ابن منظور في مادة (نهس) للعجاج، قال: « .. وفي الحديث: أنه أخذ عظماً فنهس ما عليه من اللحم » أي أخذه بفيه. ونسر منهس. قال العجاج.. ثم ساق البيت.

١٩- عقبة بن أبي معيط

هُو عُقبةُ بنُ أبي معيط بنِ أبي عَمرو بنِ أميَّة بـن عبدِ شَمس بـنِ عبد مناف. كانَ مِن شياطين قُريش.

◉ تَزَوَّج عقبةُ بنُ أبي مُعيط أروى بنت كريـز بـن ربيعـة، فولـدت لـه الوليـد، وعُمارة، وخالداً، وأمَّ كلثوم، وأم حكيم، وهنداً.

أمَّا زوجتُه: أروى فَقَد أسلَمت، وهاجَرت فبايَعَت النبيَّ ﷺ.

[الطبقات الكبرى: ٨ / ٢٢٩].

◉ كانَ مِن الأعداءِ الألدَّاء الَّذين وَقَفُوا في وجهِ الدَّعوةِ:

يقولُ أبو بكرٍ رضي الله عنه: قَدمتُ مكَّةَ وقَد بُعِثَ النبيُّ ﷺ فَجَاءني عقبةُ بنُ أبي مُعيط وجمعٌ من صناديد قُريش، فقلتُ لهم: هَل نابتكُم نائبةٌ أو ظَهَرَ فيكُم أمرٌ؟ قَالُوا: يا أبـا بكـرٍ عظـمُ الخطـبُ، يتيـمُ أبـي طـالِب يَزْعُـمُ أنهُ نبيٌّ ولـولا أنـتَ مـا انتظَرْناه، فإذ جئتَ فأنتَ الغاية والكفَايَة.

قالَ أبو بكـرٍ: فَصَرَفتُـهُم ثـمَّ دَخَلـتُ علىٰ رسـولِ اللهِ ﷺ وأعلنـتُ إسـلامِي.

[أُسد الغابة: ١ / ٦٤٠].

◉ وروى البخاريُّ في (صحيحه) عن عروة قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْـنِ العَاصِ: أخْبِرْني بِأَشَدِّ شَيْءٍ صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؟

قَـالَ: بَيْنَـا رَسُـولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي بِفِنَـاءِ الكَعْبَـةِ إِذْ أَقْبَـلَ عُقْبَـةُ بْـنُ أَبِـي مُعَيْـطٍ، فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَوَى ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ، فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًـا شَـدِيدًا، فَـأَقْبَلَ أَبُـو بَكْـرٍ رضي الله عنه فَـأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَـهُ عَـن رَسُـولِ اللهِ ﷺ، وَقَـالَ: ﴿أَتَقْتُلُـونَ رَجُـلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَد جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨].

◉ ومن أفظع إيذاء هذا الكافر للنَّبيِّ ﷺ ما رواهُ عَبْدُ اللهِ بنُ مسعود ﷺ قَالَ: مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَا عَلَىٰ قُرَيْشٍ غَيْرَ يَوْمٍ وَاحِدٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يُصَلِّي وَرَهْطٌ مِن قُرَيْشٍ جُلُوسٌ، وَسَلَىٰ جَزُورٍ قَرِيبٌ مِنْهُ، فَقَالُوا: مَن يَأْخُذُ هَذَا السَّلا، فَيُلْقِيَهُ عَلَىٰ ظَهْرِهِ؟ قَالَ: فَقَالَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ: أَنَا، فَأَخَذَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَىٰ ظَهْرِهِ، فَلَم يَزَل سَاجِدًا، حَتَّىٰ جَاءت فَاطِمَةُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهَا، فَأَخَذَتْهُ عَن ظَهْرِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ الْمَلأَ مِن قُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِعُتْبَةَ ابْنِ رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ، أو أُمَيَّةَ ابْنِ خَلَفٍ» قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ: فَلَقَد رَأَيْتُهُم قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ جَمِيعًا، ثُمَّ سُحِبُوا إِلَىٰ الْقَلِيبِ غَيْرَ أُبَيٍّ، أو أُمَيَّةَ، فَإِنَّهُ كَانَ رَجُلاً ضَخْمًا، فَتَقَطَّعَ. [متفق عليه].

◉ وكانَ أُبيُّ بنُ خَلَف، وعقبةُ بنُ أبي معيط مُتصافيين، حَسَناً ما بينهُما. فكانَ عُقبَةُ قد جَلَسَ إلىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وسَمعَ مِنْهُ، فبَلَغ ذلكَ أُبياً، فأتىٰ عُقْبَةَ فَقَالَ لَهُ: ألم يَبلغنِي أنّك جَالَستَ محمَّداً وسمعتَ مِنْهُ! وجهِي مِن وَجْهِكَ حَرامٌ أن أكلِّمك ـ واستَغْلَظَ مِنَ اليمين ـ إن أنتَ جَلَسْتَ إليهِ أو سمعتَ مِنْهُ، أو لم تَأتِهِ فَتَتفُل في وجهِهِ. ففَعَل ذلكَ عدوُّ اللهِ عُقبة بنُ أبي مُعيط ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ. [سيرة ابن هشام]

وفي المصنَّف لعبدِ الرَّزاق، قال ابنُ عبَّاس ﷺ: فَلَم يُسلِّطهُ اللهُ عَلَىٰ ذلكَ.

فَأنزلَ اللهُ تَعالىٰ فيهما: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٧] .. إلىٰ قوله تَعالىٰ: ﴿لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان: من الآية ٢٩]. [سيرة ابن هشام].

وفي روايةٍ لأبي نعيم في «الدلائل» بإسنادٍ صحيح من طريق سعيد بن جبير عن

ابن عباس قَالَ لهُ ﷺ: «إنْ وَجدتُكَ خارجاً مِن جبالِ مكَّةَ أضرِبُ عُنقَكَ صَبراً».

فلَمَّا كانَ يومُ بَدْر، وخَرَجَ أصحابُهُ، أَبىٰ أن يَخْرُجَ فقَالَ لَهُ أصحابُهُ: اخرُجْ مَعَنَا. قَالَ: قَد وَعَدَنِي هَذا الرَّجُل إنْ وَجَدَنِي خارجاً مِن جبالِ مكَّةَ أنْ يَضْرِبَ عُنُقِي صبراً. فقَالُوا: لكَ جَمَلٌ أحمَر لا يُدْرَك، فلَو كانَت الهزيمةُ طِرتَ عليهِ. فَخَرَجَ مَعَهُم، فلَمَّا هَزَمَ اللهُ المشركينَ، قصَّرَ بِه جَمَلُهُ في جُددٍ مِنَ الأرضِ، فَأخَذَهُ رسولُ اللهِ ﷺ أسيراً في سَبعينَ مِن قُرَيش، وقَدِمَ إليهِ أبو مُعيط فقَالَ: تَقْتُلُني مِن بينِ هؤلاء؟

فقالَ ﷺ: «نَعَم، بما بَصَقت في وَجْهِي» فأنزلَ اللهُ في أبي مُعَيط: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٧].

وإسنادُهُ صحيح.

❖ ❖ ❖

(٢٠) العاص بن وائل

هوَ العاص بنُ وائل بنِ هاشم بن سعيد بن سهم بن عمر بن هصيص بن كعب بن لؤي القُرشي السهمي.

كانَ مِنَ الَّذين يتربَّصونَ الشرَّ برسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِه.

قال ابنُ كثير: قَولُهُ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]. أي: إنَّ مُبغضَكَ يا محمَّد، ومُبْغِض ما جِئْتَ بهِ مِنَ الهدَى والحقِّ، والبرهان السَّاطع والنُّور المبين ﴿هُوَ الأبتَرُ﴾ الأقلّ الأذلّ المنقَطع ذِكْرُهُ، قالَ ابنُ عبَّاس ومجاهِد: نَزَلَت في العاصِ بنِ وَائل، وقالَ يزيدُ بنُ رومان: كانَ العاص بنُ وَائِل إذا ذُكِرَ رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ: دَعُوهُ فإنَّهُ رَجُلٌ أبتَر لا عَقِبَ لَهُ، فإذا هَلَكَ انقَطَعَ ذِكْرُهُ، فأنزلَ اللهُ هَذهِ السُّورة..

وقَالَ السّديّ: كانُوا إذا ماتَ ذكورُ الرَّجُل، قَالُوا: بُتِرَ، فَلَمَّا ماتَ أبناءُ رسولِ اللهِ ﷺ قالُوا: بُتِرَ محمَّدٌ، فأنزلَ اللهُ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ وهَذا يرجعُ إلىٰ ما قُلنَاهُ مِن أنَّ الأبترَ الَّذي إذا ماتَ انقطَعَ ذِكْرُهُ، فتوَهَّمُوا لِجَهْلِهم أنَّهُ إذا ماتَ بَنُوهُ انقطَعَ ذِكْرُهُ، وحاشَا وكلاَّ، بَل قَد أبقَىٰ اللهُ ذِكْرَهُ علىٰ رؤوسِ الأشهادِ، وأوجبَ شَرْعَهُ علىٰ رقابِ العبادِ، مُستَمِراً علىٰ دوام الآبادِ، إلىٰ يَوم المحشرِ والمعادِ، صَلَوَاتُ اللهِ وسَلامُهُ عليهِ دائماً إلىٰ يوم التَّناد. [تفسير ابن كثير].

● وكانَ العاص شَديدَ الكُفرِ بدينِ اللهِ تَعَالىٰ مستهزءاً بشرعهِ، ومن ذلكَ: ما رواه مسلمٌ في (صحيحهِ) عَن خَبَّابِ بْنِ الأرَتِّ قَالَ: كُنْتُ رَجُلاً قَيْنًا (أي: حدَّاداً)، وكَانَ لِي عَلىٰ العَاصِ بنِ وَائِلٍ دَيْنٌ فَأَتَيْتُهُ أتَقَاضَاهُ، فَقَالَ: لا، وَاللهِ لا أَقْضِيكَ حَتَّىٰ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ.

فَقُلْتُ: وَاللهِ لا أكْفُرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّىٰ تَمُوتَ، ثُمَّ تُبْعَثَ.

قَالَ: فَضَحِكَ، ثُمَّ قَالَ: إِذَا مُتُّ، ثُمَّ بُعِثْتُ جِئْتَنِي وسَيَكُونُ لِي ثَمَّ مَالٌ وَوَلَدٌ فَأُعْطِيكَ حَقَّكَ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ إِلىٰ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٧- ٨٠].

◉ ومن ذلكَ أيضاً ما رواهُ ابنُ إسْحَاقَ قال: دعا رَسُولُ اللهِ ﷺ قومَهُ إلىٰ الإسلام، وكلَّمهم فأبلغ إليهم، فَقَالَ له زمعةُ بنُ الأسود، والنَّضرُ بن الحارث، والأسودُ بن عبد يغوث، وأُبيُّ بنُ خَلَف، والعاصُ بن وائل: لو جُعل مَعَكَ يا مُحَمَّد مَلَكٌ يحدِّثُ عَنْكَ النَّاسَ ويُرَى مَعَكَ! فأنزل اللهُ تَعَالىٰ في ذلكَ مِن قولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ ۝ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

◉ قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: فحدَّثني يزيدُ بنُ رُومانَ، عَن عُروةَ بنِ الزُّبير، أو غيره مِنَ العلماءِ: أنَّ جبريلَ أتىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وهُم يطوفونَ بالبيتِ، فقَامَ وقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلىٰ جَنْبِهِ، فَمَرَّ بهِ الأسودُ بنُ المطَّلب، فرَمَىٰ في وجههِ بورقةٍ خَضْرَاءَ، فعَمِيَ.

ومَرَّ بهِ العاص بنُ وائل، فأشارَ إلىٰ أخمص[1] رجلهِ فَخَرَجَ علىٰ حمارٍ لَهُ يريدُ الطائفَ، فَربض به علىٰ شُبارقة[2]، فَدَخَلَت في أخمصِ رِجْلِهِ شوكةٌ فقتلَتْهُ.

◉ قال الإمامُ الطبريُّ: نَزَلَ قولُهُ تَعالىٰ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]. في العاصِ بنِ وائِل السَّهمي وجمع مِن أصحابِهِ مِن قُريش.

١- الأخمص من باطن القدم: ما لم يصب الأرض.

٢- الشبارقة. شجرة عالية، وفي طبعة بهامش الروض الأنف: شبرقة: وهو نبات ذو شوك يقال له: الضريع.

(٢١) أبيُّ بنُ خلف

هو أبيُّ بنُ خَلَف بنِ وَهَب بنِ حذافةَ بنِ جمح.

◉ من صناديدِ قُريش الَّذين كانُوا يحاولونَ الوقوفَ في وجهِ الدَّعوةِ النَّبويَّةِ.

◉ وكانَ شديدَ الجدالِ والمراءِ مَشَىٰ مرَّةً إلىٰ رَسُول اللهِ ﷺ بعظم بال قد ارْفتَّ(١)، فَقَالَ: يا مُحَمَّد، أنت تزعم أنَّ اللهَ يبعثُ هذا بعد ما أرمَّ(٢)، ثمَّ فتَّه في يدِهِ، ثمَّ نفخَهُ في الرِّيح نحو رَسُولِ اللهِ ﷺ، فقَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: «نَعَم، أنا أقولُ ذلكَ، يبعَثُهُ اللهُ وإيَّاكَ بعدمَا تكونانِ هكذا، ثمَّ يدخلكَ اللهُ النَّارَ»(٣). فَأنزلَ اللهُ تَعَالىٰ فيه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُم مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾. [يس: ٧٨-٨٠].

◉ وكانَ يُبغضُ النبيَّ ﷺ كثيراً، فهوَ الذي أمرَ عقبةَ بنَ أبي معيط أن يَبْصُقَ في وجهِ النَّبيِّ ﷺ، كما تقدَّمَ في ترجمةِ عقبة بن أبي معيط (ص/٢١٦).

◉ قَالَ ابنُ إسحاق: كان أبيُّ بن خلف، كما حَدَّثَني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، يلقىٰ رَسُول اللهِ ﷺ بمكَّة، فيقول: يا مُحَمَّد إنَّ عندي

١- ارفت: تحطم وتكسر.

٢- أرم: بلي.

٣- (مرسل صحيح) رواه الطبري بسنده عن قتادة مرسلاً. ورواه أيضاً بسندهِ الصحيح عن سعيد بن جبير مرسلاً، ولكنَّهُ قال: جاء العاص بن وائل السهمي. وقال السيوطيُّ: وأخرجَ ابنُ أبي حاتم من طرق عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسُّدي نحوه. ورواه ابنُ أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير، والحاكم في المستدرك، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به، وقال الحاكم: صحيحٌ علىٰ شرط الشيخين، وقال الذهبي في التلخيص: علىٰ شرط البخاري ومسلم. واللهُ تعالىٰ أعلم.

العوذ، فرسًا أعلفُهُ كلَّ يوم فرقًا[١] من ذرة أقتلُكَ عليهِ، فيقولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بل أنا أقتلك إنْ شَاءَ اللهُ»[٢]. قَالَ: فلَمَّا كانت غزوةُ أُحد، أسندَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في الشِّعب أدركَهُ أُبيّ بنُ خَلَف وهو يقولُ: أي مُحَمَّد، لا نجوتُ إنْ نجوت، فَقَالَ القومُ: يا رَسُول اللهِ، أيعطفُ عليهِ رجلٌ منَّا؟ فقَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: «دعُوه» فلَمَّا دنا تَنَاوَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الحربةَ مِن الحارثِ بنِ الصِّمةِ، يقولُ بعض القوم فيما ذُكِرَ لي: فلَمَّا أخذَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ منهُ انتفَضَ بهَا انتفاضَةً تَطايرنا عنهُ تَطايُر الشّعراء عن ظهرِ البعيرِ إذا انتَفَضَ بها ـ قَالَ ابنُ هِشَام: الشّعراء ذبابٌ له لدغ ـ ثمَّ استَقْبلهُ فَطَعَنَهُ في عُنُقِهِ طعنةً تدأدأ منهَا عَن فرسهِ مرارًا.

قَالَ ابنُ هِشَام: (تدأدأ) يقول: تَقَلَّب عَن فرسِهِ فَجَعَل يَتَدَحرَج.

فلَمَّا رجع إلىٰ قريش وقَد خَدَشَهُ في عنقهِ خدشًا غير كبيرٍ، فاحتَقَنَ الدَّمُ، فقَالَ أُبيُّ بن خلف: قَتَلَني واللهِ مُحَمَّد! قَالُوا له: ذَهَبَ واللهِ فُؤادُكَ! واللهِ إنْ بكَ مِن بأس، قَالَ: إنَّه قَد كَانَ قَالَ لي بمكة: «أنا أقتُلُكَ». فواللهِ لَو بَصَقَ عَلَيَّ لَقَتَلَنِي. فماتَ عَدُوُّ اللهِ بِسَرف[٣] وهم قافلونَ بهِ إلىٰ مكَّةَ.

شعر حسَّان في مقتل أبي بن خلف:

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: فَقَالَ حسَّان بن ثابت في ذلك: [من الوافر]

لَقَدْ وَرِثَ الضَّلالَةَ عَنْ أبيْهِ ... أُبَيّ يَوْمَ بَارَزه الرَّسُوْلُ

١- الفرق (بفتح الراء وإسكانها): مكيال يسع ستة عشر مناً، وقيل: اثني عشر رطلاً.

٢- «صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف» ثقة، مات قبل سنة (١٢٧) هـ، من الخامسة، كما في التقريب.

٣- سرف: موضع علىٰ ستة أميال من مكة، وقيل، سبعة، وتسعة واثني عشرة، تزوج به رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث، وهناك بنىٰ بها، وهناك توفيت. (راجع معجم البلدان).

أَتَيْتَ إِلَيْهِ تَحْمِلُ رِمّ عَظْمٍ ... وَتُوعِده وأَنْتَ بِهِ جَهُوْلُ[1]
وَقَدْ قَتَلَتْ بَنُو النَّجَّارِ مِنْكُم ... أُمَيَّةَ إِذْ يُغَوِّثُ يَا عَقِيْلُ
وَتَبَّ ابْنَا رَبِيْعَةَ إِذْ أَطَاعَا ... أَبَا جَهْلٍ لأُمِّهِما الهُبُوْلُ[2]
وَأَفْلَت حَارِثٌ لَمَّا شُغِلْنَا ... بِأَسْرِ القَوْمِ أُسْرته فَلِيْلُ[3]

قَالَ ابنُ هِشَام: أسرته: قبيلته.

وَقَالَ حسَّان بن ثابت أيضًا في ذلك: [من الوافر]

أَلا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي أُبَيًّا ... لَقَدْ أُلْقِيْتُ فِي سُحق السَّعِيْرِ[4]
تَمَنَّى بِالضَّلالَةِ مِنْ بَعِيْدٍ ... وَتُقْسِم أَنْ قَدرت مَعَ النُّذُوْرِ
تَمَنيكَ الأَمَانِي مِنْ بَعِيْدٍ ... وَقَولُ الكُفْرِ يَرْجِعُ فِي غُرُوْرِ
فَقَدْ لاقَتْك طَعْنَةُ ذِي حفاظٍ ... كَرِيْمِ البَيْتِ لَيْسَ بِذِي فُجُوْرِ[5]
لَهُ فَضْلٌ عَلَى الأَحْيَاءِ طُرًّا ... إِذَا نَابَتْ مُلِمَّاتِ الأُمُوْرِ

❖ ❖ ❖

١- الرم: العظم البالي.
٢- تب: هلك. والهبول: الفقد، يقال: هبلته أمه، أي فقدته.
٣- الفليل: المنهزمون. ويروى: «قليل» بالقاف، وهو معلوم.
٤- السحق: البعد والعمق.
٥- الحفاظ: الغضب في الحرب.

(٢٢) أميَّة بنُ خلف

هو أميَّةُ بنُ خَلَف بن وهَب بن حذامـة بـن جمـح بـن عمـرو بـن هصيص بـن كَعب بن لؤي.

◉ كانَ مِن أشدِّ أعداءِ النَّبيِّ ﷺ، تفنَّنَ في تَعذيبِ بلال وغيره.

كانَ سلَّمَهُ إلىٰ غلمانِهِ قائلاً: هو لكما أصنعَا بِهِ الَّذي شئتمَا، فخرجَا بهِ إلىٰ بطحاء بمكةَ فبسطاهُ علىٰ رَمضائِهَا وجعَلا الرَّحـا علـىٰ كتفيـهِ قـائلان: اكفُـر بمحمَّد، فما كانَ منهُ إلاَّ أن يَزداد إيماناً وتوحيداً، حتَّىٰ مرَّ أبو بكرٍ ﷺ بهِ فَاشتراهُ.

◉ قَالَ ابـنُ إسْحَاقَ: ومرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ ـ فيمـا بَلَغَنِي ـ بـالوليدِ بن المغيرة، وأميَّة بنِ خَلَف، وبأبي جهل، فهمزوه واستهزؤوا به، فغاظَهُ ذلكَ. فَأنزلَ اللهُ تعَالىٰ عليهِ في ذلكَ مِن أمرِهِم: ﴿وَلَقَد اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بـالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

◉ وكانَ أمية بن خلف إذا رأى رَسُول اللهِ ﷺ همزه ولمزه، فَأنزلَ اللهُ تعَالىٰ فيه: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَـزَةٍ لُمَزَةٍ ۝ الَّـذِي جَمَـعَ مَـالاً وَعَـدَّدَهُ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَـهُ أَخْلَدَهُ ۝ كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝ نَارُ اللهِ الْمُوقَـدَةُ ۝ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَىٰ الأَفْئِدَةِ ۝ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُؤْصَدَةٌ ۝ فِي عَمَدٍ مُمَـدَّدَةٍ﴾ [سورة الهمزة].

قَالَ ابنُ هِشَام: الهمـزَةُ: الَّـذي يَشْتُم الرَّجُلَ عَلانيةً، ويكسرُ عينيه عليـهِ، ويغمزُ بهِ. [سيرة ابن هشام].

◉ قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: وَحدَّثني عَبْد اللهِ بن أبي نجيح: أنَّ أمية بـنَ خلَـف كَـانَ أجمعَ القعودَ، وكانَ شيخاً جليلاً جسيماً ثقيلاً، فأتاهُ عُقبة بنُ أبي مُعيط، وهُوَ

جالسٌ في المسجدِ بينَ ظهراني قومهِ، بمجمرةٍ يحملُها، فيهَا نـارٌ ومجمـر[١]، حتَّىٰ وضعهَا بينَ يديهِ، ثمَّ قَالَ: يا أبا عليّ، استَجْمِر، فإنما أنتَ مِن النِّساءِ، قَالَ: قَبَّحَكَ اللهُ وقَبَّحَ مَا جِئْتَ بِهِ، قَالَ: ثمَّ تجهَّزَ فَخَرَجَ مَعَ النَّاس إلىٰ بدرٍ.

مقتل أمية بن خلف:

وروى ابنُ إسْحَاقَ عن عبدِ الرحمن بنِ عوف ﷺ قَالَ: كَانَ أميَّةُ بنُ خلَفَ لي صديقًا بمكَّةَ، وكانَ اسمي: عَبد عَمْرو، فَتَسَمّيتُ حينَ أسلمتُ عَبْدَ الرَّحمن ونحن بمكَّةَ، فكانَ يلقَاني أميَّةُ إذ نحنُ بمكَّة فيقول: يا عبد عَمرو أرَغِبتَ عَن اسمٍ سَمَّاكَهُ أبواك؟ فأقولُ: نَعَم، فيقول: فإنِّي لا أعرفُ الرَّحمن، فاجعَل بَيْنِي وبينِكَ شَيئًا أدعوكَ بهِ، أمَّا أنتَ فَلا تجيبني باسمِكَ الأوَّل، وأمَّا أنا فَلا أدعوكَ بما لا أعرفُ، قَالَ: فكانَ إذا دعَاني: يا عبدَ عمرو لَم أُجِبْهُ، قَالَ: فَقُلتُ لَهُ: يا أبا عليّ، اجعَل ما شئْتَ، قَالَ: فأنتَ عَبدُ الإلهِ، قَالَ: فَقُلتُ: نعَم، قَالَ: فكُنْتُ إذا مَرَرتُ بهِ، قَالَ: يا عبدَ الإلهِ فأجيبهُ، فأتحدَّثُ مَعَهُ.

حتَّىٰ إذا كَانَ يوم بَدْر، مَرَرْتُ بهِ وهو واقفٌ مَع ابنِهِ عليٍّ بن أمية، آخذٌ بيدِهِ، ومَعِي أدراعٌ[٢]، قَد استَلَبْتُهَا فأنا أحمِلُها. فلَمَّا رآني قَالَ لي: يا عَبْدَ عَمرو فَلَم أُجِبْهُ، فَقَالَ: يا عبدَ الإلهِ، فقلتُ: نَعَم، قَالَ: هَل لكَ فيَّ فأنا خيرٌ لَك مِن هذهِ الأدراعِ الَّتي مَعَك. قَالَ قُلتُ: نَعَم. هَا الله ذا[٣] !. قَالَ فطرحت الأدراع مِن

١- المجمر: العود يتبخر به.

٢- في م، ر: «أدراع لي».

٣- كذا في شرح السيرة والروض. قال السهيلي: «ها: تنبيه. وذا: إشارة إلىٰ نفسه وقال: بعضهم إلىٰ القسم، أي هذا قسمي. وأراها إشارة إلىٰ المقسم، وخفض اسم الله بحرف القسم أضمره، وقام التنبيه مقامه، كما يقوم الاستفهام مقامه، فكأنه قال: ها أنذا مقسم. وفصل بالاسم المقسم به بين (ها) و (ذا) فعلم أنه هو المقسم، فاستغنىٰ عن أنا. وكذلك قول أبي بكر: لاها الله ذا، وقول زهير: [من

يَدي، وأخذتُ بيدِهِ ويدِ ابنِهِ، وهو يقولُ: ما رأيتُ كاليوم قَطّ، أما لكُم حاجَةٌ في اللَّبن؟ (قَالَ)[١] ثمَّ خرجت أمشي بهما.

قَالَ ابنُ هِشَام: يريدُ باللَّبن، أنَّ مَن أسرني افتَدَيتُ منهُ بإبل كثيرة اللَّبن.

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: قالَ عَبدُ الرَّحمن بن عوف، قَالَ: قَالَ لي أمية بنُ خَلَف، وأنا بينه وبينَ ابنِهِ، آخذٌ بأيديهما: يا عبدَ الإلهِ، مَن الرَّجُل منكم المُعلّم بريشةِ نَعَامَة في صَدْرِهِ؟ قَالَ: قُلتُ: ذاكَ حَمْزَةُ بنُ عبدِ المُطَّلِب، قَالَ: ذاك الَّذي فَعَلَ بنا الأفاعيلَ.

قَالَ عبدُ الرَّحمن: فوالله إنِّي لأقودهمَا إذ رآه بلالٌ مَعِي - وكانَ هو الَّذي يُعَذِّب بلالاً بمكَّةَ علىٰ تركِ الإسلام، فيخرجهُ إلىٰ رَمْضاء[٢] مكةَ إذا حَمِيَت، فيضجعهُ علىٰ ظهرِهِ، ثمَّ يأمرُ بالصَّخرةِ العظيمةِ فتوضَع علىٰ صدرِهِ، ثمَّ يقولُ: لا تزال هكَذا أو تفارقَ دينَ مُحمَّد، فيقول بلالٌ: أحدٌ أحدٌ - قَالَ: فلمَّا رآهُ، قَالَ: رأسُ الكُفرِ أميَّةُ بنُ خَلَف، لا نجوتُ إن نجا[٣]. قَالَ: قلتُ: أي بلال، أبأسيريَّ[٤]، قَالَ: لا نجوتُ إن نجا. قَالَ: قُلت: أتسمع يا ابنَ السَّوداء، قَالَ: لا نجوتُ إن نَجَا. قَالَ: ثمَّ صَرَخَ بأعلىٰ صَوتِهِ: يا أنصارَ اللهِ، رَأس الكُفْر أميَّة بن خلف، لا نجوتُ إن نَجَا.

قَالَ: فأحاطُوا بنا حتَّىٰ جعَلُونا في مثلِ المُسكة[٥] وأنا أذب عَنهُ، قَالَ:

البسيط]. (تَعْلمن ها لعمرو الله ذا قسما) أكد بالمصدر قسمه الذي دل عليه لفظه المتقدم».

١- زيادة عن أ.

٢- الرمضاء: الرمل الحار من الشمس.

٣- في أ، ط: «لا نجوت إن نجوت» بضم التاء الأولىٰ وفتح الثانية.

٤- كذا في أ. وفي سائر الأصول: «أسيري».

٥- في مثل المسكة، أي جعلونا في حلقة كالسوار وأحدقوا بنا.

فأخلف[1] رجلٌ السَّيفَ، فَضَرَب رِجْلَ ابنه فَوَقَع، وصاحَ أميَّةُ صيحةً ما سَمِعْتُ مثلَهَا قَطّ. قَالَ: فقلت: انج بنفسكَ، ولا نجاء بك[2] فواللهِ مَا أغنِي عنكَ شَيئًا، قَالَ: فهبروهما[3] بأسيافِهِم، حتَّىٰ فَرغُوا منهمَا. قَالَ: فكانَ عبدُ الرَّحمن يقولُ: يَرْحَمُ اللهُ بلالاً، ذَهَبَت أدراعِي وفَجَعَنِي بأسيريَّ.

◉ وبالإضافَةِ إلىٰ ما سَبَقَ فإنَّ أميَّةَ كانَ رجلاً متكبِّراً متعجرفاً، فَقَد قرأ رسولُ اللهِ ﷺ بمكَّةَ سورةَ النَّجم فَسَجَدَ وسَجَدَ مَن مَعَهُ إلاَّ أميَّة فَقَد أخذَ كفّاً مِن حصًا، وقالَ: هذا يكفِيني.

◉ ذكَرَ ابنُ الجوزي في زادِ المسير أنَّ قولَهُ تَعَالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الكهف: ٢٨]. أنَّها نَزلت في أميَّة بنِ خَلَف، وذلِكَ عِنْدَمَا عرَضَ علىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ طَرد الفُقَراء عنهُ وتَقْريب صناديد قُريش. [زاد المسير: ٥ / ١٣٣].

وقالَ ابنُ كَثير: نَزَلَ قولُهُ تَعَالىٰ: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة: من الآية١٢]. في أميَّة بن خلف وصَحْبِهِ.

❖ ❖ ❖

١- يقال: أخلف الرجل السيف: إذا سله من غمده.

٢- في أ: «به».

٣- هبروهما: قطعوهما.

(٢٣) النضر بنُ الحارث

هُوَ النَّضرُ بنُ الحارِث بنِ عَلقمةَ بنِ كلدَة بنِ عبدِ مَنَاف بنِ عَبْدِ الدَّار بن قصيّ. مِن صَنادِيدِ قُريش، كانَ مِن فُصَحَاءِ العَرَب وشُعَرائِهم.

◉ ورَغْمَ عَدَاوَتِهِ للنَّبِيِّ ﷺ كانَ يَقُولُ في مجالِس قومِهِ: قَد كانَ محمَّد فيكُم غلاماً حَدَثاً أرضَاكُم فيكُم وأصدَقكُم حديثاً وأعظَمكُم أمانةً، حتَّىٰ إذا رأيتم الشَّيْب في صدغيهِ، وجاءكُم بما جاءَ بِهِ، قُلْتُم: إنَّهُ كذَّابٌ، وأنهُ ساحِرٌ، لا وَاللهِ، ما هُوَ بِسَاحِرٍ ولا بكذَّاب. لَقَد رَأينَا السَّحرةَ وَنَفْثَهُم وعقدهُم، وقُلتُم كاهن: لا وَاللهِ مَا هُو بكاهنٍ، قَد رَأينَا الكَهَنَةَ وتخالجهم وَسَمِعْنَا سَجعهم، وقُلْتُم: شَاعِر، لا وَاللهِ مَا هو بشاعِر، قَد رَأينَا الشِّعرَ، وسَمِعْنَا أصنَافَهُ كُلَّهَا: هزجَه ورجزَه، وقُلتُم: مجنون، لا واللهِ مَا هُو بمجنونٍ، لقَد رأينا الجنونَ فمَا هو بخنقِهِ، ولا وسوسَتِهِ، ولا تخليطهِ، يا معشرَ قُريش، فَانظُرُوا في شأنِكُم، فإنَّهُ واللهِ لَقَد نَزَلَ بكُم أمرٌ عَظيمٌ. [انظر السيرة لابن هشام].

◉ ورَغم هذهِ الاعترافات فإنَّ صُحْبَتَهُ لأبي جَهْل، وعُقْبَة بنِ أبي مُعيط وأمثالهما، جعلتهُ ينأى عَن الدُّخولِ في الإسلام، ويُعارض القُرآنَ فَيزْعُم أنَّ اللهَ غيرُ قَادِر علىٰ إحياءِ مَن قَد بَلِيَ وصَارَ تراباً فَنزَلَ فيه قَوْلُهُ تَعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ [الحج: ٣].

بَل إنَّهُ رَاحَ يُعارض القرآنَ فَقَال: (والزَّارعات زرعاً، والحاصدات حصداً، والطَّاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، فاللاقمات لقماً) فجاء بما يُضْحِك!!!. [رواه عبدُ بنُ حميد].

● وكانَ النَّضرُ بنُ الحارثِ وجماعةٌ مِنَ قُريش مِمَّن طلبَ مِنَ النبيِّ ﷺ أنْ يَشُقّ لهم القمَرَ فِرقتين نصفاً علىٰ أبي قُبيس ونصفاً علىٰ قعيقعان، فقالَ لَهُم ﷺ: «إنْ فَعَلت تُؤمنوا؟» قالُوا: نَعَم، وكانت ليلة بَدْر، فَدَعَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فأعطاهُ ذلكَ، فَمَا زَادهُم ذلكَ إلاَّ طغياناً وكفراً. [السيرة لابن هشام]

● وهو أيضاً كانَ مِنَ النَّفر الذينَ أرسلوا للنبيِّ ﷺ حينَ صدَعَ بأمرِ اللهِ تعالىٰ، فقالوا لَهُ: يا مُحَمَّد، إنَّا قَد بعثنَا إليكَ لنكلِّمكَ، وإنَّا واللهِ مَا نَعْلَم رجلاً من العربِ أدخَلَ علىٰ قومهِ مثل مَا أدخَلْت علىٰ قومِكَ، لقد شَتَمْتَ الآباءَ، وعِبْتَ الدِّينَ، وشَتَمْتَ الآلهةَ، وسَفَّهت الأحلامَ، وفرَّقتَ الجماعةَ، فما بَقِيَ أمرٌ قبيحٌ إلاَّ قَد جئته فيما بيننا وبينكَ، فإن كنتَ إنَّما جئت بهذَا الحديث تَطْلُب بهِ مالاً جَمَعْنَا لكَ مِن أموالِنَا حتَّىٰ تكونَ أكثرنَا مالاً، وإن كنتَ إنَّما تطلب بهِ الشَّرفَ فينَا، فنحنُ نسوِّدك علينَا، وإن كنتَ تُريد به ملكاً ملَّكنَاكَ علينَا، وإن كَانَ هذا الَّذي يأتيكَ رئياً تراهُ قد غلبَ عليكَ ـ وكانُوا يُسمُّونَ التَّابعَ مِن الجنّ رئياً ـ فرُبَّما كَانَ ذلكَ، بذلنَا لكَ أموالَنَا في طلبِ الطبِّ لكَ حتَّىٰ نبرئكَ مِنْهُ، أونُعذر فيكَ، فَقَالَ لهم رَسُول اللهِ ﷺ: «ما بِي ما تَقُولُونَ، ما جئتُ بما جئتُكم بهِ أطلُبُ أموالَكُم، ولا الشَّرَفَ فيكُم، ولا الملكَ عليكُم، ولكن اللهَ بَعَثَني إليكُم رسولاً، وأنزلَ عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكونَ لكُم بشيراً ونذيراً، فَبَلَّغتكُم رسالاتِ ربِّي، ونَصَحتُ لكم، فإن تَقْبَلُوا مِنِّي ما جئتكُم بهِ، فهو حظُّكُم في الدُّنيا والآخرةِ، وإن تردُّوهُ عليَّ أصبرْ لأمرِ اللهِ حتَّىٰ يحكُمَ اللهُ بينِي وبينكُم» أو كمَا قَالَ ﷺ.

فقَالُوا: يا مُحمَّد، فإن كنتَ غير قابلٍ منَّا شَيئًا مما عرضنَاهُ عليك فإنَّكَ قَد علمتَ أنَّه ليسَ مِنَ النَّاس أحدٌ أضيق بَلَداً، ولا أقلّ ماءً، ولا أشدّ عيشاً منَّا،

فَسَل لَنَا رَبَّكَ الَّذي بَعَثَكَ بما بَعَثَكَ بِهِ، فَلْيُسيِّرْ عنَّا هذهِ الجبال الَّتي قَد ضَيَّقت علينَا، وليَبْسُطْ لنَا بلادِنا، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهارِ الشَّام والعراقِ، وليبعث لنَا مَن مَضىٰ مِن آبائِنا، وليكن فيمَن يَبْعَث لنا منهم قُصَيَّ بن كلاب، فإنَّه كَانَ شيخَ صِدْقٍ، فنسألهم عمَّا تقول: أحقٌّ هُوَ أمْ بَاطِل، فإنْ صَدَّقوكَ وصَنَعتَ ما سَألناكَ صَدَّقنَاكَ، وعَرَفْنَا بهِ مَنزلتَكَ مِنَ اللهِ، وأنَّهُ بعثَكَ رسولاً كما تقول. فَقَالَ لهم ﷺ: «مَا بِهَذا بُعِثتُ إليكُم، إنَّما جئتكُم مِنَ اللهِ بما بَعَثَني بهِ، وقَد بلَّغتكُم ما أُرسلتُ بهِ إليكم، فإنْ تَقبَلُوهُ فَهُو حظكُم في الدُّنيا والآخرةِ، وإن تَردُّوه عليَّ أصبِر لأمرِ اللهِ تَعَالىٰ، حتَّىٰ يحكمَ اللهُ بيني[1] وبينكم».

---

١ - قال السهيلي: «وذكر ما سأله قومه من الآيات وإزالة الجبال عنهم وإنزال الملائكة عليه وغير ذلك جهلاً منهم بحكمة الله تعالىٰ في امتحانه الخلق وتعبدهم بتصديق الرسل، وأن يكون إيمانهم عن نظر وفكر في الأدلة، فيقع الثواب علىٰ حسب ذلك، ولو كشف الغطاء وحصل لهم العلم الضروري بطلت الحكمة التي من أجلها يكون الثواب والعقاب، إذ لا يؤجر الإنسان علىٰ ما ليس من كسبه كما لا يؤجر علىٰ ما خلق فيه من لون وشعر ونحو ذلك، وإنما أعطاهم من الدليل ما يقتضي النظر فيه العلم الكسبي، وذلك لا يحصل إلا بفعل من أفعال القلب، وهو النظر في الدليل وفي وجه دلالة المعجزة علىٰ صدق الرسول، وإلا فقد كان قادراً سبحانه أن يأمرهم بكلام يسمعونه ويغنيهم عن إرسال الرسل إليهم، ولكنه سبحانه قسم الأمر بين الدارين فجعل الأمر بعلم في الدنيا بنظر واستدلال وتفكر واعتبار، لأنها دار تعبد واختبار وجعل الأمر بعلم في الآخرة بمعاتبة واضطرار لا يستحق به ثواب ولاجزاء، وإنما يكون الجزاء فيها علىٰ ما سبق في الدار الأولىٰ، حكمة دبرها وقضية أحكمها، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾. يريد فيما قال أهل التأويل: أن التكذيب بالآيات نحو ما سألوه من إزالة الجبال عنهم، وإنزال الملائكة يوجب في حكم الله ألا يلبث الكافرين بها، وأن يعاجلهم بالنقمة كما فعل بقوم صالح وبآل فرعون، فلو أعطيت قريش ما سألوه من الآيات وجاءهم بما اقترحوا ثم كذبوا لم يلبثوا، ولكن الله أكرم محمداً في الأمة التي أرسله إليهم، إذ قد سبق في علمه أن يكذب به من يكذب ويصدق به من يصدق، وابتعثه رحمة للعالمين بر وفاجر، وأما البر فرحمته إياهم في الدنيا والآخرة، وأما الفاجر فإنهم أمنوا من الخسف والغرق وإرسال حاصب عليهم من السماء، كذلك قال بعض أهل التفسير في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ مع أنهم لم يسألوا ما سألوا من الآيات إلا تعنتاً واستهزاء لا علىٰ جهة الاسترشاد ودفع الشك، فقد رأوا من دلائل النبوة ما فيه شفاء لمن

قَالُوا : فإذا لَم تَفعَل هَذا لنَا ، فخُذ لِنفْسِكَ ، سَلْ رَبَّك أن يَبْعَثَ مَعَكَ مَلِكاً يُصَدِّقك بما تَقُول ، ويراجعنَا عنكَ ، وسَلْهُ فليَجْعَل لكَ جناناً وقُصُوراً وكنوزاً مِن ذهبٍ وفِضَّةٍ يُغنيكَ بها عمَّا نراكَ تَبْتَغي ، فإنَّك تقوم بالأسواقِ كَمَا نَقُوم ، وتَلْتَمِس المعاش منَّا كما نَلْتَمسُهُ ، حتَّىٰ نعرف فَضْلَكَ ومنزلَتِكَ مِن رَبِّكَ إن كُنت رسولاً كما تَزْعُم.

فَقَالَ لهم رَسُول اللهِ ﷺ : « ما أنا بِفَاعِل ، ومَا أنا بالَّذي يسأل رَبَّه هذا ، ومَا بُعثتُ إليكم بِهَذا ، ولكِنَّ اللهَ بَعَثَنِي بشيراً ونَذيراً - أو كمَا قَالَ - فإنْ تَقْبَلُوا مَا جئتكم بهِ فَهُو حظُّكم في الدُّنيا والآخِرَةِ ، وإن تَرُدُّوهُ عليَّ أصبرُ لأمرِ اللهِ حتَّىٰ يحكُمَ اللهُ بينِي وبينكم ».

قَالُوا : فأسقِط السَّماءَ عَلَينا كسفاً كما زَعَمْتَ أنَّ ربَّك إن شاءَ فَعَل ، فإنَّا لا نُؤمنُ لكَ إلاَّ أن تَفعَلَ.

قَالَ : فَقَالَ رَسُول اللهِ ﷺ : « ذلكَ إلىٰ اللهِ ، إنْ شاءَ أن يَفْعَلَهُ بكُم فَعَلَ ».

قَالُوا : يا مُحَمَّد ، أفما عَلِمَ رَبُّكَ أنا سنجلسُ مَعَكَ ونسألُكَ عمَّا سألنَاكَ عَنْهُ ، ونطلُبُ منكَ ما نطلُبُ ، فَيتقدّم إليكَ فَيُعْلِمُكَ ما تراجعنا بهِ ، ويخبركَ ما هو صانعٌ في ذلك بنَا ، إذ لم نَقْبَل منكَ ما جئتَنَا بهِ ! إنه قَد بَلَغنَا أنَّك إنَّما يُعَلِّمُك هذا رجلٌ باليَمَامَةِ يقالُ لَهُ : الرَّحمنُ ، وإنَّا واللهِ لا نؤمنُ بالرَّحمن أبدًا ، فَقَد أعذرنَا إليكَ يا مُحَمَّد ، وإنَّا واللهِ لا نتركُكَ وما بلغت منَّا حتَّىٰ نُهلِكَكَ ، أو تُهْلِكَنَا.

أنصف. قال الله سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الآية. وفي هذا المعنىٰ قيل : [من البسيط].

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... كانت بداهية تنبيك بالخبر

وقد ذكر ابن إسحاق في غير هذه الرواية : « أنهم سألوه أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، فهَمَّ رسول الله ﷺ أن يدعو الله لهم فنزل جبريل فقال لهم : ما شئتم ، إن شئتم فعلت ما سألتم ، ثم لا نلبثكم إن كذبتم بعد معاينة الآيةِ : فقالوا : لا حاجة لنا بها ».

وَقَالَ قائلهم: نحنُ نعبدُ الملائكةَ، وهي بناتُ اللهِ. وَقَالَ قائِلُهُم: لن نُؤمنَ لكَ حتَّىٰ تأتينَا باللهِ والملائكةِ قبيلاً.

◉ وكانَ النَّضرُ بنُ الحارث إذا رَأى النبيَّ ﷺ في مجلسٍ يدعُو إلىٰ اللهِ ويتلُو القرآنَ يحذِّر قريشاً مِن سماع النَّبيِّ ﷺ ويقولُ: واللهِ مَا محمَّد بأحسن حديثاً منّي وما حديثُهُ إلا أساطير الأولين اكتَتَبَها فهي تُمْلَىٰ عليه بكرةً وأصيلاً.

◉ قُتِلَ النَّضرُ بنُ الحارثِ يومَ بَدر صبراً، قَتَلَهُ عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه بأمرٍ من رسولِ اللهِ ﷺ.

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ[١]: وقالت قتيلة[٢] بنت الحارث، أخت[٣] النَّضر بن الحارث، تبكيه: [من الكامل]

يَا راكِبًا إنَّ الأُثَيْلَ مظنَّةٌ ... مِنْ صُبْحِ خَامِسةٍ وَأنْتَ مُوفَّقُ[٤]
أبْلِغْ بِهَا مَيْتًا بأنَّ تحيَّةً ... مَا إنْ تزالُ بِهَا النَّجائب تَخْفقُ[٥]
منِّي إلَيْكَ وَعَبْرةً مَسْفوحَةً ... جَادتْ بَواكفها وأُخْرَى تَخْنُقُ[٦]

١- في نسخة: «قال ابن هشام».

٢- قال السهيلي: «الصحيح أنها بنت النضر لا أخته، كذلك قال الزبير وغيره، وكذلك وقع في كتاب الدلائل».

٣- كانت قتيلة هذه تحت الحارث بن أبي أمية الأصغر، فهي جدة الثريا بنت عبد الله ابن الحارث، التي يقول فيها عمر بن أبي ربيعة حين خطبها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف: [من الخفيف]

أيها المنكح الثريا سهيلاً ... عمرك الله كيف يلتقيان؟
هي شامية إذا ما استقلت ... وسهيل إذا استقل يماني!

٤- الأثيل: موضع قرب المدينة بين بدر ووادي الصفراء. ومظنة، أي موضع إيقاع الظن.

٥- النجائب: الإبل الكرام. وتخفق: تسرع..

٦- العبرة: (بفتح العين وسكون الباء): الدمعة: ومسفوحة جارية. والواكف: السائل.

هَـل يَسْـمَعنّي النَّضْـرُ إن نَادَيْتُـه أم كَيْفَ يَسْـمَع مَيِّـتٌ لا يَنْطِـقُ
أمُحمَّـدٌ يَا خَيْر ضِـنْءِ كَرِيمـةٍ[1] فِي قَوْمِهَا والفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ[2]
مَا كَانَ ضَرَّكَ لَـو مَنَنْتَ وَرُبَّمَـا مَنَّ الفَتَىٰ وَهُـوَ المَغيظ المُحْنَقُ[3]
أوَ كُنْـتَ قَـابلَ فِدْيَـةٍ فَلْيُنفقَـن بـأعزِّ مـا يَغْلُـو بِـهِ مَـا يُنْفَـقُ[4]
فَـالنَّضْرُ أقْربُ مَن أسَرت قرابَةً وَأحقُّـهم إن كَـانَ عِتْـقٌ يُعْتَـقُ
ظَلَّت سُيُوفُ بَنِـي أبِيْـهِ تَنُوشُـه للهِ أرْحَـامٌ هُنَـاكَ تُشَـقَّقُ[5]
صَـبْرًا[6] يُقَـادُ إلَـىٰ المَنِيَّـة مُتْعَبًـا رَسْفَ المقيَّدِ وهوعَانٍ مُوثَـقُ[7]

قَالَ ابنُ هِشَام: فيقال، واللهُ أعْلَـمُ: إن رَسُول اللهِ ﷺ لما بلغه هـذا الشعر، قَالَ: «لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه»[8].

❖ ❖ ❖

١- الضنء: الأصل. ورواية هذا الشطر في الروض. أمحمدها أنت ضيء نجيبة. والضيء: الأصل والولد.

٢-المعرق: الكريم.

٣-المحنق: الشديد الغيظ.

٤-كذا في أكثر الأصول. ورواية هذا البيت في الأغاني (جـ١ ص١٩ طبع دار الكتب المصرية):

أو كنـت قـابل فديـة فلنـأتين بـأعز مـا يغلـو لديـك وينفـق

٥- تنوشه: تتناوله. وتشقق: تقطع.

٦- في شرح السيرة: «قسراً». والقسر: القهر والغلبة.

٧- الرسف: المشي الثقيل، كمشي المقيد ونحوه. والعاني: الأسير. وقد وردت هذه الأبيات في الأغاني (جـ١ ص١٩ طبع دار الكتب والحماسة ص٤٣٧ طبع أوربا) باختلاف في ترتيبها وبعض ألفاظها.

٨- في سنده «الواقدي» كما في «الإصابة» و«الاستيعاب» قال عنه ابن حجر في التقريب: متروك.

(٢٤) عتبة بن ربيعة

هو عتبةُ بنُ رَبيعة بنِ عبدِ شَمْس بنِ عَبْدِ مَنَاف القُرشي العَبشمي.

◉ مِن أعداءِ الإسلام الألدَّاء، والَّذين حاوَلُوا قَدر الإمكانِ صدَّ المسلمينَ عَن دينهم.

◉ عَن عكرمةَ، في قولِه تعَالىٰ: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١]. قَالَ: جاءَ عتبةُ بنُ ربيعةَ وشيبةُ بنُ ربيعةَ ومطعمُ بنُ عديّ والحارثُ بنُ نَوفل وقرظةُ بن عبد عمرو بن نوفَل في أشرافٍ مِن بني عبدِ مَنَافٍ مِنَ الكفَّار إلىٰ أَبِي طالبٍ، فَقَالُوا: يا أبا طَالِب لَو أنَّ ابنَ أخيكَ يطرُد عنهُ مَوالينَا وحلفاءنَا، فإنَّما هُم عبيدُنا وعسفَاؤنَا، كانَ أعظم في صُدُورِنا وأطوع له عِنْدَنا وأدنىٰ لاتِّباعنا إيَّاهُ وتصديقنا له! قالَ: فأتىٰ أبو طالِب النبيَّ ﷺ فحدَّثهُ بالَّذي كَلَّمُوهُ بهِ، فقَالَ عُمَرُ بنُ الخطَّاب: لو فَعلَت ذلكَ حتَّىٰ تَنْظُرَ ما الَّذي يُريدونَ وإلامَ يَصيرونَ مِن قولِهم! فأنزلَ اللهُ تَعَالىٰ هذهِ الآيةَ: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِن شَيْءٍ وَمَا مِن حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

قَالَ: وكانُوا: بلالاً وعمَّارَ بنَ يَاسرٍ وسالماً مَولىٰ أبي حذيفةَ وصبيحاً مولىٰ أسيد، ومِنَ الحلفاءِ: ابن مسعود، والمقداد بن عمرو، وأشباههم من الحُلَفاءِ. ونَزَلَت في أئمَّةِ الكُفر مِن قُريش والموالي والحلفاء: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

فَلَمَّا نَزَلَت أقبَلَ عُمَرُ بنُ الخطَّاب فاعتَذَرَ مِن مقالَتِهِ، فأنزلَ اللهُ تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤]. [تفسير الطبري]

◉ وكان مِمَّن علمَّ الحقَّ ولكنَّهُ لم يؤمن بهِ، قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: وَحَدَّثني يزيد ابن زياد، عن مُحَمَّد بن كعب القرظي، قَالَ: حُدِّثت أنَّ عُتبةَ بنَ ربيعةَ، وكانَ سيِّداً، قَالَ يومًا وهو جالس في نادي قريش، ورَسُول اللهِ ﷺ جالسٌ في المسجدِ وَحْده: يا مَعْشَرَ قُريش، ألا أقُوم إلىٰ مُحَمَّد فأكلِّمهُ وأعرضُ عليهِ أموراً لعَلَّه يقبَل بَعْضَهَا فَنعطيهِ أيَّها شاءَ، ويكفّ عنَّا؟ وذلكَ حين أسلَمَ حمزةُ، ورأوا أصحابَ رَسُول اللهِ ﷺ يزيدونَ ويكثرونَ، فَقَالَوا: بَلَىٰ يا أبا الوليدِ، قُم إليهِ فكلِّمْهُ، فقامَ إليه عتبةُ حتَّىٰ جَلَسَ إلىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يا ابنَ أخِي، إنَّكَ منَّا حيثُ قَد عَلِمْتَ مِن الشَّرف في العشيرة، والمكانِ في النَّسبِ، وإنَّك قَد أتيتَ قومَكَ بأمرٍ عظيمٍ فَرَّقتَ بهِ جماعَتَهُم وسَفَّهت بهِ أحلامَهُم وعِبْتَ بهِ آلهتَهُم ودينَهم وكَفَّرتَ بهِ مَن مَضَىٰ مِن آبائِهِم، فاسمَع مِنِّي أعرض عليكَ أموراً تَنْظُر فيهَا لَعَلَّك تَقْبَل منها بَعْضَهَا.

قَالَ: فَقَالَ له رَسُول اللهِ ﷺ: «قُل يا أبا الوَليد، أسمَعْ» قَالَ: يا ابنَ أخِي، إن كنتَ إنَّما تريدُ بما جِئتَ بهِ مِن هذا الأمرِ مالاً جَمَعْنا لكَ مِن أموالِنا حتَّىٰ تكونَ أكثرنَا مالاً، وإن كنتَ تُريد بهِ شَرَفاً سَوَّدناكَ عَلَيْنا، حتَّىٰ لا نَقْطَع أمراً دونَكَ، وإن كنتَ تُريد بهِ مُلْكاً ملَّكناكَ عَلَيْنا، وإن كَانَ هَذا الَّذي يأتيك رَئِيًّا[١] تراهُ لا تستطيع ردَّهُ عَن نَفْسِكَ، طَلَبْنا لكَ الطِّبَّ، وبذلنَا فيهِ أموالَنا حتَّىٰ نبرئكَ منهُ، فإنَّه ربما غلَبَ التابعُ[٢] علىٰ الرَّجُل حتَّىٰ يُداوى منه، أو كما قَالَ له.

١- الرئي (بفتح الراء وكسرها): ما يتراءى للإنسان من الجن.

٢- التابع: من يتبع من الجن.

حتَّىٰ إذا فرغ عتبة، ورَسُولُ اللهِ ﷺ يستَمعُ منه، قَالَ: «أقد فَرغْتَ يَا أبا الوليد؟» قَالَ: نعم، قَالَ: «فَاسمَع مِنِّي» قَالَ: أفعل، فَقَالَ: بسم اللهِ الرَّحمن الرحيم ﴿حم ۝ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ١-٥] ثمَّ مضىٰ رَسُول اللهِ ﷺ فيها يقرؤها عليه. فلَمَّا سَمِعَها منهُ عتبةُ، أنصتَ لَهَا، وألقَىٰ يَدَيْهِ خَلْفَ ظهرِهِ معتمداً عليهِمَا يسمعُ منهُ، ثمَّ انتهىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلىٰ السجدةِ منهَا، فسجَدَ ثمَّ قَالَ: «قَد سَمِعْتَ يا أبا الوَليد ما سَمِعْتَ، فَأنتَ وَذَاكَ»[(١)].

فقامَ عُتبةُ إلىٰ أصحابِهِ، فَقَالَ بعضُهُم لِبَعْض: نَحْلِفُ باللهِ لَقَد جاءكُم أبو الوليدِ بغير الوجهِ الَّذي ذَهَبَ بهِ. فلَمَّا جَلَس إليهم قَالُوا: ما وراءك يا أبا الوليدِ؟ قَالَ: ورائي أني قَد سمعتُ قولاً واللهِ مَا سَمِعْتُ مثلَهُ قَطُّ، واللهِ مَا هو بالشِّعرِ، ولا بالسِّحْرِ، ولا بالكهانَةِ، يا مَعْشَر قُريش، أطيعُوني واجعلُوها بي، وخلُّوا بينَ هذا الرَّجُل وبينَ ما هو فيهِ فَاعتزِلُوهُ، فواللهِ ليكونَنَّ لقولهِ الَّذي سمعتُ منه نبأ عظيمٌ، فإن تُصبه العربُ فَقَد كُفيتمُوهُ بغيركم، وإنْ يَظْهَر علىٰ العربِ فملكُهُ ملككُم، وعزُّه عزكُم، وكنتُم أسعدَ النَّاس بهِ، قَالُوا: سَحَرَكَ واللهِ يَا أبا الوليد بِلِسَانِهِ، قَالَ: هذا رأيي فيهِ، فاصنَعُوا ما بَدا لكُم.

◉ وكانَ عُتبة ممَّن دَعَا عليهِ ﷺ بقولِهِ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ الْمَلأَ مِن قُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ

---

١ - رجالُهُ ثقات، إلاَّ أنَّ القرظي وفاتهُ (١٢٠ هـ) وبينه وبين رسول اللهِ ﷺ مفاوز، ولا ندري من حدَّثه. واللهُ أعلم.

هِشَامٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، اللَّـهُمَّ عَلَيْكَ بِأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ، أو أُمَيَّةَ ابْنِ خَلَفٍ» قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ: فَلَقَد رَأَيْتُهُم قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ جَمِيعًا، ثُمَّ سُحِبُوا إِلَىٰ الْقَلِيبِ غَيْرَ أُبَيٍّ، أو أُمَيَّةَ، فَإِنَّهُ كَانَ رَجُلاً ضَخْمًا، فَتَقَطَّعَ. [متفق عليه].

◉ وكانَ عتبةُ بنُ رَبيعة مِن قُوَّاد جيشِ المشركين يومَ الفُرقان يومَ بدرٍ، وانتَهَىٰ بهِ المطافُ في قَليبِ بَدْرٍ مقتولاً.

◉ وقد قامَ النبيُّ ﷺ يخاطبُهم بعدَ ثلاثةِ أَيَّامٍ، روى مسلمٌ في (صحيحه) عن أَنس بْنِ مَالِكٍ، أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَركَ قَتْلَىٰ بَدْرٍ ثَلاَثاً، ثُمَّ أتَاهُم فقَامَ عَلَيْهِم فَنَادَاهُم فقَالَ: «يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ، يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةَ ابْنَ رَبِيعَةَ أَلَيْسَ قَد وَجَدْتُم مَا وَعَدَ رَبُّكُم حَقًّا؟ فَإِنِّي قَد وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا» فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يَسْمَعُوا وأَنَّىٰ يُجِيبُوا وَقَد جَيَّفُوا؟ قَالَ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُم بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُم لاَ يَقْدِرُونَ أن يُجِيبُوا» ثُمَّ أَمَرَ بِهِم فَسُحِبُوا، فَأُلْقُوا فِي قَلِيبِ بَدْرٍ.

❖ ❖ ❖

(٢٥) شيبة بنُ ربيعة

هُوَ شَيبةُ بنُ رَبيعَةَ بنِ عَبْدِ شَمْس بنِ عَبْدِ مَنَاف القُرشيّ العبشمي.

◉ وهو مِن أعداءِ الإسلام مَع أخيهِ عُتْبَةُ.

◉ نَزَلَ فيهِ وفي أمثالِهِ قَولُهُ تَعالىٰ: ﴿هـذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩].

فَعَن قَيْسِ بن عُبادٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ، يُقْسِمُ قَسَماً إِنَّ: ﴿هـذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]. إِنَّهَا نَزَلَت فِي الَّذِينَ بَرَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ: حَمْزَةُ، وَعَلِيٌّ، وَعُبَيْدَةُ بن الْحَارِثِ، وَعُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدُ بن عُتْبَةَ. [متفق عليه].

◉ قالَ يُونُس بنُ عبيد: كانَ عُتبةُ وأخوهُ شَيبة بنُ ربيعةَ وأبو جَهْل وأبو سُفيان لا يسقطُ لَهُم رأيٌ في الجاهليةِ، فَلَمَّا جاءَ الإسلامُ لَم يكُن لهم رأيٌ.

[الاستيعاب لابن عبدِ البر].

ولَمَّا كانتِ الحمَّىٰ تأخُذَ بلالاً وأبا بكرٍ رضي الله عنهما كانا يلعنانِ صناديدَ قريش منهم شيبة هذا..

عَن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالتْ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَدِينَةَ وُعِكَ أَبُو بَكْرٍ وَبِلالٌ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا أَخَذَتْهُ الحُمَّىٰ يَقُولُ:

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ ... وَالمَوْتُ أَدْنَىٰ مِن شِرَاكِ نَعْلِهِ

وَكَانَ بِلالٌ إِذَا أَقْلعَ عَنْهُ الحُمَّىٰ يَرْفَعُ عَقِيرَتَهُ يَقُولُ:

أَلا لَيْتَ شِعْرِي هَل أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ

وَهَل أَرِدَن يَوْماً مِيَاهَ مَجَنَّةٍ ... وَهَل يَبْدُوَن لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ

وقَالَ: اللَّهُمَّ العَن شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَعُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ، كَمَا أَخْرَجُونَا مِن أَرْضِنَا إِلَىٰ أَرْضِ الوَبَاءِ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ حَبب إِلَيْنَا المَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أو أَشَدَّ. اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا، وَصَحِّحْهَا لَنَا، وَانْقُل حُمَّاهَا إِلَىٰ الجُحْفَةِ. قَالَتْ: وَقَدِمْنَا المَدِينَةَ وَهِيَ أَوْبَأ أَرْضِ اللهِ، قَالَتْ: فَكَانَ بُطْحَانُ يَجْرِي نَجْلاً. تَعْنِي مَاءً آجِناً». [رواه البخاري، وأحمد].

◉ قُتلَ شيبةُ مع أخيهِ عُتبة، وكانَ لهما جزاءً من اللهِ وفاقاً، فعندما خَرَجَ عُتبة ابنُ ربيعة، بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنهِ الوَليد بن عتبة، حتَّىٰ إذا فَصَلَ مِن الصفِّ دَعَا إلىٰ المبارزةِ، فَخَرَجَ إليهِ فتيةٌ مِنَ الأنصارِ ثلاثةٌ، وهم: عَوف، ومعوذ، ابنا الحارث - وأمهما عفراء - ورجلٌ آخرُ، يقالُ: هو عَبْد اللهِ بن رواحة، فقَالُوا: من أنتُم؟ فقالُوا: رَهْطٌ مِنَ الأنصار، قَالُوا: ما لنَا بِكُم مِن حاجةٍ.

ثمَّ نادىَ مناديهم: يا مُحَمَّد، أخرج إلينَا أكفاءنا من قَومِنَا، فَقَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي»[1] فلَمَّا قاموا ودنوا منهم، قَالُوا: مَن أنتُم؟ قَالَ عبيدة: عبيدة، وَقَالَ حمزة: حمزة، وَقَالَ عليٌّ: علي، قَالُوا: نَعَم، أكفاءٌ كرامٌ. فبارزَ عُبيدة، وكانَ أسنَّ القَوم، عُتبة بنَ ربيعة، وبارزَ حَمْزَةُ شيبةَ بنَ ربيعةَ، وبارزَ عليٌّ الوليدَ بنَ عُتبة.

فأمَّا حَمْزَةُ فَلَم يمهل شَيبة أن قَتلَهُ، وأمَّا عَلِيٌّ فَلَم يمهل الوليدَ أن قَتلَهُ، واختلَفَ عبيدةُ وعتبةُ بينهمَا ضَربتين، كلاهُما أثبتَ صَاحِبَه[2]، وكر حمزة وعليٌّ بأسيافِهِما علىٰ عُتبة فَأجهزَا عَلَيهِ، واحتمَلا صَاحِبَهُما فحازاه إلىٰ أصحَابِهِ.

١- (صحيح) رواه أحمد، وأبو داود.

٢- أثبت صاحبه: جرحه جراحة لم يقم معها.

(٢٦) كعب بن الأشرف

كعبُ بنُ الأشرفِ: مِن قبيلةِ طيء، ثمَّ أحد بني نبهان، أمُّهُ مِن بني النَّضير.
[سيرة ابن كثير: ٢ /٢٤٢].

◉ كانَ يؤذي اللهَ وَرَسُولَه ﷺ بشِعْرِهِ ويَسْعَىٰ ويحرِّض العربَ علىٰ محاربةِ الإسلام والمسلمينَ مَع صاحبٍ لَهُ يهودي يدعىٰ أبا رافع بن الخفيف.

◉ وأخرجَ البيهقيُّ في «الدَّلائل» عَن جابرٍ ﷺ قالَ: لما كانَ مِن أمرِ النَّبيِّ ﷺ مَا كانَ، اعتَزَلَ كعبُ بنُ الأشرَف ولحقَ بمكَّةَ وكانَ بِهَا، وقالَ: لا أعين عليهِ، ولا أقاتلُهُ. فقيلَ له بمكَّةَ: يا كعبُ أدينُنَا خيرٌ أم دِينُ محمَّدٍ وأصحابه؟ فقَال: دينُكُم خيرٌ وأقدَمُ، ودينُ محمَّدٍ حَديث. فَنَزَلَت فيه: ﴿أَلَم تَرَ إِلىٰ الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلىٰ كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُم ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُم وَهُم مُعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣].

◉ وسببُ حِقْدِ كَعبِ الأشرف عَلىٰ الإسلام وأهلِهِ: أنَّهُ لما أُصيبَ أصحابُ بدرٍ قَدِمَ زيدُ بنُ حَارثة إلىٰ أهلِهِ السَّافِلَة، وعبد الله بن رواحة إلىٰ أهلِهِ العاليةِ مُبَشِّرَيْن بعثَهُمَا رسولُ اللهِ ﷺ إلىٰ من بالمدينةِ مِنَ المسلمينَ بفتح اللهِ وقَتْلِ مَن قُتِلَ مِنَ المشركينَ، فقال كعبُ بنُ الأشرف: أحقٌّ هَذَا، أترونَ محمَّداً قَتَلَ هَؤلاء؟ فهؤلاء أشرافُ العربِ، وملوكُ النَّاسِ واللهِ لئن كانَ محمدٌ أصابَ هَؤلاء القَومَ لَبَطْنُ الأرضِ خيرٌ لي من ظَهْرِهَا، وراح من يومِهِ يحرِّضُ قبائلَ العربِ وقُريشاً خاصَّةً علىٰ معاداةِ الإسلامِ والمسلمينَ.

فلَمَّا تيقن عدو الله الخبر، خرج حتَّىٰ قدم مكة، فنزل علىٰ المطلب بن أبي

وداعة بن ضبيرة السهمي ، وعنده عاتكة بنت أبي العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، فأنزلته وأكرمته ، وجعل يحرض علىٰ رَسُول اللهِ ﷺ ، وينشد الأشعار ، ويبكي أصحاب القليب من قريش ، الَّذين أصيبوا ببدر ، فَقَالَ : [من الكامل]

طَحَنَتْ رَحَىٰ بَدْرٍ لِمَهْلكِ أَهْلِهِ ... وَلمثْلِ بَدْرٍ تَسْتَهِلُّ وَتَدْمَعُ[1]

قُتِلَت سَراةُ النَّاسِ حَوْلَ حياضِهِم ... لا تَبْعَدُوا إنَّ الْمُلُوكَ تُصَرَّعُ

كَمْ قَدْ أُصِيْبَ بِهِ من أبْيَض مَاجِدٍ ... ذِي بَهْجَةٍ يأوِي إلَيْهِ الضُّيَّعُ[2]

طَلْقَ اليَدَيْنِ إذَا الكَوَاكِبُ أخْلَفَتْ ... حَمَّالُ أثْقَالٍ يَسُودُ وَيَرْبَعُ[3]

وَيَقُولُ أقْوَامٌ أُسَرُّ بِسُخْطِهِم ... إنَّ ابنَ الأشْرفِ ظَلَّ كعْبًا يَجْزَعُ

صَدقوا فَلَيْتَ الأرْضَ ساعَةَ قُتِّلُوا ... ظَلَّت تَسُوخُ بِأهْلِهَا وَتُصَدَّعُ

صَارَ الَّذِي أثَرَ الحديثَ بِطَعْنَةٍ ... أوْ عَاشَ أعْمَىٰ مُرْعَشًا لا يَسْمَعُ

نُبِّئْت أنَّ بَنِي الْمُغِيْرةِ كُلَّهم ... خَشَعُوا لِقَتْلِ أبِي الحَكِيْمِ وَجُدِّعُوا[4]

وَابْنَا رَبِيعةَ عِنْدَه ومُنَبِّهٌ ... مَا نَالَ مِثْلَ الْمُهْلكين وتُبَّعُ[5]

نُبِّئْتُ أنَّ الحَارثَ بنَ هِشَامِهِم ... فِي النَّاس يَبْنِي الصَّالحاتِ وَيَجْمَعُ

لِيَزورَ يَثْرِبَ بِالجُمُوعِ وإنَّمَا ... يَحْمِي عَلَىٰ الحَسَب الكَرِيمُ الأرْوَعُ[6]

١- رحىٰ الحرب. معظمها ومجتمع القتال. وتستهل : تسيل بالدمع.

٢- الضيع : جمع ضائع ، وهو الفقير.

٣- طلق اليدين : أي : كثير المعروف. وأخلفت : أي : لم يكن معها مطر ، علىٰ ما كانت والعرب تنسب إلىٰ هذه الكواكب. ويربع : أي : يأخذ الرّبع ، أي : أنه كان رئيساً ، لأن الرئيس في الجاهلية كان يأخذ ربع الغنيمة.

٤- التجديع : قطع الأنف. وأراد به هنا : ذهاب عزهم.

٥- تبع : ملك من ملوك اليمن.

٦- الأروع : الذي يروعك بحسنه وجماله. [انظر السِّيرة لابن هشام بتحقيقنا].

◉ أمَّا عن مقتَلِه فقد قتَلَهُ مُحَمَّدُ بـنُ مسلَمةَ مـع ثلَّـةٍ مـن أصحابـهِ في داره كمـا روى ابنُ هشام في السِّيرة قائلاً :

لَمَّا رجعَ كعبُ بـنُ الأشرفِ إلى المدينةِ شَبَّبَ[1] بنساء المسلمين حتَّى آذاهم. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَن لي بابنِ الأشرَف؟ » فَقَالَ له مُحَمَّد بن مسلمة : أنا لكَ بهِ يا رَسُولَ اللهِ ، أنا أقتُلُهُ ، فقَالَ ﷺ : « فَافعَل إن قَدرتَ عَلَى ذَلكَ[2] » .

فرجـع مُحَمَّـد بـنُ مسلمةَ فمكـثَ ثلاثًا لا يـأكلُ ولا يشربُ إلاَّ مَا يعلَقُ بـه نفسُـهُ ، فذكَـرَ ذلـكَ لرَسُـول اللهِ ﷺ ، فدعـاهُ ، فَقَـالَ لـه : « لم تركـتَ الطَّعَـامَ والشَّرابَ؟ » فَقَالَ : يا رَسُولَ اللهِ قُلْتُ لكَ قولاً لا أدرِي هَل أفين لـكَ بـهِ أمْ لا؟ فَقَالَ : « إنَّما عليكَ الجهدُ » فَقَالَ : يا رَسُولَ اللهِ إنَّهُ لا بدَّ لَنَا مِن أن نَقُولَ : فقَـالَ ﷺ : « قُولُوا مَا بَدا لكُم ، فَأنْتُمْ فِي حِلٍّ مِنْ ذَلِك »[3] فـاجتمع في قتلـهِ مُحَمَّـد بـن مسلمة ، وأبو نائلة ، وكانَ أخا كعب بن الأشرف مِنَ الرَّضاعةِ ، وعبَّاد بـن بِشـر ، والحارث بن أوس بن معاذ ، وأبو عبس بن جَبْر.

ثمَّ قَدَّمُوا إلى عَدُوِّ اللهِ كَعْبِ بن الأشرف ، قبلَ أن يـأتوهُ ، أبـا نائلـةَ ، فَجَـاءهُ ، فَتَحَدَّث مَعَهُ سـاعةً ، وتناشَـدُوا شـعرًا ، وكـانَ أبـو نائلـةَ يقـولُ الشِّـعر ، ثـمَّ قَـالَ : ويحكَ يا ابنَ الأشرفِ! إنِّي قد جئتُكَ لحاجةٍ أريدُ ذِكْرَهَا لكَ ، فاكتم عَنِّي ، قَـالَ : أفعل ، قَالَ : كَانَ قُدُوم هـذا الرَّجُـل علينَـا بـلاء مِـن البـلاءِ ، عَادَتْنـا بـهِ العـربُ ،

١- يروى أنه شبب بأم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب ، فقال : [من البسيط]

أراحـــل أنـــت لم ترحـــل لمنقبـــة ... وتـــارك أنـــت أم الفضـــل بـــالحرم

في أبيات له.

٢- قال السهيلي : « في هذه من الفقه وجوب قتل من سب النبي ﷺ وإن كان ذا عهد ، خلافـاً لأبي حنيفة رحمه الله ، فإنه لا يرى قتل الذمي في مثل هذا » .

٣- (صحيح) رواه أبو داود ، بمعناه ، وذكره ابن سعد في « الطبقـات » مـن غير سند ، ورواه أيضـاً الحاكم بنحوه ، وسكت عنه الذهبي في « التلخيص » .

ورَمَتْنَا عَن قَوسٍ واحدةٍ، وقطعَت عنَّا السُّبل حتَّىٰ ضاعَ العيالُ، وجهدت الأنفسُ، وأصبحنَا قَد جهدنَا وجهد عيالُنا، فقَالَ كعب: أنا ابنُ الأشرفِ، أمَا واللهِ لقد كُنت أخبرك يا ابنَ سلامَةَ، أنَّ الأمرَ سيصيرُ إلىٰ ما أقولُ، فَقَالَ له أبو نائلةَ: إنِّي قد أردتُ أن تُبيعنا طعامًا ونرهنكَ ونوثق لكَ، ونحسن في ذلكَ، فَقَالَ: أترهنوني نساءكُم؟ قَالَ: كيفَ نَرهنكَ نساءنا وأنتَ أشبّ أهل يَثْرِبَ وأعطرهم، قَالَ: أترهنوني أبناءكُم؟ قَالَ: لقد أردتَ أن تَفْضَحَنَا، إنَّ معي أصحابًا لي علَىٰ مثلِ رأيي، وقد أردتُ أن آتيك بهم، فَتبيعهم وتحسن في ذلكَ، ونرهنكَ في الحَلَقَةِ ما فيهِ وفاءٌ، وأرادَ أبو نائلةَ أنْ لا ينكر السلاحَ إذا جاؤوا بهَا، قَالَ: إنَّ في الحَلقة[1] لوفاء، قَالَ فرجعَ أبو نائلةَ إلىٰ أصحابِهِ فأخبرَهُم خَبَرَهُ، وأمرَهُم أن يأخذُوا السِّلاحَ، ثمَّ ينطلِقُوا فيجتَمِعُوا إليهِ، فاجتَمَعُوا عندَ رَسُول اللهِ ﷺ.

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: فحدَّثني ثورُ بنُ زَيد، عَن عكرمةَ عَن ابنِ عبَّاس قَالَ: فَمَشَىٰ مَعَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ إلىٰ بقيع الغرقدِ، ثمَّ وَجَّههم، فَقَالَ: «انطَلِقُوا علىٰ اسم اللهِ، اللَّهُمَّ أعِنْهُم» ثمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلىٰ بيتِهِ، وهو في ليلةٍ مقمرةٍ، وأقبلُوا حتَّىٰ انتهوا إلىٰ حِصْنِهِ، فهَتَفَ بِهِ أبو نائلةَ، وكانَ حديث عهدٍ بعرسٍ، فوثب في ملحَفَتِهِ، فأخذت امرأتُهُ بناحيتِهَا، وقَالَت: إنَّك امرؤٌ محارَبٌ، وإنَّ أصحابَ الحربِ لا ينزلونَ في هذهِ السَّاعةِ، قَالَ: إنه أبو نائلةَ، لو وَجَدَني نائمًا لما أيقظَني، فقَالَت: واللهِ إنِّي لأعرفُ في صوتهِ الشَّرّ، قَالَ: يقولُ لَهَا كعبٌ: لو يُدعَىٰ الفتَىٰ لطعنةٍ لأجابَ.

فنزلَ فَتَحَدَّث معهم ساعةً، وتحدَّثُوا مَعَهُ، ثمَّ قَالَ: هل لك يا ابنَ الأشرف أن تَتَمَاشَىٰ إلىٰ شعب العجوز، فنتحدث بِهِ بقية لَيْلَتِنَا هذه؟ قَالَ: إن شِئْتُم.

١- يريد «بالحلقة»: السلاح كله، وأصلها في الدروع.

فَخَرَجُوا يتماشونَ، فمشوا ساعةً، ثمَّ إنَّ أبا نائلةَ شام[١] يده في فود رأسه، ثمَّ شمَّ يَدَهُ فَقَالَ: ما رأيتُ كالليلةِ طيبًا أعطَر قطّ، ثمَّ مشىٰ ساعةً، ثمَّ عادَ لمثلها حتَّىٰ اطمأن، ثمَّ مشىٰ ساعةً، ثمَّ عادَ لمثلها، فأخذ بفودِ رأسهِ، ثمَّ قَالَ: اضربُوا عَدُوَّ اللهِ، فَضَرَبُوهُ فاختلفت عليهِ أسيافُهُم، فلم تُغن شَيْئًا.

قَالَ مُحَمَّد بن مسلمة: فذكرت مغولاً[٢] في سيفي، حين رأيت أسيافنا لا تغني شَيْئًا، فأخذتهُ، وقَد صاح عدُوُّ اللهِ صيحةً لم يبقَ حولنَا حصنٌ إلاَّ وقد أوقدَت عليه نارٌ. قَالَ: فوضعته في ثُنَّته[٣] ثمَّ تحاملتُ عليه حتَّىٰ بلغت عانتَهُ، فوقَعَ عَدُوُّ الله وقَد أصيب الحارثُ بنُ أوس بن معاذ، فَجُرحَ في رأسهِ أو في رِجْلِهِ، أصابَهُ بَعْضُ أسيافِنَا.

قَالَ: فخرجنا حتَّىٰ سلكنا علىٰ بني أمية بن زيد، ثمَّ عَلىٰ بني قريظة، ثمَّ علىٰ بعاث، حتَّىٰ أسْنَدْنا[٤] في حرة[٥] العريض[٦]، وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارثُ بن أوس، ونَزَفه[٧] الدم، فوقفنا له ساعة، ثمَّ أتانا يتبع آثارنا.

قَالَ: فاحتملناهُ فجئنا بهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ آخر اللَّيل، وهو قائمٌ يُصَلِّي، فَسَلَّمنا عليهِ، فخرجَ إلينَا، فأخبرناه بقتلِ عَدُوِّ اللهِ، وتَفَلَ علىٰ جرح صَاحِبِنَا، فرجَعَ ورَجَعْنا إلىٰ أهلِنَا، فأصبحنَا وقَد خافَت يهود لِوَقعتِنَا بعدوِّ اللهِ، فَلَيْسَ بها يهوديّ إلاَّ وهُو يخافُ علىٰ نَفْسِهِ. [السيرة لابن هشام].

١- شام يده: أدخلها.
٢- المغول: السكين التي تكون في السوط.
٣- الثنة: ما بين السرة والعانة.
٤- أسندنا: ارتفعنا.
٥- الحرة: أرض فيها حجارة سود.
٦- العريض: وادي المدينة.
٧- نزفه: أضعفه بكثرة سيلانه.

(٢٧) حييٌّ بن أخطب

حييّ بنُ أخطَب بنِ سعية بنِ عامِر بنِ عبيد بنِ كعب بن الخزرج بنِ أبي حبيب بنِ النظير بن النّحام بن ينحوم من بني إسرائيل مِن سِبْطِ النَّبيِّ هَارونَ بنِ عِمْرانَ عليه السَّلامُ. [الطبقات الكبرى : ٨ / ١٢٠].

◉ شربَ حُيَيٌّ عداوةَ النَّبيِّ ﷺ، ولم يزل كَذلكَ دأبُهُ لَعَنَهُ اللهُ حتَّىٰ قُتِلَ صَبْراً بينَ يَدي رسولِ اللهِ ﷺ يومَ قَتَلَ مقاتلة بَنِي قُريظة. [البداية والنهاية ٣ /٢١٢].

◉ وقادَ هَذا اللَّعينُ محاوَلَةَ اغتيالِ النَّبيِّ ﷺ..

وذلكَ أنَّه عليـهِ الصَّلاةُ والسَّلام جاء بَني النَّضير يَستعينهم في عقلٍ أصابَهُ ومَعَهُ أبو بكرٍ وعمرُ وعليّ، فقَالَ: أعينوني في عَقْل أصابَنِي. فقَالُوا: نَعَم يا أبا القَاسِمِ، قَدآن لكَ أن تأتينا وتسألنا حاجةً، اجلِس حتَّىٰ نُطعِمَكَ ونُعطيك الَّذي تسألنا، فجاءَ حُيَيّ فقَالَ لأصحابهِ: لا تَرونَهُ أقرب منهُ الآنَ، اطرَحُوا عليه حجارةً فاقتُلُوهُ، فَجَلَسَ رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُه، فجاؤوا إلىٰ رحىً لهم عظيمة ليطرحُوها عليهِ، فامسكَ اللهُ عنها أيديَهُم حتىٰ جاءه جبريلُ بالخَبَرِ.

[تفسير الطبري: ٤/٤٨٥].

◉ ولم يكتَفِ بذلكَ هَذا اللَّعينُ، بَل إنَّهُ راحَ يُؤلِّبُ الأعداءَ عَلَىٰ حربِ المسلمينَ. فلقَد مَلأَ الحِقْدُ قلوبَ اليهود، فجعلُوا يُفكّرون بالقضاءِ علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ وأصحابه الكرامِ، وعلىٰ هذه النّية أجمعُوا أمرهُم وعَقَدُوا عزيمَتَهُم، فخرجَ حُيَيُّ بنُ أخطَبَ وسلامُ بنُ أبي الحُقَيقْ في نَفَرٍ مِن أشرَافِهِم ووجوههم يُحَزِّبونَ الأحزابَ، علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ وعَلىٰ المسلمينَ، فقَدِمُوا مَكَّةَ علىٰ قُريش،

وحَرَّضوهُم علىٰ حَربِ رسولِ الله ﷺ وقَالُوا: سنكونُ مَعَكُم حتىٰ نَستَأْصِلَهُ..

ثم خرجَ أولئكَ النَّفرُ مِن اليهودِ، حتىٰ أتوا غَطَفانَ فَدَعُوهم. إلىٰ حربِ رسولِ اللهِ ﷺ وأعْلَمُوهُم أنَّ قريشاً قد بايَعُوهُم علىٰ ذَلِكَ، ووعدُوا رِجَالَ غطفانَ أن يُعْطُوهم ثِمارَ خيبرَ مِنَ النَّخيل سَنَةً، إذا تَمَّ لهم النَّصْرُ علىٰ محمَّدٍ، فاستجابَت لهم غَطَفَانُ، وهكذا جَعَلُوا يُجَمِّعونَ الأحزابَ وَيَدْعُون كُلَّ من لَه عندَ رسولِ اللهِ ثأرٌ.. حتىٰ اجتمَعَ لهم عشرةُ آلافِ مقاتِلٍ، وسارَ هذا الجيشُ الكبيرُ إلىٰ المدينَةِ تحتَ إمْرَةِ أبي سفيانَ بن حرب في شوالَ سنةَ خمسٍ من الهجرةِ.

ولَمَّا علمَ رسولُ الله ﷺ بنبأ هذا الجيشِ، جمعَ أصحابَه فشاوَرَهُم فيما يَنْبَغِي أن يعمَلَ، فقالَ سلمانُ الفَارسيُّ: يا رَسُولَ اللهِ إنَّا كُنَّا بأرضِ فارسٍ إذا خِفْنا العَدُوَّ حفرنَا خندقاً.. فأعجبتِ المسلمينَ فِكْرَةُ الخَنْدَقِ، واستراحُوا لها.. وباشروا بالعملِ، ولَمَّا وصلَ الأحزابُ فُوجِئوا بالخندقِ، وهكذا وقفَ الفريقان أمامَ الخَنْدَقِ وجهاً لوجهٍ، المسلمونَ في قِلَّةِ عَدَدِهِم وَضَعْفِ عُدَّتِهم، والمشركونَ في كثرةِ جُموعِهِم وَضَخَامَةِ استِعْدادِهِم.. ووقفَ الجيشَان أياماً يَرْقب كلٌّ منهما الآخَرَ.

وطالَ التَّرَبُّصُ والانتظارُ بالأحزابِ، وليس بَيْنَهُم وبينَ المسلمينَ إلاَّ تبادُل السِّهام والنِّبالِ مِن بعيدٍ وخشيَ حُيَيُّ بنُ أخطب أن تُفْلتَ الفرصةُ مِن يَدَيْهِ، ورأى أنه لا سبيلَ إلىٰ دُخُولِ المدينةِ إلاَّ من ناحيةِ بَني قريظةَ، وكان بنُو قريظة لا يزالونَ علىٰ عَهْدِهِم لرسولِ الله ﷺ، فَذَهبَ إلىٰ زعيمِهِم كَعْب بنِ أسدٍ فأغلقَ عليه البابَ، وبدأ يَحْتَال عليهِ حتَّىٰ دخلَ إلىٰ حِصْنِهِ، فقالَ لَهُ: يا كعبُ إنَّما جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ.. جِئْتُكَ بِقُرَيشٍ وسادَتِها، وغطفانَ وزعمائِها، قد تَعَاهَدُوا علىٰ أن يستأصلُوا محمَّداً ومن مَعَهُ. فقال كعبُ: جِئْتَنِي بذلِّ الدَّهْرِ. ويحكَ يا حُيَيّ: دَعْنِي فلستُ بفاعلٍ ما تَدْعُونِي إليه، فإنِّي لم أرَ من محمَّدٍ إلاَّ وفاءً وَصِدْقاً!! فَلَمْ

يزل حُيَيّ بنُ أخطب يحتالُ علىٰ كعبٍ يَعدُهُ ويُغْرِيْه حتىٰ قَبِلَ معَهُ، وعاقَدَهُ علىٰ الغَدْرِ بمحمَّدٍ وأصحابِهِ وأن يسيرَ مَعَهُم، ثُمَّ وعَدَهُ حُيَيّ قائلاً: إنِ انْصَرَفَت قريشُ وغطفانُ، دَخَلْتُ عِنْدَكَ بمن مَعي مِنَ اليهود نُدافعُ عنك.

ولّما عَلِمَ رسولُ الله ﷺ بما كانَ مِن غَدْرِ بني قريظة، بَعَثَ إليهم سعدَ بنَ معاذٍ، سيّد الأوسِ وَسَعْدَ بنَ عبادَةَ سَيِّد الخزرج، في نفرٍ من أصحابِه، وقالَ لهم: «انطلِقُوا إلىٰ بني قريظةَ، فإن كانَ ما قيلَ لنا حقاً فالْحنُوا لنا لحناً، ولا تَذكُروا ذلك بينَ النَّاسِ وإن كانَ كَذِباً فاجْهَرُوا بهِ للنَّاسِ» فانطلَقُوا حتىٰ أتوهم، فَوَجَدُوهم علىٰ أخبثِ ما قيلَ له عنهم، ونَالُوا من رسولِ اللهِ ﷺ وقالوا: «لا عهدَ له عِنْدَنا» فَجَعَلَ سعدُ بنُ معاذٍ يناشِدُهم الوفاءَ ويحذِّرهُم عاقِبَةَ الخِيانَةِ والغدرِ ويقولُ لهم فيما يقول: أخشىٰ عَلَيْكُم مِثْلَ يوم بَنِي النَّضِيْرِ وأمرّ منه.. فأفحَشُوا له بالقولِ، حتىٰ شَتَمُوه وشاتَمَهُم، فقال له سعد بن عبادة: دَع عنك مُشَاتَمَتَهُم، فالذي بينَنَا وبينَهُم أكثرَ مِن ذَلِكَ.. ثمَّ رَجَعَ سعدُ بنُ معاذٍ وسعدُ بنُ عبادَةَ حتىٰ وَصَلا إلىٰ الرَّسولِ ﷺ في جماعة المسلمينَ فقَالا: «عُضَلُ والقَارَةُ» يَقْصِدَان أنهم وَجَدُوا عند اليهودِ الغَدْرَ والخيانَةَ كخيانَةِ هاتين القبيلَتَيْنِ للمسلمينَ من قبلُ، فقالَ ﷺ: «أبْشِرُوا يا معشرَ المُسْلمين».

وهكذا انْتَشَرَ الخبرُ بينَ المسلمينَ فاشْتَدَّ البلاءُ وَعَظُم الخَوف، وَظَنُّوا أنهم هَلْكَىٰ لا مَحَالةَ، وكانُوا كما قال اللهُ تعالىٰ: ﴿إذ جاؤُوكُم من فَوْقِكم ومن أسْفَلَ مِنْكُم، وإذ زَاغَتِ الأبصارُ وَبَلَغَتِ القلوبُ الحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ باللهِ الظُّنُونا ۝ هُنَالِكَ ابتُلِيَ المؤمنونَ وَزُلْزِلُوا زلزالاً شديداً﴾ [الأحزاب: ١٠-١١] فَلَمَّا رأى النبيُّ ﷺ ما بالناسِ من البلاءِ والكَرْبِ، جَعَلَ يُبَشِّرُهُم ويقولُ لهم: «والَّذي نَفْسِي بيدهِ لَيُفرِّجَنَّ اللهُ عنكُم ما تَرَوْنَ مِنَ الشِّدَةِ، وإني لأرجو أن أطوفَ بالبيتِ

العتيقِ آمناً ، وأنْ يَدْفَعَ اللهُ إليَّ مفاتيح الكعبةِ ، وليُهلكَنَّ اللهُ كِسْرى وقيصرَ ، ولتُنفِقُنَّ كنوزَهُما في سبيلِ اللهِ » . [الرحيق المختوم].

وهَمَّت بنو قريظةَ أن يُغيروا على المدينةِ ليلاً ، وَيَغْدرُوا برسولِ اللهِ ﷺ فعلِمَ بذلك رسولُ اللهِ ﷺ ، فبعثَ رجلاً يقالُ له ، سلَمَة بن أسلم و أرسل معه « ٢٠٠ » رجلٍ ، وأرسلَ زيدَ بن حارثةَ ومعه « ٣٠٠ » رجل يَحْرِسُونَ المدينةَ. وأحاطَ المشركون بالمسلمينَ حتى جَعَلُوهُم في مثلِ الحِصْنِ من كَتائِبِهِم ، وبلغَ الأمرُ غايَتَهُ فجعلَ رسولُ اللهِ ﷺ يقول : « اللَّهُمَّ إني أُنْشِدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ ! اللَّهُمَّ إنكَ إن تشأ لا تُعْبد.. اللهمَّ ادفع عَنَّا شَرَّهُم وانْصُرْنَا عليهم لا يَغْلِبُهُم إلا أنتَ » وحُصِرَ رسولُ الله وأصحابُه بضع عشرةَ ليلةً ، فأرادَ ﷺ أن يصالحَ غَطَفَانَ ، على أن يُعْطِيَهُم ثُلُثَ ما يَخْرُجُ من ثمارِ المدينةِ وَيَنْصَرِفُوا عنه ، فلم تَقْبَل بذلكَ الأنصارُ ، فتركَ ﷺ ما كانَ أرادَ مِن ذلكَ.

وفي نهايةِ المطافِ لم يتحَقَّق الذي جاؤوا لأجلِهِ ، وردَّ اللهُ كيدَهُم ، وسلَّطَ عليهم الرِّيحَ تَنْزِعُ خيمَهم ، وتأفكُ قُدُرَهم ، إلى أن أمرهُم أبو سفيانَ بالرجوعِ والرحيلِ فارتحلُوا.

ومَع شُروقِ الشَّمْسِ نظرَ المسلمونَ فلم يَجِدُوا أحداً من جُمُوعِ العَدُوِّ الحاشِدَةِ ، فَعَلِمُوا أنَّها عنايةُ اللهِ تعالى بهم. وازدادُوا إيماناً بأنَّهم على حقٍّ ، وأنَّ اللهَ نَاصِرَهُم على عَدُوِّهم أبداً.. ونظرَ الرسولُ الكريمُ ﷺ إلى أصحابِه نظرةً يملؤُها الأملُ والثِّقَةُ باللهِ وقالَ : « الآنَ نَغْزُوهُم ولا يَغْزُونَنَا » ثم هتفَ وهتفَ وراءهُ أصحابُه : « لا إلهَ إلاَّ الله وحدَه ، صَدَقَ وعدَه ، ونصرَ عَبْدَهُ ، وأعزَّ جُنْدَه ، وهزَمَ الأحزابَ وحدَه.. لا شيءَ قَبْلَه ولا شيءَ بَعدَه » .

ثمَّ إن غدْرَ بني قريظةَ كان هو الثَّغرة الوحيدة التي آذَتِ المسلمِينَ والتي لولاهَا لما استطاعَ المشركونَ أن يَجِدُوا إلىٰ المسلمينَ سبيلاً، فقد وَقفُوا أمامَ الخَنْدَقِ طويلاً، وطافُوا به كثيراً وحاولُوا أكثرَ مِنْ مَرَّةٍ أن يجدُوا فيه مَنْفَذاً ينفذُون منه إلىٰ المسلمينَ، فلمْ يَقْدِرُوا.. لكنَّ دخول بني قريظة في زُمْرَةِ الأحزابِ وَنَقْضِهِم العهدَ مع المسلمينَ، كان هو السببَ الذي أعادَ الأملَ قوياً إلىٰ نفوسِ المشركينَ، وهذا الغدرُ أوشكَ أن يكونَ فيه فناءُ دولةِ الإسلامِ، والحقّ أنَّ عَمَلَ بني قريظةَ هذا لم يكن نَقْضاً لعهُودِهِم وحسبُ، بَلْ غدراً وخيانةً في وقت واحدٍ فماذا يكونُ جزاءُ الذين يَغْدِرُون هذا الغَدْرَ ؟.. [الرحيق المختوم].

لذا لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْخَنْدَقِ، وَضَعَ السِّلاَحَ، فَاغْتَسَلَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَنْفُضُ رَأسَهُ مِنَ الْغُبَارِ، فَقَالَ: وَضَعْتَ السِّلاَحَ؟ وَاللهِ مَا وَضَعْنَاهُ، اخْرُجْ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « فَأَيْنَ؟ » فَأَشَارَ إِلَىٰ بَنِي قُرَيْظَةَ. [متفق عليه]

عَن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ غُبَارِ مَوْكِبِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلام سَاطِعًا فِي سِكَّةِ بَنِي غَنْمٍ، حِينَ سَارَ إِلَىٰ بَنِي قُرَيْظَةَ. [رواه البخاري].

فَنَادَى فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ انْصَرَفَ عَنِ الأَحْزَابِ « أَنْ لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الظُّهْرَ إِلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ » فَتَخَوَّفَ نَاسٌ فَوْتَ الْوَقْتِ، فَصَلَّوْا دُونَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَقَالَ آخَرُونَ: لاَ نُصَلِّي إِلاَّ حَيْثُ أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَإِنْ فَاتَنَا الْوَقْتُ، قَالَ: فَمَا عَنَّفَ وَاحِداً مِنَ الْفَرِيقَيْنِ. [متفق عليه].

قالت عائشةُ رضي الله عنها: فَلَبِسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأْمَتَهُ، وَأَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالرَّحِيلِ أَنْ يَخْرُجُوا، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَمَرَّ عَلَىٰ بَنِي غَنْمٍ، وَهُمْ جِيرَانُ الْمَسْجِدِ حَوْلَهُ، فَقَالَ: « مَن مَرَّ بِكُمْ؟ » فَقَالُوا: مَرَّ بِنَا دِحْيَةُ الكَلْبِيُّ، وَكَانَ دِحْيَةُ الكَلْبِيُّ تُشْبِهُ لِحْيَتُهُ وَسِنُّهُ وَوَجْهُهُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلام. فَقَالَتْ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ

فَحَاصَرَهُم خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً ، فَلَمَّا اشْتَدَّ حَصْرُهُم وَاشْتَدَّ البَلاءُ ، قِيلَ لَهُم : انْزِلُوا عَلَىٰ حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَاسْتَشَارُوا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ ، فَأَشَارَ إِلَيْهِم أَنَّهُ الذَّبْحُ. قَالُوا : نَنْزِلُ عَلَىٰ حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « انْزِلُوا عَلَىٰ حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ » فَنَزَلُوا ، وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ، فَأُتِيَ بِهِ عَلَىٰ حِمَارٍ عَلَيْهِ إِكَافٌ مِن لِيفٍ ، قَد حُمِلَ عَلَيْهِ ، وَحَفَّ بِهِ قَوْمُهُ ، فَقَالُوا : يَا أَبَا عَمْرٍو ، حُلَفَاؤُكَ وَمَوَالِيكَ وَأَهْلُ النِّكَايَةِ وَمَن قَد عَلِمْتَ. قَالَتْ : وَأَنَّىٰ لا يُرْجِعُ إِلَيْهِم شَيْئًا ، ولا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ ، حَتَّىٰ إِذَا دَنَا مِن دُورِهِم ، التَفَتَ إِلَىٰ قَوْمِهِ ، فَقَالَ : قَد آنَ لِي أن لا أُبَالِيَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ.

قَالَ : قَالَ أَبُو سَعِيدٍ : فَلَمَّا طَلَعَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : « قُومُوا إِلَىٰ سَيِّدِكُم فَأَنْزِلُوهُ » . فَقَالَ عُمَرُ : سَيِّدُنَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ : أَنْزِلُوهُ ، فَأَنْزَلُوهُ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « احْكُم فِيهِمْ » . قَالَ سَعْدٌ : فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ ، أن تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ ، وَتُسْبَىٰ ذَرَارِيُّهُمْ ، وَتُقْسَمَ أَمْوَالُهُم - وَقَالَ يَزِيدُ بِبَغْدَادَ : وَيُقْسَمُ - فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لَقَد حَكَمْتَ فِيهِم بِحُكْمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحُكْمِ رَسُولِهِ » . [رواه أحمد ، وأصلُهُ في الصحيحين].

وغدا رسولُ الله إلىٰ سوق المدينةِ فَحَفَر فيها خنادقَ ، ثم دعا برجالِ بني قريظةَ فأتوا يَخْرُجون إليه أرسالاً [أي : جماعة بعدَ جماعةٍ] فَتُضْرَبُ أعناقُهم ويُطْرَحُون في تلكَ الخَنادِقِ ، وَلَمَّا جِيءَ بِحُيَيِّ بنِ أخْطَبَ إلىٰ بيْنِ يدَيْهِ وَوَقَعَ بَصَرُهُ ﷺ عَلَيْهِ قَالَ حُيَيٌّ : أَمَا وَاللهِ مَا لُمْت نَفْسِي فِي مُعَادَاتِك ، وَلَكِن مَن يُغَالِب اللهَ يُغْلَبْ ، ثمَّ قَالَ : يا أيُّهَا النَّاسُ لا بَأْسَ قَدَرُ اللهِ وَمَلْحَمَةٌ كُتِبَت عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، ثمَّ حُبِسَ فَضُرِبَت عُنُقُهُ. وأسلَمَ مِن بَنِي قُرَيظةَ ثلاثةُ رجالٍ ، فأمنَهُم رسولُ اللهِ ﷺ علىٰ أنْفُسِهِم وأهليْهِم وأموالِهم. [زاد المعاد : ٣/١٢٠ ، والرحيق المختوم].

(٢٨) عبدُ اللهِ بن أُبيّ ابن سلول

عبدُ اللهِ بنُ أبيّ ابنِ سَلول رأسُ المنافقينَ، وأحـدُ المبغضـينَ بشِـدَّةٍ للنبيِّ ﷺ، وكانَ قد دخلَ في الإسلامِ حفاظاً علىٰ نفسِهِ ومالِهِ.

◉ أمَّا سببُ العداوةِ: فَلَقَد كانَ قومُهُ قَبْلَ هِجْرَةِ النبيِّ ﷺ إلىٰ المدينةِ يُريـدونَ أن يُلبسُوهُ التَّاجَ ليكـونَ سيِّداً عليهم، فَلَمَّا هَـاجَرَ النبيُّ ﷺ تركُوهُ، فـاعتَبَرَ أنَّ النبيَّ ﷺ سَلَبَهُ المُلْكَ فَحَقَـدَ عليهِ مِن حينِهَا، ولبسَ ثَوبَ النِّفـاق، وراحَ يخذُل المسلمينَ مِن موقعةٍ إلىٰ أخرى.

ومن الأمثلةِ علىٰ نفاقِهِ وإيذائِهِ للنبيِّ ﷺ وأصحابِهِ ﷺ:

◉ حينَ اجتمعَ زعماءُ قريشٍ مِمَّن لم يُقْتَلُوا في غزوةِ بدرٍ، وقرَّرُوا أن يأخذُوا بالثأرِ من محمَّدٍ وأصحابِهِ، وجَـهَّزُوا جيشـاً قويـاً لذلـكَ، وَخَرَجُـوا مـن مَكَّـةَ متوجِّهينَ إلىٰ المدينةِ، وكانَ عَدَدُهُم ثلاثةَ آلافِ مقاتِلٍ.

فبلَـغَ ذلـكَ النبيّ ﷺ فَاستشـارَ أصحابَـهُ، وخَـيَّرَهُم بـينَ الخُـرُوجِ لملاقاتِـهِم وقِتَالِهِم، أو البقاءِ في المدينَةِ، فإن دَخَلُوا عليهم فيها قاتَلُوهُم، فكـانَ رأيُ بعضِ شيوخٍ من المُسْلِمينَ، عدم الخُرُوجِ من المدينةِ، وكان عبـدُ اللهِ بـن أُبـيّ ابـن سَلول من أصحـابِ هـذا الـرَّأي، غـير أنَّ كثيراً مِـنَ الصحابَةِ مِمَّـن لم يكـن لهـم شَرَف القِتَالِ في بَدْرٍ رَغِبُوا في الخروجِ، وقالوا: يـا رسولَ اللهِ اخرج بنا إلىٰ أعدائنـا، لا يرونَ أنَّا خِفْنَـاهُم وضَعُفْنـا.. ولم يـزل أصحـابُ هـذا الـرَّأي برسـولِ اللهِ ﷺ حتىٰ وافَقَهُم علىٰ ما أرادُوا، فَدَخَل بيتَهُ فَلَبِسَ دِرْعَهُ وأخذَ سِلاحَهُ.

وظنَّ الذينَ ألحُّوا علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ بالخروجِ أنَّهم قد استكْرَهُوه علىٰ ما لا

يريد، فَندِمُوا علىٰ ما كانَ مِنْهُم، ولمَّا خرجَ عليهم قالُوا: استَكْرَهْنَاكَ يا رسولَ اللهِ ولم يكن لنا ذلكَ، فإن شِئْتَ فاقْعُدْ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إذا لَبِسَ لأمَتَهُ (أي: دِرْعَهُ) أن يَضَعَها حَتَّىٰ يُقَاتِلَ».

وخرجَ النبيُّ ﷺ مِنَ المدينةِ في ألفٍ من أصحابِهِ، وذلكَ مِن شَهْرِ شَوَّالَ، حتىٰ إذا كانُوا بينَ المدينةِ وأُحدٍ، تَرَاجعَ عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ ابن سلولٍ بِثُلُثِ الجيشِ، وعامَّتُهم مِن شِيْعَتِهِ وأصحابه المنافقينَ وهو يقولُ: عَصَانِي وأطاعَ الوِلْدان، ومَن لا رأيَ لَهُ، وما نَدْرِي عَلامَ نَقْتُل أنْفُسَنا؟ ولَحِقَهم عبدُ اللهِ بنُ حرامٍ يُنَاشِدهم اللهَ أن لا يَخْذُلُوا نبيَّهم، فلم يستَجِيْبُوا لِندائهِ، فنزلَ قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُم تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَو نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُم هُم لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُم لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِم وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. [الرحيق المختوم].

◉ وفي غزوةِ بَنِي المصطلَق استَغَلَّ عبدُ اللهِ بن أبيٍّ خلافاً بني غلامين تنازعَا، عن جابر رضي الله عنه قال: كَسَعَ رَجُلٌ مِن المُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِن الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا للأنْصَارِ، وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ» فَقِيلَ: رَجُلٌ مِن المُهَاجِرِينَ: كَسَعَ رَجُلاً مِن الأَنْصَارِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ». قَالَ جَابِرٌ: وَكَانَ المُهَاجِرُونَ حِينَ قَدِمُوا المدِينَةَ أَقَلَّ مِنَ الأَنْصَارِ، ثُمَّ إِنَّ المُهَاجِرِينَ كَثُرُوا، فَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ ابنِ سلول، فَقَالَ: فَعَلُوهَا، وَاللهِ لَئِن رَجَعْنَا إِلَىٰ المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَسَمِعَ ذَلِكَ عُمَرُ، فَأَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا عُمَرُ، دَعْهُ لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ». [متفق عليه].

وفي رواية: رَاح يُـرددُ قـائلاً: واللهِ إنَّنـا عَلـىٰ حدِّ قَـولِ القَـائِل: سَـمِّن كَلْبَـك يأكلكَ!. [أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير].

◉ وبالإضافةِ إلىٰ ذلكَ: لم يألُ عبدُ اللهِ بنُ أُبيّ جهداً في موالاةِ اليهودِ، حيثُ إنَّه بَعْدَ أن نَقَضَت بنُو قَيْنقاع العَهْدَ بينهَا وبينَ رَسُول اللهِ ﷺ، قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: وَحَدَّثني عاصم بن عمر بن قتادة، قَالَ: فحاصرهم رَسُول اللهِ ﷺ حتَّىٰ نزلوا علىٰ حكمه، فقام إليه عَبْد اللهِ بن أُبي ابن سلول، حين أمكنه الله منهم، فَقَالَ: يا محمد، أحسن في موالي، وكانُوا حلفاءَ الخزْرَجَ، قَالَ: فأبطأ عليهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يا مُحَمَّد، أحسن في موالي، قَالَ: فأعرض عَنْهُ. فأدخل يده في جيب درع رَسُول اللهِ ﷺ. فَقَالَ لهُ رَسُول اللهِ ﷺ: «أرسِلْني» وغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حتَّىٰ رأوا لوجههِ ظُللاً[1]، ثمَّ قَالَ: «ويحكَ أرسِلْني» قَالَ: لا وَاللهِ لا أرسِلُكَ حتَّىٰ تحسِنَ في مواليَّ، أربعمئة حاسِر[2] وثلاثمئة دارع[3] قد منعوني من الأحمرِ والأسودِ، تحصدُهُم في غداةٍ واحدةٍ، إنِّي واللهِ امرؤٌ أخشَىٰ الدَّوائِرَ، قَالَ: فَقَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: «هم لك».

◉ ومن إيذائِهِ للنبي ﷺ ما يَذكُرُهُ الطبري: [١١ / ٣٨٦]: أنَّ عبدَ اللهِ بنَ رواحةَ كانَ جالساً مَع عبدِ اللهِ بن أُبَيّ وَرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا انصرَفَ ﷺ، قَالَ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيّ: «لَقَد آذانا بولُ حِمَارِهِ، وسدَّ عَلَينَا الرُّوحَ»! وكانَ بَينَهُ وَبَينَ ابنِ رَوَاحَةَ شيءٌ حتَّىٰ خَرَجُوا بالسِّلاح، فأتَىٰ رسولُ اللهِ ﷺ فأتاهُم، فَحَجَزَ بَيْنَهُم.

١- الظلل: جمع ظلة، وهي السحابة في الأصل، فاستعارها هنا لتغير الوجه إلىٰ السواد إذا اشتد غضبه، ويروى: ظلالاً، وهي بمعناها.

٢- الحاسر: الذي لا درع له.

٣- الدارع: الذي عليه الدرع.

● وكانَ عبدُ اللهِ بنُ أُبيّ هُوَ الَّذي أثارَ فِتْنَةَ اتِّهام عائشَةَ ﵂، وفيهِ نَزلَ قَولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُم لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُم بَل هُوَ خَيْرٌ لَكُم لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُم مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُم لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

والذي تولَّىٰ كِبرَهُ هو: عبدُ اللهِ بنُ أُبيّ ابن سلول.

ومعنىٰ الإفك: أي: الافتراءُ والكَذِبُ علىٰ عائشةَ ﵂ من إحدى غزواتِه، نَزَل منزلاً في الليل، فذهبت عائشةُ إلىٰ الخلاءِ لتقضي حاجةً لها، فَسقطَ عقدٌ لها في الطريق، فرجعَت إليه تبحثُ عنه وَتَأَخَّرت، وكان رسولُ اللهِ ﷺ علىٰ عَجلَةٍ من أمرِهِ، فأمرَ بالرَّحيلِ دون أن يعلمَ أو يَعْلَمَ أحدٌ من الرَّكْبِ بِغِيابِ أُمِّنَا عائشةَ، فَوَضَعُوا هودَجَها علىٰ بعيرِها وَهُم يظنُّونَ أنها فيه، ثُمَّ أسرعوا في السَّيرِ وَخَلَّفُوها وراءهُم.

فلما رجعت عائشةُ ﵂ إلىٰ مكانِها لم تجد فيه أحداً، فجلست في مكانِها وهي علىٰ يقينٍ بأنهم عائِدُون إليها لا محالةَ حين يَفْتَقِدونَها، ثُمَّ غَلَبَها النَّومُ فَنَامَت، وكان صفوانُ بنُ المعطَّلِ وراءَ الرَّكْبِ يتابِعُه لِيَلْتَقِطَ ما عَسَىٰ أن يكونُوا قد خَلَّفُوه من متاعٍ أو شيءٍ، فلمَّا رأى عائشةَ عَرَفَها فجعل يسترجعُ قائلاً: «إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجِعُونَ» فما زالَ يسترجعُ حتىٰ استيقظَت فلمَّا استيقظَت قَدَّمَ لها بعيرَه فَرَكِبَتْ، وانطلَقَ يَقُودُه بها حتَّىٰ دَخَلَ بهَا المدينةَ في وقتِ الظهيرَةِ. فلمَّا رآها المنافِقُ عبدُ اللهِ بنُ أُبيّ، سأَلَ: «مَن هَذِهِ؟» فَقِيلَ لَه: «عائِشَةُ» قَالَ: «امرأةُ نَبِيِّكُم باتَت مع رَجُلٍ حتَّىٰ أصبحَت ثُمَّ جاءَ يَقُودُها» فجعلَ المنافقونَ يَتَكَلَّمُون في شأنِ عائشةَ وصفوان، وانتشرَ الخَبَرُ في المدينَةِ كُلِّها بالإفكِ، حتَّىٰ نَزَلَ الوَحْيُ من

السَّماءِ ببراءتها، وكَذَّبَ الَّذين جاؤوا بهذا الإفْكِ وَأخْزَاهم، وَتَوَعَّدَهُم بالعذابِ العَظِيْمِ.

تقولُ رضي اللهُ عنهَا: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذَا أرَادَ أن يَخْرُجَ سَفَراً أقْرَعَ بَيْنَ أزْوَاجِهِ فَأيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَأقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ غزاهَا فَخَرَجَ سَهْمِي فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ فَأنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجٍ، وَأُنْزَلُ فِيهِ فَسِرْنَا حَتَّىٰ إذَا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِن غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ وَدَنَوْنَا مِن الْمَدِينَةِ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّىٰ جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأنِي أقْبَلْتُ إلَىٰ الرَّحْلِ فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإذَا عِقْدٌ لِي مِن جَزْعِ أظْفَارٍ قَد انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، فَأقْبَلَ الَّذِينَ يَرْحَلُونَ لِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَىٰ بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أرْكَبُ وَهُم يَحْسَبُونَ أنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إذ ذَاكَ خِفَافاً لَم يَثْقُلْنَ وَلَم يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، وَإنَّمَا يَأكُلْنَ الْعُلْقَةَ مِن الطَّعَامِ فَلَم يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ حِينَ رَفَعُوهُ ثِقَلَ الْهَوْدَجِ فَاحْتَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنْزِلَهُم وَلَيْسَ فِيهِ أحَدٌ فَأمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، فَظَنَنْتُ أنَّهُم سَيَفْقِدُونَنِي فَيَرْجِعُونَ إلَيَّ، فَبَيْنَا أنَا جَالِسَةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ مِن وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأى سَوَادَ إنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأتَانِي وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ أنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ يَدَهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّىٰ أتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا مُعَرِّسِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَن هَلَكَ وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّىٰ الإفْكَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ.

فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ بِهَا شَهْراً وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ مِن قَوْلِ أصْحَابِ الإفْكِ

وَيَرِيبُنِي فِي وَجَعِي، أَنِّي لا أَرَى مِن النَّبِيِّ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرَضُ، إِنَّمَا يَدْخُلُ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تِيكُمْ؟» لا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِن ذَلِكَ حَتَّىٰ نَقَهْتُ فَخَرَجْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ مُتَبَرَّزُنَا، لا نَخْرُجُ إِلاَّ لَيْلاً إِلَىٰ لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَن نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيباً مِن بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الأُوَلِ فِي الْبَرِّيَّةِ أَو فِي التَّنَزُّهِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أَبِي رُهْمٍ نَمْشِي فَعَثَرَت فِي مِرْطِهَا فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ. فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ! أَتَسُبِّينَ رَجُلاً شَهِدَ بَدْراً؟

فَقَالَتْ: يَا هَنْتَاه أَلَم تَسْمَعِي مَا قَالُوا؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ فَٱزْدَدْتُ مَرَضاً عَلَىٰ مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَىٰ بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَلَّمَ فَقَالَ: «كَيْفَ تِيكُمْ؟» فَقُلْتُ: ٱئْذَن لِي إِلَىٰ أَبَوَيَّ. قَالَت: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَن أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِن قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَتَيْتُ أَبَوَيَّ فَقُلْتُ لأُمِّي: مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ؟ فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَىٰ نَفْسِكِ الشَّأْنَ، فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَت امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلاَّ أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا.

فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ وَلَقَد تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟ قَالَت: فَبِتُّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّىٰ أَصْبَحْتُ لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ (أي: تأخَّر) يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ مِن الْوُدِّ لَهُم فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلُكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَلا نَعْلَمُ وَاللهِ إِلاَّ خَيْراً، وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لَم يُضَيِّقِ اللهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ.

فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَرِيرَةَ فَقَالَ: «يَا بَرِيرَةُ هَل رَأَيْتِ فِيهَا شَيْئاً يَرِيبُكِ؟»

فَقَالَت بَرِيرَةُ: لا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِن رَأَيْتُ مِنْهَا أَمْراً أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا قَطُّ

أكْثَرَ مِن أنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَن الْعَجِينِ فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأكُلُهُ.

فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِن يَوْمِهِ فَاسْتَعْذَرَ مِن عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَن يَعْذُرُنِي مِن رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَىٰ أَهْلِي إِلاَّ خَيْراً، وَقَد ذَكَرُوا رَجُلاً مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلاَّ خَيْراً، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَىٰ أَهْلِي إِلاَّ مَعِي». فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا وَاللهِ أَعْذُرُكَ مِنْهُ، إِن كَانَ مِن الأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ، وَإِن كَانَ مِن إِخْوَانِنَا مِن الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا فِيهِ أَمْرَكَ.

فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلاً صَالِحاً وَلَكِن احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لا تَقْتُلُهُ وَلا تَقْدِرُ عَلَىٰ ذَلِكَ.

فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ، وَاللهِ لَنَقْتُلَنَّهُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَن الْمُنَافِقِينَ. فَثَارَ الْحَيَّانِ الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّىٰ هَمُّوا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ فَنَزَلَ فَخَفَّضَهُم حَتَّىٰ سَكَتُوا وَسَكَتَ، وَبَكَيْتُ يَوْمِي لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ فَأَصْبَحَ عِنْدِي أَبَوَايَ وَقَد بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْماً، حَتَّىٰ أَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي قَالَت: فَبَيْنَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي إِذ اسْتَأْذَنَت امْرَأَةٌ مِن الأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَت تَبْكِي مَعِي، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَجَلَسَ وَلَم يَجْلِس عِنْدِي مِن يَوْمِ قِيلَ فِيَّ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَد مَكَثَ شَهْراً لا يُوحَىٰ إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ قَالَت: فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِن كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِن كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ».

فَلَمَّا قَضَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّىٰ مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، وَقُلْتُ لأَبِي: أَجِب عَنِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ. قَالَ: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَقُلْتُ لأمِّي : أجيبِي عَنِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا قَالَ.

قَالَت : وَاللهِ مَا أدْرِي مَا أقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَت : وَأنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لا أقْرَأ كَثِيراً مِن الْقُرْآنِ ، فَقُلْتُ : إنِّي وَاللهِ لَقَد عَلِمْتُ أنَّكُم سَمِعْتُم مَا يَتحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ ، وَوَقَرَ فِي أنْفُسِكُم وَصَدَّقْتُم بِهِ ، وَلَئِن قُلْتُ لَكُم إنِّي بَرِيئَةٌ وَاللهُ يَعْلَمُ إنِّي لَبَرِيئَةٌ لا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ ، وَلَئِن اعْتَرَفْتُ لَكُم بِأمْرٍ وَاللهُ يَعْلَمُ أنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي ، وَاللهِ مَا أجِدُ لِي وَلَكُم مَثَلاً إلاَّ أبَا يُوسُفَ إذ قَالَ : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾. ثُمَّ تَحَوَّلْتُ عَلَىٰ فِرَاشِي وَأنَا أرْجُو أن يُبرِّئَنِي اللهُ ، وَلَكِن وَاللهِ مَا ظَنَنْتُ أن يُنْزِلَ فِي شَأنِي وَحْياً وَلأنَا أحْقَرُ فِي نَفْسِي مِن أن يُتَكَلَّمَ بِالْقُرآنِ فِي أمْرِي ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أرْجُو أن يَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبرِّئُنِي اللهُ ، فَوَاللهِ مَا رَامَ مَجْلِسَهُ وَلا خَرَجَ أحَدٌ مِن أهْلِ الْبَيْتِ حَتَّىٰ أنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ ، فَأخَذَهُ مَا كَانَ يَأخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ حَتَّىٰ إنَّهُ لَيَتحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِن الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ فَكَانَ أوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أن قَالَ لِي : « يَا عَائِشَةُ احْمَدِي اللهَ فَقَد بَرَّأكِ اللهُ ».

فَقَالَت لِي أمِّي : قُومِي إلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقُلْتُ : لا وَاللهِ لا أقُومُ إلَيْهِ وَلا أحْمَدُ إلاَّ اللهَ ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿إنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ﴾ الآيَات.

فَلَمَّا أنْزَلَ اللهُ هَذَا فِي بَرَاءتِي قَالَ أبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه : ـ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَىٰ مِسْطَحِ بْنِ أثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ ـ وَاللهِ لا أُنْفِقُ عَلَىٰ مِسْطَحٍ شَيْئاً أبَداً بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ. فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿وَلا يَأتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُم وَالسَّعَةِ أن يُؤْتُوا ـ إلَىٰ قَوْلِهِ ـ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فَقَالَ أبُو بَكْرٍ : بَلَىٰ ، وَاللهِ إنِّي لأُحِبُّ أن يَغْفِرَ اللهُ لِي فَرَجَعَ إلَىٰ مِسْطَحِ الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ.

وكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَن أَمْرِي فَقَالَ: «يَا زَيْنَبُ مَا عَلِمْتِ مَا رَأَيْتِ؟» فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلاَّ خَيْراً. قَالَت: وَهِيَ الَّتِي كَانَت تُسَامِينِي فَعَصَمَهَا اللهُ بِالْوَرَعِ». [متفق عليه].

◉ ولما حضرت الوفاةُ عبدَ اللهِ بن أُبَيٍّ جاء ابنه عبدُ الله إلىٰ رسول الله ﷺ.

عَن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قالَ: «أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبَيٍّ لَمَّا تُوُفِّيَ جَاءَ ابْنُهُ إِلىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَعْطِنِي قَمِيصَكَ أُكَفِّنْهُ فِيهِ، وَصَلِّ عَلَيْهِ وَاسْتَغْفِر لَهُ. فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَمِيصَهُ فَقَالَ: آذِنِّي أُصَلِّي عَلَيْهِ. فَآذَنَهُ.

فَلَمَّا أَرَادَ أَن يصَلِّيَ عَلَيْهِ جَذَبَهُ عُمَرُ رضي الله عنه فَقَالَ: أَلَيْسَ اللهُ قَد نَهَاكَ أَن تُصَلِّيَ عَلَىٰ الْمُنَافِقِينَ؟ فَقَالَ: أَنَا بَيْنَ خِيرَتَيْنِ قَالَ: ﴿اسْتَغْفِر لَهُم أَو لا تَسْتَغْفِر لَهُم إِن تَسْتَغْفِر لَهُم سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] فَصَلَّىٰ عَلَيْهِ فَنَزَلَت ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَداً﴾ [التوبة: ٨٤]». [متفق عليه].

وفي روايةٍ للبخاري: فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَثَبْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُصَلِّي عَلَىٰ ابنِ أَبَيٍّ وَقَد قَالَ يَوْمَ كَذَا وكَذَا كَذَا وكَذَا - أُعَدِّدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ - فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: أَخِّر عَنِّي يَا عُمَرُ. فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ قَالَ: إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ. لَو أَعْلَمُ أَنِّي إِن زِدْتُ عَلَىٰ السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا. قَالَ فَصَلَّىٰ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَلَم يَمْكُث إِلا يَسِيراً حَتَّىٰ نَزَلَت الآيَتَان مِن بَرَاءةٌ ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَداً﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَهُم فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤] قَالَ: فَعَجِبْتُ بَعْدُ مِن جُرْأَتِي عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ، وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ».

◉ وَعَن جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: «أَتَىٰ النَّبِيُّ ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ بَعْدَ مَا دُفِنَ، فَأَخْرَجَهُ فَنَفَثَ فِيهِ مِن رِيقِهِ، وَأَلبَسَهُ قَمِيصَهُ». [متفق عليه].

(٢٩) مسيلمةُ الكذاب

مُسيلمة الكذَّاب: أحدُ الَّذين ادَّعُوا النُّبوةَ، وسمَّىٰ نَفْسَهُ رَحْمَنَ اليَمامَة فكَسَاهُ اللهُ جِلْبَابَ الكذِبِ واشْتُهِرَ بهِ، فَلا يُقَال إلاَّ مُسيلمة الكذَّاب، فصَارَ يُضْرَبُ بهِ المثلُ في الكَذِب بينَ أهلِ الحضَرِ مِن أهلِ المدَرِ، وأهل الوَبَرِ مِن أهلِ البادِيةِ والأعراب.

◉ عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: قَدِمَ مُسَيْلِمَةُ الكَذَّابُ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ: إِن جَعَلَ لِي مُحَمَّدٌ الأَمْرَ مِن بَعْدِهِ تَبِعْتُهُ، وَقَدِمَهَا فِي بَشَرٍ كَثِيرٍ مِن قَوْمِهِ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَعَهُ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ ـ وَفِي يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قِطْعَةُ جَرِيدٍ ـ حَتَّىٰ وَقَفَ عَلَىٰ مُسَيْلِمَةَ فِي أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «لَو سَأَلتَنِي هَذِهِ القِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا، وَلَن تَعْدُوَ أَمْرَ اللهِ فِيكَ، وَلَئِن أَدْبَرْتَ لَيَعْقِرَنَّكَ اللهُ، وَإِنِّي لأَرَاكَ الَّذِي أُرِيتُ فِيكَ مَا رَأَيْتُ». [متفق عليه].

◉ والرؤيا هي ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ فِي يَدَيَّ سِوَارَيْنِ مِن ذَهَبٍ فَأَهَمَّنِي شَأنهُمَا، فَأُوحِيَ إِلَيَّ فِي المَنَامِ أن انْفُخْهُمَا. فَنَفَخْتُهُمَا، فَطَارَا. فَأَوَّلتُهُمَا كَذَّابَيْنِ يَخْرُجَانِ بَعْدِي، فَكَانَ أَحَدُهُمَا العَنْسِيَّ، وَالآخَرُ مُسَيْلِمَةَ الكَذَّابَ صَاحِبَ اليَمَامَةِ». [متفق عليه].

◉ ولقد وفَدَ علىٰ مسيلمةَ الكذاب عَمرُو بنُ العاصِ، بَعْدَ بعثةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَبْلَ أن يُسلِم عَمرو، وكانَ صديقاً له في الجاهِلِيَّة، فقَالَ مُسيلمةُ: ماذا أُنزلَ علىٰ صَاحِبِكُم في هذهِ المدَّة؟ فقال عَمْرو: لقد أُنزِلَ عليهِ سُورةٌ وجيزة، قال: ومَا هِيَ؟ فقالَ: سورة العَصْر وتلاهَا عليهِ، فَقَالَ مُسيلمةُ: وأنا لقد أُنزِلَ عَلَيَّ

مِثلهَا ثمَّ قَالَ: (يَا وَبَر يَا وَبر إنَّمَا أنتَ أذنان وصَـدْر وسائرك حفر نقر) ثمَّ قَالَ: كيفَ تَرَى يا عَمرو؟ فقَال لَهُ عمرو: واللهِ إنَّكَ لتَعْلَم أنّي أعلَمُ أنَّكَ تكذِب.

[تفسير ابن كثير / سورة يونس]. ولهُ أيضاً: [في تفسير سورة يس] قالَ:

◉ ولما اشتدَّ أمرُ مُسيلمة الكَذَّاب بعثَ إليهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَبيبَ بنَ زَيدٍ يدعوهُ للرّجُوع عَن غيِّهِ فَجَعَل مُسيلمةُ يسأل حَبيباً فيقولُ: أتشهَد أنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ، فيقولُ حَبيب: نَعَم، ثمَّ يَقُول: أتَشْهَد أنّي رسولُ اللهِ، فيقُول حَبيب: لا أسمعُ، في أُذنيَّ صممٌ.

فَجَعَل مسيلمةُ اللَّعين يأمر السيَّاف أن يُقَطِّع حبيباً عُضواً عُضواً، وكلَّما سَألَهُ لم يَزدهُ عَن ذلكَ حتَّىٰ مَاتَ بينَ يديهِ وهو يقول: أشهدُ أنَّ محمداً رسولُ اللهِ.

◉ واشتدَّ أمرُ مسيلمةَ، فَرَاحَ يُشرِّع الأحكامَ لقومِهِ، مِن ذلكَ أنَّهُ وفَدَ علىٰ مُتَنبِّئةٍ تُدعىٰ (سجاح) فأعجبَهُ جَمَالهَا فقرَّر أن يَتزوَّجهَا، فَجَعَلَ مَهْرَها أن أسقَطَ عَن قومهِ وجوبَ صَلاتي الصُّبح والمغربِ حَسَب ادِّعائِهِ.

◉ وعَن نُعيم بن مَسعود قال: إنَّ رَسُولَيّ مُسيلمةَ قَدِما علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ فقَال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لولا أنَّ الرُّسُل لا تُقْتَل لَضَربتُ أعناقكُمَا».

وكَتَبَ مَعَهُما:

«من محمَّد رَسُول اللهِ إلىٰ مسيلمةَ الكذَّاب أمَّا بَعْد: فإنَّ الأرضَ للهِ يُورثهَا مَن يشاءُ مِن عبادِهِ والعاقبةُ للمتَّقين».

قَالَ: وقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّىٰ يخرُجَ ثلاثونَ كذَّاباً كُلّهُم يَزعُم أنهُ نَبيّ». [رواه الطبراني، وأبو داود مختصراً، وقال الهيثمي في «المجمع»: رواه الطبراني من طريق ابن إسحاق قال: حدثني شيخ من أشجع، ولم يسمعه وسمَّاه أبو داود: سعد بن طارق، وبقية رجاله ثقات].

◉ ولما لحِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بالرَّفيقِ الأعلَىٰ ازدادَ بلاءُ مسيلمةَ: فمَا كانَ مِن أبي بكر إلاَّ أن جهَّزَ لَهُ جيشاً بقيادَةِ خَالِد بنِ الوليد رضي الله عنه في جَمْع كثيرٍ مِن الصحابةِ فقَاتَلُوهُ قِتالاً مريراً حتَّىٰ خَذَلَهُ اللهُ تعالىٰ، وقُتِلَ علىٰ يَدِ وَحشيٍّ بنِ حَربٍ رضي الله عنه.

روى البخاريُّ في (صحيحه) عن وحشي رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَخرَجَ مُسَيْلِمَةُ الكَذَّابُ قُلتُ: لأخْرُجَنَّ إلىٰ مُسَيْلِمَةَ لعَلِّي أقْتُلُهُ فَأكَافِئَ بِهِ حَمْزَةَ. قَال: فَخَرَجْتُ مَعَ النَّاسِ فَكَانَ مِن أمْرِهِ مَا كَانَ، قَال فَإذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي ثَلمَةِ جِدَارٍ كَأنَّهُ جَمَلٌ أوْرَقُ ثَائِرُ الرَّأسِ، قَال: فَرَمَيْتُهُ بِحَرْبَتِي، فَأضَعُهَا بَيْنَ ثَدْيَيْهِ حَتَّىٰ خَرَجَتْ مِن بَيْنِ كَتِفَيْهِ. قَال: وَوَثَبَ إليه رَجُلٌ مِن الأنْصَارِ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ عَلىٰ هَامَتِهِ. قَال: فَقَالتْ جَارِيَةٌ عَلىٰ ظَهْرِ بَيْتٍ: وا أمِيرَ المُؤْمِنِينَ، قَتَلَهُ العَبْدُ الأسْوَدُ».

❖ ❖ ❖

(٣٠) المسيحُ الدجَّال

المسيحُ في كلام العَرَب يُطلقُ علىٰ مَعنيين أحدهما: المسيح الدَّجال والأصل فيه الممسوح، لأنَّهُ ممسوحُ أحَد عينيهِ.

والمسيحُ عيسىٰ عليهِ السَّلام، وأصلُـهُ بالعبرانيةِ مشيحا بالشِّين، فَلَمَّا عَربتهُ العربُ أبدلَت مِن شينهِ سيناً، كذا في زادِ المسيرِ لابنِ الجوزي نقلاً عَن أبي عبيد.

◉ والمسيحُ الدَّجالُ أحدُ علاماتِ السَّاعةِ الكُبرى، وقَد جاءَ ذِكْرُهُ في الأحاديثِ الصَّحيحةِ، ففي صحيح البُخاريّ: «أنَّه ﷺ كانَ يَستعيذُ مِن عَذابِ القَبْرِ وعَذابِ النَّار .. ومِن فِتْنَةِ المسيح الدَّجال».

◉ وفي كتابِ الفِتَن لأبي نعيم بن حمَّاد أنَّهُ ﷺ قالَ: «يكونُ قَبْلَ خُرُوج المسيح الدَّجالِ سَنَواتٌ خدَّاعةٌ يُكذَّب فيهَا الصَّادقُ ويُصدَّقُ فيها الكاذِبُ..» الحديث.

◉ وقد حذَّر الأنبياءُ جميعُهُم مِن فتنةِ المسيح الدَّجالِ، وإن كانَ لا يُتوقّعُ خروجه في زمانِهِم حذراً عليهِم وشفقةً ورَحْمَةً بِهِم.

◉ (صفةُ الدَّجال): المسيحُ الدَّجالُ لَهُ صفاتٌ معيّنةٌ، فهو جَعْد قَطط، أعورُ العَينِ اليُمنىٰ كأنَّ عينَهُ عِنَبَةً طافيةً، مَكْتُوبٌ بيْنَ عَيْنَيْه كَافِرٌ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الدَّجَّالُ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ» ثُمَّ تَهَجَّاهَا: ك ف ر «يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُسْلِمٍ». [رواه مسلم].

وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الدَّجَّالُ أعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى، جُفَالُ الشَّعَرِ، مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ، فَنَارُهُ جَنَّةٌ وَجَنَّتُهُ نَارٌ». [رواه مسلم].

وقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «إنَّهُ مكْتُوبٌ بيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ، يَقْرَؤهُ مَنْ كرِهَ عَمَلَهُ، أوْ يَقْرَؤهُ كُلُّ مُؤمِنٍ». وقَالَ: «تَعلَّمُوا أنَّهُ لَنْ يَرَى أحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّىٰ يَمُوتَ». [رواه مسلم].

وفي روايةٍ لمسلم قالَ ﷺ: «الدَّجَّالُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ك ف ر، أيْ كَافِرٌ».

◉ (أمَّا مخرجهُ): قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الدَّجَّالَ يَخْرُجُ مِنْ أرْضٍ بِالْمَشْرِقِ يُقَالُ لَهَا: خُرَاسَانُ، يَتَّبِعُهُ أقْوَامٌ كَأَنَّ وُجُوهَهُم المَجَانُّ المُطْرَقَةُ». [صحيح: رواه أحمد].

وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تُقَاتِلُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ، فَيَفْتَحُهَا اللهُ لَكُمْ، ثُمَّ تُقَاتِلُونَ فَارِسَ، فَيَفْتَحُهَا اللهُ لَكُمْ، ثُمَّ تُقَاتِلُونَ الرُّومَ، فَيَفْتَحُهَا اللهُ لَكُمْ، ثُمَّ تُقَاتِلُونَ الدَّجَّالَ، فَيَفْتَحُهُ اللهُ لَكُمْ، قَالَ: فَقَالَ جَابِرٌ: لا يَخْرُجُ الدَّجَّالُ حَتَّىٰ يُفْتَتَحَ الرُّومُ. [صحيح: رواه أحمد].

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَتْبَعُ الدَّجَّالَ مِنْ يَهُودِ أصْبَهَانَ، سَبْعُونَ ألفاً، عَلَيْهِمُ الطَّيَالِسَةُ». [رواه مسلم]. [(الطيالسة) جمع طيلسان. والطيلسان، أعجمي معرب. قَالَ في معيار اللغة: ثوب يلبس على الكتف، يحيط بالبدن ينسج للبس. خال من التفصيل والخياطة].

وقالَ ﷺ: «يَأْتِي المَسِيحُ الدَّجَّالُ من قِبَلِ المَشْرِقِ، وَهِمَّتُهُ المَدِينَةُ، حَتَّىٰ يَنْزِلَ دَائِرَ أُحُدٍ، ثُمَّ تَصْرِفُ المَلائِكَةُ وَجْهَهُ قِبَلَ الشَّامِ، وَهُنَالِكَ يَهْلِكُ». [رواه مسلم].

◉ (لا يدخل الدَّجالُ مكَّةَ ولا المدينةَ) قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إلاَّ سَيَطَؤهُ الدَّجَّالُ، إلاَّ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، وَلَيْسَ نَقْبٌ مِنْ أنْقَابِهَا إلاَّ عَلَيْهِ الْمَلاَئِكَةُ صَافِّينَ تَحْرُسُهَا، فَيَنْزِلُ بِالسَّبَخَةِ، فَتَرْجُفُ الْمَدِينَةُ ثَلاَثَ رَجَفَاتٍ، يَخْرُجُ إلَيْهِ مِنْهَا كُلُّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ». [متفق عليه]. (السبخة) بالأرض التي لا تنبت لملوحتها ونزها (فترجف) فتزلزل. وقيل: يُشاعُ بينَ النَّاس أنَّ الدجالَ قد خرجَ فيخرج إليه منها كلّ منافق ومنافقة.

◉ (فتنةُ الدَّجال) أمَّا فِتْنَةُ الدَّجَّالِ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لأنَا أعْلَمُ بِمَا مَعَ الدَّجَّالِ مِنْهُ، مَعَهُ نَهْرَانِ يَجْرِيَانِ، أَحَدُهُمَا رَأْيَ الْعَيْنِ مَاءٌ أَبْيَضُ، وَالآخَرُ رَأْيَ الْعَيْنِ، نَارٌ تَأَجَّجُ، فَإمَّا أدْرَكَنَّ أَحَدٌ فَلْيَأْتِ النَّهْرَ الَّذِي يَرَاهُ نَاراً وَلْيُغَمِّضْ، ثُمَّ لِيُطَأْطِئْ رَأْسَهُ فَيَشْرَبَ مِنْهُ، فَإنَّهُ مَاءٌ بَارِدٌ، وَإنَّ الدَّجَّالَ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ، عَلَيْهَا ظَفَرَةٌ غَلِيظَةٌ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ، يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، كَاتِبٍ وَغَيْرِ كَاتِبٍ». [رواه مسلم].

وفِي روايةٍ لَهُ: «إنَّ مَعَهُ مَاءً وَنَاراً، فَنَارُهُ مَاءٌ بَارِدٌ، وَمَاؤُهُ نَارٌ، فَلاَ تَهْلِكُوا».

◉ (العصمة من الدَّجال): قَالَ النبيُّ ﷺ: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ». وفي رواية: «مِنْ آخِرِ سُورَةِ الكَهْفِ». [رواه مسلم].

◉ (أشدّ الناسِ علىٰ الدَّجال): قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: لاَ أَزَالُ أُحِبُّ بَنِي تَمِيمٍ مِنْ ثَلاَثٍ، سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «هُمْ أَشَدُّ أُمَّتِي عَلَىٰ الدَّجَّالِ». [رواه مسلم].

◉ (أعْظَمُ النَّاسِ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فَيَتَوَجَّهُ قبلَه رَجُلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَيَتَلَقَّاهُ الْمَسَالِحُ: مَسَالِحُ الدَّجَّالِ، فَيَقُولُونَ لَهُ: إلىٰ أيْنَ تَعمِدُ؟ فيَقُولُ: أعْمِدُ إلىٰ هَذَا الَّذي خَرَجَ، فيقولُونَ لَهُ: أوَ مَا تُؤْمِنُ بِرَبِّنَا فيقُولُ: مَا بِرَبِّنَا خَفَاءٌ فيقولُونَ: اقْتُلُوه، فيقُول بَعْضُهُمْ لبَعْضٍ: ألَيْسَ قَدْ نَهاكُمْ رَبّكُمْ أنْ تَقْتُلوا أحَداً دونَه، فَيَنْطَلِقُونَ بِهِ إلىٰ الدَّجَّالِ، فإذا رآه الْمُؤْمِنُ قالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ: إنَّ هَذَا الدَّجَّالُ الَّذي ذَكَرَ رَسُولُ الله ﷺ فَيَأمُرُ الدَّجَّالُ بِهِ فَيُشَبَّح، فَيَقُولُ: خُذُوهُ وَشُجُّوهُ، فَيُوسَعُ ظَهْرُهُ وَبَطْنُهُ ضَرْباً، فيقولُ: أوَ مَا تُؤْمِنُ بي؟ فَيَقُولُ: أنْتَ الْمَسِيحُ الْكَذَّابُ فيؤمَرُ بِهِ، فَيُؤْشَرُ بِالْمِنْشَارِ مِنْ مَفْرِقِهِ حَتَّىٰ يُفرق بَيْنَ

رِجْلَيْهِ، ثُمَّ يَمْشِي الدَّجَّالُ بَيْنَ الْقِطْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: قُمْ، فَيَسْتَوِي قَائِماً، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُؤْمِنُ بِي؟ فيقولُ: مَا ازْدَدْتُ فِيكَ إِلاَّ بَصِيرَةً. ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لاَ يَفْعَلُ بَعْدِي بِأحدٍ مِنَ النّاسِ، فَيَأْخُذُهُ الدَّجَّالُ لِيَذْبَحَهُ، فَيَجْعَلُ اللهُ مَا بَيْنَ رَقَبَتِهِ إِلىٰ تَرْقُوَتِهِ نُحَاساً، فَلا يَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ سَبِيلاً، فَيَأْخُذُ بِيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ فَيَقْذِفُ بِهِ، فَيحسبُ النَّاسُ أَنَّما قَذَفَهُ إِلىٰ النَّارِ، وَإِنَّمَا أُلْقِيَ فِي الْجَنَّةِ» فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا أَعْظَمُ النَّاسِ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ»(١).

● (حديثُ الجسَّاسة ونهايةُ الدَّجال) أمَّا نهايتُهُ: فتكونُ نهايةُ فِتْنَةِ المسيح الدَّجَّال بنزولِ عِيسَىٰ عليهِ السَّلام عندَ المنارةِ البيضاء شَرقيّ دِمَشقَ بينَ مهرودتين، واضعاً كفَّيه علىٰ أجنحةِ مَلَكين فيدركَ المسيحَ الدَّجَّال في بابِ اللدِّ فيقتلهُ.

عَنِ النَّوَّاسِ بن سَمْعَانَ، قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ حَتَّىٰ ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذلِكَ فِينَا فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ حَتَّىٰ ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فقَالَ: «غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِن يَخْرُجْ، وأَنَا فِيكُم فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِن يَخرُج وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ، وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِئَةٌ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بن قَطَنٍ، فَمَن أَدْرَكَهُ مِنْكُم فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِيناً وَعَاثَ شِمَالاً، يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا لَبْثُهُ فِي الأَرْضِ؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ يَوْماً، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ

---

١ - (مسلم/٢٩٣٨، ١١٣، البخاري/٧١٣٢). (فيشبح) أي يمد علىٰ بطنه، ويروى: فيشج. (شجوه) من الشج، وهو الجرح في الرأس والوجه (فيؤشر بالمئشار) أي المنشار (مفرقه) مفرق الرأس وسطه (ترقوته) هي العظم الّذي بين ثغرة النحر والعاتق. والله تعالىٰ أعلم.

كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ فَذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: «لا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الأَرْضِ؟ قَالَ: «كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي عَلَىٰ الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِم سَارِحَتُهُم أَطْوَلَ مَا كَانَت ذُرًا وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعاً وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُم فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قوله، فَيَنصَرِفُ عَنْهُم فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْس بِأَيْدِيهِم شَيْءٌ مِن أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلاً مُمْتَلِئاً شَبَاباً فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذلِكَ إِذ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعاً كَفَّيْهِ عَلَىٰ أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلاَ يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلاَّ مَاتَ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّىٰ يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ..» [رواه مسلم].

◉ أخرج مسلم وأبو داود والترمذي عن الشَّعبي، عن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها قالت: خطبَ رسولُ اللهِ ﷺ فقالَ: «إِنِّي وَاللهِ مَا جَمَعْتُكُم لِرَغْبَةٍ وَلاَ لِرَهْبَةٍ وَلَكِن جَمَعْتُكُم لأَنَّ تَمِيماً الدَّارِيَّ كَانَ رَجُلاً نَصْرَانِيّاً فَجَاءَ فَبَايَعَ وَأَسْلَمَ، وَحَدَّثَنِي حَدِيثاً وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُم عَن المسيحِ الدَّجَّالِ، حَدَّثَنِي أَنَّهُ رَكِبَ فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ مَعَ ثَلاَثِينَ رَجُلاً مِن لَخْمٍ وَجُذَامَ، فَلَعِبَ بِهِمُ الْمَوْجُ شَهْراً فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ أَرْفَؤُوا إِلىٰ جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ حَتَّىٰ مَغْرِبِ الشَّمْسِ فَجَلَسُوا فِي أَقْرُبِ السَّفِينَةِ فَدَخَلُوا الْجَزِيرَةَ، فَلَقِيَتْهُم دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ، لا يَدْرُونَ مَا قُبُلُهُ مِن

دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشّعَرِ، فَقَالُوا: وَيْلَكِ مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسّاسَةُ، قَالُوا: وَمَا الْجَسّاسَةُ؟ قَالَتْ: أَيُّهَا الْقَوْمُ انْطَلِقُوا إِلىٰ هَـذَا الرَّجُلِ فِي الدّيْرِ فَإِنَّهُ إِلىٰ خَبَرِكُمْ بِالأَشْوَاقِ، قَالَ: لَمَّا سَمَّتْ لَنَا رَجُلاً فَرِقْنَا مِنْهَا أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً. قَالَ: فَانْطَلَقْنَا سِرَاعاً حَتَّىٰ دَخَلْنَا الدّيْرَ فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خَلْقاً، وَأَشَدّهُ وِثَاقاً. مَجْمُوعَةٌ يَدَاهُ إِلىٰ عُنُقِهِ مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلىٰ كَعْبَيْهِ بِالْحَدِيدِ. قُلْنَا: وَيْلَكَ مَا أَنْتَ؟ قَالَ: قَدْ قَدَرْتُمْ عَلَىٰ خَبَرِي فَأَخْبِرُونِي مَا أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ أُنَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ رَكِبْنَا فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيّةٍ فَصَادَفْنَا الْبَحْرَ حِينَ اغْتَلَمَ، فَلَعِبَ بِنَا الْمَوْجُ شَهْراً، ثُمّ أَرْفَأْنَا إِلىٰ جَزِيرَتِكَ هَذِهِ فَجَلَسْنَا فِي أَقْرُبِهَا، فَدَخَلْنَا الْجَزِيرَةَ فَلَقِيَتْنَا دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ لاَ يُدْرَى مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ، فَقُلْنَا: وَيْلَكِ مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ. قُلْنَا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتِ: اعْمِدُوا إِلىٰ هَـذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ فَإِنَّهُ إِلَىٰ خَبَرِكُمْ بِالأَشْوَاقِ، فَأَقْبَلْنَا إِلَيْكَ سِرَاعاً، وَفَزِعْنَا مِنْهَا وَلَمْ نَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً.

فقَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ؟ قُلْنَا: عَنْ أَيّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: أَسْأَلُكُمْ عَنْ نَخْلِهَا هَلْ يُثْمِرُ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ. قَالَ: أَمَا إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ لاَ تُثْمِرَ. قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ بُحَيْرَةِ الطَّبَرِيّةِ؟ قُلْنَا: عَنْ أَيّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: هَلْ فِيهَا مَاءٌ؟ قَالُوا: هِيَ كَثِيرَةُ المَاءِ. قَالَ: أَمَا إِنَّ مَاءهَا يُوشِكُ أَنْ يَذْهَبَ. قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ عَيْنِ زُغَرَ؟ قَالُوا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِر؟ قَالَ: هَلْ فِي الْعَيْنِ مَاءٌ؟ وَهَلْ يَزْرَعُ أَهْلُهَا بِمَاءِ الْعَيْنِ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ. هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، وَأَهْلُهَا يَزْرَعُونَ مِنْ مَائِهَا. قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَبِيّ الأُمّيّينَ مَا فَعَلَ؟ قَالُوا: قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَنَزَلَ يَثْرِبَ. قَالَ: أَقَاتَلَهُ الْعَرَبُ؟ قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: كَيْفَ صَنَعَ بِهِمْ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ عَلَىٰ مَنْ

يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبِ وَأَطَاعُوهُ. قَالَ لَهُمْ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ؟ قُلْنَا: نَعَمْ.

قَالَ: أَمَا إِنَّ ذَاكَ خَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ. وَإِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي إِنِّي أَنَا الْمَسِيحُ، وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الْخُرُوجِ فَأَخْرُجُ فَأَسِيرُ فِي الأَرْضِ فَلا أَدَعُ قَرْيَةً إِلاَّ هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا، كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً، أَوْ وَاحِداً مِنْهُمَا اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتاً يَصُدُّنِي عَنْهَا، وَإِنَّ عَلَىٰ كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلائِكَةً يَحْرُسُونَهَا.

قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَطَعَنَ بِمِخْصَرَتِهِ فِي الْمِنْبَرِ: «هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ - يَعْنِي الْمَدِينَةَ - أَلا هَلْ كُنْتُ حَدَّثْتُكُمْ ذَلِكَ؟» فَقَالَ النَّاسُ: نَعَمْ. «فَإِنَّهُ أَعْجَبَنِي حَدِيثُ تَمِيمٍ أَنَّهُ وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْهُ وَعَنِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ، أَلا إِنَّهُ فِي بَحْرِ الشَّامِ أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ، لا بَلْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، مَا هُوَ». وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَىٰ الْمَشْرِقِ.(١).

❖ ❖ ❖

---

(١) رواه مسلم، قوله: «أرفأوا» يقال: أرفأت السفينة إذا قربتها إلىٰ الشط وأدنيتها من البر، وذلك الموضع مرفأ.

وأما «أقرب» فلعله جمع قارب علىٰ غير القياس، قاله الخطابي، والقارب: سفينة صغيرة تكون إلىٰ جانب السفن البحرية يستعجلون بها حوائجهم من البر، وتكون معهم خوفاً من غرق المركب، فيلجؤون إليها.

و «الأهلب» الغليظ الشعر الخشن. و «اغتلام البحر» اضطراب أمواجه واهتياجه. و «الجساسة» فعالة من التجسّس، وهو التفحص عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال ذلك في الشر. و «النقب» الطريق في الجبل، وجمعه أنقاب. و «المخصرة» عصا أو قضيب أو سوط كانت تكون بيد الخطيب أو الملك إذا تكلم.

(٣١) يأجوجُ ومأجوج

قال اللهُ تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَت يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦].

عَن حُذَيْفَةَ بن أسيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ، فَقَالَ: «مَا تَذَاكَرُونَ؟» قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، قَالَ: «إِنَّهَا لَن تَقُومَ حَتَّىٰ تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ». فَذَكَرَ: «الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِن مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ، وَيَأجُوجَ وَمَأجُوجَ، وَثَلاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَىٰ مَحْشَرِهِمْ».[1]

◉ **(أصل خَلق يأجوج ومأجوج وأصنافهم)**: الأحاديثُ الواردةُ فيهم كثيرةٌ، وهُم مِن بَني آدم، ثمَّ من بَني يافث بن نُوح، وهم ثلاثةُ أصنافٍ:

(أ) صنفٌ أجسادهم كالأَرْزِ، وهو شَجَرٌ كبير جِداً.

(ب) وصنفٌ منهم أربعة أذرع في أربعة أذرع.

(ج) وصنفٌ يفترشُ الواحِدُ منهم أذنَهُ ويلتحفُ الأخرَى، أخرج ذلك ابن أبي حاتم مِن طريق شريح بن عبيد، عن كعبِ الأحبار.

وروى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أنَّ منهم شبراً شبراً، وشبرين شبرين، وأطولهم ثلاثة أشبار»[2].

---

(١) (صحيح) رواه مسلم ٤/٢٢٢٦، وابن حبان ١٥/٢٠١، والترمذي ٤/٤٧٧.

(٢) (موقوف) وانظر فتح الباري ١٣/١٠٧، وتحفة الأحوذي ٦/٣٥١.

وأخرج أحمد، والطبراني عن خالد بن عبد الله بن حرملة، عن خالته، مرفوعاً: «إنكُم تَقولُون لا عَدُوَّ، وإنكُم لا تَزالُون تُقَاتِلُون عَدُوّاً حتىٰ تقَاتِلُوا يأجوجَ ومَأجُوجَ: عِرَاضُ الوجُوهِ، صِغَار العُيُون، صهبُ الشِّعَاف [أي الشُّعُور] من كلِّ حَدبٍ يَنْسِلُونَ، كأنَّ وجوهَهُم المجانُّ المُطْرَقَةُ»(١).

◉ (كثرةُ أعدادِهم): أما كثرتهم، فَقَد أخرجَ ابنُ حبَّان في «صحيحه» [باب إخباره ﷺ عما يكونُ في أمَّتِهِ مِنَ الفِتَن والحوادِثِ] عن ابن مسعود رضي الله عنه رفعه، قالَ: «إنَّ يَأجُوجَ ومأجوجَ أقلّ مَا يَتْرُك أحَدُهُم مِن صُلْبِهِ ألفاً مِنَ الذُّرِّيَّةِ»(٢).

وأخرج ابن أبي حاتم، من طريق عبدِ اللهِ بن عمر، قالَ: «الجنُّ والإنسُ عَشَرَةُ أجزاءٍ، فَتِسْعَةُ أجْزَاءٍ يَأجُوجُ وَمَأجُوج وجُزْءٌ سَائِر النَّاسِ»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عَن رسولِ اللهِ قَالَ: «يَحْفِرُونَ فِي كُلِّ يَومٍ حَتَّىٰ يَكادُوا أن يَرَوْا شُعَاعَ الشَّمْسِ، فيقُولُونَ: نَرْجعُ إليهِ غداً فَيَرْجِعُونَ وهُوَ أشَدُّ مَا كَانَ، حَتَّىٰ إذَا بَلَغَت مُدَّتُهُم وَأرادَ اللهُ أن يَبْعَثَهم عَلَىٰ النَّاسِ، قَالوا: نَرْجعُ إِلَيهِ غَداً إن شَاءَ اللَّهُ، فَيرجِعُونَ إِلَيهِ كَهَيْئَةِ مَا تَركُوهُ، فَيحفِرُونَهُ، فَيَخْرُجُونَ عَلَىٰ النَّاسِ» فقالَ رسولُ اللهِ: «فَيَفِرُّ النَّاسُ مِنْهُم إِلَىٰ حُصُونِهِمْ»(٤).

---

(١) (صحيح) رواه أحمد ٥/٢٧١.

(٢) (ضعيف) رواه ابن حبان ١٥/٢٤١، والسيوطي في الدر المنثور ٥/٤٥٥.

(٣) (صحيح موقوفاً) رواه الحاكم ٤/٥٣٦، وصححه، ووافقه الذهبي في التلخيص وقال: حديث صحيح، قلت: وأمثاله لا يقال بالرأي وله حكم المرفوع والله تعالىٰ أعلم.

(٤) (صحيح) رواه الترمذي في سننه ٥/٣١٣، والحافظ ابن حجر في الفتح وقال ١٣/١٠٨، وقال: ورجاله رجال الصحيح، إلا أن قتادة مدلس، وقد رواه بعضهم عنه، فأدخل بينهما واسطة، أخرجه ابن مردويه، لكن وقع التصريح في رواية سليمان التيمي عن قتادة، بأن أبا رافع حدثه، وهو في صحيح ابن حبان .. وذكر له طرقاً، فالجملة الحديث ثابت صحيح والله أعلم.

◉ (أما خروجهم وإفسَادهُم وهلاكهم): فقد وردَ في حَالِهِم عند خروجهم ما أخرجَ مُسلم من حديثِ النَّواس بن سمعان بعد ذِكْرِ الدَّجال وهلاكِهِ عَلىٰ يَدِ عيسىٰ عليهِ السَّلام وغيره قال ﷺ: «ثُمَّ يأتِي عِيْسَىٰ قَومٌ قَد عَصَمَهُم اللهُ مِنْهُ، فَيمْسَحُ عَن وُجُوْهِهِم ويُحَدِّثُهُم بِدرَجَاتِهِم فِي الجَنَّةِ، فَبَيْنَمَا هُم كَذَلِكَ إذ أَوْحَىٰ اللهُ إِلَىٰ عِيسَىٰ: إِنِّي قَد أَخْرَجْتُ عِبَاداً لِي لا يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّز عِبَادِي إِلَىٰ الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴿وَهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ فَيَمُرُّ أَوائِلُهُم عَلَىٰ بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُم فَيَقُولُونَ: لَقَد كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ حَتَّىٰ يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِم خَيْراً مِن مِئَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَىٰ (٣) كَمَوتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ.

ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ إِلىٰ الأَرْضِ، فَلا يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلاَّ مَلأَهُ زَهَمُهُم وَنَتَنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ إِلىٰ اللهِ عزَّ وَجَلَّ، فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْراً كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُم فَتَطْرَحُهُم حَيْثُ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ قَطراً لاَ يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ [أي المرآة فِي صفائِهَا ونظافَتِهَا] ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ حَتَّىٰ أَنَّ اللَّقْحَةَ مِنَ الإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللَّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ، وَاللَّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ، فَبَيْنَمَا هُم كَذَلِكَ إِذ بَعَثَ اللهُ رِيحاً طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُم تَحْتَ آبَاطِهِم فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَىٰ شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ، فَعَلَيْهِم تَقُومُ السَّاعَةُ». [رواه مسلم].

(٣) أي قتلىٰ.

وفي رواية لمسلم وغيرهم: «فيقولونَ: لَقَد قَتلْنا مَن في الأرضِ، فَلْنَقْتُل مَن في السَّمَاءِ، فَيَرْمُونَ بِنشَّابِهِم إلىٰ السَّماءِ، فَيَرُدّ اللهُ عليهم نَشَّابَهُم مَخْضُوبةً دماً».

◉ وفي رواية: ثُمَّ يَهُزُّ أحدُهُمْ حَرْبَتَهُ، ثُمَّ يَرْمِي بِها إِلىٰ السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ إِلَيْهِمْ مُخضَّبَةً دماً، لِلْبَلاءِ والفِتْنَةِ، فبيْنَمَا هُمْ عَلَىٰ ذلِكَ يَبْعَثُ اللَّهُ دُوداً فِي أعْناقِهِمْ كَنغَفِ الجَرَادِ الَّذي يَخرُجُ في أعناقِها، فَيُصْبِحُونَ مَوْتَىٰ حَتَّىٰ لا يُسْمَعَ لَهُم حِسٌّ، فَيَقُولُ المُسْلِمُونَ: ألا رَجُلٌ يَشْرِي لَنا نَفْسَهُ، فَيَنْظُرَ مَا فَعَلَ هؤُلاءِ العَدُوّ، فَيَتَجَرَّدُ رَجُلٌ مِنهمْ لِذلكَ، مُحتَسِباً لِنفسِهِ عَلَىٰ أَنَّهُ مَقْتُولٌ، فَيَجِدُهُمْ مَوْتَىٰ بَعضُهمْ عَلَىٰ بَعضٍ، فَيُنَادِي: يَا مَعْشَرَ المُسْلِمينَ، ألا أبْشِرُوا، فَإِنَّ اللهَ قَدْ كَفَاكُمْ عَدُوَّكُمْ، فَيَخْرُجُونَ عَنْ مَدائِنِهمْ وحُصُونِهِمْ، ويُسَرِّحُونَ مَوَاشِيَهُمْ»(١).

◉ وفي رواية: وَيَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسىٰ وَأَصْحَابُهُ فَلا يَجِدُونَ مَوْضِعَ شِبْرٍ إلاَّ قَدْ مَلأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ وَدِمَاؤُهُمْ، فَيَرْغَبُونَ إلىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ، فَيُرْسِلُ عَلَيْهِمْ طَيْراً كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمْ مَطَراً لاَ يُكِنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ، فَيَغْسِلُهُ حَتَّىٰ يَتْرُكَهُ كَالزَّلَقَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ فَتُشْبِعُهُمْ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا، وَيُبَارِكُ اللهُ فِي الرِّسْلِ حَتَّىٰ إِنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإِبِلِ تَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ تَكْفِي الْقَبِيلَةَ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ تَكْفِي الْفَخِذَ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذلِكَ، إِذْ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ رِيحاً طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَىٰ سَائِرُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ، كَمَا تَتَهَارَجُ الْحُمُرُ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ» [صحيح: رواه ابن ماجه].

---

(١) (صحيح) رواه ابن حبان ١٥/ ٢٤٥، والحاكم ٤/ ٥٢٤، وأحمد ٣/ ٧٧، وأبو يعلىٰ ٢/ ٣٧٨.

(٣٢) أصحاب السبت

قالَ تَعَالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

وقالَ تَعالىٰ: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ [النساء: من الآية ٤٧].

وقالَ تَعالىٰ: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۝ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۝ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٣ - ١٦٦].

أصحابُ هذهِ الحادثةِ، جماعةٌ من اليهود، كانُوا يسكنونَ في قريةٍ ساحِليَّةٍ. اختلفَ المفسّرونَ في اسمِهَا، ودار حولها جدلٌ كثيرٌ. أمَّا القرآنُ الكريم، فَلا يذكُرُ الاسمَ ويكتفي بعرضِ القصَّةِ لأخذِ العبرةِ منهَا.

أخرجَ ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، وأبو الشيخ عَن ابنِ عباسٍ في قولِه ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ..﴾ الآيـة. قَـالَ: إنَّ اللهَ إنما افترضَ علىٰ بني إسرائيلَ اليومَ الَّذي افترض عَليكم يوم الجمعةِ، فخالفُوا إلىٰ يوم السَّبتِ فَعَظَّمُوهُ وتركُوا ما أُمِرُوا بهِ، فَلَمَّا ابتدَعُوا السَّبت ابتُلُوا فيهِ، فَحُرِّمت عليهم الحيتانُ، وهي قريةٌ يقالُ لها مدين أيلة والطّور، فكانُوا إذا كانَ يومُ السَّبت شُرِّعت لهم الحيتانُ ينظرونَ إليها في البحرِ، فإذا انقضَىٰ السبتُ ذَهَبَت فَلَم تُرَ

حتَّىٰ مِثْله مِن السَّبت المقبلِ، فإذا جاءَ السبتُ عـادت شُرَّعاً، ثـمَّ إنَّ رجـلاً منهُم أخذَ حوتاً فَحَزَمَهُ بخيطٍ ثمَّ ضَرَبَ لهُ وتداً في السَّاحِلِ وربَطَهُ وتركَهُ في المـاءِ، فَلَمَّا كانَ الغدُ جاءَ فأخَذَهُ فأكله سرّاً، فَفعَلُوا ذلكَ وهُم ينظـرونَ ولا يَتَنـاهَونَ إلاَّ بقيـة منهم، فَنَهُوهُم حتَّىٰ إذا ظهر ذلكَ في الأسواقِ علانيةً قالت طائفـةٌ للَّذين يَنْهُونـهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُم أو مُعَذِّبُهُم عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إلىٰ رَبِّكُم وَلَعَلَّهُم يَتَّقُونَ﴾ في سخطنَا أعمالهم ﴿وَلَعَلَّهُم يَتَّقُونَ﴾ فكانُوا أثلاثاً. ثلثاً نـهَىٰ، وثلثاً قَالُوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ وثلثاً أصحابُ الخطيئةِ، فما نجا إلاَّ الَّذين نهُوا وهَلَـكَ سَائِرُهُم، فأصبحَ الَّذين نَهُوا ذات غَداةٍ في مجالِسِهم يَتَفَقَّـدُونَ النَّاسَ لا يَرونـهم، وقد باتُوا من ليلَتِهم وغلَّقُـوا عليـهم دورَهُـم، فجعلُوا يقولـونَ: إنَّ للنَّاس شأناً فانظُرُوا ما شأنهُم، فاطَّلَعُوا في دُورِهم فإذا القوم قَد مُسِخُوا يعرفونَ الرَّجُلَ بعينِهِ وإنه لقردٌ، والمرأةَ بعينِها وإنهَا لقردةٌ.

وأخرجَ عبدُ الرَّزاق، وابـن جريـر، وابـن أبـي حـاتم، والبيهقي في سننه عـن عكرمة قالَ: جئتُ ابنَ عبَّاس يوماً وهو يَبكِي، وإذا المصحفُ في حجـرهِ فَقُلـتُ: ما يبكيكَ يا ابنَ عبَّـاس؟ فقـالَ: هـؤلاءِ الورَقَـات. وإذا في سـورة الأعـراف قَـالَ: تعرفُ أيلةَ؟ قُلت: نَعَم. قالَ: فإنَّهُ كانَ بهَا حيٌّ مِن يهود سيقَت الحيتانُ إليهم يَومَ السَّبتِ، ثـمَّ غَـاصَت لا يَقْـدِرُونَ عليها حتَّـىٰ يَغُوصُـوا عليـهَا بعـدَ كـدٍّ ومؤُنَـةٍ شَديدةٍ، وكانَت تأتيـهم يـومَ السَّبت شُرَّعاً بيضـاً سمانـاً كأنَّـها المـاخض، فكـانُوا كذلك برهةً مِنَ الدَّهر ثمَّ إنَّ الشيطانَ أوحَىٰ إليهم فقالَ: إنما نُهيتُم عَن أكلِهَا يومَ السَّبت فَخُذُوهَا فيهِ وكُلُوهَا في غيرهِ مِنَ الأيَّام. فقـالَت: ذلك طائفــةٌ منـهم، وقـالت طائفـةٌ: بَـل نُـهيتُم عَـن أكلِـهَا وأخذِهَـا وصَيدِهَـا في يـوم السَّبت، فَعـدَت

طائفةٌ بأنفسِهَا وأبنائِها ونسائِها، واعتزَلَت طائفةً ذات اليمين، وتَنَحَّت واعتزَلَت طائفةٌ ذات اليَسَارِ، وسكَتَت، وقالَ الأيمنونَ: ويلكُم..؟ لا تَتَعَرَّضُوا لعقوبةِ اللهِ، وقالَ الأيسرونَ ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ قالَ الأيمنونَ: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ إن يَنْتهُوا فهو أحبّ إلينا أن لا يُصَابُوا ولا يهلِكُوا، وإن لم يَنْتَهُوا فمعذرة إلىٰ ربِّكم. فَمَضُوا علىٰ الخطيئةِ وَقَالَ الأيمنونَ: قَد فَعَلتُم يا أعداءَ اللهِ، واللهِ لنباينكُم الليلةَ في مَدينتكم، واللهِ مَا أراكم تُصبِحُونَ حتَّىٰ يصبِّحكُم اللهُ بخسفٍ أو قذفٍ أو بعض ما عندَهُ مِن العذابِ، فَلَمَّا أصبَحُوا ضَرَبُوا عليهِم البابَ ونَادُوا فَلَم يجابُوا، فَوَضَعُوا سُلَّماً وعَلوا سورَ المدينةِ رجلاً، فالتَفَتَ إليهم فقَالَ: أي عبادَ اللهِ قِردَة - واللهِ - تعَاوى لها أذناب.! ففَتَحُوا فَدَخَلُوا عليهم فَعرفت القردةُ أنسابَهَا مِنَ الإنسِ ولا تعرف الإنسُ أنسابَهَا مِنَ القِرَدَةِ، فجعلت القُرُود تَأتي نَسيبها مِنَ الإنسِ فَتَشمّ ثيابَهُ وتبكِي، فيقول: ألم نَنْهكُم؟ فتقول برأسِها: أي: نَعَم. ثمَّ قرأ ابنُ عبَّاس ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥]. قالَ: أليمٌ وجيعٌ. قال: فأرى الذين نَهُوا قَد نَجُوا ولا أرَى الآخرينَ ذكروا، ونحن نرى أشياء ننكرُها ولا نقولُ فيهَا.

قلتُ: أي جَعَلَنِي اللهُ فِدَاك، ألا تَرَى أنَّهُم كَرِهُوا ما هُم عليهِ وخالفُوهُم، وقالوا ﴿لِمَ تَعِظُونَ قوماً اللهُ مُهْلكُهُم﴾ قالَ: فأمرَ بِي فكسيتُ ثوبين غَليظين.

❖ ❖ ❖

(٣٣) أصحابُ الأخدودِ

الأخدود لغة: قَالَ ابنُ هِشَام: الأُخْدُود: الحفر المستطيل في الأرض، كالخندق والجدول ونحوه، وجمعُهُ: أخاديد.

وملَخَّص القصة كما يَرويها ابنُ إسحاق: أنَّ أهل نجَران كانُوا أهلَ شِرْك يعبدونَ الأوثانَ، وكانَ في قريةٍ مِن قراها قريباً مِن نجران - ونجران: القَرية العظمىٰ التي إليهَا جماع أهل تلكَ البلادِ - ساحرٌ يُعَلِّم غِلمانَ أهل نجرانَ السِّحر، فلَمَّا نزلَها ابتَنَىٰ خيمةً بين نجران وَبين تلك القريةِ الَّتي بها السَّاحر، فجعَل أهلُ نجران يُرسلون غلمانَهُم إلىٰ ذلكَ السَّاحر يعلِّمُهم السِّحرَ فبعثَ إليه الثَّامر ابنَهُ عَبْد اللهِ بن الثَّامر، مع غلمان أهلِ نجرانَ فكانَ إذا مَرَّ بصاحبِ الخيمةِ أعجَبَهُ مَا يرى منهُ مِن صلاتِهِ وعبادَتِهِ، فجعَلَ يَجْلِسُ إليهِ، ويسمع منهُ، حتَّىٰ أسلَم، فوحَّد اللهَ وَعَبدَهُ، وجعلَ يسأله عَن شرائع الإسلام، حتَّىٰ إذا فَقُهُ فيهِ جَعَلَ يسأله عَن الاسم الأعظَم، وكان يعلّمه، فكتَمَهُ إيَّاه، وَقَالَ (له)[1]: يا ابن أخي! إنَّك لن تحملَه، أخشَىٰ عليكَ ضعفكَ عَنْهُ، والثَّامر أبو عَبْد اللهِ لا يظنّ إلاَّ أنَّ ابنَه يختلفُ إلىٰ السَّاحِرِ كما يختلفُ الغلمانُ، فلَمَّا رأى عَبْدُ اللهِ أنَّ صاحبَه قد ضنّ به عَنْهُ، وتخوَّف ضَعْفَهُ فيه، عمَد إلىٰ أقداح فَجمَعَهَا، ثمَّ لم يُبْقِ للهِ اسماً يعلمه إلاَّ كتبه في قِدْح[2]، ولكل اسم قِدح، حتَّىٰ إذا أحصاها أوقد لها نارًا، ثمَّ جعلَ يقذفُهَا فيها قدحًا قدحًا، حتَّىٰ إذا مَرَّ بالاسم الأعظم قَذَفَ فيهَا بقدحهِ، فوثبَ القَدح حتَّىٰ خرجَ منها لم تَضرّه شيئًا، فأخذهُ ثمَّ أتىٰ صاحِبَهُ فأخبره بأنَّهُ قد

١- زيادة عن أ والطبري.

٢- القدح: السهم.

عَلِمَ الاسمَ الَّذي كَتَمَهُ، فَقَالَ: وما هُو؟ قَالَ: هُو كَذا وكَذا، قَالَ: وكيفَ علمته؟ فأخبره بما صَنَعَ، قَالَ: أيِ ابنَ أخي، قَد أصبتهُ فأمسِك علىٰ نَفْسِكَ وما أظنُّ أن تَفْعَل.

فجعلَ عَبْد اللهِ بن الثامر إذا دخل نجران لم يلقَ أحدًا به ضرّ إلاَّ قَالَ (له)[1] يا عَبْد اللهِ، أتوحِّد الله وتَدْخُل في دِيني وأدعُو اللهَ فَيُعافيكَ مِمَّا أنتَ فيهِ مِنَ البلاءِ؟ فيقول: نَعَم، فيوحِّد اللهَ ويُسلم، ويدعو له فَيُشفىٰ. حتَّىٰ لم يبقَ بنَجْران أحدٌ به ضرّ إلاَّ أتاه فاتَّبعه علىٰ أمره، ودعَا له فعوفيَ حتَّىٰ رُفع شأنه إلىٰ ملكِ نجرَان، فدعاه فَقَالَ لَهُ: أفسدتَ عَليَّ أهل قَرْيتي، وخالَفت دِيني ودين آبائي، لأُمَثِّلَنَّ بك، قَالَ: لا تَقْدِر علىٰ ذلكَ.

قَالَ: فَجَعَل يُرسلُ به إلىٰ الجبل الطويلِ فيُطْرَح علىٰ رأسهِ فَيقع إلىٰ الأرض ليسَ به بأسٌ، وجعَلَ يبعثُ بهِ إلىٰ مياهِ بنَجْران، بحُور لا يَقَعُ فيها شيء إلاَّ هَلَكَ، فيُلْقَىٰ فيها فيخرج ليسَ بهِ بأسٌ.

فلمَّا غَلَبَهُ قَالَ له عَبْدُ اللهِ بن الثامر: إنَّكَ وَاللهِ لَن تَقْدِر علىٰ قَتْلِي حتَّىٰ تُوَحِّد اللهَ فَتُؤمن بما آمنتُ بِهِ، فإنَّك إن فَعَلْتَ ذلكَ سُلِّطتَ عَلَيَّ فَقَتَلْتَنِي. قَالَ: فَوَحَّدَ اللهَ تَعَالىٰ ذلك الملكُ، وشَهِدَ شهادةَ عَبْد اللهِ بن الثامر، ثمَّ ضربَهُ بعصاً في يدهِ فشجَّه شجَّة غيرَ كبيرة، فقتَلَهُ، ثمَّ هَلَكَ الملِكُ مكانَه، واستَجْمَعَ أهلَ نَجْران علىٰ دينِ عَبْد اللهِ بن الثامر، وكانَ علىٰ ما جاءَ به عِيْسَىٰ ابن مَرْيَم من الإنجيل وحُكْمِه، ثمَّ أصابَهُم مثلُ ما أصاب أهلَ دينهم من الأحداثِ، فمن هنالك كَانَ أصل النصرانية بنَجْران، واللهُ أعْلَمُ بذلك.

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: فهذا حديث مُحَمَّد بن كعب القُرظِيّ، وبعض أهلِ نَجْران

---

١ - زيادة عن أ والطبري.

عن عَبْد اللهِ بن الثامر، واللهُ أعْلَمُ أيّ ذلك كَانَ.

فسارَ إليهم ذو نُواس بجنودهِ، فَدَعَاهُم إلىٰ اليهوديةِ، وخيَّرهم بين ذلك والقتلِ، فاختارُوا القَتْلَ، فَخَدَّ لهم الأخدودَ، فَحَرَقَ مَن حَرَقَ بالنَّارِ، وقَتَلَ مَن قتلَ بالسَّيف ومَثَّل بهم حتَّىٰ قَتَلَ منهم قريباً مِن عشرين ألفًا، ففي ذي نَوَّاس وجنده تلكَ أنزلَ اللهُ تَعَالىٰ علىٰ رسولِهِ سَيِّدنا مُحَمَّد ﷺ: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ۞ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۞ إِذ هُم عَلَيْهَا قُعُودٌ ۞ وَهُم عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۞ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُم إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٤ ـ ٨].

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: ويقالُ: كَانَ فيمن قَتَل ذو نُوَاس عَبْدَ اللهِ بن الثامر، رأسَهم وإمامَهم[1].

قلتُ: روى مسلم في (صحيحه) عن صهيب رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «كَانَ مَلِكٌ فيمَن كَانَ قَبْلَكُم وكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبرَ قَالَ للمَلِكِ: إنِّي قَد كَبِرْتُ فَابْعَث إلَيَّ غُلاماً أعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبعَثَ إلَيْهِ غُلاماً يُعَلِّمُهُ، وكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إلَيْهِ وَسَمِعَ كَلامَهُ فَأَعْجَبَهُ، وكَانَ إِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْه، فَإِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذلِكَ إِلَىٰ الرَّاهِبِ فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَىٰ ذلِكَ إِذ أَتَىٰ عَلَىٰ دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَد حَبَسَتِ النَّاس فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَراً فَقَالَ: اللَّهُمَّ إن كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِن أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُل هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّىٰ يَمْضِيَ النَّاس، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا

---

١ – ويقال: إنما قتل عبد الله بن الثامر قبل ذلك، قتله ملك كان قبل ذي نواس هو أصل ذلك الدين، وإنما قتل ذو نواس من كان بعده من أهل دينه. (راجع الطبري)

وَمَضَىٰ النَّاس ، فَأَتَىٰ الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ. فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ : أي بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي ، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَىٰ ، فَإِنِ ابْتُليتَ فَلا تَدُلَّ عَلَيَّ ، وكَانَ الْغُلامُ يُبرِئُ الأكْمَهَ وَالأبْرصَ ، وَيُدَاوِي النَّاس مِنْ سَائرِ الأدْوَاءِ فَسَمعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ ، فَأتَاه بِهَدَايَا كَثِيرةٍ فَقَالَ : مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي ، فَقَالَ : إنِّي لا أَشْفِي أَحَداً ، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ تَعَالَىٰ ، فَإِنْ آمَنْتَ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ ، فَآمَنَ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ فَشَفَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ ، فَأَتَىٰ الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَنْ ردَّ عَلَيْكَ بَصرَكَ ؟ قَالَ : رَبِّي. قَالَ : وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟ قَالَ : رَبِّي وَرَبُّكَ الله ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَىٰ الْغُلامِ ، فَجِيءَ بِالْغُلامِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : أي بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأكْمَهَ وَالأبْرصَ وَتَفْعَلُ وَتفعَلُ فَقَالَ : إِنِّي لا أَشْفِي أَحَداً ، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ تَعَالَىٰ ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَىٰ الرَّاهِبِ ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنِ دِينِكَ ، فَأَبَىٰ ، فَدَعَا بالمِنْشَارِ فَوُضِعَ الْمِنْشَارُ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ ، فَشَقَّهُ حَتَّىٰ وَقَعَ شِقَّاهُ ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فقيلَ لَهُ : ارجعْ عَن دِينِكَ فَأَبَىٰ ، فَوُضِعَ الْمِنْشَارُ فِي مَفْرِقِ رَأسِهِ ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّىٰ وَقَعَ شِقَّاهُ ، ثمَّ جِيءَ بِالْغُلامِ فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَن دِينِكَ فَأَبَىٰ ، فَدَفَعَهُ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ : اذْهَبُوا بِهِ إِلَىٰ جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَن دِينِهِ وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ ، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا ، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَىٰ الْمَلِكِ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَا فُعِلَ بأَصْحَابِكَ ؟ فَقَالَ : كَفَانِيهِمُ الله تعالىٰ ، فَدَفَعَهُ إلىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابه فَقَالَ : اذْهَبُوا به فاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ وَتَوَسَّطُوا به الْبَحْرَ ، فَإِنْ رَجَعَ عَن دِينِهِ وَإِلاَّ فَاقْذِفُوهُ فَذَهَبُوا به فَقَالَ : اللَّهُمَّ

اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَىٰ الْمَلِكِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فُعِلَ بأَصْحَابِكَ؟ فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ الله تعالىٰ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّىٰ تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاس في صَعِيد وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَىٰ جِذْعٍ، ثمَّ خُذْ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ في كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ: بِسْمِ الله رَبِّ الْغُلامِ ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاس فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَىٰ جِذْعٍ، ثمَّ أَخَذَ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِهِ، ثمَّ وَضَعَ السَّهْمَ في كَبِدِ الْقَوْسِ، ثمَّ قَالَ: بِسْمِ الله رَبِّ الْغُلامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ في صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فَمَاتَ. فَقَالَ النَّاس: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ، قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بالأُخْدُودِ بِأَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأُضْرِمَ فِيهَا النِّيرَانُ وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَن دِينِهِ فَأَقْحِمُوهُ فِيها أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّىٰ جَاءت امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلامُ: يَا أُمَّاهُ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَىٰ الْحَقِّ»[1].

❖ ❖ ❖

١ - (مسلم/٣٠٠٥) (الأكمه) الَّذي خلق أعمىٰ (بالمنشار) آله لنشر الخشب (ذروته) ذروة الجبل أعلاه (فرجف بهم الجبل) أي اضطرب وتحرك حركة شديدة (قرقور) السفينة الصغيرة (فانكفأت بهم السفينة) أي انقلبت. (في صعيد) الصعيد هنا الأرض البارزة (كبد القوس) مقبضها عند الرمي (نزل بك حذرك) أي ما كنت تحذر وتخاف (فخدت) أي شقت (بالأخدود) هو الشق العظيم في الأرض وجمعه أخاديد (أفواه السكك) أي أبواب الطرق (فأقحموه فيها) أي ألقوه واطرحوه فيها كرهاً (فتقاعست) أي توقفت ولزمت موضعها، وكرهت الدخول في النار، قال النووي: هذا الحديث فيه إثبات كرامات الأولياء، وفيه جواز الكذب في الحرب ونحوها، وفيه إنقاذ النفس من الهلاك سواء نفسه أو نفس غيره ممن لَهُ حرمة، والله تعالىٰ أعلم.

(٣٤) أصحابُ الفيل

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾. [سورة الفيل].

وملخَّص القصَّة كما رواها ابنُ إسحاق:

إن أبرهة بنىٰ القُلَّيْس[1] بصنعاء، فبنىٰ كنيسةً لم يُرَ مثلهَا في زمانِها بشيءٍ مِنَ الأرضِ، ثمَّ كتبَ إلىٰ النَّجاشي: إنِّي قد بَنَيْتُ لَكَ أَيُّهَا الملك كنيسةً لم يُبْنَ مثلهَا لملكٍ كَانَ قَبْلَكَ، ولست بمنتهٍ حتَّىٰ أصرفَ إليهَا حَجَّ العربِ، فلَمَّا تحدَّثت العربُ بكتابِ أبرهة ذلكَ إلىٰ النَّجاشيِّ، غضبَ رجلٌ مِنَ النَّسأة[2]، أحد بني فُقيم بن عدي بنِ عامر.

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: فخرج الكنَانيُّ حتَّىٰ أتىٰ القليس فقعد[3] فيها، ثمَّ خرجَ فلَحِقَ بأرضِهِ، فَأُخْبِرَ بذلكَ أبرهة فَقَالَ: مَن صَنَعَ هذا؟ فقيلَ له: صنعَ هذا رجلٌ

١- القليس (بضم القاف وتشديد اللام المفتوحة وسكون الياء): الكنيسة التي أراد أبرهة أن يصرف إليها حج العرب، وسميت القليس لارتفاع بنائها وعلوها، ومنه القلانس، لأنها في أعلىٰ الرؤوس، وقد استذل أبرهة أهل اليمن في بنيان هذه الكنيسة، وجشمهم فيها ألواناً من السخر، وكان ينقل إليها العدد من الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس، صاحبة سليمان عليه السلام، وكان من موضع هذه الكنيسة علىٰ فراسخ، ومن شدته علىٰ العمال كان العامل إذا طلعت عليه الشمس قبل أن يأخذ في عمله قطعت يده.

٢- والنسأة: الَّذين كانوا ينسئون الشهور علىٰ العرب في الجاهلية، فيحلون الشهر من الأشهر الحرم، ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل، [ليواطئوا عدة ما حرم الله] ويؤخرون ذلك الشهر ففيه أنزل الله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: من الآية٣٧].

٣- القعود بمعنىٰ: الإحداث أي: تبرَّزَ فيها شاهد لقول مالك وغيره من الفقهاء في تفسير القعود علىٰ المقابر المنهي عنه.

مِنَ العربِ مِن أهلِ هذا البيتِ الَّذي تحجُّ العربُ إليهِ بمكَّةَ لما سَمعَ قَولَك: «أصرف إليهَا حجّ العربِ» غَضِبَ فَجَاءَ فَقَعَدَ فيهَا، أي: أنها ليست لذلكَ بأهل.

فغضبَ عند ذلكَ أبرهةُ وحلَفَ ليسيرنَّ إلىٰ البيتِ حتَّىٰ يهدمه، ثمَّ أمرَ الحبشةَ فتهيأت وتجهَّزت، ثمَّ سارَ وخرجَ معه بالفيلِ، وسمعت بذلكَ العربُ، فأعظموهُ وفَظِعوا به، ورأوا جهاده حقّاً عليهم، حينَ سمعُوا بأنه يريدُ هدمَ الكعبةِ، بيت الله الحرام.

فخرجَ إليهِ رجلٌ مِن أشرافِ أهل اليمنِ وملوكِهم يقالُ لَهُ: ذو نفر، فَدَعَا قومَهُ، ومَن أجابَهُ مِن سائرِ العربِ إلىٰ حربِ أبرهةَ، وجهاده عَن بيتِ اللهِ الحرام، ومَا يُريد مِن هدمِهِ وإخرابهِ، فأجابه إلىٰ ذلكَ مَن أجابَهُ، ثمَّ عرضَ له فقاتله، فهزم ذُو نفر وأصحابُه، وأخذَ له ذُو نفر فأتي به أسيراً، فلَمَّا أراد قتلَهُ قَالَ له ذُو نفر: أيُّها الملكُ، لا تَقْتُلِني فإنَّه عسىٰ أن يكونَ بقائي معكَ خيراً لكَ مِن قَتْلِي، فتركه مِنَ القتلِ وحَبَسَهُ عندهُ في وثاق، وكانَ أبرهة رجلاً حليماً.

ثمَّ مضىٰ أبرهة علىٰ وجههِ ذلكَ يُريد ما خرجَ لَهُ، حتَّىٰ إذا كَانَ بأرض خثعم[1] عرض له نفيلُ بن حبيب الخثعمي في قَبِيْلَيْ خثعم: شهران وناهس[2]، ومن تبعه من قبائل العرب، فقاتله فهزَمَهُ أبرهةُ، وأخذَ له نفيل أسيراً، فأُتي بهِ، فلَمَّا همَّ بقتلهِ قَالَ له نُفيل: أيُّها الملكُ، لا تَقْتُلِني فإنِّي دليلكَ بأرض العربِ، وهاتان يداي لكَ علىٰ قبيلَيْ خثعم: شهران وناهس بالسَّمع والطاعةِ، فَخَلَّىٰ سَبيلَهُ.

١- خثعم: اسم جبل سمي به بنو عفرس بن خلف بن أفتل بن أنمار لأنهم نزلوا عنده وقيل بل لأنهم تخثعموا (تلطخوا) بالدم عند حلف عقدوه بينهم. (راجع الاشتقاق لابن دريد والروض الأُنف).

٢- شهران وناهس: هما بنو عفرس من خثعم. ويقال: بل خثعم ثلاث: شهران وناهس وأكلب، غير أن أكلب ـ عند أهل النسب ـ هو ابن ربيعة بن نزار، ولكنهم دخلوا في خثعم وانتسبوا إليهم.

وخرجَ به معه يَدُلّه، حتَّىٰ إذا مرَّ بالطائفِ خرجَ إليهِ مَسعودُ بن مُعَتِّب بن مالك بن كعب في رجالِ ثقيف.

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: فقَالُوا له: أيُّها الملكُ، إنَّما نحنُ عبيدُك سامعونَ لكَ مطيعونَ، ليسَ عندنَا لكَ خلافٌ، وليسَ بيتنا هذا البيت الَّذي تريد - يعنون اللات - إنَّما تريد البيتَ الَّذي بمكَّةَ، ونحنُ نبعثُ معَكَ مَن يَدُلّك عليهِ، فتجاوزَ عنهُم.

واللاَّت: بيتٌ لهم بالطائفِ كانُوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبةِ. قَالَ ابنُ هِشَام: أنشدني أبو عبيدة النَّحوي لضرار بن الخطاب الفهري: [من المتقارب].

وفَرَّت ثَقيفٌ إلىٰ لاتِها ... بِمُنْقَلبِ الخائب الخاسر

وهذا البيت في أبيات له.

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: فبعثُوا معهُ أبا رغال يَدُلُّه علىٰ الطريقِ إلىٰ مكَّة، فخرجَ أبرهةُ ومعه أبو رغَال حتَّىٰ أنزلَهُ المغمس[1]، فلَمَّا أنزله به ماتَ أبو رغال هنالك، فرجمت قبرَهُ العربُ، فهو القبرُ الَّذي يرجم النَّاس بالمغمس.

فلَمَّا نزلَ أبرهةُ المغمسَ، بعثَ رجلاً من الحبشةِ يقالُ له: الأسود بن مقصود[2] علىٰ خيل له، حتَّىٰ انتهىٰ إلىٰ مكَّةَ، فساقَ إليهِ أموالَ أهلِ تهامةَ مِن قريش وغَيرهم، وأصابَ فيها مئتي بعير لعبدِ المُطَّلِب بن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسَيِّدُها، فهمَّت قريش وكنانة وهذيل، ومن كَانَ بذلك الحرم مِن سائر النَّاس بقتالِهِ، ثمَّ عَرَفُوا أنهم لا طاقةَ لهم بهِ، فتركُوا ذلكَ.

---

١ - المغمس (بالكسر علىٰ صيغة اسم الفاعل، وروي بالفتح علىٰ زنة اسم المفعول): موضع بطريق الطائف علىٰ ثلثي فرسخ من مكة.

٢ - وفي نسخة: مفصود. وهو الأسود بن مقصود بن الحارث بن منبه بن مالك بن كعب بن الحارث ابن كعب بن عمرو بن علة (علىٰ وزن عمر) بن خالد بن مذحج، وكان النجاشي قد بعثه في الفيلة والجيش. وكانت عدة الفيلة ثلاثة عشر فيلاً، فهلكت كلها إلا فيل النجاشي، وكان يسمىٰ محموداً.

وبعث أبرهةُ حناطةَ الحميري إلىٰ مكّةَ، وَقَالَ له: سَل عَن سَيِّد أهلِ هَذا البلدِ وشَريفها، ثمَّ قَالَ له: إن الملكَ يقولُ لَكَ: إنّي لم آت لحربِكُم، إنَّما جئتُ لِهَدْم هذا البيت، فإن لم تَعْرضُوا دونَهُ بحربٍ، فلا حاجةَ لي بدمائِكُم، فإن هو لم يرد حَربي فائتني بهِ. فلَمَّا دخلَ حناطة مكَّةَ، سألَ عَن سيِّدِ قُريش وشريفِها، فقيلَ لَهُ: عبد المُطَّلِب بنُ هَاشم بن عبد مناف بن قصيّ، فجاءه فَقَالَ لَهُ مَا أمره به أبرهةُ، فَقَالَ له عبدُ المُطَّلِب: واللهِ مَا نُريد حَرْبَهُ، وما لنَا بذلكَ مِن طاقةٍ، هذا بيتُ اللهِ الحرَام، وبيتُ خليلِهِ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ، فإنْ يمنعه منهُ فهو بيتُهُ وحرَمُهُ، وإن يخل بينَهُ وبَيْنَهُ، فواللهِ مَا عندنَا دَفْعٌ عَنْهُ، فَقَالَ له حناطة: فانطلق مَعي إليهِ، فإنَّه قَد أمرني أن آتيهِ بِكَ.

فانطلقَ مَعَهُ عبدُ المُطَّلِب، ومَعَهُ بعضُ بنيهِ حتَّىٰ أتىٰ العسكَرَ، فسألَ عَن ذي نَفر، وكان له صديقًا، حتَّىٰ دخلَ عليه وهُوَ في محبسهِ، فَقَالَ له: يا ذا نفر هَل عندكَ من غناء فيما نزلَ بِنَا؟ فَقَالَ له ذُو نفر: وما غناء رجل أسير بيدَيْ مَلِك ينتظرُ أن يَقْتُلَهُ غدواً أو عشيّاً ما عندنَا غناء في شيءٍ مما نزلَ بكَ إلاَّ أنَّ أُنيساً سائس الفيل صَديق لي، وسأرسلُ إليهِ فأوصيهِ بكَ، وأعظم عليهِ حقَّكَ، وأسألهُ أن يستأذنَ لك علىٰ الملكِ، فتكلِّمُهُ بما بدا لكَ ويَشْفَعُ لكَ عندَهُ بخيرٍ إن قَدِرَ علىٰ ذلك، فَقَالَ: حَسبي.

فبعثَ ذُو نفر إلىٰ أنيس، فَقَالَ له: إنَّ عبدَ المُطَّلِب سيد قريش، وصاحب عِير مكَّة، يطعِمُ النَّاس بالسَّهْل، والوحوش في رُؤوس الجبال، وقَد أصابَ لَهُ الملكُ مائتي بعير، فاستأذِن لَهُ عليهِ، وانفَعْهُ عندَهُ بما استطَعتَ، فَقَالَ: أفعَلُ.

فكلَّم أنيسُ أبرهةَ، فَقَالَ له: أيُّها الملِكُ، هذا سيدُ قُريش ببابِكَ يَسْتَأذنُ عليكَ، وهو صاحبُ عِيْرِ مكَّة، وهو يُطعِمُ النَّاسَ في السَّهل، والوحوشَ في

رؤوسِ الجبال، فائذَن له عليكَ، فيكلِّمكَ في حاجَتِهِ، وأحْسِن إليه، قَالَ: فَأذِنَ له أبرهةُ.

قَالَ: وكانَ عبدُ المُطَّلب أوسَمَ النَّاس وأجملَهُم وأعظَمَهُم، فلَمَّا رآهُ أبرهةُ أجَلَّهُ وأعظَمَهُ وأكرَمَهُ عَن أن يجلِسَهُ تحتَهُ، وكَرِهَ أن تَراهُ الحبشةُ يجلِس مَعَهُ علىٰ سريرِ مُلكِهِ، فنزلَ أبرهةُ عَن سريرِهِ، فَجَلَسَ علىٰ بساطِهِ، وأجلَسَهُ مَعَهُ عليهِ إلىٰ جنبِهِ، ثمَّ قَالَ لترجمانِهِ: قُل لَهُ: ما حَاجَتُكَ؟ فقَالَ له ذلكَ التَّرجمان، فقَالَ: حاجتي أن يَرُدَّ عليَّ الملكُ مئتي بَعير أصابَهَا لي، فلَمَّا قَالَ له ذلكَ، قَالَ أبرهةُ لترجمانه: قُل له: قَد كنت أعجبتَنِي حينَ رَأيتُكَ، ثمَّ قَد زَهِدْتُ فيكَ حينَ كَلَّمتَنِي، أتكلّمنُي في مئتي بعيرٍ أصبتُها لَكَ، وتترك بيتاً هُو دينُكَ ودينُ آبائِكَ قَد جئتُ لِهَدْمِهِ، لا تكلّمَنِي فيهِ! فقَالَ لهُ عبدُ المُطَّلب: إنِّي أنا ربُّ الإبلِ، وإنَّ للبيتِ ربَّاً سَيمنَعهُ، فقَالَ أبرهةُ: ما كَانَ ليمتنَع مِنِّي، قَالَ: أنتَ وذاكَ.

وكان فيما يزعمُ بعضُ أهلِ العِلْم، قَد ذهبَ مَع عبدِ المُطَّلب إلىٰ أبرهةَ، حين بعثَ إليهِ حناطةَ، يعمر بن نفاثة، وهو يومئذٍ سيدُ بني بكرٍ، وخويلد بن واثلة الهذليّ، وهو يومئذ سيدُ هُذيل، فعرضُوا علىٰ أبرهة ثُلُثَ أموالِ تهامَةَ، علىٰ أن يَرْجعَ عنهم ولا يهدم البيتَ فأبىٰ عَلَيهِم. واللهُ أعْلَمُ أكانَ ذلك أم لا. فَرَدّ أبرهةُ علىٰ عبد المُطَّلب الإبلَ الَّتي أصابَ لَهُ.

فلَمَّا انصرَفُوا عَنْهُ، انصرَفَ عبدُ المُطَّلب إلىٰ قُريش، فأخبَرَهُم الخبَرَ، وأمرَهُم بالخروج مِن مكَّةَ، والتَّحرز[1] في شعف[2] الجبال والشعاب[3]: تخوفاً عليهم من

١- التحرز: التمنع، ويروى: «التحوز» وهو أن ينحاز إلىٰ جهة ويتمنع.

٢- شعف الجبال: رؤوسها.

٣- الشعاب. المواضع الخفية بين الجبال.

مَعَرَّة[١] الجيش، ثمَّ قام عبد المُطَّلِب، فأخذ بحلقةِ بابِ الكعبةِ، وقامَ مَعَهُ نفرٌ مِن قريش يَدْعُونَ اللهَ، ويستنصرونَهُ علىٰ أبرهةَ وَجُنْدِهِ، فَقَالَ عبد المُطَّلِب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة: [مجزوء الكامل]

لاهُمَّ[٢] إنَّ العَبْدَ يمْنَـ ـع رَحْلَه فامنع حلالَكْ[٣]
لا يَغْلِبَنَّ صَليبُهُمْ وَمحالُهُمْ غَدْوًا[٤] مِحَالكْ[٥]

زاد الواقدي[٦]:

إنْ كُنْتَ تارِكَهم وقِبْـ ـلتنا فأمْرٌ ما بَدَا لَكْ[٧]

قَالَ ابنُ هِشَام: هذا ما صح له منها.

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: ثمَّ أرسلَ عبدُ المُطَّلِب حَلقةَ بابِ الكعبةِ، وانطلَقَ هو ومَن مَعَهُ مِن قُريش إلىٰ شعفِ الجبالِ فَتَحَرَّزُوا فيها ينتظرونَ مَا أبرهة فاعِلٌ بمكَّةَ إذا دَخَلَهَا.

فلَمَّا أصبحَ أبرهةُ تهيّأ لدخولِ مكَّةَ، وهيَّأ فيلَهُ وعَبَىٰ جيشَهُ، وكانَ اسم الفيلِ محموداً، وأبرهةُ مجمعٌ لهدم البيتِ، ثمَّ الانصراف إلىٰ اليمنِ. فلَمَّا وجَّهوا

١- معرة الجيش: شدته.

٢- لاهم: أصلها اللهم، والعرب تحذف الألف واللام منها وتكتفي بما بقي، كما يقول: لاه أبوك، وهي تريد الله أبوك، وكما قالوا أيضاً: أجنك تفعل كذا وكذا: أي من أجل أنك تفعل كذا وكذا.

٣- الحلال (بالكسر): جمع حلة، وهي جماعة البيوت، ويريد هنا القوم الحلول. والحلال أيضاً: متاع البيت، وجائز أن يكون هذا المعنىٰ الثاني مراداً هنا.

٤- غدواً: غداً، وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك، فحذفت لامه، ولم يستعمل تاماً إلا في الشعر.

٥- المحال: القوة والشدة.

٦- زيادة عن أ.

٧- وزاد السهيلي في الروض الأُنف:

وانصر علىٰ آل الصليب وعابديه اليوم آلك

وذكرت بقيتها في الطبري، واجتزأنا منها بما ذكر هنا، فأرجع إليها في القسم الأول من الطبري (ص ٩٤٠ ـ ٩٤١ طبع أوربا). وقد ذكر لعبد المطلب في الطبري قصيدة أخرى غير هذه القصيدة.

الفيلَ إلىٰ مكّةَ، أقبل نُفَيل بن حبيب الخثعمي حتّىٰ قامَ إلىٰ جنبِ الفيلِ، ثمَّ أخذَ بأذنه، فَقَالَ: ابركْ محمُود، أو ارجع راشداً مِن حيثُ جئتَ، فإنَّك في بلدِ اللهِ الحرام، ثمَّ أرسلَ أذنَهُ.

فبركَ[١] الفيل، وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتّىٰ أصعد[٢] في الجبل، وضربُوا الفيلَ ليقومَ فَأبىٰ. فضرَبُوا في رأسهِ بالطَّبَرزين[٣] ليقوم فأبىٰ، فأدخلوا محاجن[٤] لهم في مراقِّه[٥] فبزغوه بها[٦] ليقوم فأبىٰ، فوجهوه راجعًا إلىٰ اليمن، فقامَ يُهَرولُ، ووجَّهُوهُ إلىٰ الشام ففَعَلَ مثلَ ذلكَ، ووجَّهُوه إلىٰ المشرقِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذلكَ، ووجَّهوه إلىٰ مكّةَ فَبَرَكَ.

عندها أرسلَ اللهُ تَعَالىٰ عليهم طيراً من البحرِ أمثال الخطاطيف والبلسان[٧]، مع كل طائر منها ثلاثة أحجارٍ يحمِلُها: حجرٌ في منقارهِ، وحجرانِ في رجليهِ، أمثال الحمص والعَدَس، لا تُصيب منهم أحدًا إلاَّ هَلَكَ، وليسَ كُلّهم أصابَت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الَّذي منه جاؤوا، ويسألون عن نُفيل بن حبيب ليدلَّهم علىٰ الطريق إلىٰ اليمن[٨]، فَقَالَ نفيل حين رأى ما أنزلَ اللهُ بِهِم مِن

١- لعله يريد فَعَل فِعْل البارك، لأن المعروف عن الفيل أنه لا يبرك.

٢- أصعد: علا. والأكثر صعد في الجبل بتشديد العين.

٣- الطبرزين: آلة معقفة من حديد، وطبر بالفارسية: معناها الفأس.

٤- المحاجن: جمع محجن، وهي عصا معوجة، وقد يجعل في طرفها حديد.

٥- مراقه: يعني أسفل بطنه.

٦- بزغوه: أدموه. ومنه المبزغ، وهو المشرط للحجام ونحوه.

٧- الخطاطيف: جمع خطاف (كرمان). وهو طائر أسود يقال له «زوار الهند». وهو الذي تدعوه العامة عصفور الجنة. والبلسان كذا في الأصل. وفي النهاية لابن الأثير، قال: قالَ عباد بن موسىٰ: «وأظنها الزرازير». وقال أبو ذر الخشني في شرحه: والخطاطيف والبلشون ضربان من الطير.

٨- وكانت قصة الفيل هذه أول المحرم من سنة ثنتين وثمانين وثمانمئة من تاريخ ذي القرنين.

نقمته : [من الرجز].

أيــنَ المَفَــرّ والإلــهُ الطّــالِبُ والأشرمُ المَغْلوب ليس الغـالبُ

*　　*　　*

ألا حُيِّيــت عنَّــا يــا رُدَيْنــا[١] نَعِمْناكم[٢] مع الإصبـاح عَيْنَـا
أتانــا قــابسٌ منكــم عشــاءً فلــم يُقْــدَر لقابِســكم لَدَيْنَــا
رُدَيْنــةُ لـو رأيــتِ ـ ولا تَرَيْــه[٣] لدى جَنْب المُحَّصب[٤] ما رأينَا
إذًا لعذرْتِني وحمِدتِ أمــري[٥] ولم تأسَيْ علىٰ ما فاتَ بَيْنَـا[٦]
حَمِــدتُ الله إذ أبصــرتُ طــيرًا وخِفْـتُ حجــارةً تُلْقَــىٰ عَلَيْنَــا
وَكـلُّ القــوْم يسـأل عـن نُفَيــل كــأنَّ علــيَّ للحُبْشــانِ دَيْنَــا

فخرجوا يتساقطونَ بكلِّ طَريق، ويهلكونَ بكلِّ مَهْلك عَلىٰ كلِّ منـهل، وأصيب أبرهَةُ في جَسَدِهِ، وخَرَجُوا بهِ مَعَهُم تسقطُ أناملُهُ أُنْمُلةً أنملةً[٧]، كلما سقَطَت أنملةً أتبعتَهَا منه مُدَّة تمثُّ[٨] قيحاً ودماً، حتَّىٰ قدموا به صنعـاء وهـو مثل

١- ردين: مرخم ردينة، وهو اسم امرأة.

٢- هذا دعاء يريد: أي نعمنا بكم، فعدى الفعل لما صرف الجار.

٣- في الطبري: «ولم تريه» وفي معجم البلدان في الكلام علىٰ المغمس: «ولن تريه».

٤- المحصب (بالضم ثم الفتح وصاد مهملة مشددة علىٰ وزن اسم المفعول) موضع فيما بين مكة ومنىٰ، وهو إلىٰ منىٰ أقرب، وهو بطحاء مكة. (راجع معجم البلدان).

٥- في الطبري «رأيي».

٦- بينا: مصدر بأن يبين، وهو مؤكد لفات.

٧- أي ينتثر جسمه. والأنملة: طرف الأصبع، وتطلق علىٰ غيره، كالجزء الصغير من الشيء.

٨- مث يمث: رشح.

فرخ الطائرِ، فما ماتَ حتَّىٰ انصَدَع صدْرُه عن قلبِهِ، فيما يَزعُمُون.

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: إنَّ أوَّلَ مَا رُؤيت الحصبةُ والجُدَرِي بأرض العَرَب ذلك العامَ، وأنه أوَّل ما رُئي بها مرائر[١] الشجر الحرمل[٢] والحنظل والعُشر[٣] ذلك العام.

قَالَ ابنُ هِشَام: الأبابيلُ: الجماعات، ولم تتكلَّم لها العربُ بواحد[٤] علمناه. وأما السِّجيل: الشَّديدُ الصَّلب.

والعصف: ورقُ الزرع الَّذي لم يقصب.

قَالَ ابنُ إسْحَاقَ: عن عائشة ﵂ قَالَت: لَقَد رأيتُ قَائِدَ الفيلِ وسائِسَهُ بمكَّةَ أعميين مُقعَدين يَستطعمانِ النَّاسَ.

❖ ❖ ❖

١- يقال: شجرة مرة، ويجمع علىٰ مرائر علىٰ غير قياس، كما جمعوا حرة علىٰ حرائر.

٢- الحرمل: نوعان، نوع ورقه كورق الخلاف، ونوره كنور الياسمين. ونوع سنفته طوال مدورة. (السنفة: أوعية الثمر). والحرمل: لا يأكله شيء إلا المعزى، وقد تطبخ عروقه فيسقاها المحموم إذا ماطلته الحمىٰ، وفي امتناع الحرمل عن الأكلة قال طرفة وذم قوماً: [من الطويل].

هم حرمل أعيا علىٰ كل آكل ... مبيتاً ولو أمسىٰ سوامهم دثرا

(راجع اللسان والمفردات).

٣- العشر (كصرد): شجر مر له صمغ ولبن، وتعالج بلبنه الجلود قبل الدباغة.

٤- وقيل: إن واحدها أبيل وأبول وإبالة.

(٣٥) قَاتِلُ عمَّارٍ

● عَن أَبِي غَادِيَةَ، قَالَ: قُتِلَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ فَأُخْبِرَ عَمْرُو بْنُ العَاصِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ قَاتِلَهُ وَسَالِبَهُ فِي النَّارِ». فَقِيلَ لِعَمْرٍو: فَإِنَّكَ هُوَ ذَا تُقَاتِلُهُ! قَالَ: إِنَّمَا قَالَ: قَاتِلَهُ وَسَالِبَهُ. [صحيح: رواه أحمد].

قال المناويُّ: قَتَلتهُ طائفةُ معاوية في وقعةِ صِفِّين ضَربَهُ عاديةُ الجهنيّ برمح فَسَقَطَ فجاءَ آخر فاحتزَّ رأسَهُ فاختصَما إلىٰ عَمرو بنِ العَاص ومعاوية كلٌّ يقولُ: أنا قَتَلْتُهُ. فقالَ عَمْرو: إنكُما في النَّارِ.

(فائدة) قالَ ابنُ حَجَر: حديثُ: «تقتُل عماراً الفئةُ الباغيةُ» رواهُ جمعٌ مِن الصَّحابةِ منهم: قتادة، وأمّ سلمة، وأبو هريرة، وابن عمر، وعثمان، وحذيفة وأبو أيوب، وأبو رافع، وخزيمة بن ثابت، ومعاوية، وعمرو بن العاص، وأمية وأبو اليسر، وعمار نفسه، وغالب طرقه كلّها صحيحة أو حسَنَة وفيه عَلَمٌ مِن أعلام النُّبوَّةِ وفضيلة ظاهِرَة لعليٍّ وعمَّار وردّ علىٰ النَّواصب الزَّاعمين أنَّ علياً لم يكن مُصيباً في حروبهِ. ا. هـ والله تعالىٰ أعلم.

وفي الصحيحين، عَن عِكْرِمَةَ قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ وَلابْنِهِ عَلِيٍّ: انْطَلِقَا إِلَىٰ أَبِي سَعِيدٍ فَاسْمَعَا مِن حَدِيثِهِ. فَانْطَلَقْنَا، فَإِذَا هُوَ فِي حَائِطٍ يُصْلِحُهُ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَاحْتَبَىٰ، ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُنَا، حَتَّىٰ أَتَىٰ ذِكْرُ بِنَاءِ المَسْجِدِ فَقَالَ: كُنَّا نَحْمِلُ لَبِنَةً لَبِنَةً وَعَمَّارٌ لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ، فَرَآهُ النَّبِيُّ ﷺ فَكَانَ يَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْهُ وَيَقُولُ: «وَيْحَ عَمَّارٍ تَقْتُلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ، يَدْعُوهُم إِلَىٰ الجَنَّةِ وَيَدْعُونَهُ إِلَىٰ النَّارِ». قَالَ يَقُولُ عَمَّارٌ: «أَعُوذُ بِاللهِ مِن الفِتَنِ».

(ويح) كلمةُ تَرَحُّم تُقَال لمن وَقَع في مهلمـةٍ لا يستَحقّها. (الفئةُ الباغيـة) الجماعةُ التي خَرَجَت عن طاعةِ الإمام العادِلِ.

قالَ الحافظُ في الفتح: فإن قِيلَ كـانَ قَتْلُـهُ بِصِفِّين وهُو مَع عليٍّ ﷺ والَّذين قَتَلُوهُ مَع مُعَاويَة وكانَ مَعَهُ جماعةٌ مِنَ الصحابةِ، فكيفَ يجوزُ عليهم الدُّعاء إلىٰ النارِ؟ فالجواب: أنَّهم كانوا ظانِّينَ أنَّهُم يدعونَ إلىٰ الجنةِ وهم مجتهدونَ لا لَوْمَ عليهِم في اتِّباع ظُنُونِهِم، فالمراد بالدُّعاء إلىٰ الجنةِ الدُّعاء إلىٰ سَبَبِهَا وهو طاعةُ الإمام، وكذلكَ كانَ عَمَّار يَدْعُوهُم إلىٰ طاعةِ عَلِيٍّ ﷺ وهو الإمام الواجب الطاعة إذ ذاكَ، وكانوا هُم يدعونَ إلىٰ خلافِ ذَلِكَ لكنَّهم معذورونَ للتأويل الذي ظهَرَ لَهُم انتهىٰ. واللهُ تعالىٰ أعلم.

❖ ❖ ❖

(٣٦) سارقُ الحجَّاج وبدنتي رسول الله ﷺ

● عَن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: كَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَصَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ، ثُمَّ رَفَعَ فَأَطَالَ. (قالَ شُعْبَةُ): وَأَحْسَبُهُ قَالَ فِي السّجُودِ نَحْوَ ذَلِكَ وَجَعَلَ يَبْكِي فِي سُجُودِهِ وَيَنْفُخ وَيَقُولُ: «رَبِّ لَم تَعِدْنِي هَذَا وَأَنَا أَسْتَغْفِرُكَ، لَم تَعِدْنِي هَذَا وَأَنَا فِيهِمْ»

فَلَمَّا صَلَّىٰ قَالَ: «عُرِضَت عَلَيَّ الْجَنَّةُ، حتَّىٰ لَو مَدَدْتُ يَدِي تَنَاوَلْتُ مِن قُطُوفِهَا، وَعُرِضَت عَلَيَّ النَّارُ فَجَعَلْتُ أَنْفُخُ خَشْيَةَ أَن يَغْشَاكُم حَرُّهَا، وَرَأَيْتُ فِيهَا سَارِقَ بَدَنَتَي رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَرَأَيْتُ فِيهَا أَخَا بَنِي دُعْدُعٍ سَارِقُ الْحَجِيجِ، فَإِذَا فُطِنَ لَهُ قَالَ هَذَا عَمَلُ الْمِحْجَنِ، وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ». [رواه مسلم، وأحمد].

❖ ❖ ❖

(٣٧) صَاحِبَةُ الهِرَّةِ

قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: قَد دَنَت مِنِّي الجَنَّةُ حَتَّىٰ لَو اجْتَرَأتُ عَلَيْهَا لَجِئْتُكُم بِقِطَافٍ مِن قِطَافِهَا، وَدَنَت مِنِّي النَّارُ حَتَّىٰ قُلتُ: أي رَبِّ وَأنَا مَعَهُم؟ فَإذَا امْرَأةٌ - حَسِبْتُ أنَّهُ قَالَ - تَخدِشُهَا هِرَّةٌ، قُلتُ: مَا شَأنُ هَذِهِ؟ قَالُوا: حَبَسَتْهَا حَتَّىٰ مَاتَت جُوعاً، لا أطْعَمَتْهَا، وَلا أرْسَلَتْهَا تَأكُلُ - قَالَ نافعٌ حَسِبْتُ أنَّهُ قَالَ: - مِن خَشِيشِ أو خِشَاشِ الأرْضِ». [رواه البخاري].

وفي رواية: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «وَعُرِضَت عَلَيَّ النَّارُ، فَلَوْلا أنِّي دَفَعْتُهَا عَنْكُم لَغَشِيَتْكُمْ، وَرَأيْتُ فِيهَا ثَلاثَةً يُعَذَّبونَ: امْرَأةً حِمْيَرِيَّةً سَوْدَاءَ طَوِيلَةً تُعَذَّبُ فِي هِرَّةٍ لَهَا أوْثَقَتْهَا فَلَم تَدَعْهَا تَأكُلُ مِن خِشَاشِ الأرْضِ، ولَم تُطْعِمْهَا حَتَّىٰ مَاتَتْ، فَهِيَ إذَا أقْبَلَت تَنْهَشُهَا، وَإذَا أدْبَرَت تَنْهَشُهَا». [صحيح لغيره، رواه ابن حبان].

قوله: (خَشَاشُ الأرْضِ): هي: هَوَامُها وَحَشَرَاتُها.

❖ ❖ ❖

(٣٨) المؤذيةُ جيرانها بلسانِها

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قالَ: قالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ فُلاَنَةَ تُكْثِرُ مِنْ صَلاتِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصِيَامِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا. قالَ: «هِيَ فِي النَّارِ». قالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَإِنَّ فُلاَنَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَلاتِهَا، وَأَنَّهَا تَتَصَدَّقُ بِالأَثْوَارِ مِنَ الأَقِطِ، وَلاَ تُؤْذِي جِيرَانَهَا. قالَ: «هِيَ فِي الْجَنَّةِ». [صحيح: رواه أحمد والبزار وابن حبان في صحيحه والحاكم، وقال: صحيح الإسناد].

❁ ورواه أبو بكر بن أبي شيبة بإسناد صحيح أيضاً، ولفظه وهو لفظ بعضهم: قالوا: يا رسُولَ اللهِ فُلاَنَةُ تَصُومُ النَّهارَ، وَتَقُومُ اللَّيْلَ، وَتُؤْذِي جِيْرَانَهَا، قالَ: «هِيَ فِي النَّارِ». قالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ فُلاَنَةُ تُصَلِّي المَكْتُوبَاتِ، وَتَصَدَّقُ بِالأَثْوَارِ مِنَ الأَقِطِ وَلاَ تُؤْذِي جِيْرَانَهَا. قالَ: «هِيَ فِي الْجَنَّةِ». [صحيح].

«الأثوار»: جمع ثور: وهي قطعة من الأقط.

«والأقط»: هو شيء يتخذ من مخيض اللبن الغنمي.

❖ ❖ ❖

(٣٩) الخطباء والدُّعاة المراؤون

عن أسَامَةَ بنِ زيدِ بنِ حَارثَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَىٰ بالرَّجُلِ يوْمَ القِيامَةِ فَيُلْقَىٰ في النَّار، فَتَنْدَلِقُ أقْتَابُ بطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ في الرَّحَا، فَيَجْتَمِعُ إليْهِ أهْلُ النَّار فَيَقُولُونَ: يَا فُلانُ مَا لَكَ؟ ألم تَكُ تَأمُرُ بالمَعْروفِ وتَنْهَىٰ عَنِ المُنْكَر؟ فيَقُولُ: بَلَىٰ، كُنْتُ آمُرُ بالمَعْرُوفِ وَلا آتِيْه، وَأنْهَىٰ عَنِ المُنْكَرِ وآتِيهِ». [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

قولُهُ: (تَنْدَلِقُ) مَعْنَاهُ: تَخْرُجُ. وَ(الأقْتَابُ): الأمْعَاءُ، وَاحِدُهَا قِتْبٌ.

◉ وعَن أنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَىٰ قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُم بِمَقَارِيضَ مِن نَارٍ، قُلْتُ: مَا هَؤُلاءِ؟ قَالَ: هَـؤُلاءِ خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ مِن أهْلِ الدُّنْيَا، كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنسَوْنَ أنْفُسَهُم وَهُم يَتْلُونَ الكِتَابَ، أفَلا يَعْقِلُونَ؟». [صحيح: رواه أحمد].

وفي رواية: «قَالَ: هَؤُلاءِ خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ».

ورواه ابن أبي الدنيا وابن حبان في صحيحه وفي البيهقي من حديث أنس، وزاد ابن أبي الدنيا والبيهقي في رواية لهما: «وَيَقْرَؤُونَ كِتَابَ اللهِ وَلاَ يَعْمَلُونَ بِهِ». [صحيح بمجموع طرقه].

◉ اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِن عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ، وَمِن قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ، وَمِن نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ، وَمِن دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا

❖ ❖ ❖

(٤٠) الغالُّ في الغزوة

● عَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: كَانَ عَلَىٰ ثَقَلِ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كِرْكِرَةُ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هُوَ فِي النَّارِ» فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ، فَوَجَدُوا عَلَيْهِ كِسَاءً أو عَبَاءَةً، قَد غَلَّهَا[1]. [متفق عليه].

● وعن عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِن صَحَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: فُلانٌ شَهِيدٌ، فُلانٌ شَهِيدٌ، حَتَّىٰ مَرُّوا عَلَىٰ رَجُلٍ فَقَالُوا: فُلانٌ شَهِيدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَلاَّ، إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ، فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا، أو عَبَاءَةٍ». [متفق عليه].

● وعَن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلىٰ خَيْبَرَ، فَفَتَحَ الله عَلَيْنَا، فَلَم نَغْنَم ذَهَباً وَلا وَرِقاً، غَنِمْنَا الْمَتَاعَ وَالطَّعَامَ وَالثِّيَابَ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا إِلَىٰ الْوَادِي، وَمَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَبْدٌ لَهُ، وَهَبَهُ لَهُ رَجُلٌ مِن جُذَام، يُدْعَىٰ رِفَاعَةَ بن زَيْدٍ مِن بني الضُّبَيْبِ، فَلَمَّا نَزَلْنَا الْوَادِيَ قَامَ عَبْدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحُلُّ رَحْلَهُ فَرُمِيَ بِسَهْمٍ، فَكَانَ فِيهِ حَتْفُهُ، فَقُلْنَا: هَنِيئاً لَهُ الشَّهَادَةُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَلاَّ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! إِنَّ الشَّمْلَةَ لَتَلْتَهِبُ عَلَيْهِ نَاراً، أَخَذَهَا مِنَ الْغَنَائِمِ يَوْمَ خَيْبَرَ، لَم تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ» قَالَ فَفَزِعَ النَّاسُ، فَجَاءَ رَجُلٌ بِشِرَاكٍ أو شِرَاكَيْنِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَصَبْتُ يَوْمَ خَيْبَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «شِرَاكٌ مِن نَارٍ أو شِرَاكَانِ مِن نَارٍ». [متفق عليه].

● وفي رواية عَبدُ الرَّزاق: «بَل هو الآن يُجرُّ إلىٰ النَّارِ في عباءةٍ غَلَّ بها اللهَ وَرَسُولَهُ».

---

١ - (البخاري/٣٠٧٤). (ثقل) العيال وما يثقل حمله من الأمتعة (هو في النار) يعذب فيها يوم القيامة علىٰ قدر ذنبه، ثم يخرج منها إن كان مات علىٰ الإسلام.

(٤١) المفاخر

عَن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: انْتَسَبَ رَجُلانِ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلانُ بْنُ فُلانٍ، فَمَن أَنْتَ لا أُمَّ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «انْتَسَبَ رَجُلانِ عَلَىٰ عَهْدِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلانُ بْنُ فُلانٍ - حَتَّىٰ عَدَّ تِسْعَةً - فَمَن أَنْتَ لا أُمَّ لَكَ؟ قَالَ: أَنَا فُلانُ بْنُ فُلانٍ، ابْنُ الإِسْلامِ. قَالَ: فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام: أَنَّ هَذَيْنِ الْمُنْتَسِبَيْنِ، أَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا الْمُنْتَمِي - أو الْمُنْتَسِبُ - إِلَىٰ تِسْعَةٍ فِي النَّارِ فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا هَذَا الْمُنْتَسِبُ إِلَىٰ اثْنَيْنِ فِي الْجَنَّةِ، فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا فِي الْجَنَّةِ». [صحيح: رواه أحمد].

وفي رواية له أيضاً قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَن انْتَسَبَ إِلَىٰ تِسْعَةِ آبَاءٍ كُفَّارٍ يُرِيدُ بِهِم عِزًّا وَكَرَمًا، فَهُوَ عَاشِرُهُم فِي النَّارِ».

❖ ❖ ❖

(٤٢) اثنتَانِ وسَبْعُونَ فرقة في النَّار

◉ عَن أَنسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إنَّ بَنِي إسْرَائِيلَ افْتَرَقَت عَلَىٰ إحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إلاَّ وَاحِدَةً، وَهِيَ: الْجَمَاعَةُ». [صحيح: رواه ابنُ ماجه].

في الزوائد: إسناده صحيح، رجاله ثقات.

◉ وعَن أَنسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تفَرَّقَت عَلَىٰ إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَهَلَكَت سَبْعُونَ فِرْقَةً، وَخَلَصَت فِرْقَةٌ وَاحِدَةٌ، وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَىٰ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَتَهْلِكُ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَتَخْلُصُ فِرْقَةٌ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَن تِلْكَ الفِرْقَةُ؟ قَالَ: «الجَمَاعَةُ، الجَمَاعَةُ». [صحيح لغيره، رواه أحمد].

◉ وفي رواية: قَالَ ﷺ: «إنَّ أَهْلَ الكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِم عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَىٰ ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يَعْنِي: الأَهْوَاء - كُلُّهَا فِي النَّارِ إلاَّ وَاحِدَةً، وَهِيَ الجَمَاعَةُ، وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِم تِلْكَ الأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، لا يَبْقَىٰ مِنْهُ عِرْقٌ ولا مَفْصِلٌ إلاَّ دَخَلَهُ».

وَاللهِ يَا مَعْشَرَ العَرَبِ لَئِن لَم تَقُومُوا بِمَا جَاء بِهِ نَبِيُّكُم ﷺ، لَغَيْرُكُم مِن النَّاسِ أَحْرَى أَن لا يَقُومَ بِهِ. [حسن: رواه أحمد، وأبو داود].

❖ ❖ ❖

(٤٣) المفلس

◉ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَن لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاع فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِن أُمَّتِي مَن يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَد شَتَمَ هذَا، وَقَذَفَ هذَا وَأَكَلَ مَالَ هذَا، وسَفَكَ دَمَ هذَا، وَضَرَبَ هذَا، فَيُعْطَىٰ هذَا مِن حَسَنَاتِهِ، وَهذَا مِن حَسَنَاتِهِ، فَإِن فَنِيَت حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَن يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ، أَخِذَ مِن خَطَايَاهُم فَطُرِحَت عَلَيْهِ، ثمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»(١).

◉ وَعَنِ ابْنِ عُثْمَانَ، عَن سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، وَسَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، وَحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ حَتَّىٰ عَدَّ سِتَّةً أو سَبْعَةً مِن أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا: إِنَّ الرَّجُلَ لَتُرْفَعُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَحِيفَتُهُ حَتَّىٰ يَرَى أَنَّهُ نَاجٍ، فَمَا تَزَالَ مَظَالِمُ بَنِي آدَمَ تَتْبَعُهُ حَتَّىٰ مَا يَبْقَىٰ لَهُ حَسَنَةٌ، وَيُحْمَلُ عَلَيْهِ مِن سَيِّئَاتِهِمْ». [رواه البيهقي في البعث بإسناد جيد].

❖ ❖ ❖

---

١ - (رواه مسلم). وقوله ﷺ: (إن المفلس من أمتي) معناه أن هذا حقيقة المفلس. أما من ليس لَهُ مال، ومن قلَّ ماله، فالناس يسمونه مفلساً، وليس هو حقيقة المفلس. لأن هذا الأمر يزول وينقطع بموته. وربما ينقطع بيسار يحصل لَهُ بعد ذلك في حياته. وإنما حقيقة المفلس هذا المذكور في الحديث فهو الهالك الهلاك التام والمعدوم الإعدام المقطع. فتؤخذ حسناته لغرمائه. فإذا فرغت حسناته أخذ من سيئاتهم فوضع عليه، ثم أُلقي في النار، فتمت خسارته وهلاكه وإفلاسه.

الفَصْلُ السَّادِسُ

السِّرُّ في كثرةِ أهلِ النَّار وخاصَّةً مِنَ النِّساء

لَقَد جَاءت النُّصوصُ كثيرةً وافرةً دَالَّةً علىٰ كثرةِ مَن يدخلِ النَّارَ مِن بني آدمَ وقِلَّةِ مَن يَدْخِل الجَنَّةَ مِنْهُم. قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. ويدلُّ علىٰ كثرةِ الكَفَرَةِ وَالمشركينَ الَّذينَ رَفضُوا دعوةَ الرُّسُلِ ما أخبرنا بِهِ نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ في الحديثِ الصَّحيح حيثُ قالَ: « عُرِضَتْ عَلَيَّ الأمَمُ، فَرَأَيْت النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهيط، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْس مَعَهُ أحَدٌ..» [متفق عليه] وجاءَ أيضاً في صَحيح البخاريّ ومسلم عَن أبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « يَقولُ اللهُ تَعَالَىٰ: يَا آدمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْك، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ. قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِن كُلِّ ألفٍ تسعمِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ. فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ. ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَأَيُّنَا ذَلِكَ الوَاحِدُ؟ قَالَ: أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُل وَمِن يَأجُوجَ وَمَأجُوجَ ألف. ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ. فَكَبَّرْنَا فقَالَ: أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ. فَكَبَّرْنَا فقَالَ: أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ فَكَبَّرْنَا فقَالَ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إلا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ أو كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ».

السِّرُّ في كثرة أهل النار:

اعلم أنَّهُ لَيس السَّببُ في كثرةِ أهلِ النَّار هو عَدَمُ بُلُوغ الحقِّ إلىٰ البَشَرِ عَلىٰ اختلافِ أزمَانِهِم، فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يُؤاخذُ العبادَ إذا لم تَبْلُغهُم دَعوتُهُ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: من الآية ١٥]. ولذلكَ فإنَّ اللهَ أرسَلَ في كلِّ أمَّةٍ نذيراً، قالَ تَعالىٰ: ﴿وَإِنْ مِن أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: من الآية٢٤]. ولكن السَّبب في ذلكَ يعودُ إلىٰ قِلَّةِ الَّذين استَجَابُوا للرُّسُل وكثرةِ الَّذين كَفَرُوا بهم وكثيرٌ مِنَ الَّذين استَجَابُوا لم يكُن إيمانُهُم خالصاً نَقِيَّاً. وقَد تَعرَّض ابنُ رَجَب في كتابِهِ «التَّخويف مِنَ النَّار» إلىٰ السَّبب في قِلَّةِ أهل الجنَّةِ، وكثرةِ أهلِ النَّارِ فَقَال: «فهذِهِ الأحاديثُ وما في معنَاهَا تَدُلُّ علىٰ أنَّ أكثرَ بني آدَمَ مِن أهلِ النَّار، وتَدُلُّ أيضاً علىٰ أنَّ اتباعَ الرُّسُل قَليلٌ بالنسبةِ إلىٰ غيرِهِم، وغير أتباع الرُّسل كلُّهم في النَّار إلاَّ مَن لم تَبْلغهُ الدَّعوةُ أو لَم يَتمكَّن مِن فَهْمِهَا علىٰ ما جاءَ فيهِ مِن الاختلافِ، والمنتسبونَ إلىٰ أتباع الرُّسُل كثيرٌ منهُم مَن تَمَسَّك بدينٍ منسوخٍ، وكتابٍ مُبَدَّل، وهُم أيضاً مِن أهلِ النَّار كمَا قَالَ تَعالىٰ ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: من الآية١٧] وأمَّا المنتسبونَ عَلىٰ الكتابِ والشَّريعة المؤيدةِ، والدِّينِ الحقِّ فكثيرٌ مِنهُم مِن أهلِ النَّار أيضاً، وهُم من المنافقينَ الَّذين هم في الدَّركِ الأسفَلِ مِنَ النَّار، وأمَّا المنتسبونَ إليهِ ظاهراً وباطناً فكثيرٌ منهم فُتِنَ بالشُّبُهاتِ، وهم أهلُ البدع وَالضَّلال، وَقَد وَرَدَت الأحاديثُ علىٰ أنَّ هذهِ الأمَّة سَتَفْتَرقُ علىٰ بِضْع وسبعينَ فِرْقَة كُلُّها في النَّارإلاَّ فرقةً واحدةً، قال ﷺ: «إنَّ بَنِي إسْرَائِيلَ، افتَرَقَتْ عَلَىٰ إحْدَى وسَبْعِينَ فِرْقَةً، وإنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرقُ عَلَىٰ اثْنَتَيْنِ وسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّها فِي النَّارِ إلاَّ وَاحِدَةً، وَهِيَ الجَمَاعَةُ». [رواه ابن

ماجه، وهو صحيح]. وكثيرٌ منها أيضاً فُتِنَ بالشَّهوات المحرَّمةِ المتوعدِ عليهَا بالنَّارِ ـ وإنْ لم يَقْتَضِ الخلود فيهَا ـ فَلَم ينجُ مِنَ الوعيدِ بالنَّار، ولم يَسْتَحِقّ الوعيد المطلق بالجنَّةِ مِن هذهِ الأمَّةِ إلاَّ فرقةٌ واحدةٌ، وهو ما كانَ عَليهِ النَّبيُّ ﷺ وأصحابُهُ ظاهراً وباطناً، وسَلِمَ مِن فِتْنَةِ الشَّهواتِ وَالشُّبهاتِ، وهؤلاءِ قليلٌ جداً لا سيّما في الأزمانِ المتأخرةِ، واللهُ تعالىٰ أعلَم.

ولعلَّ السَّببَ الأعظمَ هُو اتباعُ الشَّهوات، ذلك أنَّ حبَّ الشهواتِ مَغرُوسٌ في أعماقِ النَّفسِ البَشريَّةِ، قال تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤]. وكثيرٌ مِنَ النَّاس يريدُ الحصولَ علىٰ هذهِ الشَّهوات عَن الطريقِ الَّتي تَهْواهَا نَفْسُهُ ويُحبّها قلبُهُ، ولا يُراعي في ذلكَ شَرعَ اللهِ المنَزَّل، أضِف إلىٰ هَذا تَمَسُّك الأبناءِ بميراثِ الآباءِ المناقِضِ لِشَرعِ اللهِ قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِن نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. وفي صَحيح البخاري ومُسلم، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «حُجبَتِ النَّارُ بِالشَّهَواتِ، وحُجِبَتِ الجَنَّة بِالمكَارِهِ». وفي رِوايَةٍ لمسلم: «حُفَّت» بَدلَ «حُجبَتْ» وهُوَ بمَعْنَاهُ، أيْ: بيْنَهُ وبيْنَها هذَا الحِجَابُ، فَإذا فعَلَهُ دَخلَهَا.

كثرة النساء في النار:

روى البخاريُ ومسلم عَن أَبِي رَجَاءٍ العُطَارِدِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ ابنَ عبَّاسٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اطَّلَعْتُ في الجَنَّةِ فرأيتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الفُقَرَاء، وَاطَّلَعْتُ في النَّارِ فَرأَيْتُ أكْثَرَ أهلِهَا النِّسَاء».

وفي روايةٍ في الصَّحيحين، عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «قُمْتُ علَىٰ بابِ الجنَّة، فإذا عامَّةُ من دخلَها الْمَساكِينُ، وأصْحابُ الجدِّ محْبُوسُونَ، غيْرَ أنَّ أصْحابَ النَّارِ قد أمِرَ بِهِم إلىٰ النَّارِ. وقُمْتُ علَىٰ بابِ النَّارِ فإذا عامَّةُ من دخلَها النِّساءُ». (والجدُّ) بفتح الجيم: الحظُّ والْغِنىٰ. وقوله: (محْبُوسُونَ) أيْ: لَم يُؤْذَن لَهُم بعْدُ في دُخُول الجنَّة.

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «يا مَعْشَرَ النِّساءِ تَصَدَّقْنَ، وأكْثِرْنَ مِنَ الاسْتِغْفارِ، فإنِّي رأيْتكُنَّ أكْثَرَ أهْلِ النَّارِ» قالَت امْرَأةٌ مِنهُنَّ: ما لنَا أكْثَرَ أهْلِ النَّارِ؟ قالَ: «تُكثِرْنَ اللَّعْنَ، وتكْفُرْنَ العَشِيرَ ما رأيْتُ مِن نَاقِصَاتِ عَقْلٍ ودِينٍ أغْلَبَ لِذِي لبٍّ مِنكُنَّ» قالَت: ما نُقْصَانُ الْعَقْلِ والدِّينِ؟ قالَ: «شَهَادَةُ امْرأتيْنِ بِشَهَادَةِ رَجُلٍ، وتَمْكُثُ الأيَّامَ لا تُصلِّي»[1].

◉ (تنبيه): روى مسلم في صحيحه، عَن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ أوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ علَىٰ صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، والَّتِي تَلِيهَا علَىٰ أضْوإِ كوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُم زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِن وراءِ اللَّحْم، ومَا فِي الْجَنَّةِ أعْزَبُ».

قالَ القَاضي: ظاهرُ هَذا الحديثِ أنَّ النِّساءَ أكثرُ أهلِ الجنَّةِ. وفي الحديثِ

---

١ - (متفق عليه). (أريتكن) أراني اللهُ إياكنَّ، وذلك ليلة الإسراء. (تكثرن اللعن) تتلفظن به كثيراً حال الدُّعاء علىٰ أحدٍ، واللَّعن هو الطرد والإبعاد عن الخير والرَّحمة. (تكفرن العشير) تجحدنَ نعمة الزَّوج وتنكرن إحسانه. (أذهب) أشد إذهاباً. (للبِّ) هو العقل السليم، الخالص من الشوائب. (نصف شهادة الرجل) أشار بذلك إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾ [البقرة: من الآية٢٨٢] (من نقصان عقلها) أي وجود الثَّانية معها لنسيانها وقلّة ضبطها، وهذا يشعر بنقص عقلها عَن الرَّجل إجمالاً، وأمَّا تفصيلاً: فقد تكونُ امرأة أكثر عقلاً مِن كثيرٍ مِنَ الرِّجال. (من نقصان دينها) أي إن ما يقع منها من العبادة، وهي من أهمِّ أمور الدِّين، أنقص مما يقع من الرجل. واللهُ تعالىٰ أعلم وأحكمُ.

الآخر: «أنَّهنَّ أكثر أهلِ النَّار». قال: فَيَخْرُجُ من مجموع هذا أنَّ النِّساء أكثرَ وَلَدِ آدَمَ، قالَ: وهذا كلّه في الآدميات وإلاَّ فقَد جاءَ للواحِدِ مِن أهلِ الجنَّـةِ مِن الحورِ العَدَد الكَثير. أي نِسَاء الدُّنيا أكثر أهل النَّار، ونساءُ الآخرةِ أكثَر أهلِ الجنَّةِ.

وذكرَ المناوي في «الفيض»: أنَّ هَذا قبلَ خُرُوجِهنَّ مِنَ النَّارِ بالشَّفَاعةِ، أمَّا بعدَ خُروجهنَّ بالشَّفاعةِ والرَّحمةِ حينَ لا يَبْقَىٰ فيهَا أحدٌ مِمَّن قالَ لا إلهَ إلاَّ اللهُ فالنِّساءُ في الجنَّةِ أكثر وحينئذ يكونُ لكلِّ وَاحدٍ زوجتانِ مِن نساءِ الدُّنيا وسبعونَ مِن الحورِ العِين ذَكَرَهُ عن القُرطبيِّ وغَيرِهِ.

وقَالَ القُرطبيُّ: إنما كانَ النِّساءُ أقلَّ ساكِني الجنَّةِ لما يَغْلِب عَلَيهنَّ مِنَ الهوَى والميلِ إلىٰ عَاجِلِ زينَةِ الدُّنيا والإعراض عَن الآخرةِ لنقصِ عَقْلِهنَّ وسُرعةِ انخدَاعِهنَّ انتهَىٰ.

❖ ❖ ❖

الفَصْلُ السَّابِعُ

سوءُ الخاتمة

إنَّ سوءَ الخاتمةِ ـ أعاذنا اللهُ تعالىٰ منها ـ هي: أنْ تكونَ وفَاةُ الإنسانِ وهُوَ مُعْرِضٌ عَن رَبِّه جَلَّ وَعَلا، مُقيمٌ عَلىٰ مَسَاخطه سُبحَانَه، مُضَيِّع لَما أوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ، ولا رَيْبَ أنَّ تِلْكَ نِهَايَة بئيسة، طالَمَا خَافَها المُتَّقُونَ، وتَضرَّعُوا إلىٰ رَبِّهم سُبْحَانَهُ وتَعالىٰ أنْ يُجَنِّبَهُم إيَّاهَا.

وقَدْ يَظْهَرُ علىٰ بَعْضِ المُحْتَضرينَ عَلامَات أو أحوالٌ تَدُلُّ عَلىٰ سُوءِ الخَاتِمَةِ، مِثْل النكوبُ عَن نُطق الشَّهادة ـ شَهَادَة أنْ لا إلهَ إلاَّ الله ـ وَرَفْض ذَلِكَ.

ومثل التَّحَدُّث في سِيَاقِ الموتِ بِالسَّيئاتِ وَالمُحَرَّمَات وإظهار التَّعلق بِهَا، ونَحْو ذلكَ مِنَ الأقوالِ والأفعالِ الَّتي تَدُلُّ علىٰ الإعراضِ عَن دِيْنِ اللهِ تَعَالىٰ والتَّبَرُّم لِنُزُول قَضَائِهِ. ولعلَّ مِنَ المُنَاسِبِ أنْ نَذكُرَ بَعْضَ الأمثِلَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ:

◉ فَمِنَ الأمثلةِ: مَا ذَكَرَهُ العلامَةُ ابنُ القيِّم رحمَهُ اللهُ (في كتابه: الجواب الكَافي): أنَّ أحدَ النَّاسِ قِيْلَ لَهُ وهُو في سِيَاقِ المَوْتِ: قُل لا إلهَ إلاَّ الله.. فقَالَ: وَمَا يُغْنِي عَنِّي، ومَا أعْرفُ أنِّي صَلَّيتُ للهِ صَلاةً؟! ولَمْ يَقُلْهَا.

◉ ونَقل الحافظُ ابنُ رَجَبَ رحمَهُ اللهُ (في كِتَابِهِ: جَامعُ العُلُوم والحِكَم) عَن أحَدِ العُلَمَاءِ، وهُوَ عَبْد العَزيز بنُ أبي رواد أنَّهُ قَالَ: حَضَرْتُ رَجُلاً عِنْدَ المَوتِ يُلَقَّن لا إلَهَ إلاَّ الله، فقَالَ في آخرِ مَا قَالَ: هُو كَافِرٌ بِذلكَ، ومَاتَ عَلىٰ ذَلِكَ. قَال: فَسَألتُ عَنْهُ، فإذا هُوَ مُدْمِنُ خَمْر، فكانَ عَبْدُ العزيز يَقُول: اتَّقُوا الذُّنُوبَ، فإنَّها هِيَ الَّتي أوقعته.

◉ وَنَحْو هَـذا مَا ذكَرَهُ الحَافِظُ الذَّهبيُّ رَحِمَـهُ اللهُ: أنَّ رَجُـلاً كـانَ يُجَالِس شُرَّابَ الخَمْرِ، فَلَمَّا حَضرَتْهُ الوَفَـاةُ جاءهُ إنسانٌ يُلَقِّنُهُ الشَّهَادَةَ فقَـالَ لَـهُ: اشرَب وَٱسْقِنِي. ثُمَّ مات. والعياذُ باللهِ من سوءِ الخاتمَةِ.

◉ وَذكَرَ الحافظُ الذَّهبيُّ رحمَهُ اللهُ أيضاً (في كتَابِهِ: الكَبَائِر): أنَّ رَجُلاً مِمَّن كَانُوا يَلْعَبُونَ الشَّطرنجَ احتضَرَ، فَقِيْلَ لَهُ: قُل لا إلهَ إلاَّ الله.. فقَـالَ: شَاهدك، في اللّعب. فقَالَ عوضَ كَلِمَةِ التَّوحيد: شاهدك.

◉ ومِنْ ذلكَ مَا ذكَرَهُ أيضاً العلامةُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ عَن رَجُلٍ عُرِفَ بِحُبِّهِ للأغَاني وتَرديدها، فَلَمَّا حَضَرَتهُ الوفاةُ قِيْلَ لَهُ: قُل لا إلهَ إلاَّ الله.. فَجعَل يَهْذِي بِالغِنَاءِ وَيَقُول: تَاتنا تَنْتَنا.. حتَّىٰ قَضَىٰ، ولَم يَنْطِق بِالتَّوحيد.

◉ وقَالَ ابنُ القيِّم أيضاً: أخْبَرني بَعْضُ التُّجَّار عَن قَرَابَةٍ لَـهُ أنَّـهُ احتَضَـرَ وَهُـوَ عِنْدَهُ، وَجَعَلُـوا يُلَقِّنُونَـهُ لا إلـهَ إلاَّ الله وهُـو يَقُـولُ: هَـذِهِ القِطْعَـةُ رخِيْصَـةٌ، وَهـذا مُشْتَر جَيِّد، وهَـذِهِ بِكَـذَا. حتَّـىٰ قَضَـىٰ وَلَـم يَنْطِـق بـالتَّوحيد.. نَسـألُ اللهَ العافيـةَ والسَّلامَةَ من كل ذلك.

◉ وهَا هُنَا تَعْليـقٌ للعلامـةِ ابـن القيِّـم رَحِمَـهُ اللهُ، نُوردُ مـا تَيَسَّر منـهِ، حيثُ عَقَّبَ عَلَىٰ بعـض القصَـصِ المذكـورةِ آنفـاً، فَقَـالَ: «وَسُبحانَ اللهِ، كَـم شَـاهَدَ النَّاسُ مِن هَذا عِبَراً؟ والَّذي يَخْفَىٰ عليهم مِن أحوالِ المحتَضرِين أعظَمُ وأعْظَـم، فإذا كانَ العبدُ في حالِ حُضُور ذِهْنِهِ وَقُوَّتِهِ وكَمَالِ إدراكِهِ، قَدْ تمكَّنَ مِنْهُ الشَّيطانُ، وَاستَعْمَلَهُ فيمَا يُريدُهُ مِن مَعَاصِي اللهِ، وقَد أغفَلَ قَلْبَهُ عَـن ذِكْـر اللهِ تَعَـالىٰ، وَعَطَّـلَ لِسَانَهُ عَـن ذِكْرِهِ، وَجوارِحِـهِ عَـن طَاعَتِهِ، فكَيْـفَ الظَّـنُّ بِـهِ عِنْـدَ سُـقُوطِ قـواه، وَاشتِغَال قَلْبـه وَنَفْسـه بِمَا هُـو فيـهِ مِـن ألم النَّزْع؟ وَقَـد جمَـعَ الشَّيطانُ لَـهُ كـلَّ قُوَّتِهِ

وَهِمَّتِهِ، وحَشَدَ عَلَيْهِ بجميع مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ لِيَنَالَ مِنْهُ فُرصَتَهُ، فإنَّ ذلكَ آخر العَمَل، فَأقْوَى ما يكونُ عليهِ شَيْطانه ذلك الوَقْت، وأضْعَف ما يكـون هُو في تِلْكَ الحَال، فَمَن تَرَى يَسْلَم عَلَىٰ ذَلِكَ؟ فَهُنَاك: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فكيفَ يُوَفَّق بِحُسْنِ الخَاتمَةِ مَن أغْفَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ قَلْبَهُ عَن ذِكْرِه، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، وكانَ أمرُهُ فُرُطاً، فَبَعيدٌ مِن قَلْبِهِ بَعيد عَن اللهِ تعالىٰ غَافِل عَنْهُ، مُتَعَبِّدٌ لِهَوَاه، أسيرٌ لِشَهَوَاتِهِ، وَلِسَانُهُ يَابسٌ مِن ذِكْرِهِ، وَجَوَارِحُهُ مُعَطَّلَةٌ مِن طاعَتِهِ، مُشْتغلة بِمَعْصِيَتِهِ بَعيدٌ أنْ يُوَفَّقَ للخَاتِمَةِ بِالحُسْنَىٰ» ا. هـ.

◉ وَاعلم أيضاً أنَّ سُوءَ الخَاتِمَةِ عَلىٰ رُتْبَتين ـ نَعُوذُ باللهِ مِن ذَلِكَ ـ:

(أوَّلاً) عَلىٰ القَلْب عِنْدَ سكراتِ الموتِ وظهور أهوالِهِ:

إمَّا الشَّكُّ وإمَّا الجُحُودُ فتُقْبَض الرُّوح علىٰ تِلْكَ الحَال وتكون حِجَاباً بينه وبين اللهِ، وَذلكَ يَقْتَضِي البُعْد الدَّائم والعَذَاب المُخَلَّد.

(ثانياً) وهي دُونها، أنْ يَغْلب عَلىٰ قلبِهِ عِنْدَ الموتِ حُبُّ أمرٍ مِن أمورِ الدُّنْيَا أو شَهْوَةٍ مِن شَهَوَاتها المُحَرَّمَةِ، فَيَتَمَثَّل له ذلك في قَلْبِهِ، والمرءُ يَمُوتُ عَلىٰ مَا عَاشَ عليهِ، فإنْ كانَ مِمَّن يَتَعَاطَونَ الرِّبا فَقَد يُخْتَمُ له بِذَلِكَ، وإنْ كانَ مِمَّن يَتَعَاطَونَ المُحَرَّمات الأخرى مِن مِثْل المُخَدِّرات والأغَاني والتَّدخين وَمُشَاهَدَةِ الصُّور المُحَرَّمَةِ وظُلم النَّاس وَنَحْو ذلكَ فَقَد يُخْتَم لهُ بِذَلِكَ، أي بِمَا يُظْهِر سوء خَاتِمَتِهِ والعياذُ بِالله، ومثل ذلكَ إذا كانَ مَعَهُ أصْلُ التَّوحيد فهو مَخطورٌ بالعذاب والعقاب. ولا شكَّ أنَّ المرءَ في الغالبِ يموتُ علىٰ ما عاشَ عليهِ كما أنَّهُ يُبعثُ علىٰ ما ماتَ عليهِ، واللهُ تَعَالىٰ أعْلَمُ.

أسباب سُوء الخاتمة

وبهذَا يُعْلَم أنَّ سُوءَ الخاتِمَةِ يَرْجِعُ لأسبابٍ سابِقَةٍ، يَجِبُ الحَذَر منها ومِن أعظَمِهَا وأخْطَرِهَا:

(١) فسادُ الاعتقَادِ، فإنَّ مَن فَسَدَت عَقيدَتُهُ ظَهَرَ عليهِ أثرُ ذلكَ أحوج مَا يكونُ إلىٰ العونِ والتَّثبيت مِنَ اللهِ تعالىٰ.

(٢) ومنهَا: الإقبال عَلَىٰ الدُّنيا وَالتَّعَلُّق بِهَا كثيراً بحيث تشغلُ عن الآخرةِ.

(٣) ومنهَا: العُدُول عَن الاستِقَامَةِ والإعراضِ عَن الخَيْرِ وَالهُدَى.

(٤) ومنهَا: الإصرار علَىٰ المَعَاصِي وَإلفها، فَإنَّ الإنسانَ إذا ألفَت نفسُهُ شيئاً مُدَّةَ حياتِهِ وَأحَبَّه وتعَلَّق بهِ، يهونُ ذِكرُهُ إليهِ عِنْدَ الموتِ، وَيُرَدِّدُهُ حَالَ الاحتِضَار في كثيرٍ مِنَ الأحيانِ.

وقالَ الحافظُ ابنُ كَثير: «إنَّ الذُّنُوبَ والمعَاصِي وَالشَّهوات تَخْذُل صَاحِبَهَا عِنْدَ المَوْتِ، مَع خُذْلانِ الشَّيطان لَهُ، فَيَجْتَمعُ عليه الخُذْلانُ مَع ضَعْفِ الإيمانِ، فَيَقَع في سُوءِ الخاتِمَةِ، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وكَانَ الشَّيطانُ للإنسَانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان: ٢٩].

◉ وَاعْلَم أنَّ سوءَ الخَاتِمَةِ - أعَاذنَا اللهُ مِنْهَا - لا يَقَعُ فيها مَن صَلُحَ ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ مَع اللهِ، وَصَدَقَ في أقوالِهِ وَأعْمَالِهِ، فَإنَّ هَذا لَم يُسْمَع بِهِ، وإنَّما يَقَعُ سُوءُ الخَاتِمَةِ لِمَن فَسَدَ بَاطِنُهُ عقداً، وظاهره عملاً، وَلِمن له جرأة علىٰ الكَبَائِر، وإقدامٌ عَلىٰ الجَرائِم، فَرُبَّمَا غَلَبَ ذلكَ عليهِ حتَّىٰ يَنْزِلَ بِهِ المَوتُ قَبْلَ التَّوبة» ا. هـ.

أخي المسلم: لأجلِ ذَلِكَ كانَ جديراً بالعاقِل أنْ يَحْذَرَ مِـن تَعَلُّـق قَلبه بِشَـيء مِنَ المُحَرَّمَات، وجديراً بِهِ أنْ يُلْـزِمَ قَلْبَـهُ ولِسَـانَهُ وَجَوارحَـهُ ذِكْـرَ اللهِ تَعَـالىٰ، وَأنْ يُحَافِظَ عَلىٰ طاعَةِ اللهِ حَيْثُما كانَ، مِن أجْل تِلْـكَ اللَّحظَـةِ الَّـتي إنْ فَـاتَت وَخُـذِلَ فِيْهَا شَقِيَ شَقَاوةَ الأبـدِ. (اللَّـهُمَّ اجعَـلْ خَيْرَ أعمَالِنَا خَوَاتيمـهَا، وَخَيْرَ أعمَارنـا أواخِرهَا، وخير أيَّامنا يوم نَلْقَاكَ فيهِ، اللَّهُمَّ وَفِّقنَا جميعاً لِفِعْل الخَيْرَات وَٱجتِنَاب المُنكَرَاتِ. وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلىٰ نبيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آله وَصَحْبِهِ).

❖ ❖ ❖

الفَصْلُ الثَّامِنُ

قصص عَن سُوء الخاتمة للعبرةِ

القِصَّةُ الأولى

« أريدُ صديقتي »

قال الدكتور أيمن: كُنْتُ أقومُ بالمرورِ اليَوميِّ علىٰ المَرضَىٰ في غُرفةِ العنَايَةِ المُركَّزةِ في ذلكَ المُستشفىٰ الكنَدِيّ الَّذي كنتُ أتَابعُ فيه الدِّراسَةَ الطِّبيةَ العُليا، فلَفَتَ انْتبَاهي اسم المريض في السَّرير رقم (٣) إنَّهُ مُحمَّد، نَظَرْتُ إليه مَلياً أتَفحَّصُ مَلامِحَهُ أتفرَّسُ قَسمَات وَجْهِهِ الَّذي كادَ يَتوارى تَحْتَ أنقَاضِ أنابيبِ أجهزةِ الإنعاشِ إنَّه شابٌّ في الخامِسةِ والعشرين مِن العُمُر مُصَابٌ بِمَرضِ نَقْصِ المَناعَةِ المكْتَسبَةِ (الإيدز) أُدْخِلَ إلىٰ المُستشفىٰ قبل يَومين بالتهابٍ حادٍّ في الرِّئةِ وحالَتُهُ خَطِرَةٌ جداً، وشِبه مَيؤوسٌ مِنْهَا لم يكُن هَذا أوَّلُ مَريض مُسلم في بِلادِ الغَرْب أُعَالِجُهُ ولكنِّي أحْسَسْتُ نحوه بشعورٍ خَاصٍّ لا أعْرفُ سَببَهُ.

وبَعْدَ انتهاءِ المُرُور الصَّباحي اخْتَلَسْتُ لحظَات واقْتربتُ مِن هَذا الشَّابِّ حَاولتُ أنْ أكلِّمَهُ برفقٍ إنَّه يَسْمَعُني ولكنَّهُ لا يستطيعُ أنْ يُجيبَ إلاَّ بكلماتٍ غير مَفْهُومة، اتَّصلت بِبَيْتِهِ، رَدَّت عَلَيَّ أمُّهُ يَبْدُو أنَّهُم من أصُولٍ عَربيَّةٍ لُبْنانيَّة، وأبُوه تاجرٌ كبيرٌ في المدينةِ يَمْتَلِكُ محلات حَلَويات، شَرَحْتُ للأمِّ حالَةَ ابنِهَا أثناء حَدِيْثي مَعَهَا بَدأت أجراس الإنذارِ تَتَعَالىٰ بشكْلٍ مُخِيْف مِنَ الأجهزةِ الموصلة بذلكَ الفتَىٰ مُؤشِّرة علىٰ هُبُوط حادٍّ في الدَّورة الدَّموية، ارتبكت في حديثي مَعَ الأمّ قُلْتُ لَهَا:

لا بدَّ وأن تَحْضُري الآنَ، فَقالَت: أنا مَشْغُولَةٌ في عَمَلِي سوفَ أحضرُ بَعْدَ انتهاءِ الدَّوام، قُلْتُ لها: رُبَّمَا يكُونُ الوقتُ مُتأخِّراً عندهَا وأغْلَقْتُ السَّمَّاعَةَ.

وبَعْدَ نِصفِ سَاعَةٍ طلبَت مِنِّي المُمَرِّضَةُ أنْ أحْضِرَ للقَاءِ وَالِدَةِ المَريضِ امْـرأةٌ في مُتَوَسِّط العُمُر لا تَبْدُو عليها مَظاهِر الإسلامُ، بَدَت مُضْطربةً، شَرَحْتُ لها الوَضْعَ الحَرِجَ لابنِهَا انهَارت باكيةً.. حاولت تَهْدِئتها قُلْتُ لَهَا: اسألي اللهَ لَهُ الشِّفاءَ، نَظَرَت إليَّ بِدَهْشَةٍ وقَالت: مَاذا قُلْتَ؟ قُلْتُ لها: تَعَلَّقي باللهِ واسألي لَهُ الشِّفَاءَ! قَالَت: أنتَ مُسلِم؟! قُلْتُ: نَعَم الحمدُ للهِ. قَالت: نَحْنُ مُسلمونَ كَذَلِكَ. قُلْتُ: مَا شاءَ اللهُ لماذا لا تذهبينَ عِنْدَ رأسِهِ وَتَقْرئينَ عَلَيْهِ شيئاً مِنَ القرآن الكريمِ لَعَلَّ اللهَ أنْ يُخَفِّفَ عَنْهُ؟ انْتَفَضَت بِارتباكٍ وقَد انخَرَطَت في بكَاءٍ مَريرٍ قَالَت: لا أعْرِفُ.

قُلْتُ كَيفَ تُصَلِّينَ؟ قَالت نَحْنُ لا نُصَلِّي إلاَّ في العِيْدِ مُنْذُ أنْ أتينا إلىٰ هَـذَا البَلَدِ.. ولكني أذْهَبُ لزيارة أضْرِحَةِ أجدَادي في لُبنان كلَّ عَامين أدعُو لَهُم دونَ عِلْم زَوْجي.. فَأنا امرأةٌ مُتَدَيِّنَةٌ..

قلتُ في نفسي: (اللهُ المستعانُ مُتَدَيِّنَةٌ مِن دُونِ صَلاةٍ ولا تَعرفُ القُرآنَ).

سَألتُها عَن حال ابنِهَا؟ قَالَت؟ كانَ طَيِّبَ القَلْبِ يُحِبُّ الحياةَ ولكنَّه انحرفَ قليلاً في السَّنَةِ الماضيةِ مَع تلكَ الفتاةِ الَّتي استَولَت عليهِ.. وكانَ حالُهُ عَلىٰ أحسنِ مَا يُرام.. قُلتُ: هَل كانَ يُصَلِّي؟ قَالَت: لا وَلكِنَّه كانَ يَنْوي أنْ يَحُجَّ في آخرِ عُمُرِهِ..

قلتُ في نَفْسِي: (مَن يَضْمَن أنْ يَعِيشَ إلىٰ الثَّلاثِين أو حتَّىٰ إلىٰ الأربعِينَ والخمسينَ وَالسِّتين.. كَم مِن صَغير ماتَ ولَم يَبْلُغ العشرينَ)..

بعدهَا اقتربْتُ مِنَ الفَتَىٰ المسكين وهُو يُصَارِعُ سكَرات الموت، أجهزةُ المُنبِّه تَتَعَالىٰ الأمُّ تبكِي بِصَوتٍ مَسْمُوع، الممرضَاتُ يَنْظُرنَ بِدَهْشَةٍ، جَاهداً حَاولت أن أُلَقِّن الفَتَىٰ الشَّهادتين والفَتَىٰ لا يَسْتَجيب.. عَاودت المُحَاولَةَ مَرَّات عَديدَة بَدَأ

الفَتَىٰ يَفيقُ شَيئاً مَا.. قلتُ له: قُل لا إلهَ إلاَّ اللهَ.. والفتَىٰ يُحَاولُ بكلِّ جوارحِهِ والدُّمُوع تفتُر من أطرافِ عَيْنَيهِ وَجدْتُهُ يتغيَّرُ لونُهُ إلىٰ السَّواد.. ثمَّ بدأ يتكلَّم قائلاً: أُريدُ مُسكناً للألم.. فقلتُ لهُ: يا فتىٰ قُلْ لا إلهَ إلاَّ الله.. شَفَتَاهُ تَرتَجِفَان يا إلهي سَيَنْطِقُهَا الآنَ.. فقال بالإنكليزية: (I cant I cant) أريد صديقتي لا أستطيع.. النَّبضُ يَتنَاقَصُ.. وما زالَ يردِّدُ ويقولُ: أُريدُ صَديْقَتي لا أسْتَطيع.. والنَّبضُ يَتَنَاقَص وَالتَّنَفُّسُ يَتلاشَىٰ..

لم أتَمَالَك نَفْسِي أخَذْتُ أبكي بِحُرْقَةٍ وَأعَدْتُ المُحَاوَلَةَ: أرْجُوكَ أيُّها الفتىٰ قُلْهَا وهو يقولُ: لا أستطيعُ..

تَوَقَّف النَّبْضُ وأنا مُمْسِكٌ بِيَدِ الفَتَىٰ في ذُهُولٍ تَامٍّ وَالأُمُّ مُرتَمِيَةً علىٰ صَدْره تَصرُخُ وَوَجْهُ الفَتَىٰ غطَّاهُ سَوادٌ كَالحٌ، لَم أتَمَالَك نَفْسِي نَسِيْتُ كلَّ الأعْرافِ الطِّبيةِ وَذُهِلْتُ مِن حَسَاسِيَةِ المَوْقِف انْفَجَرتُ صارخاً في الأمِّ أنْتِ المَسْؤُولَةُ.. أنْتِ وَأبُوهُ ضَيَّعْتُم الأمَانَةَ ضَيَّعكُم اللهُ.. الأمُّ تبكِي في ذُهُولٍ..

تذكَّرتُ قولهُ تعالىٰ: ﴿أمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

قالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ: فإذا كانَ العبدُ في حَالِ حُضُورِ ذِهْنِهِ وَقُوَّتِهِ وكَمَالِ إدراكِهِ قَد تَمكَّنُ منهُ الشَّيطانُ واستَعْمَلَهُ فيما يُريدُهُ مِن مَعَاصِي اللهِ فكَيْفَ الظنُّ بِهِ عِنْدَ سُقُوطِ قُواه واشْتِغَالُ قَلْبه ونَفْسه بِمَا هُوَ فيهِ مِن ألم النَّزْعِ؟ وَجَميع الشَّيطان عَلَيْهِ كلُّ قُوَّتهِ وَهِمَّته لينالَ منهُ فُرْصَتَهُ.. فأقوى ما يكونُ عليهِ شَيْطَانُهُ ذلكَ الوَقت، وأضعف ما يكون هُو في تِلْك الحالِ.. فَمَن تُرى يَسْلَم مِن ذَنْبِهِ.. فَهُنَاكَ ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] [بقلم الدكتور أيمن بن أسعد عبده، من كندا].

القصة الثانية

« أعْطُوني دُخاناً »

هَذا شابٌّ في سكَراتِ المَوتِ يَقُولونَ لَهُ: قُلْ لا إلَهَ إلاَّ اللهُ.. فيَقُول: أعْطُوني دُخَّاناً.. فيَقُولُونَ: قُلْ لا إلَهَ إلاَّ اللهُ..

فَيَقولُ: أعطوني دُخاناً.. فيَقُولُونَ: قُلْ لا إلَهَ إلاَّ اللهُ.. عَلَّه يُخْتَمُ لكَ بِهَا.

فَيَقُولُ: أنَا بَرِيءٌ مِنهَا أعطُوني دُخاناً.

[من شريط الشيخ علي القرني/ الإيمان والحياة].

القصة الثالثة

« أنا في سَقَر »

وَقَعَ حَادِثٌ في مَدينَةِ الرِّياض علىٰ إحدَى الطُّرُق السَّريعةِ لِثَلاثَـةٍ مِنَ الشَّبابِ كانُوا يَسْتَقِلُّونَ سَيَّارةً واحدةً تُوفِّيَ اثنان وبَقِيَ الثالثُ في الرَّمَـقِ الأخِير فهرعَ إليهِ رجلُ المُرُور ـ الَّذي حَضَرَ الحَادِثَ ـ وجعَلَ يَقُولُ لَهُ: قُل لا إلهَ إلاَّ اللهُ..

فَأخَذَ يحكِي عَن نَفْسِهِ وَيَقُولُ: أنَا في سَقَر.. أنَا في سَقَر.. حتَّىٰ مَاتَ عَلَىٰ ذَلِكَ.. ـ والعياذُ باللهِ ـ فجاءَ رَجُلُ المرورِ يَسْأل عن ذلكَ وَيَقُول مَا هِي سَقَر ؟

لِيَجِد الجَوابَ في كِتَابِ اللهِ تعالىٰ: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَا أدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۝ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ۝ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ۝ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٢٦- ٣٠].

[من شريط كلُّ مَن عليها فانٍ].

القصة الرابعة

« لقد سبَّ الدِّيْنَ »

هذهِ قِصَّةُ شابٍّ ـ كانَ مِنَ العابثِينَ ـ يُحكىٰ عنه أنَّهُ حصلَ لَـهُ حادثٌ مُروِّعٌ في طريقِ مكَّة إلىٰ جدَّة. قالَ الرَّاوي الذي حضرَ المشهدَ: فلمَّا رأينا مَنْظرَ السَّيارة ومشهدَهَا الخارجي، قلتُ أنا ومَن مَعي مِنَ الإخوة: نَنْزلُ، فَنَنْظُر ما حالُ هذا الإنسانِ وكيفَ أصبحَ، فَلَمَّا اقترَبْنَا مِنَ الرَّجُل وَجَدْنَاهُ في النَّزع الأخيرِ من حياتِهِ، وَوَجَدْنَا مُسَجِّلَ السَّيارة مفتوحاً علىٰ أغانٍ غربيةٍ باطلةٍ، يقولُ الرَّاوي: فَأغْلَقْنَا المسجِّلَ، ثمَّ نظرنَا إلىٰ الرَّجُلِ ومَا يُعانيه مِن سكراتِ الموتِ، فَقُلنا: هذهِ فُرصةٌ لعلَّ اللهَ ـ عزَّ وَجَلَّ ـ أنْ يَجْعَلَ علىٰ أيدينا فَلاح هذا الرَّجُل في دُنياه وآخرتِهِ، فأخذنَا نقولُ لهُ: يا هَذا، قُلْ: لا إله إلاَّ اللهُ.. أَتدري ـ أُخَيَّ بِمَاذا تكَلَّمَ في آخِرِ رَمقٍ في حياتِهِ؟

لَيْته مَا نَطَق، لَقَد قالَ كلمةً رهيبةً عظيمةً! لَقَد سبَّ دِيْنَ اللهِ رَبِّ العالمينَ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّقَاءِ وَالخذلانِ وسُوءِ الخاتمةِ.

القصة الخامسة

« في المشفىٰ »

وها هُو أحدُ الفضلاءِ يَقُولُ: حَدَّثني أحدُ الَّذين يدرسونَ في معهدٍ منَ المعاهدِ العلميةِ في بلادنَا يقولُ:

أقسمُ باللهِ ثلاثاً ولَيْسَ لي حاجَة أنْ أكذِبَ إنَّني كنتُ مريضاً في أحدِ المستشفياتِ، فأُتِيَ بِمَريضٍ ووضعَ بجانبي في الغُرفةِ الَّتي كنتُ مطروحاً فيها علىٰ

السَّرير.. يقول: وكانَ ذلكَ المريضُ أصفَرَ اللَّون، فإذا بهِ في اليَوْمِ التَّالي يَنْقَلِبُ لونُهُ إلىٰ الحنطيِّ، وفي اليومِ الثَّالثِ يكُونُ لَونُهُ كَأمثالنا.

يَقُولُ: فَقُلْتُ: لَعَلَّهُ قَد بَدأ يَتَحَسَّنُ.. ولكن للأسفِ جاءَ اليومُ الرَّابعُ فإذا بِلَونهِ يَنْقَلِبُ إلىٰ اللَّونِ الأسود.. وفي اليوم الخامس يَشْتَدُّ سَوادُهُ أكثرَ فأكثرَ !!

يقول: فَارتَعَدنَا وخِفْنا مِن هذا الرَّجُل. وقَد كُنتُ أعرفُهُ قبلَ ذلكَ، كانَ مِمَّن يَتَخَلَّفُ عن الصَّلوات، وكانَ مِمَّن يُسَافرُ إلىٰ الخارج فيَتَعَاطونَ المخدراتِ..

اقتَرَبتُ منه وبدأتُ أقرأُ عليهِ القُرآن، فإذا بهِ تَخْرُجُ مِنْهُ روائح كريهة مُنتنة ـ عياذاً باللهِ ـ يَقُولُ: ولما بدأتُ أقرأُ عليهِ القرآن شَهقَ شَهقَةً عظيمةً، فَخِفْتُ وابْتَعَدْتُ، فقالَ لي مريضٌ آخر: وَاصِلِ القِراءةَ.. فَقُلتُ: واللهِ لَنْ أقرأَ عليهِ.

قالَ: اذهَبْ إلىٰ فلان في الغرفةِ المجاورةِ، ونَادِهِ ليقرأ عليهِ، فجَاءَ هَذا الشَّابُّ الآخرُ وبدأَ يقرأُ عليهِ. يَقُولُ: فَشهقَ شهقةً أُخرى عَظيمةً، ومـا زالَ يُواصِلُ الشَّابُّ القراءةَ عليهِ حتَّىٰ شَهقَ للمَرَّة الثَّالثة شهقةً مخيفةً. ثمَّ طلبُوا لهُ الطبيبَ، فجاءَ ووضَعَ السَّماعَةَ عَلىٰ صَدْرِهِ، ثمَّ قالَ: لَقَد ماتَ.

نَعَم لَقَد ماتَ وفارقَ الحياةَ، وكانت لَهُ هذه الخِلْقَة السَّيِّئة، لأنه كانَ مُسيئاً في جنبِ اللهِ، غَيْر مُراعٍ لحدودِهِ، ومَن كانَ عَلىٰ هذهِ الحالِ مِنَ الضَّياع والفَسَاد فَحَقُّه أنْ يُخْتَمَ لَهُ بذلكَ جَزاءً وفاقاً، ومَا رَبُّكَ بِظَلَّام للعَبيدِ.

القِصَّةُ السادِسَةُ

« في السَّيَّارةِ »

قَالَ الرَّاوي: حدَّثني أحدُهُم فَقَالَ: كنتُ مسافراً في دِرَاسَةٍ إلىٰ الولاياتِ المتَّحدةِ الأمريكية وكانَ شأني شأن كثيرٍ منَ الشَّباب الَّذين يَقْضُونَ اللَّيل في الملهىٰ

والرَّقص، وذاتَ يوم كنَّا آيبينَ مِن لهونَا وعَبَثِنَا وَتَقَدَّمَ بعضُنا إلىٰ السَّكَن الَّذي كنَّا فيهِ، وتأخَّرَ واحدٌ منَّا ففَقَدناهُ واستبطأناهُ وقُلنا: لَعَلَّهُ يأتي بَعْدَ قليل.

ولَم نَزَل نَنْتَظِرُهُ لكنَّه لَم يأتِ، فَنَزَلنَا نَبْحَث عنهُ يميناً وشمالاً، ثمَّ قُلنا أخيراً: لا بُدَّ أنَّه في الموقفِ الَّذي يُجْعَلُ للسَّيارة تحتَ البنَاءِ فَدَخَلنَا إلىٰ الموقِفِ فَوَجدنَا أنَّ مُحَرِّكَ السَّيارةِ لا يزالُ مُشتَعلاً وصاحبنَا ساكنٌ لا يَتَحَرَّك، والموسيقىٰ لا زالت تَرِنُّ منذ آخِرِ اللَّيل حتَّىٰ اللَّحظة الَّتي فَتَحْنَا فيها بابَ السَّيارة، فَفَتَحْنَا البابَ، وَنَادَينَاهُ: يَا أخانا، يَا صَاحِبنَا، فَإذا بهِ قَد انقَطَعَ عَن الدُّنيا مُنْذُ اللَّحظةِ الَّتي وَقَفَت فيهَا سيارتُهُ في ذلكَ الموقفِ، وكانَت هذهِ النِّهايةُ المحزنةُ لذلكَ الشَّاب قَد أشعَلَت في قلوبِ الكثيرِ منَّا يَقَظَةً وتَوبَةً وإنابةً إلىٰ اللهِ تَعَالىٰ، فَعَادُوا إلىٰ اللهِ تائبينَ وَمَا شَربُوا بعدَهَا وما فَجرُوا بَل استكَانُوا وأنابُوا بِفَضْلِ اللهِ ثُمَّ بِتَدَبُّرهم لحالِ صَاحِبِهِم الَّذي ماتَ علىٰ معصيةِ اللهِ ـ والعياذُ باللهِ ـ وكانت نِهايَتُهُ في الحقيقةِ مَوعِظَةً لمن يُريدُ الاتِّعاظَ، وأمَّا المفرطَ المضيعَ فَهُو بِمَعْزل عَن ذلكَ.

القصَّةُ السَّابعةُ

« في بانكُوك »

وهذا شابٌّ آخر مِن أولئكَ المنحرفين الَّذين كانُوا يُسافرونَ إلىٰ « بانكُوك » للفِسْقِ وَالدَّعارةِ، بينَمَا كانَ في سُكْرهِ وغيِّهِ يَنْتَظِرُ خَليلَتَهُ ـ وقَد تَأخَّرت عنهُ ساعةً من الزَّمن ـ فما هي إلاَّ لحظات حتَّىٰ أقبلَت عليه، فَلَمَّا رآها خرَّ سَاجداً لَهَا تعظيماً، ولم يَنْهَض مِن تِلكَ السَّجدة الباطِلَةِ إلاَّ وهُو محمولٌ علىٰ الأكتافِ قَد فارقَ الحياةَ، فَنعُوذُ باللهِ مِن سُوءِ الخاتِمَة.

القصة الثامنة

«الليلةُ الحمراءُ»

هَا هُم أربعةٌ مِنَ الشَّباب، كانُوا يَعملونَ في دائرةٍ واحدةٍ، مَضَت عليهم سنينَ وَهُم يَجْمَعُونَ رَواتِبَهُم، فإذا سَمِعُوا ببلدٍ مُباحٌ فيهِ الفُجُور طارُوا إليه..

وبينما هُم ذات يَوم جَالسينَ في عملهِم إذ سَمِعُوا ببلادٍ لَم يَذْهَبُوا إليهَا، المُهم عَقَدُوا العزْمَ بعد أن تشاوروا بينهم فقرَّرُوا أن يَجْمَعُوا رَوَاتِبَهُم هذهِ المرَّة لِيُسَافِرُوا إلىٰ تلكَ البلادِ الَّتي سَمِعُوا عَن فُجُورهَا.

وجاءَ وَقْتُ الرِّحْلَةِ وَركبُوا في الطائرةِ ومَضَـوا إلىٰ مَا يُريدون، وَمرَّ عليهم أكثَر مِن أسبُوع في تِلْكَ البِلادِ وَهُم بينَ الزِّنىٰ والخمُور، وَأفعال لا تُرضِي اللهَ تعالىٰ.

وبينَمَا هُم في ليلةٍ مِنَ الليالي، وفي سَاعَةٍ مُتَأخِّرة مِنَ اللَّيل، يجاهرونَ اللهَ تَعَالىٰ بالمعصيةِ وَالفُجُور، نَعَم بينَمَا هُم في غَمْرةِ اللَّهو وَالمجونِ إذا بِأحَدِ هؤلاءِ الشَّباب الأربعة يَسْقُطُ مَغْشيَّاً عليهِ، فَهَرَعَ إليهِ أصحابُهُ ليروا ما بهِ، ففوجؤوا بأنَّهُ ينازع الموت ويصارعُهُ، فتحركَ الإيمانُ في قلبِ أحدِ أصدقائهِ وقال له: يَا أخي، قُل لا إلَهَ إلاَّ الله، فَرَدَّ الشَّابُّ ـ عياذاً بالله ـ: إليكَ عَنِّي، زِدْني كأسَ خَمْر، تَعَالي يَا فُلانَة، ثمَّ فَاضَت رُوحُهُ إلىٰ اللهِ تعالىٰ وَهُوَ علىٰ تِلكَ الحالِ السَّيئة، نَسألُ اللهَ تَعَالىٰ السَّلامَةَ وَالعَافية.

ثمَّ كانَ حَالُ الثَّلاثة الآخرينَ لما رَأوا صَاحِبَهُم وَمَا آلَ إليهِ أمرُهُ أنَّهُم أخذوا يبكُونَ، وَخَرَجُوا مِنَ المرقَصِ تَائبينَ، وَجَهَّزُوا صَاحِبَهُم، وعَادُوا بهِ إلىٰ بلادِهِ مَحْمُولاً في التَّابوتِ، ولما وَصَلُوا المطارَ فَتَحُوا التَّابوتَ ليتأكَّدُوا مِن جُثَّتِهِ، فَنظَرُوا إلىٰ وَجْهِهِ فَإذا بالسوادِ والكُدرةِ قد غطت وجهَهُ ـ عياذاً باللهِ تعالىٰ.

القصة التاسعة

في جزر الهند

يقولُ الرَّاوي الذي نقلَ عنه الشَّيخ: صَحِبنَا على ظهرِ سفينةٍ نجولُ بها حولَ البلدانِ طلباً للرِّزق شابٌّ صالحٌ، نقيّ السَّريرة طيِّب الخُلُق، كنَّا نرى التُّقى يلُوحُ في قَسَمَاتِ وَجْهِهِ، والنُّورَ والبِشْرَ يرتسمَانِ على محيَّاه، لا تراهُ إلاَّ مُتوضِّئاً مصلِّياً، أو نَاصحاً مرشداً، إن حانَت الصلاةُ أذَّنَ لنا وصلَّى بنَا، فإنْ تخلَّف أحدٌ عنهَا أو تأخَّرَ عاتبَهُ وأرشَدَهُ، وكانَ معنَا على هذهِ النَّصيحةِ السَّجية طيلةَ أسفارنَا.

وفي يومٍ من الأيام ألقى بنَا البحرُ إلى جزيرةٍ مِن جُزُر الهندِ فنَزلنَا إليها وكانَ مما تَعوَّدَ عليهِ البحارةُ أن يبقوا أياماً يرتاحُونَ في هذهِ الجُزُر، يجتمعُونَ بعدَ عناءِ السَّفر الطويل يتجوَّلُونَ في أسواقِ المدينةِ ليشتَروا أغرَبَ ما يجدُونَ فيهَا لأهلِهِم وأبنائِهم ثمَّ يرجعونَ إلى السَّفينة في اللَّيل، وكانَ منهم نفرٌ ممَّن وقَعَ في الضَّلالِ، يَتيمَّم أماكِنَ اللَّهو والهوَى والفُجُور والبغاءِ، وكانَ ذلكَ الشَّابُّ الصَّالح لا يَنْزل مِنَ السَّفينةِ أبداً، بَل يقضِي هذهِ الأيَّام يُصْلحُ في السَّفينةِ مَا احتَاجَ منهَا إلى إصلاح، فَيفْتِلُ الحبالَ ويَلُفُّهَا، ويقدِّم الأخشابَ ويشدُّها ويشتَغِل بالذِّكْرِ والقِراءةِ والصَّلاة.

قالَ الرَّاوي: وعينُهُ ترقرقُ بالدُّمُوع وتَنْحَدِرُ على لحيتِهِ: وفي إحدَى السَّفرات وبينما كانَ الشابُّ مُنشغلاً بأعمالهِ تِلكَ إذا بصاحبٍ له في السَّفينةِ ممَّن أتبعَ نَفْسَهُ هواهَا وانشغَلَ بطالحِ الأمورِ عن صَالِحِها، وبسافِلِ الأخلاقِ عَن عاليهَا، فجعَلَ يُهَامِسُهُ قائلاً: يا صَاحِبي، لم أنتَ جَالِسٌ في السَّفينة لا تُفارقها؟ لم لا تَنْزِل

حتىٰ تَرَى دُنيا غَير دُنياك ؟ تَرَى ما يَشْرَح الخاطِر ويُؤنس النَّفسَ! أنا لم أقُل لكَ تعالَ إلىٰ أماكنِ البغاءِ وسخطِ الله، ولا إلىٰ البـاراتِ وغضبِ الله، هيهاتَ يا صاحِبي، لكن تَعَال: فانظُر إلىٰ ملاعبِ الثَّعابين كيفَ يَتلاعَب بها صاحبُها ولا يخافُها، وإلىٰ راكب الفِيل كيفَ يجعل مِن خُرطومه له سلَّماً ثمَّ يصعَد برجليهِ ويديهِ حتَّىٰ يقيمه علىٰ رِجْلٍ واحدةٍ.. آه يا صاحبي لَو رأيتَ مَن يمشِي علىٰ المسامير أنَّىٰ لهُ الصَّبر، ومَن يَلتَقِم الجمْرَ كأنما هو تَمْرٌ، ومَن يشرب ماءَ البَحْر فيسيغه كما يُسيغ الماءَ الفُرات، يَا أخِي انزِل وانظُر إلىٰ النَّاس!

فَتحرَّكَت نفسُ الشابِّ شوقاً لما سَمعَ، وقَالَ: وهَل في هذهِ الدُّنيا ما تَقُول؟.

فقالَ لهُ صاحبُ السّوء: نَعم، وفي هذه الجزيرة. فَانزِل، تَرَ مَا يَسُرُّك، ونَزَلَ الشابُّ الصَّالحُ مَع صاحبِهِ، وتَجوَّلا في أسواقِ المدينةِ وشَوارِعهَا حتَّىٰ دخلَ بهِ إلىٰ طرقٍ صغيرةٍ ضَيِّقة، فانتَها بهمَا الطريقُ إلىٰ بيتٍ صغيرٍ فَدَخَلَ الشَّابُّ السيئ البيتَ وطلَبَ مِنَ الشَّابِّ الصَّالح أن يَنْتَظِرَهُ وقالَ: سآتيكَ بَعْدَ قليل ولكِن ! إيَّاك إيَّاك أن تَقْتَربَ مِن الدَّار.

وجَلَسَ الشابُّ بعيداً عَن البابِ يَقْطَع الوقتَ قراءةً وذِكْراً. وفجأةً! إذا بِهِ يَسْمَع قَهْقَهَةً عاليةً، لِيُفتَحُ البابُ بعدَها وتخرُج منهُ امرأةٌ قَد خَلَعَت جلبابَ الحياءِ والمروءةَ. أوَّاه !! إنَّهُ البابُ نَفسُهُ الَّذي دَخَلَ فيهِ صَديقي. وتَحرَّكت نفسُ الشَّابِّ فدنَا مِنَ البابِ ووضَعَ سَمْعَهُ لما يَدُور في البيتِ، فإذا بهِ يَسْمَع صيحةً أُخرَى، وقَهْقَهَةً عاليةً، فَنَظَر مِن شقِّ البابِ وأتبعَ النَّظرةَ أختَهَا وواصلَ النَّظرات فهُو يَرَى شيئاً لم يَألَفْهُ ولَم يَرَهُ مِن قَبْلُ، المهم أنَّهُ رَجَع إلىٰ مكانِهِ، ولما خَرَجَ صاحبُهُ بادَرَهُ الشَّابُّ مُستنكراً: ما هذا؟! ويحك! هَذا أمرٌ يُغضِبُ اللهَ ولا يُرضيه، فَقَالَ

الشَّابُّ: اسكُت يا أعمَىٰ يا مُغفَّل، هذا أمرٌ لا يَعْنيكَ.

قالَ الرَّاوي: ورَجَعْنا إلىٰ السَّفينةِ في ساعةٍ متأخرةٍ مِنَ اللَّيل، وبقِيَ الشَّابُّ ساهراً ليلَتَهُ تِلْكَ، مشتَغِلَ الفِكْر فيمَا رآه، وقَد استَحكَمَ سَهْمُ الشيطانِ من قلبِهِ، وامتلَكَت النظرةُ زمامَ فُؤادِهِ، فما إن بَزَغَ الفَجْرُ وأصبَحَ الصَّباحُ حتَّىٰ كانَ أوَّل نازلٍ مِنَ السَّفينةِ وما في بالِهِ إلاَّ أن يَنْظُرَ فَقَط، ولا شيءَ غيرَ النَّظر، وذَهَبَ إلىٰ ذلكَ المكانِ، فما إن نَظَرَ نظرتهُ الأولىٰ وأتبعَهَا الثَّانية، حتىٰ فُتِحَ لهُ الباب وقَضَىٰ اليومَ كُلَّه هناك، وكذلكَ اليوم الَّذي بَعْدَه، وبعد يومين افتَقَدَهُ رُبَّانُ السَّفينةِ وسألَ عَنْهُ: أينَ المؤذِّن؟ أينَ إمامنا في الصَّلاة؟ أينَ ذلكَ الشَّابّ الصَّالِح، فَلَم يجبهُ مِن البحارةِ أحدٌ، فأمَرَهُم أن يَتَفرَّقُوا للبحثِ عَنْهُ، فجاءَ صديقُهُ السَّيئ إلىٰ رُبَّان السفينةِ واعترفَ أنَّهُ ذَهَبَ بِهِ إلىٰ مكانٍ للزنىٰ والفُجور وإنَّهُ الآنَ هُناك..

فصرخَ الرُّبَّانُ في وجهِهِ قائلاً: اذهَب فَأحضِرهُ.. ألا تَتَّقِي اللهَ.. ألا تخشَىٰ عقابَهُ، عَجِّل اذهَب فأحضِرْهُ، فَذَهَبَ إليهِ صديقُهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّة لكِن دونَ جَدْوى فَلَم يستَطع إحضَارَهُ لأنهُ كانَ يَرْفُض ويأبىٰ الرُّجُوع مَعَهُم، فَلَم يكُن مِن قائِدِ السَّفينة إلاَّ أن يأمُر عِدَّةً مِنَ الرِّجالِ أن يحضِرُوهُ قَسْراً، فَسَحبُوهُ بالقوَّةِ وَحَمَلُوهُ إلىٰ السَّفينة.

قالَ الرَّاوي: وأبحرَت السَّفينةُ راجعةً إلىٰ البلادِ ومَضَىٰ البحارةُ إلىٰ أعمالِهِم وأخذَ ذلكَ الشَّابُّ في زاويةٍ مِن السفينةِ يبكِي ويئن حتَّىٰ لتكاد نياطُ قَلْبِهِ أن تَتَقَطَّع مِن شدَّةِ البكَاءِ، فقامَ أحدُهُم يُقَدِّم لَهُ الطَّعام ولكنَّهُ لم يَأكُل، وبَقِي علىٰ حالِهِ البائسةِ هذهِ بضعةَ أيَّام، وفي ليلةٍ مِنَ اللَّيالي ازدادَ بكاؤهُ ونحيبُهُ ولَم يَسْتَطع أحدٌ مِن أهلِ السَّفينة أن يَنامَ، فجاءه ربَّانُ السفينةِ وقَالَ لَهُ: يَا هَذا اتَّقِ اللهَ مَاذا

أصابَكَ لَقَد أقْلَقَنا أنينُكَ فمَا نستطيع أن نَنَام، ويحك مَا الَّذي بَدَّلَ حَالكَ؟ ويلَكَ مَا الذي دَهَاك؟

فَرَدَّ عليهِ الشَّابُّ وهو يَتَحَسَّر: دَعْنِي فإنَّك لا تدري مَا الَّذي أصابَنِي ؟

فَقَال الرُّبانُ: ومَا الَّذي أصابَكَ ؟ عندَ ذلكَ كَشَفَ الشابُّ عَن عَورتِهِ وإذا الدُّودُ يَتَسَاقَطُ مِن سوأتهِ، فَانزَعَجَ رُبَّان السَّفينةِ وارتَعَشَ لما رَأى وقالَ: أعوذُ باللهِ مِن هَذا، وقامَ عنهُ الرُّبَّانُ..

وقُبيل الفَجْر قَامَ أهلُ السَّفينة علىٰ صيحةٍ مُدَوِّيةٍ أيقَظتهُم فذَهَبُوا إلىٰ مَصْدَرِهَا فَوَجَدُوا ذلكَ الشَّابّ قَد ماتَ وهُو ممسكٌ خشبةَ السَّفينة بأسنانِه، استَرْجَعَ القومُ وسألوا اللهَ حُسنَ الخِتَام، وبقيت قِصَّةُ هذا الشَّابّ عِبْرَةً لمن يَعْتَبِر. ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ.

[ذكرها الشيخ أحمد القحطاني في محاضرة له]

❖ ❖ ❖

القصة العاشرة

المتبرِّجة تاركة الصَّلاة

تَروي إحدَى الأخوات اللاَّتي يَقُمنَ بِتَغْسيلِ الموتىٰ هَـٰذهِ القِصَّـة الحقيقيَّـة فتقول:

إنَّه في أحدِ الأيام اتَّصلَت بي عائلةٌ تطلـبُ مِنِّـي الحضـورَ لَدَيـهم لِغَسْـل امرأةٍ مَيِّتة عندَهُم، فَذَهبتُ إليهِم، وعندَمَا دَخَلْتُ الغرفةَ الَّتي فيهَا الميتةُ وكنتُ أوَّل مَن دَخَل..

فقامَ أهـلُ البيتِ بإغلاقِ بـابِ الغُرفـة بالمفتـاح، وبَقِيْـتُ وَحْـدِي في الغرفـةِ مَع الميتةِ فَشَككتُ في الأمرِ وظننتُ أنَّ هذهِ المرأة مَقْتُولَة، فَطَرَقْتُ بابَ الغرفةِ فَلَم يَفْتَح أحدٌ لي البـابَ، وانتَابَني خـوفٌ شـديدٌ فـأخذتُ أُعَـوِّذ نَفْسِـي وأقـرأ الآيـات والأدعية حتَّىٰ هدأت نَفْسِي، ثمَّ استعَنتُ باللهِ وَبَدأتُ بغسلِ الميتة، وكانَ كلُّ ما أحتاجهُ مُعَدّاً، ، فَلَمَّا كشفتُ عَن وجهِ المرأةِ فإذا هُو شَديدُ السَّواد كأنما هُـو قِطْعَة فَحْم، وشَعرتُ بـالخوفِ مرَّةً أُخرَى إلاَّ أنَّني تَشَجَّعتُ وَقَرَّرتُ غَسْلَهَا احتساباً للأجرِ، فَلَمَّا بـدأتُ بِغَسْلِ جِسْمِهَا فإذا لَحْمُهَا يَتَفَتَّت في يَـدِي كأنَّـهُ القُطـنُ، فأسـرَعْتُ في غَسْلِهَا وتجهيزهَا وانتهيتُ مِن ذلـكَ ولا أدري كيفَ انتَهيتُ، ثـمَّ طرقتُ البابَ علىٰ أهلِ البيتِ ليفتَحُوا لي، ولم يُصَدِّقُوا أنَّني غسَّلتها، فـأكَّدتُ لَهُم أنِّي قَد انتهيتُ من تغسيلِها، ولما فَتَحُوا البابَ خَرجتُ مسرعةً وعُـدت إلىٰ مَنْزِلي، وبقيتُ ثلاثةَ أيـام لا أهنأ بنوم ولا أكفّ عَن البكـاءِ، ثـمَّ اتَّصلـتُ بـأحدِ العُلَمـاءِ وذكـرتُ لـهُ مَا رأيت، فقـالَ لي: أمَّا السوادُ فيدلُّ علـىٰ أنَّـها لم تكُـن

تُصَلِّي ، وأما تَفَتُّت اللَّحم فيدلّ علىٰ أنَّها كانَت تَتبَرَّج ولا تَحْتَجِب ، وبعد انتهاءِ أيَّام العزاءِ ذَهَبْتُ لأهل المرأةِ حتَّىٰ أتأكد مِنَ الأمرِ ، وقلتُ لهم : أريدُ أنْ أفهَم لِمَ قَفَلْتُم عليَّ البابَ؟

فَقَالُوا : لَقَد جاءَ قَبْلَكِ ثلاثُ نِسوة كُلُهُنَّ رَفَضْنَ غَسْلَهَا بَعْدَما رأينَ وَجْهَهَا ، فَلَم يكُن حَلٌّ إلاَّ أن نَقْفِلَ عليكِ البابَ حَتَّىٰ تَقُومِي بغسلِهَا..

ثمَّ سَألتُهُم عَن حالِ المرأةِ ، فَقَالُوا : إنَّها لم تكُن تُصَلِّي ، كمَا أنَّها لا تَتَحَجَّب.

اللَّهم احفَظ بنات المسلمينَ ونساءهم ، اللَّهُمَّ أحسِن خَاتِمَتَنَا يا كَرِيم.

❖ ❖ ❖

القصة الحادية عشرة

موقع إباحي

يقولُ راوي القِصَّـة : لي صَديـقٌ حميـمٌ في مكانـةِ الأخ ، انتقَـل لرحمَـةِ اللهِ الأسبوعِ الماضِي في حادثِ سَير، تغَمَّدَهُ اللهُ برَحْمَتِهِ وألهَمَ أهلَهُ وذَويهِ الصَّبرَ والسَّلوانَ .. هذا الصَّديق لديهِ مجموعةٌ بريدية إباحِيَّة ، وصُور خليعية ، والعياذُ باللهِ.. ولَديه مَوقع إباحِي يحتَوي علىٰ صُور جِنْسِيَّة ..

المصيبة أنَّنا لا نَعْرف الرَّمْزَ السِّريّ لِتِلْكَ المواقع.. نُريد إتلافَهَا.. ولم نَسْتَطع.. يَا جَمَاعَة الخير كانَ هَـذا الرَّجُل محمولاً علىٰ النَّعش.. ومجموعَتُهُ تَسْتَقْبِل صوراً جِنْسِيَّة.. حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيل!!

أمَّا وَالدتُهُ فقد رَأت في المنام صِبْيَةً يمرُّونَ علىٰ قبرِهِ وَيَتَبَوَّلُونَ فَوْقَهُ.. المسكينةُ لا تَدرِي عَن خفايا الأمور !! واللهِ إن هَؤلاءِ الصِّبية الَّذين يبولونَ علىٰ قبرِهِ هُم الذين يُرسِلُونَ إلىٰ موقعِهِ علىٰ الأنترنت الآن تِلْكَ الصُّور !! خاطبنا الشَّركةَ المستضيفةَ للموقع وكانَ رَدُّهُم إنَّهم لا يَستطيعونَ عَمَل شيءٍ !!

يا جَمَاعَة الرَّجُل مات.. وأثارُهُ تُدمِي قُلُوبَنَا.. وإلىٰ مَتىٰ سَيَبْقَىٰ هذا الحالُ!!

تلكَ المجموعةُ الخبيثةُ والموقع القَذِر أساءت لَهُ ، وهـذا مِن زَيغ شَياطين الجِنِّ والإنس.. حَسبي اللهُ عَليهم .. حَسبيَ اللهُ عَلىٰ مَن أغواه في إنشاءِ تِلْكَ المواقع!!

أرجُو نَشْرَ هَذِهِ الرِّسالة ليتَدارك الأحياءُ وَضْعَهُم قبلَ فَواتِ الأوانِ ومَن عِنْدَهُ مَوقعٌ إباحِيّ أو مجموعةٌ بريدية إباحيَّة أو مُشترك مَعَهَا أقولُ لَهُ : أُقْسِمُ باللهِ العَلِيِّ العَظيم إنَّهُ لَن يَنْفَعَكَ هؤلاءِ الأشرار .. بَل سوفَ يَزيدُونَكَ حَسْرَةً وندامةً في يومٍ لا يَنْفَعُ فيه النَّدمُ !! وحَسبي اللهُ ونِعْمَ الوكيل ..

القصة الثانية عشرة

الموت على الفاحشة

ذكَرَ ابنُ كثير في كتابِهِ (البداية والنهاية) قصة الشَّاعر أحمد بن كليب، فقَالَ: هو أحدُ مَن هَلَكَ بالعِشْقِ، روى ذلكَ ابنُ الجوزي في «المنتظم» بسندهِ: أنَّ أحمدَ بنَ كليب هَذا المسكين المغترّ عَشِقَ غُلاماً يُقَالُ لَهُ: (أسلَم بن أبي الجعد) مِن بني خلد، وكانَ فيهم وزارةٌ، أي: كانُوا وزَرَاءَ للملوكِ وَحُجَّاباً، فأنشَدَ فيهِ أشعاراً تَحَدَّثَ النَّاسُ بهَا، وكانَ هَذا الشَّابُّ (أسلم) يَطْلُب العِلْمَ في مجالس المشايخ، فَلَمَّا بَلَغَهُ عَن ابنِ كُلَيب مَا قَالَ فيهِ استَحييٰ مِنَ النَّاسِ وانقَطَعَ في دَارِهِ، وكان لا يجتَمع بأحدٍ مِنَ النَّاس، فازدَادَ غَرَامُ ابنُ كُلَيب بهِ حَتَّىٰ مَرِضَ مِن ذَلِكَ مرضاً شَديداً بحيثُ عادَهُ منهُ النَّاسُ ولا يَدْرُونَ مَا بهِ، وكانَ في جملةِ مَن عادَهُ بعضُ المشايخ مِنَ العُلماءِ فَسَأَلهُ عَن مرضهِ؟ فَقَال: أنتُم تعلمونَ ذلكَ، ومِن أيِّ شيءٍ مَرَضِي، وفي أيِّ شيءٍ دَوَائِي، لَو زَارَني (أسلَم) وَنَظَرَ إليَّ نَظْرَةً وَنَظرتُهُ نظرَةً واحدةً لَبرأتُ.

فَرأى ذلكَ العالمُ مِنَ المصلحةِ أن لَو دَخَلَ علىٰ (أسلَم) وسألَهُ أن يَزُورَهُ وَلَو مرَّةً واحدةً مختَفياً، ولم يزل ذلكَ الرَّجُلُ العَالِمُ بأسلَم حتَّىٰ أجابَهُ إلىٰ زيارتهِ فانطلَقَا إليهِ، فَلَمَّا دَخَلا دَرْبَهُ ومحلّتهُ استحييٰ الغلامُ مِنَ الدُّخُول عليهِ وقَالَ للرَّجُل العَالم: لا أدخلُ عليه وقَد ذكرَني ونوَّه باسمِي، وهذا مكانُ ريبةٍ وتُهمةٍ وأنا لا أحبُّ أن أدخُلَ مَدَاخِلَ التُّهَم. فَحَرصَ العالمُ كلَّ الحِرْصِ ليدخلَ عليهِ فأبىٰ عليهِ، فَقال لَهُ العالم: إنَّهُ ميِّتٌ لا محالَةَ، فإذا دَخَلتَ عَلَيْهِ أحيَيْتَه.

فَقالَ (أسلم): فَلْيَمُت، فأنا لا أدخُلُ مدخلاً يُسخطُ اللهَ عَلَيَّ ويُغضِبُهُ، وأبىٰ أن يَدْخُلَ وانصرفَ رَاجعاً إلىٰ دارهِ.

فَدَخَلَ الرَّجُلُ العالِمُ عَلىٰ ابنِ كُليب فَذكَرَ لَهُ ما كانَ مِن أمرِ أسلَم مَعَهُ وقَد كانَ غُلامُ ابن كليب دخلَ عليهِ قَبْلَ ذلكَ وَبَشَّرَهُ بقُدُوم مَعشُوقِهِ عليهِ فَفَرِحَ بِذَلِكَ جِدّاً، فَلَمَّا تَحقَّق مِن رُجُوعِهِ عَنْهُ اختَلَطَ كلامُهُ واضطرَبَ في نفسِهِ وقالَ لِذَلِكَ الرَّجُل العالِم السَّاعي بينَهُما اسمَع يا أبا عَبْدِ اللهِ واحفَظ عَنِّي مَا أقولُ ثُمَّ أنشَدَهُ:

أسلَم يَا رَاحَةَ العَلِيْل ... رِفْقاً عَلىٰ الهائِم النَّحيل
وَصْلُكَ أشْهَىٰ إلىٰ فُؤَادِي ... مِن رَحْمَةِ الخَالِقِ الجلِيْل

فقالَ لَهُ الرَّجُل العالِمُ: ويحكَ اتَّقِ اللهَ تَعالىٰ، ما هَذِهِ العَظيمة؟

فقالَ: قَد كانَ مَا سَمِعْتَ - أو قَالَ: القولَ مَا سمعتَ -

قَالَ فَخَرَجَ الرَّجُلُ العالِمُ مِن عِنْدِهِ فَمَا تَوسَّطَ الدَّارَ حتَّىٰ سَمِعَ الصُّراخَ عليهِ وَسَمِعَ صيحةَ الموتِ، وقَد فَارَقَ الدُّنيا علىٰ ذلكَ، والعياذُ باللهِ.

قال الحافظ ابنُ كثير: وهذِهِ زَلَّةٌ شَنعَاء، وعظيمةٌ صَلعَاء، وداهيةٌ دهيَاء ولولا أنَّ هؤلاءِ الأئمة ذكَرُوهَا ما ذكرتُهَا، ولكن فيهَا عبرةٌ لأولي الألبابِ، وتنبيهٌ لِذَوي البصَائر والعُقُول أن يَسأَلُوا اللهَ رَحْمَتَهُ وعافيَتَهُ، وأن يَستَعيذُوا باللهِ مِن الفِتَن مَا ظهرَ منها وما بطنَ، وأن يرزقهم حُسنَ الخاتمة عندَ المماتِ إنَّهُ كريمٌ جوادٌ. قالَ الحميدي: وأنشدَني أبو علي بن أحمد قَالَ: أنشَدَني محمَّدُ بن عبد الرَّحمن لأحمد بن كليب وقَد أهدى إلىٰ أسلَم كتابَ الفَصيح لِثَعْلَب:

هَذا كتَابُ الفَصِيْح ... بكُلِّ لَفْظٍ مَلِيْح
وَهَبْتُهُ لَكَ طَوْعاً ... كَمَا وَهَبْتُكَ رُوحِي

القصة الثالثة عشرة

فتاةُ تُدفن وهي في وَضْعِية رَاقِصَة

الساعةُ الرابعةُ عصراً، الوقتُ يمضِي، والسائقُ في الخارج يَنْتَظِر..

ألقَت العباءةَ علىٰ كَتِفيهَا، وألقَت بالغطاءِ علىٰ رأسِهَا..

لا بأس سَوفَ أصلِحُهَا في السيارة..

رَكِبَت السَّيارةَ، كَشَفَت الغطاءَ عَن وجهِها، أصلَحَت مِن حالِ عباءتِهَا، تَأكَّدت مِن حَقيبتِهَا، الهاتِف النَّقال، المال، عطرهَا.. لَم تَنْسَ شيئاً..

انطَلَقَت السيارةُ بِهُدُوءٍ نحو صالون التَّجميل، وتجَوَّلت هِيَ بِنَظَرِهَا من النافذة.

وَقفَت السيارةُ، نزلت ثمَّ هَتَفَت بالسَّائق: ارجع إلينا السَّاعة الثانية عَشر..

النِّساءُ كثيراتٌ في الدَّاخل، لا بأس فأنا عَمِيْلَةٌ دائمةٌ ومميَّزة، لا بُدَّ أن تُراعِي صاحبةُ الصَّالون هَذا الأمرَ وإلاَّ..

وفعلاً دخلت إلىٰ الصالون وكانَ الاستقبالُ حافلاً، تبادلنَ الابتسامات، ذَهَبَ الخوفُ، لَن نَتأخَّر كثيراً..

هَذا حَمَّامٌ زيتيّ، انتَظِري ساعَةً سيِّدتي..

تناولت مَجلَّةَ أزياء، فيها عَرْضٌ لِبَعْض التَّسريحات، قَلَّبَت الصَّفحات تَنَقَّلَت بينَ المجلات المختَلِفَة..

مَضَت الساعةُ، ارتَفعَ أذانُ المغربِ، بعدَها أسْلَمَت نَفْسَهَا لمصفِّفَةِ الشَّعر، جَفَّفت شَعْرَهَا، غابَ الأذان، ومَضَت الصَّلاةُ.. ولم تقم لتُصلِّي..

والمُصفِّفَة تُزيلُ الشَّعرَ وتَنظِّف البَشَرَة، والفتاةُ تُنصِتُ للموسيقىٰ الهَادِئة،

تَحوَّلت لأخذِ حمَّام مَائي..

وارتَفعَ الأذان مـرَّةً أخـرى، إنَّـها صـلاةُ العِشَـاءُ، لم يَتبَـقَّ علىٰ الفَـرَح سِوى بضع ساعات..

وَضعَت رأسَهَا بين يديّ المصفِّفة، اختَارت التَّسريحة، تَنَاثَرَ الشَّعرُ بينَ يَديـهَا، يُودعها وداعاً حَزِيناً، ألقَت نظرةً إلىٰ المرآةِ لَـم تَعْـرف نَفْسَـهَا، ارتَسَمَت ابتسامةٌ علىٰ شَفَتيهَا، لَن يَسْبقني أحدٌ..

رَسَمَت وَجْهَـهَا.. لَطَّختُهُ بـالألوانِ، تَغيَّرت مَلامِحُـهَا، نَظَـرَت إلىٰ السَّـاعةِ، فألقَت العباءَةَ عَلىٰ كَتِفَيهَا، وبحذرٍ شديدٍ وَضَعَت الغطاءَ عَلىٰ رأسِهَا..

ركِبَت السَّيارةَ.. إلىٰ المنزلِ بِسُرعةٍ لَقَد تَأخَّرتُ..

لَبِسَت فُستَانَهَا، تَعـرَّت مِـن حيائِـهَا، فقـد أظـهرَ الفسـتانُ بَطْنَـهَا، وسَـائِرَ ظَهْرِهَا، وانكمَشَ الفُستانُ عَن ركبتَيْـهَا، دارَت حـولَ نَفْسِـهَا، لَـن يَغْلبني أحـدٌ.. فأنا ملكةُ جمالِ هذا الحفل!!

ودخلت إلىٰ الصَّالةِ، وبدأت العيونُ تَرقُبها، الكلُّ يَتأمّلها، نَظراتُ الإعجابِ تحيطُ بِها، تَقْتَرِبُ مِنْها..

أمَّا السَّفيهات يلاحقنَهَا بالتَّعليقات السَّاخرة..

قامت وبدأت بالرَّقص.. رَقَصَت عَلىٰ أنغَام الموسِيقَىٰ، اهتزَّ جَسَدُهَا..

تَنوَّعَت الأغَاني وتَنوَّع رَقصُهَا..

لَم يَسبقهَا أحدٌ، ولَم يَغْلِبْها أحدٌ..

الكلُّ يُتَابعُهَا، الكلُّ يَتحدَّثُ عَنْهَا..

مِن أينَ أتَت بِكُلِّ هَذا؟

كيفَ تَعلَّمت كلّ هَذا ؟ وكيفَ حَفِظَت كلّ هَذِهِ الأغاني ؟

الكلُّ يُريدُ أن يسألها ويعرف الإجابَةَ منها..

تَوَقَّفت عَن الرَّقصِ لحظـةً، لتسقُطَ بعدَهـا عَلىٰ الأرضِ، وارتَفَـعَ الصُّراخُ، تَدَافَعَ النِّساءُ إلىٰ المسرَح، نَادُوها فَلَم تُجِبْ، حَرَّكُوهَا فَلَم تَتَحرَّكْ..

ارتَفَعَ الصُّراخُ مرَّةً أُخرى، حَمَلُوهَا، أحضَرُوا المـاءَ، مَسَحُوا وَجْهَـهَا، لكـن دونَ جدوى..

بكَـتِ الأمُّ والأخـواتُ، وارتَفَـعَ العَويـل، وعَـلا النَّحيـبُ، تَدَخَّـلَ الأب والأخُ، واختَلَطَت الأمورُ تَحوَّلَ الفَرَحُ إلىٰ حُزْنٍ، والضَّحكات إلىٰ بكـاءٍ، تَوَقَّـفَ كلُّ شيءٍ..

وصـاح الأب: أَلبِسُوهَا.. غَطُّوا مَـا ظَهَرَ مِن جَسَدِهَا.. لقـد حَضَرَ الطبيبُ، أمسَكَ بِيَدِهَـا؛ وَضَـعَ سَـمَّاعتَهُ عَلـىٰ صَدْرِهَـا، أرخَـىٰ رَأسَـهُ قليـلاً، انطَلَقَـت الكلماتُ مِن شَفتيهِ: لَقَد مَاتَت.. لَقَد مَاتَت..

ارتَفَعَ النَّحيبُ، جَرَت الدُّمُوع..

أَلقَت الأمُّ بجسدِهَا علىٰ صَغيرَتِها الجميلـة، أخفَىٰ الأب وَجْهَـهُ بَينَ يَدَيـهِ، الأخُ يُدَافِعُ عَبراته، خَلاص يا أمِّي خَلاص..

قَامَت الأمُّ مَذْهُولَة، صَرَخَت قائلةً: لَقَد تحرَّكَت ابنـتي.. رأيتُـها تُحـرِّكُ يديـها وقدمها، تحوَّلت الأنظار نحوَهَا قَائلةً لها: لَقَد مَاتَت هكَذا قَالَ الطَّبيب..

أسرعَ الأب والأخُ والأخوات نحوَ الأمِّ لتهدئتِها.. المشـهدُ رهيـبٌ، والمنظَـرُ مؤلمٌ.. عندها سَقَطت الأمُّ علىٰ الأرضِ..

الأخواتُ فَقدنَ السَّيطرةَ علىٰ مشاعِرِهِنَّ..

والأخُ يَصرُخ.. لا.. لا.. مُستحيل..

تجَلَّد الأب، أمسَكَ بالأخ، وبِلَهْجَةٍ حازِمَةٍ قال له: أخْرِج الأخوات، وهنَّ يحملنّ أمهن..

حَضَرَ بَعْضُ النِّسوةِ مِن الأسرةِ..

نَظَرُوا إلىٰ الميتة، تَرَقْرَقَت الدُّمُوع، وَضَعَت الكبيرةُ منهنَّ يَدَهَا علىٰ رأسِهَا، انطَلَقَت منها كلمةٌ: فَضِيْحَة.. فَضِيْحَة..

أسرعَت نحوَ أبيها تقولُ له: أبي يجب أن تَسْتُر عَلَيْهَا، أحضروا المغسِّلَة هُنا، ادفِنُوها بينَ الصَّلواتِ، إنَّها فضيحة، مَاذا يقولُ الناسُ عَنَّا..

أرخَىٰ الأب رأسَهُ قائلاً: نَعَم، نَعَم ... إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ رَاجِعُونَ..

جاءت المغَسِّلَة، جَهَّزت سريرَ الغَسْل، وضَعَت الأكفانَ والطِّيب، جَهَّزَت الماءَ.. وقالت: أينَ جُثَّة المتوفَّاة ؟

سارَت العَمَّةُ أمامَهَا، فَتَحَت البابَ.. وقالت: هذهِ الفتاة هي أمامكِ عَلىٰ السَّرير مُغَطَّاة بغطاءٍ سميك..

وبجانبِ السَّرير وقفت الأمُّ تكفكِفُ دُمُوعَهَا..

أمسَكَت بورقةِ الوفاةِ، الاسم: (........).

العمر: ثمانية عَشرة عاماً.

سَبَبُ الوفاةِ: سَكتَةٌ قَلْبِيّة..

شَعرت بالحزنِ، نطَقَت بكلماتِ المواساةِ للجميع.. ثمَّ قامت بكشفِ الغِطَاء، تَحوَّل الحزنُ إلىٰ غضبٍ، قالت المغسِّلة: لماذا تركتُمُوهَا علىٰ هَذا الوَضع، لَقَد تَصلَّبت أعضاؤهَا، كيفَ نكَفِّنها؟ كيفَ ستضعونها في قبرِها؟..

الحاضرات لَم يستَطِعْنَ الإجابةَ، سكتنَ قليلاً..

زادَ حنقُ المغسِّلَةِ، وانبعَثَ صوتُ الأمِّ ممزوجاً بالبكاءِ قائلةً: لم تكُن هكَذا حينمَا مَاتَت، لَقَد اتَّخذَت هذا الوَضْع بَعْدَ لحظاتٍ مِن مَوتِها..

لَقَد سَقَطَت عَلىٰ المسرح وهِي تَرْقُص، حمَلْنَاها جُثَّةً هامدةً، حَضَرَ الطَّبيبُ، كتَبَ التَّقريرَ، أيقنَت حينَهَا بأنني قَد فارقتُ ابنَتِي، ألقيتُ بجسدِي عليها، رُحْتُ أقبِّلها، وأبكي، شعَرتُ بيدِهَا اليُمنىٰ تَرْتفع، وبيدِهَا اليُسْرَى تَعُودُ وَراءَ ظَهْرِهَا، أمَّا قَدَمُها اليُسرى فَقَد تَراجَعَت للوراءِ، أرعبَنِي الموقفُ، صَرَخْتُ حينَهَا ثمَّ سَقَطتُ علىٰ الأرضِ، لأجد نَفْسِي في غُرفتي ومِن حولي بنَاتِي يبكينَ أختَهُنَّ، ويبكين نهايتهَا المؤلمةَ..

وانتَحبَتْ الأمُّ بالبكاءِ وهي تقول: أنا السَّببُ أنا مَن فرَّط في تَربيتِها، أنا مَن غَشَّها، يَا وَيْلِي وَيَا ويلهَا مِن عذابِ اللهِ.. ياويل أباهَا ويا ويلنا جميعاً..

كانَت تحبُّ الرَّقصَ والغِنَاء، فَمَاتَت علىٰ ما كانت تُحبّ..

وستُدْفَن في قَبرِهَا.. يَا ربّ ارحَمْهَا يا ربّ ارحَمْنِي يا رب اغفِر لي ولَهَا..

وبدأت المحاولات لأعادةِ جَسَدِهَا إلىٰ وَضْعِه الطَّبيعي، لكن كلُّ المحاولات باءت بالفشلِ كانَت النَّتيجة: أن بَذلَت المغسِّلَةُ مجهوداً جبَّاراً في تكفِيْنِهَا.. وفي لحظةِ هُدُوء وبعيداً عَن العيون، نُقِلَت الجنَازةُ إلىٰ المقبرةِ..

وهناكَ صَلَّىٰ عليهَا الأبُ والأخُ وبَعْضُ المقرَّبين.. نَعَم لَقَد دُفِنَت وهي في وضْعِ رَاقِص.. والعياذُ باللهِ..

اللَّهمَّ أحسن خاتمتنا يا أرحمَ الرَّاحمين.. آمين.

❖ ❖ ❖

القصة الرابعة عشرة

فتاةٌ تتحدَّى اللهَ تعالى

◉ هذه القصةُ حقيقيةٌ وقعَت في مَدينةِ غزَّة الفِلسطينيةِ..

كانَت هناك فتاةٌ مُتبرجةٌ ومظهرة لمفاتِنهَا بصورةٍ لافتةٍ للنَّظر في مُنتصف شَهْرِ رمضانَ الفضيل من السَّنة الماضية.

وركبت هذهِ الفتاةُ في سيَّارةٍ للأجرةِ، وكانَ التبرُّجُ عليها ظاهراً ملفتاً للنَّظر، وفعلاً لَفتَ مَشهدُ تِلْكَ الفتاةِ سَائِقَ السَّيارة، فتكَلَّم مَعَهَا بصورةٍ مُهَذَّبةٍ بأن تَتَّقي اللهَ في لبسِهَا وأن تَستُر علىٰ نَفْسِهَا وخصوصاً في هذا الشَّهر الفَضيل الذي يُقبلُ فيه العصاةُ إلىٰ اللهِ تَعالىٰ.

فماذا تَعْتَقِدُونَ كانَ رَدُّها، لَقَد رَدَّت عليهِ بهذهِ العبارة: خُذ الجوَّال (الهاتف المحمول) وكَلِّم رَبَّكَ لِيَحجز لي مكاناً في جَهَنَّم ومكاناً لكَ في الجنَّة..

وكانَ الرَّدُّ مِنَ اللهِ سَريعاً واستَجَابَ دعوتَها، فَقَبَضَ رُوحَهَا، وتُوفِّيت من ساعتها وهي جالسة علىٰ مقعدِ السَّيارة، وأسرع السائقُ بها إلىٰ المشفىٰ وكانَ كما توقَّع، وأُدخلت هذهِ الفتاة إلىٰ ثلاجةِ المشفىٰ، ولمَّا تمَّ التَّعرُّف علىٰ أهلِها وجاؤوا لأخذِها، أُخْرِجَت مِن ثَلاَّجةِ مشفَىٰ الشِّفاء، وظَهَرَ جسدُها ووجهُهَا بلونٍ أسود قَاتم والعياذُ باللهِ.

حتَّىٰ أنَّ الجوَّال لَم يَسْتَطيعُوا إخراجَهُ مِن يَدِهَا لِيُدفَنَ مَعَهَا ليكونَ شَاهداً عليها يَومَ القِيَامَةِ. والعياذُ باللهِ.

اللَّهمَّ أحسن خاتمتنا وعاقبتنا يا أرحمَ الرَّاحمين.

القصة الخامسة عشرة

إنَّني أرى مقعدِي مِن النَّار

في إحدى كُلِّيات البنات في منطقةِ أبها.. كانَ أحَدُ الدَّكاترة مُسترسلاً في قصَّةِ ماشطةِ بنتِ فِرعَون.. وذلكَ حينَ دَعَاهَا (فرعون) فقالَ لَهَا: يا فُلانة، أو لكِ رَبٌّ غيري ؟ قَالَت: نَعَم. رَبِّي وَربُّكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذي في السَّماء، فَأمَرَ بِقِدْرٍ مِن نحاسٍ فيهِ زَيتٌ فَأحمِيَ حتَّىٰ غَلَىٰ الزَّيتُ فيه.. ثمَّ أمَرَ بِهَا لِتُلْقَىٰ هِي وأولادها فيها، فَقَالَت: إنَّ لي إليكَ حَاجَة، قَالَ: ومَا هِيَ؟ قَالت: أن تَجْمَع عِظَامِي وعظامَ وَلَدِي في ثوبٍ واحدٍ وتَدْفننَا. قالَ (فرعون): ذلكَ لَكِ عَلَيْنا لما لَكِ علينا مِن حقٍّ. فأمرَ بأولادِها فألقوا في القِدْرِ.. بينَ يَدَيْهَا واحداً واحداً، وهِي تَرَى عِظَامَ أولادِها طافية فوقَ الزَّيت.. وتَنْظُرُ وهي مؤمنة صابرة. إلىٰ أن انتَهىٰ ذلكَ إلىٰ صَبِيٍّ لها مُرضع وكأنَّها تَقَاعَسَت من أجلهِ، فَقَالَ (الصبيُّ): يا أمَّه، ألقي بنفسِكِ واصبِري فإنَّكِ عَلىٰ الحقِّ، وإنَّ عذابَ الدُّنيا أهون مِن عذابِ الآخرة، ثمَّ أُلْقِيَت مَع وَلَدِهَا..

وما إن فرغَ الدكتور من حديثِهِ فَإذا بِالصُّراخ يهزّ أركانِ القاعة.. والبكَاءُ يعلو ويعلو.. فَالتَفَتُوا فإذا هِي إحدى الطالبات.. وعَليهَا لباسٌ مُشين.. قد بكَت حتَّىٰ سَقَطَت علىٰ الأرضَ.. فاجتَمعَت عليهَا الطَّالبات فَأخرجُوهَا.. خَارجَ القَاعَةِ حتَّىٰ هَدأت وَسكَنَت ثمَّ أعادُوها.. والشَّيخُ ما زالَ مُسترسلاً يَذكُرُ ما لِهَذهِ المرأة المؤمنةِ مِن نَعيم.. إنَّها احتَسَبَت أولادَهَا الخمسة لكِي لا تَرْجع عَن دِيْنِ اللهِ..

وإذا بالصُّراخ يَتعَالىٰ مرَّةً أخرى.. وإذا هي الطالبةُ نَفْسُها تبكي بشدَّة حتَّىٰ

سَقَطَت مرَّةً أخرى عَلىٰ الأرض.. فَاجتَمَعَت عليها الطالباتُ فأخرَجُوهَا.. خَارج القَاعَةِ حتَّىٰ هَدأت وسكَنَت ثـمَّ أعادُوها.. والشَّيخُ ما زالَ مُسترسلاً يَذكُرُ نعيم الجنةِ وما يقابِلُهُ مِن عذابِ النَّار.. فَصَرَخَت هذهِ الفتاةُ مَرَّةً أُخرَى ثـمَّ سَقَطَت صامِتَةً لا تُحَرِّك شَفَةً.. واجتَمَعَت عليها زَميلاتُها مِنَ الطالبات وهُم يَنادُونَها : فُلانة.. فُلانة.. لكنَّها لَم تُجِب بِكَلِمَةٍ واحدةٍ.. وكأَنَّها في ساعةِ احتِضَار..

وعادت الطالبات يَنَادُونَها : فُلانة.. فُلانة..

فإذا بِبَصَرِهَا يشخصُ إلىٰ السَّماء.. أيقَنُوا أنَّـها ساعةُ الاحتِضَـار.. فَأخَذُوا يُلَقِّنُوهَا الشَّهادةَ..

قُولي : لا إلهَ إلاَّ الله..

اشهَدِي أن لا إله إلاَّ الله..

اشهَدِي أن لا إله إلاَّ الله..

ولكن لا مُجيب..

وزادَ شُخوص بَصرهَا.. وبدأ صدرُها بالحشرجةِ..

والطالبات يُلَقِّنُوهَا :

قُولي : لا إلهَ إلاَّ الله..

اشهَدِي أن لا إله إلاَّ الله..

فَنظَرَت إليهِم الفتاةُ وقَالَت :

أشهَد.. أشهد.. أشهدُ أنَّني أرَى مَقْعَدِي مِنَ النَّار..

أُشهِدُكُم أنَّني أرى مقعَدِي مِنَ النَّار..

وكانت هذهِ آخر ما تكلَّمت به هذهِ الفتاة.. نسألُ اللهِ تعالىٰ حُسنَ الختام.

القصة السادسة عشرة

أعطوني مصحفاً

وهذا شابٌّ آخر كانَ صادّاً ونادّاً عَن اللهِ سُبحانه وتَعَالىٰ وحَلَّت بهِ سَكَرات الموت الَّتي لا بدَّ أن تَحلَّ بِي وبِكَ.

وجاءَ جُلاسُّهُ وأصدقاؤهُ إليهِ فقَالُوا لَهُ: قُل: لا إلهَ إلاَّ الله.

فيتكَلَّم بكلِّ كَلِمَةٍ ولا يَقُولها. ثمَّ استطاع أن يقولَ في النَّفَس الأخير: أعطُوني مصحفاً..

فَفَرحُوا واستَبْشَرُوا وقَالُوا: لَعَلَّه يقرأ آيةً مِن كتابِ اللهِ فَيُخْتَم لَهُ بِهَا..

فأخذَ هذا الشَّابُ المصحفَ ورَفَعَهُ بِيَدِهِ وقَالَ: أُشْهِدُكُم إنِّي قَد كَفَرْتُ بِرَبِّ هَذا المصحَف.

[مِن شَريط الشيخ علي القرني، الإيمان والحياة].

❖ ❖ ❖

القصة السابعة عشرة

شاه رخ

◉ قيلَ لرجلٍ كان مدمناً علىٰ لعبِ الشطرنج، وكانَ في النَّزعِ: قُل: لا إلهَ إلاَّ الله. فقَالَ: (شَاه رخ).. غَلَبْتُكَ..

و (شاه رخ) اسمان لِحَجَرين مِن أحجارِ الشَّطرنج لأنَّه في حياتِـهِ كـانَ مَفْتُونـاً بهِ. ثمَّ مَاتَ علىٰ ذكرِهِ والعياذُ باللهِ.

[من كتاب: الجزاء من جنس العمل د/ سيد حسين العفاني].

القصة الثامنة عشرة

هيهات .. هيهات

ذكر هشام عَن أبي حَفْص قالَ: دَخَلْتُ علىٰ رجلٍ بالمصيصة، وهي مَدينة علىٰ شاطئ جيحان، وهو في الموتِ. فَقُلتَ لهُ: قُل: لا إلهَ إلاَّ الله.

فقَالَ: هيهـاتَ حِيْلَ بيني وبَيْنها.

❖ ❖ ❖

القصة التاسعة عشرة

في رمضان

شابٌّ في العَشْرِ الأواخِرِ مِن رَمَضَان والنَّاسُ في صِيَام وَقِيَام وتَحَرٍّ لليلةِ القَدْر وقِراءةِ القرآن، وهُم يَتمَنُّونَ صَلاحَ القُلوبِ وغُفران ما تَقَدَّم مِنَ الذُّنوبِ ورِضَا علاَّم الغيوب.

أمَّا هذا الشَّابّ فَقَد كانَ يَعيشُ في عَالَمٍ آخَر.. كانَ يُخَطِّط وَيَرْسُم للقَاءِ عشيقَةِ الهَاتِف.. وكانَ يَتمَنَّىٰ وَيحلُم أن يَعيشَ تِلْكَ اللَّيلةَ في أحضانِ الشَّهوات..

وكانَ الموعدُ.. وحَدَّدَ مكانَ اللِّقاء، أتدرُونَ أينَ؟ كانَ الموعد بَينَ العاشقين في أحدِ المساجِدِ المكتظَّةِ بالمصَلِّين القَائمينَ، فَتَجمَّل ذلكَ الشَّابُّ وَتَعطَّر ومضىٰ إلىٰ موعِدِهِ.. ومضىٰ معهُ الشَّيطانُ يُغريهِ وَيُمَنِّيه..

وبَيْنَمَا هُو يَقُودُ سَيَّارتهُ مُتَّجِهاً إلىٰ ذلكَ المسجِدِ لا لِيَعْبُدَ اللهَ تعالىٰ! بَل لِيَعْبُدَ شَهوتَهُ.. فإذا بسيارتِهِ تصطدِمِ بِسَيَّارة أُخرى في أحدِ التَّقاطعاتِ، وفي لحظاتٍ يسيرةٍ فَارَقَ الحياةَ. وكانت النِّهاية الغير متوقَّعة بالنسبةِ له..

نسأل اللهَ أن يَتجَاوزَ عَنْهُ وعن المذنبينَ من الموحدِين من أمَّةِ محمَّدٍ ﷺ.

❖ ❖ ❖

خوفُ السَّلفِ مِن سُوءِ الخاتِمَةِ

روى البخاريُّ في صحيحه: عَن إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ قَالَ: مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَىٰ عَمَلِي إلاَّ خَشِيتُ أن أكُونَ مُكَذِّباً.

وروى البخاريُّ أيضاً في صَحيحِهِ: عن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي اللهُ عنهُ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ، يَخَافُ أن يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ، كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَىٰ أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا..» قَالَ أَبُو شِهَابٍ بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: أَدْرَكْتُ ثَلاثِينَ مِن أصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ كُلُّهُم يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَىٰ نَفْسِهِ. مَا مِنْهُم أحَدٌ يَقُولُ إِنَّهُ عَلَىٰ إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ.

وَيُذْكَرُ عَنِ الحَسَنِ: مَا خَافَهُ إلا مُؤْمِنٌ، وَلا أمِنَهُ إلا مُنَافِقٌ. وَمَا يُحْذَرُ مِنَ الإِصْرَارِ عَلَىٰ النِّفَاق وَالعِصْيَانِ مِن غَيْرِ تَوْبَةٍ، لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَم يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُم يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

أَجَل لَقَد كَانَ خَوفُ السَّلفِ مِن سُوء الخَاتِمَةِ عَظيماً.

◉ فهذا عمرُ فيما يَرْويهِ ابنُ سَعْد، عَن عَامر بن رَبيعَةَ قَالَ: رأيتُ عُمَرَ بنَ الخَطَّاب أخَذَ تِبْنَةً مِنَ الأرضِ فَقَالَ: يَا لَيْتَني كُنْتُ هَذِهِ التِّبنةِ! لَيْتَني لَم أُخْلَق! لَيْتَني لَم أكُ شيئاً! لَيتَ أُمِّي لَم تَلِدْنِي! لَيْتَنِي كُنْتُ نَسياً مَنْسياً.

◉ فهذا سُفيانُ الثَّوري يبكي لَيْلَةً إلىٰ الصَّباح، فَقِيْلَ لَهُ: أبكاؤكَ هَذا عَلىٰ الذُّنوب؟ فَأَخَذ تِبْنَةً مِنَ الأرضِ وَقَالَ: الذُّنوبُ أهونُ مِن هَذِهِ.. إنَّما أبكِي خَوفَ

الخَاتِمَة.[العاقبة في ذكر الموت والآخرة للإشبيلي ١٧٥].

◉ وقَالَ عَطَاء الخفاف: مَا لقيت سُفيانَ إلاَّ باكياً. فَقُلْتُ: مَا شَأنكَ؟ فقَالَ: أتخَوَّفُ أن أكونَ في أمِّ الكتابِ شقِيَّاً [السير٧/٢٦٦].

◉ وقال سهلُ التَّسترِيّ: خَوفُ الصِّديقينَ مِن سُوءِ الخَاتِمَةِ عِنْدَ كُلِّ خطرةٍ وعندَ كُلِّ حَركَةٍ وَهُمُ الَّذين وَصَفَهُمُ اللهُ إذ قَالَ: ﴿وَقُلُوبُهُم وَجِلَةٌ﴾.

❖ ❖ ❖

الفصل التاسع

فتنةُ القبرِ، نعيمهُ وعذابهُ

روى أحمد وأبو داود عن النَّبيِّ ﷺ بإسنادٍ صحيح أنَّهُ قال: «إنَّ العَبْدَ المُؤمِن إذَا كَانَ فِي انقطاعٍ منَ الدُّنْيَا وإقبالٍ منَ الآخِرَة، نَزَلَ إليه منَ السَّماءِ ملائكةٌ بيضُ الوُجوهِ، كَأنَّ وجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، معهُم كَفَنٌ من أكْفَانِ الجَنَّةِ، وحَنُوطٌ مِن حَنُوطِ الجَنَّةِ، حَتَّىٰ يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْت حَتَّىٰ يَجلِسَ عِنْدَ رأسهِ فيَقُولُ: أيَّتها النفسُ الطيبةُ، اخْرُجِي إلىٰ مَغْفِرةٍ مِنَ اللهِ ورضْوانٍ، فَتخْرُجُ فتَسِيْلُ كَمَا تَسِيْلُ القَطرةُ من فِيِّ السِّقَاءِ، فيأخُذُها، فإذَا أخَذَهَا، لم يدعُوها فِي يدهِ طَرفةَ عينٍ حَتَّىٰ يأخذُوها، فَيَجْعَلُوها فِي ذَلِكَ الكفنِ وفِي ذَلِكَ الحَنُوطِ، ويَخْرُجُ مِنْهَا كأطيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدت علَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلا يمُرُّونَ عَلَىٰ ملأٍ مِنَ المَلائِكَةِ إلاَّ قَالُوا مَا هَذَا الرُّوْحُ الطيِّبُ؟ فيقُولُونَ: فُلانُ ابنُ فلانٍ - بأحسنِ أسمائهِ التي كانُوا يسمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا- حَتَّىٰ يَنْتَهُوا بِهِ إلىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا، فيَستَفْتِحُونَ لَهُ، فيُفتَحُ لَهُ، فيُشَيِّعُهُ مِن كُلِّ سمَاءٍ مُقرَّبُوهَا إلىٰ السَّمَاءِ التي تَلِيهَا، حَتَّىٰ يَنْتَهي إلىٰ السَّمَاءِ السَّابعةِ، فَيَقُوْلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكتبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي علِّيينَ، وأعِيدُوا عَبْدِي إلىٰ الأرْضِ، فإنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُم، وفيْهَا أُعيدُهُم، ومنْهَا أخرجُهُم تَارةً أُخْرَى، فَتُعَادُ روحُهُ، فَيأتيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُوْلانِ لَهُ: مَن ربُّكَ؟ فيَقُولُ: رَبِّي اللهُ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا دِيْنُكَ؟ فيَقُولُ: دِيْنِي الإسلامُ، فيَقُولان لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الذي بُعِثَ فِيْكُم؟ فَيَقُوْلُ: هوَ رَسُوْلُ اللهِ، فيَقُولانِ لَهُ وما عِلْمُكَ؟ فيَقُولُ: قَرأْتُ كتابَ اللهِ فَآمَنْتُ بِهِ

وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنادٍ منَ السَّمَاءِ أن صَدَقَ عَبْدِي، فَأفْرِشوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وألْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وافْتَحُوا لَهُ بَاباً إلىٰ الجَنَّةِ، فَيأتِيهِ مِن رَوْحِها وطِيْبِهَا، ويُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصرِهِ، ويَأتِيْه رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ فَيَقُوْلُ: أبْشِر بالذي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الذي كنتَ تُوعَدُ، فَيَقُوْلُ لَهُ: من أنتَ؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بِالخيرِ، فَيَقُوْلُ: أنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُوْلُ: رَبِّ أقِمِ السَّاعَةَ، ربِّ أقِمِ السَّاعَةَ، حَتَّىٰ أرجعَ إلىٰ أهْلِي ومَالِي.

وإنَّ العَبْدَ الكافِرَ إذَا كَانَ فِي انْقِطاعٍ منَ الدُّنْيَا، وإقْبَالٍ منَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إليهِ منَ السَّمَاءِ ملائكَةٌ سُودُ الوُجُوهِ، مَعَهُمُ المُسوحُ، فَيجلِسونَ مِنْهُ مدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأسِهِ، فَيَقُوْلُ: أيَّتُها النَّفْسُ الخَبِيْثَةُ، اخْرُجِي إلىٰ سَخَطٍ منَ اللهِ وغَضَبٍ، فَتفرَّقُ فِي جسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ منَ الصُّوفِ المَبْلُولِ فَيأخُذُها، فَإذَا أخَذَهَا لم يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عينٍ حَتَّىٰ يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ المُسُوحِ ويَخْرُجُ مِنْهَا كَأنتَنِ رِيْحِ جِيْفَةٍ وُجِدَت عَلَىٰ وجْهِ الأرْضِ فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَىٰ ملأٍ مِنَ المَلائِكَةِ إلاَّ قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الخَبِيْثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلانُ ابنُ فلانٍ بِأقْبَحِ أسمَائِهِ التي كَانَ يُسمَّىٰ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ يُنْتَهَىٰ بِهِ إلىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرأ: ﴿لا تُفتَّحُ لَهُم أبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ فَيَقُوْلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّين فِي الأرْضِ السُّفلىٰ، فَتُطرحُ رُوحُهُ طَرْحاً فَتُعَادُ رُوحُه فِي جَسَدِهِ، ويَأتيهِ مَلَكَانِ فَيُجلِسَانِه فَيَقُوْلانِ لَهُ: من رَبُّكَ؟ فَيَقُوْلُ: هَاه هَاه لا أدْري، فَيَقُوْلانَ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُوْلُ: هَاه هَاه لا أدري فيَقُوْلان لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُل الذي بُعِثَ فِيْكُم؟ فَيَقُوْلُ: هَاه هَاه لا أدْري، فَيُنَادِي منادٍ منَ السَّمَاء: أن كَذَبَ عَبْدِي فَأفْرِشُوهُ مِن

النَّارِ، وافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلىٰ النَّارِ فَيَأتِيْـهِ مِن حَرِّهَا وسَمُومِها، ويَضِيـقُ عَلَيْـهِ قَبْرُهُ، حَتَّىٰ تَخْتَلِفَ أضلاعُهُ، ويَأتِيهِ رَجُلٌ قَبِيْحُ الوجهِ، قَبِيْحُ الثِّيابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُوْلُ: أبشِر بِالذِي يَسُوؤكَ، هَذَا يَوْمُكَ الذي كنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُوْلُ: من أنتَ؟ فوجهُكَ الوجْهُ يجيءُ بالشرِّ، فَيَقُوْلُ: أنَا عَمَلُكَ الخَبِيْثُ، فَيَقُوْلُ: رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعَةَ».

(العذابُ في البَرْزَخ)

◉ هل العذاب في البرزخ علىٰ الرُّوح أم علىٰ البدنِ أم علىٰ كليهما؟

اعلم أنَّ أهل السُّنَّةِ والجمَاعَةِ يرونَ أنَّ الرُّوحَ منفصلة عن الجسدِ ومُتَّصلة به، يقول شيخ الإسلام ابنُ تيمية: «العذابُ والنَّعيمُ علىٰ النَّفْسِ وَالبَدَنِ جميعاً باتِّفَاقِ أهل السُّنَّةِ والجماعة، تَنْعَمُ النَّفسُ وتُعَذَّب منفردة عَنِ البدَن، وتعذب متَّصلة بِالبَدَنِ، والبدنُ مُتَّصِلٌ بها، فيكونُ النَّعيم والعذاب عليهما في هذه الحالِ مجتمعين، كما يكون للرُّوح منفردة عن البدَنِ».

وقالت طائفة: هو علىٰ الرُّوح فقط. والله تعالىٰ أعلم وأحكم.

❖ ❖ ❖

خاتمة

تمَّ الكتابُ بفضلِ اللهِ تعالىٰ وحُسنِ توفيقه، ويَعْلَـمُ اللهُ تعالىٰ أنَّـهُ لا حـولَ لنا ولا قوّةَ في شيءٍ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيم، ولـولاهُ تباركَ وتعالىٰ ما كانَ شيءٌ ولا يكونُ، ومَا علىٰ الإنسانِ إلاَّ السّعي والاجتهاد، واللهُ هـو الموفّق والهـادِي إلىٰ سواءِ السبَّيل.

ثـمَّ إنَّ هـذا الكتاب جـهدتُ في جَمْـع مـوادِّهِ مِـن أصـحِّ المراجـع والكتـبِ والمصنفاتِ، لأمرين اثنين، (الأوّل): ليكونَ كتاباً صحيحاً ذو قيمةٍ علميَّـةٍ يُبيِّـنُ ويوضِّحُ مَا وردَ في كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ من غير كذبٍ ولا شططٍ، فهناكَ من اعتمدَ علىٰ أحاديث موضوعة وواهيـة جـداً ليخـوّف النَّـاس - علـىٰ حـدِّ زعمـهِ - ليرجعوا إلىٰ اللهِ تعالىٰ، وهذا لا يجوز، فالإخبارُ عن اللهِ ورسولِهِ ينبغي أن يكونَ بما صحَّ وثبتَ لا بما ضعفَ واشتدَّ ضعفُه إلاَّ إذا ذُكِرَ الحديثُ الواهي لنحذِّرَ النَّاس منهُ أو لِنُبَيِّنَهُ لَهُم لِيَحذَرُوا منهُ.

و(ثانياً): لعـلَّ ما في هـذا الكتابِ من تخويفٍ ووعظٍ يكون سبباً لأن يتداركَ أحدُنا نفسَهُ قبلَ فواتِ الأوان، فيفرّ من النارِ إلىٰ رحمةِ اللهِ وجنَّتِهِ ورضوانِهِ. وصدقَ من قالَ محذِّراً من التَّمادي في المعاصِي وغَضَبِ اللهِ تَعَالىٰ:

تَفنَىٰ اللَّـذاذةُ ممَّن نـالَ صَبوتـهَا ... مِنَ الحرام ويَبْقَىٰ الإثـمُ والعَارُ
تَبْقَىٰ عَواقِبُ سُـوءٍ في مَغبَّتـهَا ... لا خَيرَ في لـذَّةٍ مِن بَعْدِهَا النَّارُ

فَاتَّق اللهَ أخي المسلم في نَفْسِك وتَـدَارَك مَـابقي مِـن عُمُـرك وَاسـعَ جـهدَكَ في مرضاتِهِ تَعالىٰ وطاعتِهِ. وتذكّر دائماً قولَهُ تعالىٰ: ﴿قُل يَـا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِم لا تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

فهرس الموضوعات

الفَهرس

الفصل الرابع

الفَصْلُ التَّاسِعُ